92 سلسلة روايات عالمية

بروسبير ميريميه

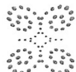
كارمن

و١٣ قصة أخرى

(القصص الكاملة: الجزء الثاني)

طبعة قدمها وعلق عليها: بيير جوسران

ترجمة:
زياد العوده



منشورات
وزارة الثقافة
ج.ع.س
دمشق
2002

إهـــــــداء ٢٠٠٧
مديرية المطبوعات والنشر – وزارة الثقافة
الجمهورية العربية السورية

بروسبير ميريميه

كارمن

و ١٣ قصّة أخرى

(القصص الكاملة)

الجزء الثاني

طبعةٌ قدّمها وعلّق عليها : بيير جوسّران

ترجمة

زياد العوده



العنوان الأصلي للكتاب :

P. Mérimée

CARMEN

Et Autres Nouvelles
(Oeuvres Complètes)
Tome : 2
Edition Présentée et annotée
Par :
Pierre Josserand

كـــارمن و١٣ قصـــة أخـــرى : القصص الكاملة = Carmen Et Autres Nouvelles/ بروســـبير ميريمية؛ ترجمة زياد العوده ٠- دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٢ ٠- ج٢؛ ٢٤ سم ٠- (روايات عالمية؛ ٩٢).

١- ٨٤٣ ف م ي ر ك ٢- العـــنوان ٣- العنوان الموازي
٤- ميريميه ٥- العوده ٦- السلسلة مكتبة الأسد

الإيداع القانوني : ع – ٢٠٠٢/١/٨٢

روايــات عــالميــة
«٩٢»

مدخل

مضى ما يقرب من ثلاثة أعوام بين نشر «أرواح المطهر» ونشر «ڤينوس ديل»، وثلاثة أعوام تفصل بين «ڤينوس ديل» و «كولومبا»، وحوالي أربعة أعوام بين «كولومبا» و «أرسين غيّو». إن ميريميه لايكتبُ القصص إلاّ للتسلية، أو «ليروق لأحدهم». وهكذا نراه يهجر الكتابةَ بعد قطيعته مع السيّدة ديلسيّر، والتي ستشجّعهُ مودتُّها العائدةُ أخيراً على تأليف «الغرفة الزّرقاء»، و «دجومانا»، و«لوكيس»، في أواخر حياته. غير أن هذا الهاوي قد استعبدَ نفسه ـ وهو فرحٌ بذلك، برغم التذمُّرات المألوفة ـ لمهنة هي التفتيشُ عن الأوابد التّاريخية، وحضور جلسات تسع لجان، وكتابة تقارير في الآثار، وتقارير إداريّة. فهذا الهاوي للفنون يحبُّ الأسفار دائماً. ولئن تعيَّن عليه بعد ذلك ألا يتذوّق في أسفاره ملذات المغامرة في بعثته إلى المشرق، فهو سيستمتعُ على الأقل بالضيّافة الباذخة في سعتها، ضيافة الدّوق هاملتون، والذي سيصطادُ عنده ديك الخلنج، في ليهايلاندز، وضيافة المركيز دوبرودالبان، في قصره، في تيموث، وضيافة اللّورد اشبيرتون في كنلوك ـ لينشار، وضيافة إدوار إليس في باس دو غلينكويش. ولسوف يرى مجدداً، في الأعوام ١٨٤٥ و ١٨٤٦ و ١٨٥٣، و ١٨٥٩ «إسبانيا العزيزة عليه»، وطنه المفضّل (وليس انكلترا التي كان فيها النّفاق[1] قليلاً جداً ما ينسجمُ مع طبيعته الحقيقية)، وسيذهبُ إلى ألمانيا، وإلى النمّسا، وإلى إيطاليا. . . لقد انتهى حقّاً أمرُ العربات البطيئة غير المرتجَّة؛ فالمرءُ يسافرُ، في ذلك الحين، وعلى حديد الطّرق الذّي يجتازُ المرتفعات». كما أمكن لدوليل أن يقول، وكما قال ڤيني.

ولكن هذا المسافرَ العالميّ لا يجدُ نفسه مرتاحاً في أيّ مكان بقدر ما يكون في منزله الموجود في رقم ١٨، شارع جاكوب، والذي يستقرُّ فيه، بعد أن يترك

(١) ترجمة لكلمة Cant الإنكليزية: النفاق. (م: ز.ع).

شارع البوزار[1]، وذلك بتاريخ ٣٠ نيسان ١٨٤٧، وتموتُ فيه والدتُه في ٣٠ نيسان ١٨٥٢، ثم يسكنُ في رقم ٥٢، شارع ليل، بدءاً من ٢٤ آب ١٨٥٢. وهناك كان يزوره الشاعر إدوار غرونييه الذي وصفَ داخل المنزل بأنّه مريحٌ جداً، ومن غير أبّهة، ووصف غرفة ميريميه الذي كان يسهر إلى ساعة متأخرة في الليل، وهو ينتعلُ بابوجاً تركياً، ويتلفّعُ بمبذلٍ يابانيّ رائع عليه تشجيراتٌ طويلةٌ، كما وصف المنضدة الواسعة التي هي من طرازِ لويس الخامس عشر، والمصنوعة من خشب الورد، والمقاعدَ المنجّدة، والوسائد المطرّزة المبعثرة، وكان يرعى رجلَ الآداب المترف هذا بكلّ تواضعٍ واهتمام السيّدة إيويرز، والآنسة ڤاني لاغدن. وهما شقيقتان كانتا صديقتي والدته. وقد يظنّ المرءُ أنهما كانتا غائبتين في ذلك اليوم الذي حدَث فيه الحوارُ الذي لايخلو من الإثارة، والذي يرويه للسيدة مونتيجو: «ثلاثُ نساء شابّات (ويحدّد قائلاً: «من المجتمع الراقي»). قد ذهبن إلى منزلِ أحد أصدقائي [وهذا الصّديقُ هو الراوي نفسه بالطّبع] وهو مالكُ مجموعةٍ جميلة من التُّحف النّادرة التي أراهنّ إيّاها بكثيرٍ من الكياسة. قلن له: «نحن نعلمُ أن عندك جواريرَ سريّة تَضعُ فيها أشياء طريفة، فأرنا إياها». واعترض بأن هناك أشياء غريبة قليلاً، وفاحشةً بعض الشيء - وبأنه لايستطيعُ أن يريها كثيراً من الناس. وكنّ يُجبن على هذه الاعتراضات بقولهن: «نريدُ أن نرى كلّ شيء»، وقد رأين كلّ شيء، ولم يبد أنهن قد تفاجأن بشيء. تلك هي حالُ الطبّاع في ربيع عام ١٨٦٨، ويبدو لي أن هناك تقدُّماً، وهذا شيء واعدٌ للمستقبل، ويؤسِفُني حقّاً ألاّ أتمكّن من بدء حياتي من جديد...».

إننا نتخيّله أبيقوريَّ النزعة ورُواقياً، ومن سلالة سان - إيڤرمون، وهو يشيخُ رويداً في ذلك المسكنِ الذي زيّنَه بأشياء منتقاة، وبتذكاراتٍ، ويقرأ مجدّداً «المؤلّفات القديمة الأثيرة لديه لشكسبير، ورسائل شيشرون، ورسائل مدام دو سيڤينييه، رسائل مدام دو ديفان (إن لهذا الميل إلى المراسلات دلالةً خاصّة)، وهو

---

(١) البوزار: الفنون الجميلة (م: ز. ع).

لم يحاولْ قطّ أن يجرِّد من كلّ شيء الرّجلَ العجوزَ الذي يستمتعُ بأسرار هوايةِ الكتب، وطرائفها المثيرة للفضول، وقد لايكون قادراً على ذلك. أمّا عن المقابلات التي يمنحها أعظمَ معاصريه، فهي متحفّظةٌ، وشرسةٌ، وقصيرةُ النّظر أحيانًا إلى درجةٍ تربك أولئك الذين لايجهلون أن ميريميه نقيضٌ للأحمق.

لقد قال ذات يوم (١٨٥٧): «إن حُسنَ اختيار ما ينبغي محاكاته في الطبيعة هو بالتأكيد مشكلةُ الفنّ الكبرى». ويبدو أنه قد حلّ هذه المشكلة حلاً لا بأس به، فيما يخصُّه. ولكن بما أن معرفته المكينة بالحضارتين القديمتين[1]»، وبالماضي الأدبي لفرنسا، (فهو مشبعٌ خاصةً بموليير) كانت تشلُّ لديه فهمَ المواهب والعبقريات الجديدة، فلم يكن يحملُ إلا الاحتقار وضروب الهجاء لأولئك الذين، من بينَ زملائه، قد وضعتهم الأجيالُ اللاحقةُ في أعلى المراتب، وذلك من غير أيّة فكرة حسد مسبقة. إن قسوةَ اللّوحات المائيّة التي صورّ فيها شاتوبريان بصورةٍ هازئةٍ تثبتُ وجود نُفور قلبي صادق نحو مجلس قبيلة[2] الرّومانسية. يتعدّى عدمَ الاحترام الطّقسيّ، وغير الخبيث الذي يُبديه أبناءُ الجيل الأصغر، تجاه من هم أكبر سنًّا.

إنه يطلقُ أحكامًا، ويَقذفُ مُزاحات تثيرُ الدهشة أو تجلبُ الكدَرَ: حول بودلير الذي هرُع لمعونته، من نَاحيةٍ أخرى، أثناء قضية ديوانه «زهور الشرّ» والذي كان يجاهرُ بإعجاب مثيرٍ نحوه، وحول هيغو الذي كانت علاقتُه الحميمة معه قصيرةً، مع أنّه كان أحد المقاتلين في معركة مسرحية«هرناني»، والذي أقرّ له «بموهبة هائلة» في رواية «نوتردام دو باري» وقدّم نصيحةً لخاتمة مسرحية «ماريون دولورم» وقد اتَّبعتْ تلك النصيحة. وحول فلوبير الذي «ارتكب» روايةَ «سالامبو» و «التربية العاطفية»، بعد أن بدّد موهبته في «مدام بوڤاري» وحول رينان، و«كتاباته الوصفية المثالية» و «هوسه بالمنظر الطّبيعي»- ولسوف تبيّنُ بعضُ الأمثلة كيف أن الارتياب بالأشياء الجديدة يؤدي أحيانًا بالفضول الطبيعي الموجود عند رجلِ الفكرِ إلى الفشل، ويضيّق مجال ذوقه؛ فبالنسبة «لسالامبو»: «لم يكن بإمكاني أن أفتح

(١) أي: اليونانية والرّومانية. (م: ز. ع).

(٢) مجلس قبيلة: عند الهنود الحمر، كما ورد عند شاتوبريان في كتابه رينيه René. (م: ز. ع).

هذا المجلّد. في أيّ مكان آخر غير «كان» حيث يتوفّر لي كتاب «طبّاخة المدينة لكي أقرأه». أمّا «البؤساء» «فيبدو أن هذا الكتاب قد كُتب عام ١٨٢٥، عندما انتشرت الرّومانسية، وكان الناس يجتهدون لتعذيب اللغة الفرنسية بوضع كلمات غير عادية فيها. أما اليوم، فهذا الأسلوب لا يثير الدّهشة، بل يقتل من الضّجر . . . فلو كان هذا الكتاب أقلّ إثارةً للضحك، وأقلّ طولاً، لأمكن أن يكون خطراً. ويبدو لي، كما هو الآن، أدنى مستوًى من الرّوايات الاشتراكية لأوجين سو من كافّة النواحي - أما عن «أغاني الشوارع والغابات»، «فهل أصبح المؤلّف فجأةً مجنونًا، أم كان كذلك دومًا؟ أما أنا، فأميل إلى الاحتمال الأخير». أما «الرّجل الذي يضحك» فهو «يدعو إلى تغطية الوجه خجلاً: ففيه تضادّاتٌ ومبالغاتٌ دومًا. وهو ذو نبرة «مزيّفة وغبيّة خصوصًا».

وعن خطاب يلقيه هيغو في بروكسل، يقول ميريميه: «من المؤسف ألاّ يكون لدى هذا الشاب، الذي يمتلك صوراً جميلة تحت تصرفه كتلك الصّور، ظلٌّ من الحسّ السّليم، ومن الاحتشام لكي يتحفّظ عن قول تفاهات سطحية لا تليق برجلٍ شريف، وميريميه لا يثأر بهذه الطريقة، وبصورة واعية تقريبًا لخلافٍ شخصيّ؛ فلم يُقيّض له أن يَشهد كلام هيغو الجارح وافتراءاته، وهيغو، على العكس، هو الذي اقتصّ منه، في «قصة جريمة»، بعد أن قرأ «رسالةً إلى مجهولة»، أما عن بودلير، فلا بدّ من رهافة تحليلِ جاك كريبيه لكي يغفر لميريميه كتابةَ ما يلي: «إن زهور الشرّ (تُعدُّ) كتابًا متدنّيًا في مستواه، وليس خطيراً على الإطلاق. وفيه بعضُ الالتماعات الشعرية، مثل تلك التي نجدها عند صبيٍّ مسكين لا يعرفُ الحياةَ، وقد تعبَ منها لأنَ فتاة مرحةً قد خانته. أنا لا أعرفُ المؤلّفَ، ولكني أراهنُ على أنه أبله وشريف». (١٨٥٧)، وقال أيضًا: «لقد أرسلوا إليّ مؤلّفات بودلير التي أثارت سخطي؛ فبودلير كان مجنونًا! وقد مات في المشفى. بعد أن نَظَم أشعاراً نالت تقدير ڤيكتور هيغو، ولم تكن لها ميزةٌ أخرى غير أنها منافيةٌ للأخلاق. أما اليوم، فيصنعون منه رجلاً عبقريًا لم يقدّرْ حقّ قدره». (١٨٦٩).

ولا بدّ أن نلاحظ الظروفَ المخفَّفة الممنوحة «للبؤساء» و «لزهور الشرّ»؛ فهما ليسا من تلك الكتب «الخطيرة». وعلينا ألاّ نتسرعَ فنقول إن معيار ميريميه هذا «علامةٌ على الشيخوخة، فهناك شيءٌ من هذا بلا شك، غير أن هذا الحكمَ على «البؤساء» يصيب بطريقة غير مباشرة، المفردات الرومانسيّة، وقد رأينا ذلك في المجلّد السّابق[1]. كم حافظ ميريميه على مسافةٍ معيّنةٍ من الرّومانسية. إن ميله إلى اللغة التقليدية، وارتيابه بالتّجديدات الأدبية والاجتماعية والأخلاقية هي في عداد «ثوابته». أما التعاطفُ والإعجاب اللذان يأبى إبداءهما نحو كتُاب الامبراطورية الثانية العظام، فهو لايساومُ عليهما بصدد كاتبٍ من مثل فرانسوا بونسار، أو إميل أوجييه. والأسوأ من ذلك أيضًا، فقد كتب عام (١٨٦٥) ما يلي: وهذه مُزاحة واضحة، ولكنها ذات مغزى: «لم يعد هناك إلاّ رجلٌ عبقريٌّ واحد حاليًّا، إنه السيّد بونسون دو تيراي... ولا أحدَ يُحسنُ مثله استخدامَ الجريمة والاغتيال... وأنا أتلذّذ بذلك». أما النّفورُ الذي توحي له به لوحةُ «المستحمّات» لكوربيه، في معرض عام ١٨٥٣، والمتعةُ التي يجدها في نشر أكثرِ التّوريات حماقةً عن ڤاغنر، فينتهيان إلى تحديد «جمال»، مقبول، ولكنّه ضيّقٌ، وفيما عداه، ليس هناك خلاصٌ، حسب رأيه.

هل ينبغي أن نعزو نضوب الإلهام لدى ميريميه إلى ذلك النوع من التصلّب؟ غير أن الاحتجاب الطويلَ، احتجابَ القاصّ هو أيضًا احتجابُ علاقته مع السيّدة ديلسّير، ولئن كان يكررّ نفسه (وهذه كلمةٌ شديدةُ الغموض)، عند مغيب حياته، ولا يجدّد طريقته، ولئن كانت معاييرُه الأخلاقيةُ والجماليةُ لا تتطورّ - من خلال نزعة الشكّ لديه، ونزعته الإغرابية، ومن خلال انجذابه للنفوس العالية، وميله إلى الخارق وإلى التضليل - فإن السرّ الخفي في «لوكيس» ليس على أية حال، هو سرّ «رؤيا شارل الحادي عشر»، كما كانت «كارمن» شيئًا آخر يختلف عن «رسائل من إسبانيا».

---

(١) أي «كولومبا وقصص أخرى» الذي ترجمناه. (م: ز.ع).

بالإضافة إلى ذلك كلّه، فلئن كان ميريميه، من «كارمن» (أو من «الزقاق[1]» إذا شئنا، أو من «رئيس الدير أوبان»، إلى «الغرفة الزرقاء»، وقد تخلّى عما سمي بأدب الخيال، فقد تابع مع ذلك، بحماسة متزايدة كتابة مؤلّفات قيّمة جداً، وجديرة بمؤرخ. أما عن عدم اهتمامه أو عن عدائه للمؤلّفات الفرنسية الجديدة؛ فهو يوفّق بينها (ولا تعدو المفارقة أن تكون ظاهرية) وبين اهتمام شديد، وكثير الثبات بالأدب الروسي، وهذا أمرٌ كان نادراً في ذلك الحين. وكان ستندال يسخرُ منه حين يراه يدرسُ اليونانية، وهو في الخامسة والعشرين من عمره؟ وكان عمرهُ يقاربُ الخمسين حين بدأ يتعلّم الروّسيةَ. فإلام يعودُ عدم إتقانه، وعدمُ تمكّنه أبداً من معرفةِ الرّوسيةِ بصورةٍ جيدة. ومع ذلك، فقد كان، وبرغم وجود عدد من الكتّاب السّابقين المغمورين، الكاتبَ الذي أدخَل حقّاً إلى فرنسا، ويمكن القولُ، إلى أوروبا، الذي أدخل بوشكين الذي ترجم له بدءاً من عام ١٨٤٩ : «بنت البستوني» ثم «الغجر» و «الخيّال»، و «طلقة المسدّس»، وترجم لغوغول الذي عرّف الناس بكتابه «النفوس الميتة» و «المفتش العام». ولتورغينيف الذي غدا صديقه، فصحّح له أو ترجم : «التجليّات» و «اليهودي» و «بيتوشكوف» و «الكلب» و «قصة غريبة». وإن إحدى صفات الأصالة لدى هذا الهاوي للماضي هي أنه قد أسهمَ إسهاماً كبيراً في الكشف عن الرواية الروسية التي قيّض لتأثيرها الأدبيّ والأخلاقيّ أن يكون عميقاً جداً.

ولا يشغفُ ميريميه بالرواية فحسب، ولكن بالتاريخ الرّوسي أيضاً. فلانأخذن على محمل الجدّ قوله غير الحصيف في عام ١٨٢٩ : «أنا لا أحبُّ من التاريخ إلاّ الحكايات»؛ «فالحربُ الاجتماعية» و «كاتيلينا» و «دون بيدر» و«الدّراسات الرّوسية تقدّم حجّةً متينةً لايُتاحُ لنا أن ننتظرها من ذلك التّعريف الشّديد الحصر الذي يقدّمه المؤلّف بناءً على ميله الخاص. زدْ على ذلك أنّ الوقائع التي يُطبِّق فيها بصبر سعةً في المعرفة جديدةً لا يضاهيها شيءٌ، في تاريخ روسيا، كما في تاريخ روما بدرجةٍ أقلّ، وكما في تاريخ إسبانيا الذي يجتذبه فيه «دون بيدر»، وهو

(١) زقاق السيّدة لوكريزيا : إحدى قصص ميريميه. (م: ز. ع)

القاضي الإقطاعي، والقاسي أيضاً، هذه الوقائع تضاهي في فظاعتها: «ديمتريوس المزيّف» و «قوزاق أوكرانيا» و «تمرّد ستينكارازين» و «بوغدان سمبيلنسكي»، و«بطرس الأكبر»، و «إليزابيت المزيّفة» وهي وقائعُ لا تتعدّى أن تكون أعمال اغتيال وتعذيب، وخوزقةٍ، وسلخ. إن نزعةَ ميريميه التشاؤمية ترضى أحياناً بالفظيع. غير أننا سنلتقي ميريميه، وهو أكثر تكتُّماً، وأقل سوداويةً، ويغلبُ عليه التهكُّم والمرح، ميريميه الشجاع والمبتسم، والأنيس، سنلتقيه فيما بين السّطور على طول مراسلاته التي ستقيمُ التوازُنَ، على مدى أكثر من أربعين عاماً، بين حبّه للحياة، وقناعته المريرة بأن «الجنس البشريَ سافلٌ» وثمة كلمة مثيرة للاستغراب، عند رينان، في «ذكريات الطفولة والشباب» حيث يقول: «كان يمكن لميريميه أن يكون إنساناً من الطراز الأول، لو لم يكن لديه أصدقاء. فأصدقاؤه قد امتلكوه. فكيف يمكن للمرء أن يكتب رسائل، حين يكون من السّهل عليه أن يتحدث مع الجميع؟». ولم يلاحظ رينان أن تلك المراسلات، في تنوّعها وغناها، كانت تكشف عن طبيعة ميريميه العميقة ـ وهو الهاوي الذي يهتم بأن «يتحدث مع الجميع»، أقل مما يهتم بأن يدع قلمه يجري بأحاديث حرّة.

DE REBUS OMNIBUS ET QUIBUS DAM ALIIS.[1]

كما كان يحبُّ أن يقول، وهو مع صديقاته وأصدقائه.

ويمكن لميريميه أن يضيف إلى صديقاته الدائمات، جيني داكان التي كان لايزال يكتب إليها قبل ساعتين من موته، والسيدة دو مونتيجو، وڤالنتينا المتقلّبة، والسيّدة دو بوانيه، يمكن أن يضيف، في منحدر حياته، السيّدة دو بولنكور، والسيّدة لاغرونيه وابنتها أولغا اللتين تعلّمانه الروسية، والسيدة دولاروشجا كلان التي يفشل تُدينُّها الذكي في محاولة هدايته، ولكنّها تتلقّى أكثر الوَسائل التي كتبها الاريتابيّ ميريميه جديّةً ورصانةً. وهي التي يتجاسرُ ذات يوم، وقد أزعجه تبشيرُها، على أن يجيبها حين أصرّت على أن يتعمَّد: «حسناً، ياسيدتي، إني موافقٌ على ذلك، ولكن بشرط: هو أن تكوني اشبينَتي، فأرتدي لباساً أبيض، وتحملينني بين ذراعيك».

(١) عن كلّ الأشياء، والتي تؤدي إلى أشياء أخرى. (باللاتينية في النص) (م: ز. ع)

فحتى النهاية، تذوّق ميريميه، وإلى الحدّ الأقصى سحر الصّداقات النّسائية؛ في عام ١٨٦٤، إنما يرتبطُ بالدّوقة دو كاستيليون كولونّا (النّحات مارسيلّو) والتي سيكتب إليها بضعةَ أسطرٍ في يوم موته، ويرتبطُ بالدوقة ليزا برزدزبيكا وهي «الأخرى المجهولة».

إنّ ميريميه الذي كان خلال زمن كهولته وشيخوخته صديقًا موثوقًا ومخلصًا لسانت-بوف، ولغوبينو ولدو كوزان، ولاستيبانيز كالديرون، وأنطونيو بانيزي، ذلك الفحّام الإيطالي(١) الذي حُكم عليه بالموت غيابيًّا، وحاز على الجنسية الإنكليزية، وصار مديراً للمتحف البريطاني، قد ظلّ مع ذلك أمينًا لذكرى أصدقائه الرّاحلين. وفي عام ١٨٥٠، قدَّم «تقريضاً» مأتميًّا لستندال، فأثار بصراحته فيه غَضَبَ المرائين.

وفي عام ١٨٦٧، ينشر ميريميه لصالح أحد أبناء أخ الرّحالة ڤيكتور جاكمون مجلَّدين من الرسائل غير المنشورة ويُقدّمُ لهما. ولسوف يكتبُ عنه حينذاك أنه «صاحبُ أنبل الصّفات، وأكثر الناس الذين عرفتُهم لطفًا»، وكان قد مضى أكثرُ من ثلث قرن على موت جاكمون، ولم يكن ميريميه الجافّ الطّباع قد عاش بصحبته أكثر من عامين. . . . وفي عام ١٨٦١، وكتحية لصداقة ميتة، يقوم بحملة، مع جول ساندو-كي تمنح الجائزة الكبرى الثنائية الحول وقيمتُها ٢٠٠٠٠ فرنكًا لجورج صاند.

هذا هو ذلك الأناني الذي ستكلّفه عبادتُه للصداقة حكمًا بالسجن لمدة خمسة عشر يومًا وهو حكمٌ سيمنحه صديقه الوزير إجازةً كي يقضيه، وهو يُبدي الأسف لأنه سيستخدمه استخداماً سيئًا للغاية». إن ميريميه، الحصيف، والارتيابيّ النزعة سيكتبُ في الواقع في «لاروڤو دي دو موند» مقالة «لاذعة» حول قضية صديقه غليوم ليبري، العالم الحقيقيّ، والذي ليس لصًّا حقيقيًّا أقلّ من ذلك، والذي كان غيزو قد كلَّفه بالتفتيش على مكتبات كان مروره عليها القضاءُ رأيًا سيئًا، فيكشفُ في تلك الصّفحات الهجائيّة-السّريّة، جنايات تتعرّضُ بالمقضيّ به،

(١) عضو الجمعية السريّة الإيطالية «كاربوناري» التي سعت إلى توحيد إيطاليا في القرن ١٩ (م: ز.ع).

وإهانات موجّهةً لهيئة القضاء. كان ميريميه في البداية منزعجًا للغاية، فقد كان ضابطًا في جوقة الشرف (ولم يكن عددهُم حينذاك يصل إلى خمسة آلاف)، وموظّفًا كبيراً، وأكاديمياً. «فأمضى» مدّة سجنه بمزاجٍ جيّد، وهو يسخرُ من نفسه، ومن الحركة الفروسيّة التي استسلم لها بتهوّرٍ، متنكّراً لشعاره في الحذر. فهل خضَع في تلك المغامرة المدهشة للصداقة التي يحملها لزميلٍ له لم يكن ممكنًا أن يؤمن ببراءته طويلاً، أقلّ مما خضع لمشاعره الرقيقة جداً نحو امرأة ليبري. أو زوجة ابنه، أو ابنة أخيه؟ وعلى أية حال، فقد كانت لديه الشجاعةُ ليفي بالتزاماته كمتودّدٍ للنساء إلى النهاية، وحتى إلى أبعد من ذلك بقليل.

ولسوف يكون بوسعه، زيادة على ذلك، أن يتذوّق سخرية الرُّدود الانتقامية غير المنتظرة، حين يُعيّنُ في مَجلس الشيوخ (في ٢٣ حزيران ١٨٥٣)، بعد أقلّ من عامٍ على خروجه من السّجن، ولكن فقْدالاهتمام الذي تقعُ فيه كلُّ شخصيات الامبراطورية لا يستثني ميريميه، في اليوم التالي من الهزيمة، حين تنقلب الأمور مجدّداً. ولسوف يكفّر ميريميه، ميتاً، عن دواعي سروره التي لا يمكنُ إغفالُها، والتي ليست صافية، وقد قيّض له أن يتذوّقها لأنه ينتمي إلى ذلك المجلس، مجلس الشيوخ المؤلّف من ذوي الأقدام الفطحاء،

والذي كان يمكن لمذلّته الزّنجية والمملوكية.

أن تغضب محموداً وترهق سولوك[1]

هكذا كان يقول ديوان «القصاص»[2]؛ فبطاقاتُ التقويم التبسيطية عنيدة جداً، فهذا أسهل تناولاً، وقد ظلّ ميريميه يُصنَّف نصيراً للبلاط باستمرار.

والحقيقة أنّه حين استُقبل ميريميه بصورةٍ حميمة في التويلّري، في سان. كلو، وفيما بعد في بياريتز، غدا منذ بدايةِ عهد الملكية من المقرّبين إلى البلاط.

---

(١) محمود: سلطانٌ تركيٌ قضى على الإنكشاريين. وسولوك: امبراطور هاييتي أسقطه استبدادهُ. (م: ز. ع)

(٢) القصاص: ديوانٌ شعريٌ هجائي لفيكتور هيغو. (م: ز. ع).

وحول هذا الموضوع، أطلق هيغو، في قصة جريمة، تلك الوقاحة الرائعة: «إن قليلاً من الأكاديمية لايناسب مغارة». وهكذا، فميريميه لم يشعرْ إلاّ بتعاطف متأخر نحو الأمير، حين عرفه بصورة أفضل، ولم يكن قبلاً، وحتى ذلك اليوم تزوّج فيه من أوجينيا دو مونيتجو، يعفيه من عباراته اللاذعة. ولئن أصبح ميريميه عضواً في مجلس الشيوخ، فذلك لأنه كان قد اقتاد تلك التي أصبحت الآن الامبراطورة لتأكل الحلوى من عند الحلواني، في شارع لابيه، حين كانت فتاةً صغيرة. وفي الموقف المحرج الذي يضعه فيه، أمام أصدقائه الأورليانيين، الامتيازُ المفاجئ لوظيفةٍ عالية بلاعمل، فإن ما يواسي ميريميه هو أن الامبراطورة قد ارتمت على عنق الامبراطور، حين عرفت الخبر. لقد غُمر ميريميه بالتكريم، وأثقل بملاحظات الملوك. وإذا ماأصبح حاضراً بالضّرورة، في كافة الاحتفالات، ومسجَّلاً بصورةٍ رسمية في «مسلسلات» كومبيينيه، وفي فونتنبلو؛ فمن المؤكَّد أن هذه الامتيازات قد أصبحت أعمالاً مرهقةً بالنسبة إليه. ولقد سوّغ، طوال حياته، ماكان والدهُ يقوله عنه عام ١٨٢٥ («إنه معتادٌ على الرّاحة، ويتوجّس خيفةً من أن يرتدي ملابسه الرسمية كلّ مساء». زدْ على ذلك أن صحتّه قد غدت غير مستقرة إلى حدّ كبير؛ فاتّخذ قراراً، بدءاً من شتاء ١٨٥٦ ـ ١٨٥٧ بأن يقضي الشتاء في كان. وهاهو يحاولُ عبثًا أن يشفى من ربوٍ سيجعلُ سنواته الأخيرة شقية.

وقد رسم أوغسطين فيلون الذي رآه في فونتنبلو عام ١٨٦٨ صورةً له، فقال: «إن رجلاً عجوزاً كان يسير إلى جانب الامبراطورة. وهو ينظرُ إلى أرضية القصر. إنه يرتدي لباساً معتنًى به، وحتى متأنِّقًا، وسروالاً رمادياً، وصدريةً بيضاء، وربطة عنقٍ عريضة زرقاء سماوية، من الأسلوب القديم. إن له أنفًا ضخمًا أرنبتُه مربعةٌ، وذا شكل غريب، وجبينًا محفوراً بأربعة تجاعيد عميقة صليبيّة الشكل، وعينين مستديرتين، باردتين، وقاسيتي النّظرة قليلاً، تحت ظلّ حاجب كثيف، خلف التماع نظّارة الأنف. أما مشيتهُ العامّة فمتصلّبة جداً. ولربما يكون دبلوماسياً إنكليزياً. إن الامبراطورة تدعوني بقولها: هذا هو ميريميه». إنه مريض ومتعبٌ جداً. لابدّ أنه مرهقٌ حقًا من الإسهام في التحكيم للألغاز والألعاب التي يتسلّى بها

بلاطٌ ذو طابعٍ فكريٍّ متواضع؛ فهو ليس شخصاً فكهاً. ولقد كاد الشغفُ بالسياسة مع ذلك أن ينتزعَ منه اعترافاً بذلك. لأنّ مخطوطة إحدى قصصه قد وُجدت بين الأوراق التي عُثر عليها في التويلري، بعد الرابع من أيلول. وهي من أقلّ قصصه جودةً، فضلاً عن ذلك، وإلى حدٍّ كبير. إنها قصّةُ «الغرفة الزرقاء» والتي وقّعها كما يلي: «بروسبير ميريميه، المجنون ب. ص. ج. الامبراطورة[1]». لقد كانت لميريميه عيوبه المثيرة للسّخط أحياناً، غير أنه لم يكن خسيساً وينبغي أن يبحث المرءُ في مكانٍ آخر عن غير هذه المزاحة لكي يجدَ الدلائل على نزعته البونابرتية. كانت الامبراطورية قد أرضت لديه ميلَهُ إلى النظام، إلى نظامٍ ما. هذا مفهوم؛ للنظّام في الشارع، مثلاً، فالبورجوازيّ ميريميه لم ينسْ قط أيام شباط والخوف الكبير، خوف حزيران، إلى درجة أنه كان يظهرُ في صفوف المعارضة إلى حدٍّ ما، حتى نهاية الامبراطورية. لأن الامتيازات الليبراليّة كانت تبدو له ضلالاً وخطأً.

لقد كتب، عندما اندلعت الحربُ: أخشى ألاّ يكون العمداءُ (الجنرالات) عباقرة».

«فالهزيمة تضعنا مباشرة في دولة جمهورية، أي في أشدّ الورطات خزياً واستعصاءً على الحلّ». . . . وبعد المناوشات الموفقة في ساربروك، تتوالى الهزائم، ويتمّ غزو الألزاس واللّورين، ويكتب ميريميه ببصيرةٍ نافذة، برغم يأسه: «لدينا جنودٌ بواسل، ولكن ليس لدينا عميدٌ واحد». «إن الجيشَ الرابع البروسي الذي يقودُه السيّد دو بيسمارك في باريس هو أكثر الجيوش إثارةً للخوف». وهذا الجيش الرابع هو الطّابور الخامس. . . . وحين استقبلت الامبراطورة ميريميه في التاسع من آب، وجدها: «صلبةً مثل صخرة، وقد أحدثت لديه تأثيراً كتأثير القدّيسة»، ولكي يحاول إنقاذ السّلالة الملكية من تلقاء نفسه، أو بناءً على طلبٍ من الوصيّة على العرش؛ فقد زار مرتّين، في ١٨ و ٢٠ آب السيّد تيير الذي أخذ يتهرّبُ . . . ثم تأتي معركة سيدان. وفي ٤ أيلول، أصبح ميريميه فريسة لاختناقاتٍ

(١) ص. ج: صاحبة الجلالة (م: ز. ع).

قاسية، وتفاقمت وذمةُ رجليه إلى درجةٍ صار من الضّروي معها ضغطُها ضمنَ عصائب من الفلانيل. فطلب أن يحملوه إلى مجلس الشّيوخ، في الجلسة النهائية التي حكم عليها بأنها: «غبيّة ومؤسفة»، فأُعلنت الجمهوريةُ، ولم يعدْ أيٌّ واجب يستبقيه في باريس، فمضى محتضراً إلى كان، في الثامن من أيلول.

وبعد بضعة أيام، كتب إلى السيّدة بولانكور يقول: «لقد سعيتُ طيلة حياتي لأكون مواطنًا عالميًا، قبل أن أكون فرنسيًا، غير أن كلَّ هذه المعاطف الفلسفية لاتُفيد في شيء، وأنا أنزف اليومَ من جراحِ أولئك المغفلين الفرنسيين، أنا أبكي بسبب إذلالهم، ومهما كانوا ناكرين للجميل، وبليدين، فسأظلُّ أحبُّهم دائمًا».
وهذا حقًّا هو الرّجل نفسهُ الذي كتب قبل ذلك ببضع سنوات: «هل أنتم من تلك القلوب الفرنسيّة التي تتألّم من خسارةِ معركة بواتييه؟ أما أنا فمتأكّد من ذلك». وهذا ليس سيئًا بالنسبة لارتيابيّ عالميّ، ولكن ألم يصُغ ألفونس دوديه (ولم يكن يعني ميريميه) هذه الفكرة: من المدهش أن نرى كم هي كثيرةٌ الأشياء التي يؤمن بها إنسانٌ لا يؤمن بشيء»؟.

لقد مات ميريميه في ٢٣ أيلول، وانطلاقًا من مراعاةٍ قصوى للرأي العام الذي يعدُّ الدّفن المدني فضيحةً، ومن عطفٍ على المرأتين الإنكليزيتين اللتين سهرتا عليه في نهاية حياته؛ فقد طلب في وصيّته أن يُدعى كاهنُ اعترافٍ أوغسبور إلى جنازته. وهو يرقدُ في مقبرةِ كان البروتستانتيّة.

كانت الحرب الأهلية قد أعقبت الحربَ الخارجية، وأثناء أسبوع الكومّونة(١) الدّامي، في ٢٣ أيار، دمّر الحريقُ منزل ميريميه تدميراً كاملاً. في نقطة التقاء شارع دو باك مع شارل دو ليل (وهو اليوم صندوق الإيداعات والأمانات، غير أن الواجهة التي كانت تقابل نوافذ منزل الكاتب لاتَزال موجودة، وقد بليت كثيراً، أما الأثاث، والكتبُ، والأوراق، والتُّحف، والآثارُ الفنية، فقد تلفت كلُّها. لقد

(١) الكومونة: أو العامية: هي الثورة العمّالية المعروفة التي قمعها تيير بمساعدة الجيش البروسي (١٨٧١).

ضاع كلُّ شيء باستثناء تمثال لإلهٍ رشيقٍ من البرونز اليوناني القديم، هو ثقّالة ورقِ ميريميه، وقد عثر عليها متكلّسةً جزئيًا، وقد التهمتها النّار بين الحطام.

پيير جوسّران

هل هناك حاجة للقول إن هذه الطبعة لاتطمح لأن تكون طبعةً نقدية؟ فالقصص هنا قد تمَّ نشرها حسب طلب الإذن بالعودة إلى نص ميريميه الأصلي الذي كنا نبذلُ الجهد مع ذلك لتصحيح أوراقه العريضة[1]. ولم نمتنعْ عن القطع مع التقليد - كأن نطبع على سبيل المثال كلمة Promrsse بدلاً من كلمة Prouesse[2] في قصة «كارمن» تبعاً للاقتراح الموفّق الذي قدّمه أوغست دو بوري (الصفحة ١٣٣)، وكما يردُ في المخطوطة المحفوظة لحسن الحظّ «للزُقاق»... فقد وضعنا:

Les Lis De Mon Sein ص(٩٩) بدلاً من[3] Les Lis De Mon Teint وقد تركنا في الصفحة(١٢٢)[4]: التي يتفق لميريميه أن يكتبها غالبًا على هذا النحو. غير أننا نترك للقارئ أن يقرر إن كان من المناسب أن يقرأ ص (٣٧٣)[5] En enenant Son Cheval بدلاً من: Emmenant Son Cheval إن الملاحظات التي أشير إليها بالعلامات النجمية هي لميريميه، أما ملاحظات H.B التي أشير إليها بالأرقام العربية فليست لميريميه.

(١) أوراق بقياس ٤٤×٦٥ سم.

(٢) أي: مأثرة بدلاً من وعد.

(٣) أي: زنابق صدري، بدلاً من زنابق لوني.

(٤) أسرف في الضحك والأصح ألا يكون هناك حركة CÔTE بدلاً من COTÉ

(٥) قاد أو اصطحب جواده.

- ١ -

أرسـين غيّـو

- ١ -

كان قد انتهى منذ قليل القداس الأخير في سان-روك، وكان القوّاس[١] يقوم بجولته لإغلاق المصلّيات الخالية. كان يهم بسحب الحاجز المشبّك لأحد المحاريب الأرستقراطية التي تشتري بعض التقيّات إذنًا بالصلاة إلى الرب فيه، فيتميزن عن باقي المؤمنات، عندما لاحظ أن امرأةً لاتزال موجودةً فيه، وهي غارقةٌ في التأمّل، كما كان يبدو، ورأسها مخفضةٌ على مسند كرسيّها، فقال في نفسه، وهو يتوقّف عند باب المصلّى: «إنها السيّدة دو پيين». وكانت السيّدة دو پيين معروفة جداً لدى القوّاس؛ ففي ذلك العهد، كانت امرأةٌ من المجتمع الراقي، شابّةٌ، وغنية، وجميلة، تقدّم القربان، وتمنح أغطيةً للمذبح، وتؤدي حسَنات كبيرة، عن طريق كاهنها، كانت تحوز على بعض التقدير من كونها تقيّة، ومن التردّد إلى الكنائس، وليس لها زوجٌ تستخدمه الحكومة، وليست مرتبطةً بالسيّدة زوجة وليّ العهد، وليس لديها شيءٌ تكسبه، اللهم إلا خلاصها. تلك المرأة كانت السيّدة دو پيين.

كان القواس يرغب كثيراً في الذهاب إلى العشاء؛ فالناس الذين هم على شاكلته يتعشّون الساعة الواحدة، غير أنّه لم يجرؤ على تعكير التأمّل الورع لسيدة على تلك الدرجة من الأهمية في خورنيّة سان-روك. فابتعدَ والحالة كذلك، وهو يجعل حذاءه المهترئ يُحدث صوتًا على البلاط، من غير أن يفقد الأمل في أن يعود ليجد المصلّى خاليًا، بعد أن يقوم بجولةٍ في الكنيسة.

كان قد أصبح في الجانب الآخر من موضع الخورس، عندما دخلت امرأةٌ شابة إلى الكنيسة، وتجولت في إحدى الأروقة الجانبية، وهي تنظر بفضول حولها. فروافد المذبح، وأماكن التوقف، والأجراس المقدّسة-وكلّ هذه الأشياء كانت تبدو لها على الدّرجة نفسها من الغرابة التي يمكن أن تكونها بالنسبة إليك

(١) القوّاس: هو خادم للبطريرك، والأسقف والقنصل ونحوهم. . . (م: ز. ع).

ياسيدتي، المشكاةُ المقدسة، أو الكتاباتُ المنقوشة على جامعٍ في القاهرة. كانت في الخامسة والعشرين من عمرها تقريبًا، ولكن كان لابدّ من تأمّلها بكثيرٍ من الانتباه لكي لا نظنها أكبر سنًا، ومع أن عينيها السّوداوين شديدتا الالتماع، فقد كانتا غائرتين، ومحاطتين بظلّ مزرق. أما لون وجهها الأبيض الباهت، وشفتاها الشاحبتان فقد كانت تدلُّ على المعاناة. ومع ذلك، فإن مظهراً من الجرأة، والمرح في نظرتها كان يتباينُ مع مظهر مرضيّ. أما زينتها، فكان يمكن أن تلاحظوا خليطاً غير مألوف من الإهمال والنيقة. وكان يمكن لمعطفها الورديّ، المزيّن بورودٍ اصطناعية أن يتناسب أكثر مع مبذلٍ نسائي، وتحت شالٍ من الكشمير الذي كان يمكن للعين المتمرّسة لامرأة من عليّة القوم أن تخمّن أنها لم تكن المالكة الأولى له، كان يختبئ فستانٌ هنديٌّ سعرُ الذراع منه عشرون فلسًا، وهو مدعوكٌ قليلاً. وأخيراً، فإن رجلاً فقط هو الذي كان يمكنه أن يبديَ إعجابه بقدمها التي كانت تلبس بها جواربَ عاديةً، وحذاءً بنفسجيًا يبدو كأنه يعاني منذ زمنٍ طويل من أضرار الرّصيف. أنت تتذكّرين، ياسيدتي، أن الإسفلت لم يكن قد اكتشف بعد آنذاك.

إن تلك المرأة، التي أمكن لكِ أن تخمني وضعها الاجتماعي، اقتربت من المصلى الذي كانت السيّدة دو پيين لاتزالُ موجودةً فيه، وبعد أن نظرت إليها لحظة بهيئةٍ تنمُّ عن القلق والإحراج دنت منها، عندما رأتها واقفةً، وتهمُّ بالخروج، وسألتها بصوتٍ رقيق وابتسامةٍ خجلة:

هل يمكنك أن تخبريني، يا سيدتي، لمن أستطيع أن أتوجّه كي أقدّم شمعة[1]؟

كانت تلك اللغةُ غريبةً على أذنيّ السيّدة دو پيين إلى درجةٍ لم تستطع معها أن تفهمها في البداية، فطلبت منها أن تكرّر السّؤال.

ـ أجل، أودّ حقًا أن أقدّم نذراً لسان ـ روك، غير أني لا أدري لمن أعطي النقود. كانت السيّدة دوپيين متدينةً تديّنًا مستنيراً لايمكنّها من أن تُلمّ بتلك

(١) أي نذراً: وقد حافظنا على الحرفية في الترجمة انسجاماً مع ضرورة السّياق الروائي (م: ز ـ ع).

الاعتقادات الشعبية الباطلة. ومع ذلك، فقد كانت تحترمُها؛ فهناك شيء مؤثّرٌ في كلّ شكلٍ من أشكال العبادة، مهما يكن هذا الشكلُ بدائياً. وبما أنها اقتنعت بأن الأمر كان يتعلّق بنذرٍ أو بشيءٍ مشابه، وبما أنها كانت على درجةٍ من التسامح والمحبّة لاتتيح لها أن تستنتج من ملابس المرأة الشابّة ذات القبّعة الوردية نتائج لم تخشَ ربما أن تكوّنها عنها؛ فقد دلّتها على القوّاس الذي كان يقترب، فشكرتها الغريبةُ، وأسرعت إلى ذلك الرّجل الذي بدا أنه يفهمها بالإشارة. وفيما كانت السيدة دوپيين تعود من جديد إلى كتاب القدّاس، وتصلح خمارها، رأت السيدة ذات الشمعة تسحبُ صُرّةً صغيرةً من جيبها، وتأخذُ منها قطعة وحيدةً من ذات الخمسة فرنكات، من بين الكثير من القطع النقدية الصغيرة، وتسلّمها إلى القواس في الوقت نفسه الذي كانت تعطيه فيه بصوتٍ خفيضٍ جداً توصياتٍ طويلةً كان يُصغي إليها وهو يبتسم.

خرجت كلتاهما من الكنيسة في الوقت نفسه؛ غير أن المرأة ذات الشمعة كانت تسير بُسرعةٍ كبيرة، وكان يمكن للسيّدة دو پيين أن تكفّ عن رؤيتها، مع أنها كانت تسير في الاتجاه نفسه وفي زاوية الشارع الذي كانت تقطنُ فيه، صادفتها من جديد، وتحت شالها الكشميريّ المستعمل، كانت الغريبة تسعى لتخبئة رغيف وزنه أربع ليبرات كانت قد اشترته من دكّان مجاور. وحين رأت الغريبة السيّدة دو پيين ثانية، خفضت رأسها، ولم تقوَ على أن تمنع نفسها من الابتسام، وضاعفت خطاها. وكانت ابتسامتها تقول: «وماذا تريدين؟ إني فقيرةٌ، فلتسخري مني. أنا أعلم أن الناس َلايشترون الخبز وهم يرتدون معطفاً ورديّ اللون، ويلبسون الكشمير». إن ذلك المزيج من الخجل المزعج والتّسليم والمزاح الحسن لم يفت السيّدة دو پيين ملاحظته. ففكّرت بالوضع المحتمل لتلك الفتاة الشابّة تفكيراً لايخلو من الحزن، وقالت في نفسها: «إن تديّنها أهلٌ للتقدير أكثر من تديّني. فتقدمتها لريالٍ[1] تُعدُّ تضحيةً أكبر بكثير من الفائض الذي أوزّعه على الفقراء، من

(١) الريال: يعادل خمسة فرنكات في النقد الفرنسي القديم. (م: ز.ع).

غير أن أفرض على نفسي أدنى حرمانٍ ممكن». ثم تذكّرت قطعتي الأرملة النقديّتين الصغيرتين واللتين قبلهما الربّ أكثر مما قبل الحسنات الباذخة، حسنات الأغنياء «وفكرت قائلةً: إني لا أقوم بما يكفي من أعمال الخير، ولا أفعل كلّ ماباستطاعتي فعلُه». ورجعت إلى منزلها، وهي في ذهنها توجّه ُلنفسها لومًا لا تستحقّه الى حدٍّ بعيد. فالشمعةُ، ورغيف الأربع ليبرات، وخصوصًا تقدمةُ القطعةِ النّقدية الوحيدة، قطعة الخمسة فرنكات، كانت قد حفرت في ذاكرة السيدة دوپيين وجه المرأة الشابة التي كانت تنظر إليها على أنها مثال التّقى.

وصادفتها أيضًا مراتٍ عديدة في الشارع، بقرب الكنيسة، ولكن ليس في القداديس أبدًا. وفي كلّ مرةٍ كانت الغريبةُ تمرّ من أمام السيدة دوپيين، كانت تخفض رأسها وتبتسم برقّة. وكانت تلك الابتسامة المتواضعة حقًّا تروقُ للسيّدة دوپيين؛ فأصبحت لديها رغبةٌ في أن تجد فرصةً لتقديم خدمةٍ ما للفتاة المسكينة، والتي كانت توحي لها بالاهتمام في البداية، وتثيرُ رأفتها الآن؛ فقد كانت تلاحظُ أنّ المعطف الورديّ يصيرُ باهتًا، وأن شال الكشمير قد اختفى. ولابدّ أنه قد رجع إلى بائعة الملابس المستعملة. وكان من الواضح أن سان-روك لم يجازِ لمئة ضعف التّقدمة التي قُدِّمت إليه.

وذات يوم، رأت السيدة دو پيين تابوتًا يدخل الى كنيسة سان-روك، يتبعه رجلٌ يرتدي ملابس رديئةً، ولم يكن يضعُ شاراتِ حداد، ولايعتمرُ قبّعةً. فقد كان أشبه ما يكون ببوّاب. ومنذ أكثر من شهر، لم تكن السيّدة دو پيين قد التقت المرأة الشابةُ ذات الشّمعة، وخطرت لها أنها تحضر دفنها. ولم يكن هناك أمرٌ محتمل أكثر من ذلك؛ فقد كانت الشابّة شديدة الشحوب والنّحول في المرة الأخيرة التي رأتها فيها السيدة دو پيين؛ فأجاب الرجلُ بأنه «بوّاب» في أحد منازل شارع لوي-لو-غران، وإن إحدى المستأجرات فيه قد ماتت، وهي السيّدة غيّو، وليس لها أولاد، ولا أصدقاء، ليس لها أحدٌ باستثناء ابنة. وإنه انطلاقًا من طيبةِ قلبه، هو البوّاب، قد

أتى ليحضر دفنَ شخصٍ لا تربطهُ به أيةُ قرابة؛ فتصوّرت السيّدة دوپيين حالاً أن المرأة الغريبة قد ماتت في الفاقة، تاركةً ابنة صغيرة لامُعين لها، وقطعت وعداً على نفسها بأن ترسل للاستعلامات رجل دينٍ كانت تكلّفه غالبًا بأعمالها الخيريّة.

وفي اليوم ما بعد التّالي، أوقفت بصورةٍ عرضانية عجلةُ نقلٍ عربتها في الطّريق لبضع لحظات، فيما كانت السيّدة دوپيين تهمُّ بالخروج من منزلها، وحين نظرت من باب العربة، بلا انتباه، لاحظت أن الفتاة الشابّة التي كانت تظنّها ميتة، قد استندت إلى جدار، فتعرفتها من غير مشقة، مع أنها كانت أكثر شحوبًا، وأشدّ نحولاً منها في أيّ وقتٍ مضى، وهي ترتدي ملابس الحداد، ولكن بصورةٍ بائسة، ومن غير قفّازات، ولا قبّعة. وقد كان تعبيرُ وجهها غريباً. وبدلاً من ابتسامتها المعتادة، كانت قسماتها كافةً متقلّصة، وعيناها الواسعتان زائغتين. وكانت تديرهما نحو السيّدة دوپيين، ولكن من غير أن تتعرّفها؛ فهي لم تكن ترى شيئًا. ولم يكن يقرأ الألمُ في كلّ وقفتها الثابتة، بل تصميم غاضب. كانت العجلة قد ابتعدت، وعربةُ السيّدة دو پيين تبتعد بالخببِ السّريع غير أن صورة الفتاة الشابّة وتعبيرَ وجهها اليائس قد لاحقا السيّدة دو پيين طيلة بضع ساعات.

ولدى عودتها، رأت تجمّعًا كبيراً في الشارع الذي تقطن فيه، وكانت كلُّ البوابات واقفاتٍ على أبوابهن، ويروين لجاراتهن قصّة كان يبدو أنهنّ يُصغين إليها باهتمام شديد. وكانت الجماعات تُحتشدُ خصوصًا أمام البيتِ القريب من المنزل الذي كانت تقطنُه السيّدة دوپيين، وكانت كلُّ العيون تستدير نحو نافذةٍ مفتوحة في الطّابق الثالث. وفي كلّ حلقةٍ من الحلقات، كانت ترتفعُ ذراعٌ أو ذراعان لكي توجّه إليها انتباه الجمهور. ثم أخذت الأيدي تخفضُ فجأةً نحو الأرض. وكانت كلُّ العيون تتبعُ تلك الحركة؛ فقد كان يقعُ للتوِّ حادثٌ ما غير عادي. ووجدت السيّدة دو پيين خدمها مذعورين، حين اجتازت غرفة المدخل. وكان كلُّ واحدٍ منهم يُسرع أمامها كي يكون له الامتياز الأول في أن يُعلنَ لها الخبرَ الجديدَ في الحيّ. ولكن مدبّرة منزلها كانت تصرخُ، قبل أن تتمكن السيّدة دو پيين من طرح سؤالها:

ـ آه! ياسيّدتي! . . . لو كانت سيدتي تعلم! . . .

ومـا إن فتحت البـاب بخفّةٍ لاتوصف، حتى وصلت مـع سـيدتهـا إلى «المحراب المقدّس»، وأعني غرفةَ الزّينة التي لا يُسمح لباقي النـاس في المنزل أن يلجوها.

وقالت الآنسة جوزفين، فيما كانت تفكّ شالَ السيّدة دوبيين:

آه! يا سيدتي، على بعد ثلاثة أبواب من هنا، ألقت فتاةٌ مسكينة بنفسهـا من النّافذة، منذ أقلّ من ثلاث دقائق. فلو وصلت السيّدة قبلَ دقيقةٍ، لسمعت الضّربة:

أه! يا إلهي! وقد قتلت التّعسةُ نفسها؟ . . .

ياسيدتي، كان ذلك مرعبًا. فباتيست الذي كان في الحربِ قد قال إنه لم ير قط شيئًا مماثلاً لما حدث، فمن الطابق الثالث يا سيدتي!

ـ وهل ماتت في الحال؟

ـ أوه! يا سيدتي، كانت لاتزالُ تتحرك، وحتى أنها كانت تتكلّم وتقول: «أريد أن تجهزوا علي!» غير أن عظامها كانت مهروسةً، ويمكن لسيدتي أن تتصوّر أيةَ ضربةٍ أنزلتها بنفسها.

ـ ولكن، هذه التّعسة . . . هل أنجدها أحد؟ هل أرسلوا بطلب طبيبٍ أو كاهن؟ . .

ـ بالنّسبة للكاهن يا سيدتي . . . إن سيدتي تعلمُ ذلك أحسن منّي . . . ولكن، لو كنت كاهنًا . . . إنها مسكينة قد تخلّوا عنها إلى درجة أنها قد قتلت نفسها . . . زيادةً على ذلك، فلم تكن المعنيّةُ تتمتّعُ بسيرةٍ . . . وهذا واضحٌ كفاية . . . فقد كانت من الأوبرا، كما قيل لي . . . كل هؤلاء الآنسات ينتهي بهن الأمرُ نهايةً سيئة . . . لقد وقَفَت عند النافذة، وعقدت تنانيرها الداخلية بشريطة وردية و . . . فلان!

فصرخت السيّدة دو پيين وهي تتكلّم مع نفسها:

ـ إنها تلك الفتاة المسكينة التي كانت في حداد!

ـ أجل، يا سيدتي، فقد ماتت والدتُها منذ ثلاثة أو أربعة أيام. . . لابدّ أن دوارًا قد أصابها. . . بالإضافة إلى أنه ربما يكون عاشقها قد تركها . . . ثم حان الوقتُ . . . وما من نقود، وهي لاتعرف كيف تشتغل . . . طباعٌ سيئة، وقد أدى ذلك سريعًا إلى تصرّفٍ سيئٍ. . .

وتابعت الآنسة جوزفين حديثها على ذلك النحو لبعض الوقت من غير أنّ تردُّ عليها السيّدة دو پيين. كان يبدو أنها تتأمّل بحزنٍ في القصة التي سمعتها قبل قليل، وفجأة، سألت الآنسة جوزفين:

ـ هل يعلم أحدٌ إن كان لدى هذه الفتاة التعسة ما يلزمُ لمثل حالتها؟ . . . . بياضات؟ فرش؟

يجب أن نعرف ذلك حالاً.

فهتفت مدبّرة المنزل، وقد استخفّها الفرح لأنها سترى عن كثبٍ امرأةً أرادت أن تقتل نفسها:

ـ إذا شاءت سيدتي، فأنا أذهبُ من قبلها.

ثم أضافت بعد تفكير:

ـ ولكني لا أدري إن كانت ستتوفّر لي القوة لرؤية ذلك، لرؤية امرأةٍ سقطت من الطابق الثالث! . . . فعندما فصدنا باتيست، أُغمي عليَّ، وكان ذلك أقوى من احتمالي.

فهتفت السيّدة دو پيين:

ـ حسنًا، أرسلوا باتيست، ولكن أخبروني بسرعة عن حال تلك التّعسة.

ولحسن الحظ، فإن طبيبها، الدكتور ك*** قد وصل في الوقت الذي كانت تعطي فيه ذلك الأمر. كان آتيًا لتناول العشاء معها، حسب عادته، في كلّ نهار ثلاثاء، وهو يوم الأوبرا الإيطالية.

فصاحت به من غير أن تتركَ له الوقت ليضع عصاه، وينزع معطفه:

ـ هيا بسرعة، يا دكتور، سيأخذك باتيست إلى مكانٍ يبعدُ خطوتين من هنا؛ فثمة فتاةٌ شابّة مسكينة قد ألقت بنفسها للتوّ من النافذة، ومامن أحدٍ يسعفها.

فقال الطبيب:

ـ من النافذة، إذا كانت عاليةً، فربّما ليس لدي ما أفعله لها.

كان الطبيب يرغب في أن يتناول العشاء أكثر من أن يجري عمليةً، غير أن السيدة دو پيين أصرّت، وبناءً على وعدٍ بتأخير العشاء، وافق الطبيبُ على السير خلف باتيست وعاد هذا الأخيرُ وحده، بعد بضع دقائق، وطلب بياضات، ووسائد إلخ . . . وفي الوقت نفسه، كان يحملُ نبوءةَ الطّبيب.

ـ لاشيء يُذكر، ولسوف تنجو من الحادثة، إذا لم تمتْ بسبب . . . لا أتذكّر بسببِ ماذا كان الطبيب يقول إنها قد تموت فعلاً، ولكن ما قاله ينتهي بـ(أوس).

فصرخت السيّدة دو پيين:

ـ من التيتانوس[1].

ـ تماماً ياسيدتي، ومع ذلك، فمن حسن الحظّ فعلاً أن يكون السيد الدكتور قد أتى، فقد كان هناك طبيبٌ سيءٌ لامرضى عنده، وهو الطبيب نفسهُ الذي عالج الصغيرة بيرتيلو من الحصبة، وقد ماتت في زيارته الثالثة.

وعاد الطبيب إلى الظهور، بعد ساعةٍ من الزّمن، وقد زال مسحوقُ زينته قليلاً، وغدت صدرته المصنوعة من الباتيستة غير مرتّبة.

وقال:

ـ إن هؤلاء الناس الذين يقتلون أنفسهم قد ولدوا مغرمين؛ ففي ذلك اليوم، أتوا إلى مشفاي بامرأة أطلقت من مسدسٍ عياراً نارياً في فمها. فيا له من أسلوبٍ

(١) التيتانوس: أي الكزاز. (م: ز.ع).

ســـيئ! . . . لقــد حطّمت ثلاثةً من أسنانهـــا ، وصنعت ثقـــبًا في خـــدّها الأيسر! . . . ولسوف تغدو أكثر قباحةً بقليل مما هي عليه. هذا كل ما في الأمر. أما هذه فتلْقي بنفسها من الطّابق الثالث. إن رجلاً شريفًا مسكينًا قد يقعُ من الطّابق الأول، عن غير قصدٍ منه، فيشقُّ جمجمته، أما هذه الفتاة فتكسر رجلاً . . . وقد انغرز ضلعان من أضلاعها، وأُصيبت بالعديد من الرضوض. **هذا كل شيء**. لقد كان هناك إفريزٌ في مكانِ السّقوط نفسه بالضبّط، وفي المكان المناسب، كي يخفّف من وطأة السَّقطة. وهذا هو الحادث الثالثُ المشابه الذي أراه منذ عودتي إلى باريس. . . لقد وصلت الرّجلان إلى الأرض. أما الضنّبوبُ والشظية فيمكن أن يجري تجبيرهُما . . . والأمرُ الأسوأ هو أن قُحاطة سمكةِ الترس قد جفّت تمامًا . . . وأخاف على الشواء، ولسوف يفوتنا الفصلُ الأولُ من مسرحيةِ «عطيل».

ـ وهل قالت لك تلك التعسة من الذي دفعها إلى . . .

ـ أوه! أنا لا أصغي قطّ إلى قصص كهذه، يا سيدتي، بل أسألهن: هل أكلت قبلاً إلخ. إلخ؟ لأن هذا مهمٌ في المعالجة . . . تبًا! عندما يقتلُ المرءُ نفسه، فذلك لأن هناك سببًا سيئًا. عشيقٌ يتركُك، صاحبُ منزلٍ يطردك إلى الشّارع، فالمرء يقفز من النافذة كي يضلّله. وما إن يصبح في الفضاء حتى يندم على ذلك.

ـ لقد ندمت تلك الصبيّة المسكينة، كما آمل.

ـ بلا شكّ، بلاشك، كانت تبكي، وتصخب كثيرًا، فكادت تصمّني. إن باتيست مساعدُ جرّاحٍ ماهر، يا سيّدتي، فقد قام بدوره أفضل من طالب طبٍّ صغير كان موجودًا هناك، وكان يحكّ رأسه، وهو لايعلمُ من أين يبدأ . . . إن الأمرَ الأكثرَ إثارةً بالنسبة إليها هو أنها لو قتلت نفسها، لكسبت من ذلك ألاّ تموت بداءِ الصّدر؛ فهي مصدورةٌ، وأنا أؤكّد عنها ذلك. إني لم «أعاينها»، ولكن «سحنتها» لاتجعلني أُخطئُ أبدًا. فكم هو أمرٌ يدعو إلى العجَب أن تكونَ متعجّلةً في الوقت الذي لم يعُد أمامها إلاّ أن تستسلم فيه!

ـ ستراها غداً، أليس كذلك، أيّها الطّبيب.

ـ لابدّ من هذا فعلاً! إذا أردت، فكنتُ قد وعدتها بأنك ستفعلين شيئاً من أجلها، وأبسط الأمور قد يكونُ نقلُها إلى المشفى. . . فيقدّمون لها مجاناً جهازاً لتجبير ساقها . . . ولكنها تصرخ بأنهم يجهزون عليها، عند سماعها لكلمة مشفى، إن كافّةَ النّساء الثرثارات يتّخذن الرأيَ نفسه، ومع ذلك، فحين لايكونُ لدى المرء فلسٌ واحدٌ. . . .

ـ سأقدم النفقات الصّغيرة اللاّزمة، أيها الطّبيب. . . فهيا، إن كلمة المشفى هذه ترعبني أيضاً، وبالرغم عني، مثلما ترعبُ الثرثارات اللواتي تتكلّم عليهن. زدْ على ذلك أن نقلها إلى مشفى الآن، وهي في مثل هذه الحال المرعبة، سيكون معناه قتلُها.

ـ هذا حكمٌ مسبق، حكمٌ مسبق بحت يأخذه أناس المجتمع الراقي! فالمرءُ لايكون في أيّ مكانٍ أفضل حالاً مما يكون في مشفى. وعندما أمرضُ أنا مرضاً جديّاً، سوف ينقلونني إلى المشفى، ومن هناك، أريدُ أن أسافر في مركب قارون[1]. ولسوف أهدي التلاميذ جثّتي. . . أي بعد ثلاثين أو أربعين عاماً من الآن. هذا مفهوم. فكّري في ذلك جديّاً، يا سيدتي العزيزة: فأنا لم أعدْ أعرف إن كانت محميَّتك تستحقُّ حقّاً اهتمامك أم لا. لقد بدت لي، وكأنّها إحدى فتيات الأوبرا. فلابدّ من ساقين مثل سيقان نساء الأوبرا لكي يمكن القيام بقفزةٍ مماثلة وبصورةٍ موفّقة. . . .

ـ ولكني رأيتها في الكنيسة. . . وإذن، أيها الطبيب، فأنت تعرفُ نقطة الضّعف لدي، فأنا أبني قصتي بكاملها على وجه، وعلى نظرةٍ. . . . فلتضحكْ كما تشاء، فأنا نادراً ما أخطئ التقدير. إن هذه الفتاة المسكينة قد قدّمت مؤخّراً نذْراً من أجل والدتها المريضة. وقد ماتت والدتُها. . . وهكذا فقدت رشدها. . . فاليأس والبؤس قد دفعها دفعاً إلى ذلك العمل الرهيب.

(١) أي: أن أذهب إلى الجحيم بعد الموت، في قاربِ قارون، حسب الأساطير اليونانية (م: ز ـ ع).

ـ الحمد لله! أجل، إن لديها في الحقيقة، حدبةٌ في أعلى جمجمتها، تدلُّ على اندفاع حماسي ّفكلّ ما تقوله لي ممكنٌ تماماً. وأنت تذكّرني بأنه قد كان هناك غصنٌ من شجيرة البقس فوق سريرها المتصالب. وهذا ما يحسمُ مسألة التُّقى عندها، أليس كذلك؟

ـ سرير متصالب! أه! يا إلهي! يا للفتاة المسكينة! . . . ولكنك أيها الطبيب، تبتسم ابتسامتك الشريرة التي أعرفُها جيداً، فأنا لا أتحدَّث عن التديُّن الذي لديها، أو ليس لديها. إن ما يجبرني على الاهتمام بهذه الفتاة خصوصاً هو أني أجدُ نفسي ملومةً فيما حدث لها. . . .

ـ أتلومين نفسك؟ . . . لقد فهمت. لابدّ أنه كان يتعيّن عليك أن تبسطي المفارش في الشارع كي تتلقّيها؟ . . .

ـ أجل، ألومُ نفسي، فأنا قد لاحظت وضعها: وكان عليّ أن أرسل إليها معوناتٍ، غير أن رئيس الدير المسكين دوبينيون كان مريضاً و . . .

ـ لابدّ أن لديك الكثير من تبكيت الضمير، يا سيدتي، إذا كنت تظنّين أنه لايكفي المرء أن يقدّم العطاء، كما هي عادتك، لطالبي العون جميعاً، ولابدّ أيضاً أن نخمن من هم هؤلاء المعوزون المستترون، حسب تقديرك.

« إنما، يا سيدتي، علينا ألا نتكلّم، ونبقى قاعدين، أو فلنقل ثلاث كلمات أيضاً. فإذا كنت تمنحين حمايتك السّامية لمريضتي الجديدة، فلتأمري بأن تُعطى سريراً أفضل، وممرّضةً في الغد ـ أما اليوم، فالنساء الثّرثارات يكفين ـ ولتُعط حساءً، ومنقوعات إلخ. . . ولن يكون سيئاً أن ترسلي إليها رجلاً متفهماً من بين قساوستك يزجرها ويصلح من شأن معنوياتها. كما أصلحتُ من شأن ساقها. إن هذه الفتاة عصبية المزاج، ويمكن لاختلاطات معينة أن تنشأ أمامنا فجأة . . . وقد تكونين . . أجل، وحقي! قد تكونين أفضل واعظةٍ لها. غير أنه يتعيّن عليك أن تضعي مواعظك في مواضع أفضل . . . هكذا قلت ـ لقد أصبحت الساعة الثامنة

والنّصف. فمن أجل محبّة الربّ! هيّا أعِدّي عدّة الأوبرا. ولسوف يجلبُ لي باتيست القهوة، ولو جورنال دَيْ ديبا[1]، فلقد ركضتُ كثيراً طول النّهار بحيث لم أعدْ أدري كيف تسيرُ الأمور».

ومضت بضعةُ أيام، فتحسّنت المريضةُ قليلاً، وكان الطبيبُ يشكو فقط من أن الإثارة النفسية الزائدة لم تكن تنقص.

وكان يقولُ للسيدة دو پيين:

-ليس عندي ثقةٌ كبيرةٌ بقساوستك؛ فلو لم يكن لديك نفورٌ مفرطٌ من رؤية مشهد التعاسة البشرية، مع أن لديك ما يكفي من الشجاعة، لكان بمقدورك أن تهدّئي من روع هذه الصبية المسكينة أفضل مما يمكن لكاهنٍ من سان-روك أن يفعل، وأفضل مما تصنعه، إضافة إلى ذلك، جُرعةٌ من خلاصة الخسّ.

ولم تكن السيّدة دو پيين تطلب أحسن من ذلك، فعرضت عليه أن ترافقه في الحال، وصعد كلاهما إلى غرفة المريضة.

كانت المريضة مستلقيةً على سريرٍ جيد أرسلته لها السيدة دو پيين، وداخل غرفةٍ مؤثثة بثلاثة كراسي من القشّ، ومنضدة صغيرة. وكانت الأغطيةُ الناعمةُ، والمفارش السّمكية، ونضدٌ من الوسائد العريضة تدلُّ على الاهتمامات المفعمة بالمحبة والتي لن تجدوا صعوبة في اكتشاف صاحبها. أما الفتاةُ الشابةُ التي كانت شاحبةً شحوباً مرعباً، والتي تضطرم عيناها، فقد كانت إحدى ذراعيها خارج السرير، وكان ذلك الجزءُ من الذراع الذي يخرج من قميصها داكن اللون، مثخناً بالرّضوض، ويجعل المرء يخمّن حالة باقي جسمها. وحين رأت السيّدة دو پيين رفعت رأسها، وقالت وهي تبتسم ابتسامةً رقيقة وحزينة:

-كنت أعلم جيداً أنه أنت من عطف عليّ يا سيدتي. وقد قالوا لي اسمك، وكنت متأكدة من أنك السيّدة التي كنت ألتقيها قريباً من سان-روك.

١-أي: صحيفة المجادلات (م: ز.ع).

يبدو لي أنني قد قلت لك من قبل إن السيّدة دو پيين تزعم بعض الزعم بأنها تتمكّن من معرفة الناس من سيماء وجوههم. وقد غمرتها البهجة حين اكتشفت لدى محميّتها موهبةً مماثلة، وقد جعلها هذا الاكتشاف تهتمّ بها أكثر.

وقالت وهي تجول بنظراتها على أثاث الغرفة الحقير:

- إنك هنا في وضع سيئ حقًّا، يا ابنتي المسكينة؛ فلماذا لم يرسلوا إليك ستائر؟ . . .

يجب أن تطلبي من باتيست الأشياء الصغيرة التي يمكن أن تحتاجي إليها.

- إنك طيبةٌ جداً ياسيدتي؛ فما الذي ينقصني؟ لا شيء . . . فقد انتهى الأمر . . . إن كان أفضل قليلاً أو أسوأ قليلاً، ما أهمية ذلك؟

وشرعت تبكي، بعد أن أشاحت برأسها.

وسألتها السيّدة دو پيين، وهي تجلس بقرب السّرير:

إنك تتألمين كثيراً، يا ابنتي المسكينة.

- كلاّ، ليس كثيراً . . . ولكن صوت الريح الذي سمعته أثناء سقوطي لايزال في أذني، ثم صوت السّقطة . . . طق! حين سقطت على الرصيف.

- كنت مجنونةً حينذاك، ياصديقتي العزيزة، وأنت نادمة على هذا، أليس كذلك؟

- أجل . . . ولكن الإنسان لايعود مالكًا لرشده، حين يكون تعساً.

- يؤسفني حقًّا أني لم أعرفْ وضعك من قبل، ولكن الإنسان يا ابنتي، لاينبغي له أن يستسلم لليأس، في أيّ ظرفٍ من ظروف حياته.

فقال الطبيبُ وهو يكتبُ وصفةً على المنضدة الصغيرة: - أنت تتكلمين عن ذلك يا سيدتي، وأنت مرتاحةٌ تماماً، ولا تدرين ما معنى أن تخسري شاباً جميلاً ذا شاربين، ولكن يا للشيطان! لاينبغي أن يقفز من النافذة كي يركض وراءه.

فقالت السيدة دو پيين :

ـ أفٍّ، أيها الطّبيب، إن الصّغيرة المسكينة لديها بلاشك دوافع أخرى كي . . . . فهتفت المريضة : أه! لا أدري ما الذي دهاني . إنها مئة سبب بدلاً من سبب واحد . ففي البداية، حين ماتت أمي، كانت تلك ضربةً لي، ثم شعرت بأني متروكةٌ . . . . ولا أحد يهتمّ بي! . . . وأخيراً فقد كان هناك شخصٌ أفكّر به أكثر من كل الناس . . . إنه، يا سيدتي، ينسى اسمي، فأنا أدعى أرسين غيّو : L,L,I,U,G وهو يكتبُ لي : Y[1] .

فصرخ الطّبيبُ: ـ كنت أقول ذلك فعلاً . إنه غيرُ مخلص، فلا أرى إلاّ هذا . باه! باه! أيتها الحلوة، فلتنسي ذلك الشّخص . إن رجلاً لا ذاكرةَ له لا يستحقّ أن نفكّر فيه . وسحب ساعته، وقال وهوينهض : الساعة الرابعة؟ لقد تأخرت عن عيادتي، إني أسألك قبول اعتذاري ألفَ مرةٍ يا سيّدتي، ولكن ينبغي أن أتركَكِ، فليس لديّ حتى الوقت لأُعيدك إلى منزلك ـ وداعاً، ياصغيرتي، وهدّئي من روعكِ، فليس هناك شيء مهم، ولسوف ترقصين بهذه السّاق جيداً كما ترقصين بالأخرى .

ـ وأنت أيتها الممرضة، اذهبي إلى عند الصّيدلاني، بهذه الوصفة، واصنعي كما بالأمس .

كان الطبيب والممرضة قد خرجا، وبقيت السيّدةُ دوپيين مع المريضة وحدها . وقد أحزنها قليلاً أن تلاحظَ وجودَ الحبّ في قصةٍ كانت رتبتها بصورةٍ أخرى تماماً في مخيّلتها .

واستأنفت الكلام بعدمدة صمت :

ـ وهكذا، فقد خدعوك، أيتها الصبّية التّعسة .

ـ أنا، لا، وكيف يخدعون فتاةً بائسة مثلي؟ . . . ولكنه لم يعدْ يرغبُ فيّ فقط .

---

(١) أي حرف « Y » بدلاً من I، فهو إذن يُخطىء في كتابة اسمها : (م : ز . ع) .

وهو على حقّ، فأنا لستُ ما يلزمه، فلقد كان دائمًا طيبًا وكريمًا، وكتبتُ له لأبلغه عن وضعي، ولأسأله إن كان يريد أن أعيد علاقتي به. فكتب لي حينذاك. . . أشياء قد سببّت لي الكثير من الغمّ. . . وفي ذلك اليوم، وعندما كنت عائدةً إلى منزلي، سقطت مني مرآة كان قد أعطاني إياها، وهي مرآةٌ من البندقية، كما كان يقول. لقد انكسرت المرآة. . . وقلتُ لنفسي هذه هي الضّربةُ الأخيرة! . . . . وهذه علامة على أن كلَّ شيء قد انتهى. . . فلم يعدْ لديّ شيء منه. وكنت قد وضعتُ المجوهرات في مون-دو-بييتيه. . . ثم قلت في نفسي إنه إذا مادمّرتُ حياتي فلسوف يسبِّبُ ذلك له الغمّ، فأثأر لنفسي. . . وكانت النافذةُ مفتوحةً، فرميت نفسي منها.

-ولكن، يا لك من تعسة، لقد كان الدافعُ تافهًا، كما كان الفعل إجراميًا.

-الحمد لله، ولكن كيف تريدين أن تكون الأمور؟ إن المرء لايعمل تفكيره عندما يكونُ مكتئبًا. ومن السّهل على الناس السُّعداء أن يقولوا: كوني عاقلة.

-أعلم ذلك. إن الشقاء مرشدٌ سيّئ. ومع ذلك، وحتى في غمرة أشدّ المحن إيلامًا. هناك أمورٌ لاينبغي لنا أن ننساها؛ فقد رأيتك في سان-روك وأنتِ تقومين بعمل يدلُّ على التقوى، منذ وقت قريب، فأنت تمتلكين سعادة «الإيمان». لقد كان من المفروض، يا عزيزتي، أن يمنعك تديُّنك من فعلتك تلك، في اللحظة التي كنت تهمّين فيها بالاستسلام لليأس. إنك تأخذين حياتك من الإله، وهي لاتخصّك. . . ولكني مخطئة في لومك الآن، أيتها الصغيرة المسكينة؛ فأنت نادمة، وتتألّمين ولسوف يرأفُ الله بك.

خفضت أرسين رأسها، وأتت بعض الدموع لتبلّل جفونها. وقالت وهي تتنهّد بعمق:

-آه! يا سيدتي، إنك تظنين أنني أفضل مما أنا عليه. . . أنت تظنّينني تقيّة. . . وأنا لست كذلك كثيرًا . . . فلم يعلموني كثيرًا، ولئن رأيتني أقدّم شمعة في الكنيسة فذلك لأني لم أعد أعرف إلى أين أتوجّه.

ـ حسنًا، ياعزيزتي؛ فقد كانت تلك فكرةٌ جيدة، ففي زمن المصائب، إنّما ينبغي أن نتوجه إلى الربّ.

ـ كانوا يقولون لي . . . إنه إذا ما قدّمت شمعةً لسان ـ روك . . . ولكن لاياسيدتي، لا أستطيع أن أقول لك ذلك. فسيّدةٌ مثلك لاتدري ما يمكن أن يفعله الإنسانُ حين لايعودُ لديه فلسٌ واحد.

ـ إن الشجاعة خصوصًا هي التي ينبغي أن نسألها الله.

ـ وأخيرًا، يا سيّدتي، فأنا لا أريد أن أجعل نفسي أفضل مما أنا عليه، والإفادة من أعمال البرّ التي تقومين بها من غير أن تعرفيني . . . معناه أني أسرقك . . . إني فتاةٌ تعسة . . . ولكن الإنسان في هذا العالم يحيا كما يستطيع . . . ونهايةُ القصّة، ياسيدتي، أنني قدّمت تلك الشمعةَ إذن لأن والدتي كانت تقول إنه إذا ما قدّمنا شمعة لسان ـ روك، فلا يمكن أبدًا إلاّ أن نلتقي رجلاً بعد ثمانية أيام لكي نقترنَ به . . . . غير أني أصبحتُ قبيحة، وأشبه المومياء . . . ولم يعد أحدٌ يرغبُ بي . . . حسنًا، فلم يعدْ هناك شيء غير الموت. وقد فعلتُ هذا جزئيًا!

لقد قالت كلّ ذلك بسرعةٍ كبيرةٍ، وبصوتٍ تقطعهُ العبرات، وبلهجةِ امرأة هائجة كانت توحي للسيّدة دوبيين بالخوف أكثر مما توحي لها بالفظاعة. فأبعدت كرسيّها عن غير إرادةٍ منها عن سرير المريضة. ولولا شعورها الإنسانيّ الذي كان أقوى من اشمئزازها من تلك المرأة السّاقطة، والذي يمكن أن يلومها على تركها إيّاها وحيدةً في لحظةٍ كانت فيها فريسةً لأعنف يأسٍ ممكن، لكانت ربّما غادرت الغرفة. وهيمنت لحظةٌ من السكون، همست بعدها السيّدة دوبيين همسًا ضعيفًا، وهي تُخفض عينيها:

والدتك! أيتها التعسة! ماذا تجرئين على القول؟

ـ أوه! كانت أمّي مثل كلّ الأمهات . . . كلّ أمّهاتنا . . . لقد أعالت أسرتها . . . وقد أعلتها أنا بدوري . . . ولحسن حظي أنه لا ولد لي ـ ألاحظ يا سيدتي أني

أخيفك. . . ولكن ما الذي تريدينه؟. . . لقد تلقيت تربيةً جيدة، ولم تعان أبداً. وحين يكون المرء غنيًّا، من السّهل أن يكون شريفًا. وأنا كان يمكن أن أكون شريفةً، لو توفَرت لي السُّبل لذلك. فقد كان عندي عشاقٌ كثيرون. . . ولم أحبّ إلاّ رجلاً واحداً، فتركني هنا. ولو كنت غنيةً لتزوّجنا، ولأصبح لنا أحفاد من أناسٍ شرفاء. . . . هيا، يا سيدتي، إني أكلّمك كما ترين وبكلّ صراحة. ومع أني ألاحظُ جيداً ماهو رأيُك بي، وأنت على حقّ. . . غير أنّك المرأة الوحيدة الشريفة التي تحدثّت إليها في حياتي، وأنت تبدين شديدة الطّيبة، شديدة الطيبة. . . . بحيث قلتُ لنفسي مَنذ قليل من غير تصريح: وحتى لو عرفتني، فلسوف ترأفُ بي. إني ذاهبةٌ لأموت، ولا أطلبُ منك إلاّ شيئًا واحداً. . . . . وهو أن تعملي على إقامة قدّاسٍ من أجلي، بعدَ أن أموت، وذلك في الكنيسة التي رأيتك فيها للمرة الأولى. صلاة واحدة، هذا كلّ شيء، وإني أشكرك من أعماق قلبي. . . .

فهتفت السيّدة دو پيين بتأثرٍ شديد:

- كلاّ، لن تموتي، ولسوف يرأفُ الربُّ بك، أيتها الخاطئةُ المسكينة. لسوف تندمين على أفعالك الفاسدة، وهو يغفر لك. فإن كانت صلواتي تستطيع أن تفعل شيئًا من أجل خلاصك، فلن تفتقري إليها. إن أولئك الذين قاموا بتربيتك مذنبون أكثر منك. فلتتحلّي بالشّجاعة فقط، والرّجاء. وحاولي خصوصاً أن تكوني أكثر هدوءاً، يا حبيبتي المسكينة يجب أن يشفى الجسد، ولكن الرّوح مريضةٌ أيضاً. ولكني أتكفّل بشفائها.

كانت قد وقفت وهي تتكلم، وتدحرجت من بين أصابعها ورقةٌ تحتوي بعض اللويسيّات[1]، وقالت لها:

- خذي، وإن كانت لديك نزوةٌ ما. . .

ودسّت تحت وسادتها هديّتها الصّغيرة.

---

(١) اللويسيّة: قطعة ذهبية فرنسية كانت تساوي عشرين فرنكاً (م: ز. ع).

ـ كلاّ، يا سيدتي، لا أريد شيئًا منك إلاّ ما وعدتني به؛ فوداعًا. لن نلتقي بعد الآن. فاعملي على نقلي إلى مشفى كي أنتهي من غير أن أُزعج أحدًا؛ فلن يكون بمقدورك قطّ أن تصنعي مني شيئًا ذا قيمة. إنما ستكونُ سيدةٌ عظيمةٌ مثلك قد صلّت لأجلي. إني مسرورة لذلك ووداعًا.

واستدارت بقدر ما كان الجهازُ الذي يثبتها إلى السّرير يسمحُ لها بذلك، وخبأت رأسها في وسادة كي لاترى شيئًا بعد ذلك.

فقالت السيّدة دو بيين بلهجةٍ جادة:

ـ اصغي إلي، إني أبني عليك آمالاً؛ فأريد أن أصنع منك امرأة شريفةً، ولدي يقين بتوبتك، ولسوف أراك في أكثر الأحيان، وأهتمّ بك، وذات يوم، سوف تكونين لي مدينةً بالتقدير الذي ستكنينّه لنفسك.

وأمسكت يدها، وشدّت عليها شدًّا خفيفًا.

فهتفت الفتاةُ المسكينة:

ـ لقد جعلتني أتأثر، وقد ضغطتِ على يدي.

وقبل أن تتمكن السيّدة دو پيين من أن تسحبَ يدها، كانت الفتاةُ قد أمسكتها، وأخذت تغمرها بالقبلات والدّموع.

وكانت السيّدة دو پيين تقول:

ـ هدئي نفسك، هدئي نفسك، يا عزيزتي، ولا تكلّميني بعد ذلك عن أيّ شيء. فأنا الآن أعرف كلّ شيء، وأعرفك أفضل مما تعرفينني أنتِ. فأنا طبيبةُ رأسك، رأسكِ العنيدة. ولسوف تطيعينني، فأنا أطلبُ منك ذلك، مثلما تطيعين طبيبكِ الآخر تمامًا، ولسوف أرسلُ إليك أحد أصدقائي الكهنة، فاستمعي إلى كلامه، وسأختار لك بعض الكتب الجيّدة، فاقرئيها، ولسوف نتحدّث في بعض الأحيان، وعندما تتحسّن صحتّك، نهتمُّ بمستقبلك حينذاك.

ودخلت الممرضة، حاملةً قارورةً جلبتها من عند الصيّدلاني، وكانت أرسين تبكي باستمرار، فشدّت السيّدة دوبيين على يدها مرةً أخرى أيضاً ووضعت اللُّفافة التي تحتوي اللويسيّات على المنضدة، وخرجت وقد أصبح لديها ربّما موقفٌ تجاه الفتاة التائبة هو أكثر إيجابيةً من موقفها منها، قبل أن تسمع اعترافها الغريب.

فلماذا، يا سيدتي، نحبُّ دوماً الأشخاص الفاسدين؟ فمن الابن الضّال وصولاً إلى كلبك ديامان الذي يعضّ كلّ الناس، والذي هو أكثر الحيوانات التي أعرفها شراً، يصبح لدينا ما يُلهمنا بأن نزيد اهتماماتنا بهم بقدر ما يكون استحقاقهم له أقلّ. فيا للغرور! يا للغرور البحت! يا سيدتي في هذا الشعور! إنه متعةُ الصّعوبة التي نقهرُها! فوالد الابنِ الضّال قد قهر الشيطان، وانتزع منه فريسته. وقد انتصرت على طبع ديامان السيّئ بفضل الكثير من كعكات السُكّر. لقد كانت السيّدة دو پيين فخورةً بأنها قد قهرت دعارة العاهرة، وبأنها قد دمَّرت ببيانها الحواجز التي أقامها إغواء عشرين عاماً حول نفسٍ مسكينةٍ متروكة. ثم أن هناك ربّما أيضاً، وهل ينبغي أن نقول ذلك؟ هناك هذا الشعورُ بالفضول الذي يمتزج بكبرياء ذلك الانتصار، وبسرور القيام بعملٍ خيّر، وهو شعورٌ تحسُّ به العديد من النساء الفاضلات لمعرفة امرأةٍ من نوعٍ آخر. فعندما تدخل مُغنيةٌ إلى قاعة استقبال كنت ألاحظُ نظراتٍ غريبةً تستدير نحوها. وليس الرّجال هم الذين ينظرون إليها أكثر من غيرهم. وأنت ياسيدتي، في ذلك المساء، في الفرنسي[1]، ألم تكوني تنظرين بكلّ منظارك المقرّب إلى تلك الممثّلة التي تقدّم المنوعات[2] والتي دلّوكِ عليها في مقصورتها؟ «فكيف يمكن للمرء أن يكون فارسياً»؟[3]، وكم من المرات لايطرحُ المرء على نفسه أسئلةً مماثلة؟ وإذن، ياسيدتي، فإن السيّدة دو پيين كانت تفكّر كثيراً بالآنسة أرسين غيّو، وتقولُ في نفسها: سوف أخلّصها.

---

(١) اسم لقاعة احتفال: Lefrançais. (م: ز. ع).

(٢) اسمٌ لمربع تقدّم فيه فقرات فنية متنوعة (م: ز. ع).

(٣) جملةٌ شهيرة وردت في كتاب «رسائل فارسية» لمونتسيكيو الذي يسخرُ فيها من المولعين بما هو غير مألوف إلخ... (م: ز. ع).

وأرسلت إليها كاهنًا حثّها على التوبة.

ولم تكن التوبةُ صعبةً بالنسبة لأرسين المسكينة التي لم تكن تعرفُ من الحياةِ غير أوقاتِ البؤس، باستثناء بعض السّاعات من الفرحِ الحسيّ؛ فقولي لأحدِ التّعساء، إنها غلطتك، فيزدادُ اقتناعًا بذلك؛ وإذا ما لطّفت اللومّ في الوقت نفسه بأن تقدمي له بعض المواساة فلسوف يباركك، ويعدكِ بكلّ شيء في المستقبل. وثمة يونانيّ قد قال، أو أن «أميو»[1] على الأصح هو الذي جعله يقول:

إن اليوم ذاته الذي يضعُ القيودَ في يد إنسان حرّ

ينتزع منه نصفَ فضيلته الأصلية.

إن ما يعنيه هذا القول المأثور بلغة النثر، هو أن الشقاء يجعلنا رقيقين وطيّعين كالخراف. وكان الكاهن يقولُ للسيّدة دوبيين إن الآنسة غيّو جاهلة فعلاً وإن أساسها ليس شريرًا، وإن لديه أملاً كبيرًا في خلاصها. كانت تقرأ أو تسمع قراءة الكتب التي وصفوها لها، كما كانت دقيقةً في طاعةِ السيّدة دوبيين كما هي دقيقة في اتّباع وصفات الطّبيب. غير أن الأمرَ الذي كسبَ نهائيًا قلبَ الكاهن الطيّب والذي بدا لحاميته وكأنه مؤشرٌ حاسمٌ على شفاء أرسين الرّوحي، هو استخدامها لجزء من المبلغ الصغير الموضوع بين يديها. فكانت قد طلبت أن يُقام قدّاسٌ احتفالي في سان ـروك، من أجل باميلا غيّو، والدتها المتوفّاة، وبالتأكيد، لم تكن هناك نفسٌ تحتاج أكثر من نفسها لصلوات الكنيسة.

(١) أميو: AMYOT هو أنّسيّ (عالم بالآداب القديمة) فرنسي (١٥١٣ـ١٥٩٣) ترجم عن القدماء، وأسس النثر الفرنسي في القرن السادس عشر (م: ز.ع).

ذات صباح، كانت السيّدة دو پيين أمام منضدة زينتها، عندما أتى خادمٌ ليدقّ على بابِ المحراب باحتشام، وسلّم الآنسة جوزفين بطاقةً أتى بها شابٌ منذ قليل.

وهتفت السيّدة دو پيين وهي تُلقي نظرةً على البطاقة:

ـ إن ماكس في باريس، فاذهبي بسرعة، يا آنسة، وقولي للسيّد دو سالينيي أن ينتظرني في غرفة الاستقبال.

وما هي إلاّ لحظة حتى سُمعت في غرفة الاستقبال ضحكاتٌ، وصرخاتٌ صغيرة مكتومة، ودخلت الآنسة جوزفين ثانية، وقد احمرّ وجهها كثيراً، وهي تعتمر قبعةً تغطّي إحدى أذنيها تماماً.

وسألتها السيّدة دو پيين:

ـ ما الأمر إذن يا آنسة؟

ـ لاشيء، يا سيدتي، سوى أن السيّد دو سالينيي كان يقول إنني قد سمنت.

كان يمكن لسمنة الآنسة جوزفين، في الواقع، أن تُدهش السيّد دو سالينيي الذي كان مسافراً منذ أكثر من عامين. وقديماً، كان أحدَ المقرّبين من الآنسة جوزفين، وأحد المجاملين لسيّدتها. وبما أنّه ابن أُخٍ لصديقة حميمة للسيّدة دوپيين؛ فقد كان يُرى باستمرار في منزلها قديماً، وراء عمّته. زدْ على ذلك، أن ذلك المنزل قد كان تقريباً هو المنزل الوحيد الرّصين الذي ظهر فيه؛ فقد كانت لماكس دوسالينيي سمعةُ مواطنٍ ذي خلق سيّئ؛ فهو مقامرٌ. ومحبٌّ للخصام، ومنغمسٌ في الملذات، و «هو أفضل ابن في العالم، في حاصل الأمر»، وكان يسبب اليأس لعمته، السيّدة أوبريه التي تعبدهُ مع ذلك. وقد كانت تحاول مرات عديدةً أن تُخرجه من الحياة التي كان يعيشها، غير أن العادات السيّئة كانت تتغلّب دوماً على النصائح العاقلة عنده. وكان ماكس يكبر السيّدة دو پيين بعامين تقريباً، ويعرف كُلٌّ منهما الآخر منذ الطّفولة. وقبل أن تتزوّج السيّدة دو پيين، كان يبدو أنّه ينظر إليها بشغف.

وكانت السيدة أوبريه تقول لها: - إذا أردت، يا صغيرتي العزيزة، يمكنك أن تروّضي طباعه تلك، أنا متأكدةٌ من ذلك. إن السيّدة دوپيين - وكان اسمها حينذاك إليز دو غيسكار - كان يمكن أن تجد الشّجاعة في نفسها ربما كي تجرّب الدخول في ذلك المشروع، فقد كان ماكس شديدَ المرح، وطريفًا، ومسلّيًا في قصرها. ولا يتعبُ في حلبة الرقص إلى درجة يمكن معها بالتأكيد أن يكون زوجًا جيدًا لها. غير أن والديّ كانا أبعد نظرًا، ولم تكن السيّدة أوبريه نفسها تكفل ابن أخيها كثيرًا؛ فقد تبين أن عليه ديونًا وأن له عشيقةً. وجرت فجأةً مبارزة صاخبة كانت إحدى فتيات الجمناز[1] سببًا غير بريء له. والزواج الذي لم تكن السيّدة أوبريه قد وضعته نصب عينيها قطّ بصورة جديّة قد تبيّن أنه غير ممكن. حينذاك، تقدّم السيّد دو پيين، وهو نبيلٌ رصينٌ، وفاضل، وغنيٌّ، زيادةً على ذلك، ومن عائلة مرموقة. إن لديّ أشياء قليلة أقولها لك بهذا الشأن، اللهمّ إلاّ أنه كان معروفًا بملاطفته للنساء، وأنه كان يستحقُّ هذه السمعة؛ فقد كان قليلَ الكلام، غير أنه عندما يفتح فمه، كان ذلك ليقول حقيقةً كبيرةً لاجدال عليها، وفي الأمور التي يحومُ الشكُّ حولها. «كان يحاكي كونرار في صمته الحصيف». ولئن كان لايضيف سحرًا كبيرًا على الاجتماعات التي يجد نفسه فيها؛ فهو لم يكن ينتقل إلى أيّ مكان آخر. وكان النّاس يحبّونه بصورة كافية في كلّ مكان. بسبب زوجته. ولكنه حين يكون غائبًا - في أراضيه، كما هي الحال لمدة تسعة أشهر في السنة، وخصوصًا في الوقت الذي تبدأ فيه قصّتي - لا يلحظُ أحدٌ شيئًا، وزوجته ذاتها قلّما كانت تلاحظ غيابه أكثر من غيرها.

بعد أن انتهت السيّدة دو پيين من زينتها في خمس دقائق، خرجت من غرفتها، وهي منفعلة قليلاً؛ فوصول ماكس دوساليني كان يذكرها بالوفاة الحديثة العهد، وفاة الشخص الذي أحبّته أكثر من غيره. وهذه على ما أعتقد، هي الذكرى الوحيدة التي خطرت ببالها. وكانت هذه الذكرى حيّةً إلى درجة كافية بحيث أوقفت كلّ

---

(١) هنا اسم علم وعمومًا: هو نادٍ رياضي. (م: ز. ع).

الظُّنون المثيرة للضحك والتي كان يمكن لشخصٍ أقلّ حكمةً من السيّدة دوپيين أن يكوّنها عن قبعة الآنسة جوزفين المائلة، وأثناء اقترابها من قاعة الاستقبال، صُدمت قليلاً لأنها سمعت صوتَ مغنٍّ جهيرٍ جميلاً كان يغنّي بمرافقة البيانو هذه القاربيّة[1] النابوليتانية:

Addio Teresa

Teresa Addio

Al Mio Ritorno

Ti Sposero.[2]

وفتحت الباب، وقاطعت المغنّي، وهي تمدّ له يدها:

- يا سيدي المسكين ماكس، كم يسرّني أن أراكَ ثانية!

فنهض ماكس بسرعة، وشدّ على يدها، وهو ينظرُ إليها بهيئة مذعورة، من غير أن يجدَ كلمةً، فتابعت السيّدة دو پيين:

- لقد أسفت كثيراً لأني لم أستطعْ أن أذهبَ إلى روما، عندما مرضت عمّتك الطيّبة، وأعرف العناية التي أحطتها بها، وأشكرُك حقًّا على الذّكرى الأخيرة التي أرسلتها لي عنها. فاتّخذ وجهُ ماكس، المرح بطبعه، إذا لم نقل الضّاحك، اتّخذ تعبير حزنٍ مفاجئًا، وقال:

- لقد حدثتني حديثًا جيداً عنك، وحتى اللحظة الأخيرة، وقد تلقّيتُ خاتمها. إني أرى ذلك، والكتاب التي كانت لاتزالُ تقرؤه في الصّباح.

(١) أغنية ينشدها أصحابُ القوارب في البندقية. (م: ز. ع). أو نابولي.

(٢) وداعًا يا تيريزا

ياتيريزا، وداعًا

عند عودتي

سوف أتزوجك. (م: ز. ع).

ـ أجل، يا مـاكس، إني أشكرك على ذلك. وكنت تُبلغني، وأنت ترسل إلي هذه الهديَّة الحزينة بأنك ستغادرُ روما. غير أنك لم تعطني عنوانك، ولم أكن أعلم من أين أكتب إليك. يا صديقتي المسكينة! ما أصعب أن يكون المرء بعيداً جداً عن بلاده! ولحسن الحظّ؛ فقد هرعت إليها حالاً . . . . فأنت أفضل مما تريدُ أن تبدو عليه، يا ماكس . . . . إنّي أعرفك جيداً.

ـ كانت عمتي تقول لي إبّان مرضها: «عندما أمضي من هذا العالم، لايظلُّ هناك سوى السيِّدة دوبيين لكي توبّخك . . . (ولم يستطعْ أن يمنع نفسه من الابتسام)، فحاولْ ألاّ توبّخك في أغلب الأحيان». وها أنتِ ترين، يا سيدتي، إنك تؤدين مهماتك تأديةً سيئة.

ـ آمل أن أحصل على وظيفة بلا عمل الآن. ويقولون لي أن حالك قد صلحت، فأصبحت رصينًا وعاقلاً تماماً؟

ـ وأنت لست مخطئة، يا سيدتي؛ فقد وعدتُ عمتي المسكينة بأن أصبح إنسانًا صالحًا و . . . .

ـ وستلتزم بوعدك، أنا متأكدة من ذلك!

ـ سأحاول، وأثناء السّفر، يبدو الأمر أسهل مما هو في باريس. ومع ذلك . . . .

فلاحظي، يا سيدتي، أني لم أصل إلى هنا إلاّ منذ بضع ساعات، وقد صمدت أمام بعض الإغراءات؛ فحين أتيتُ إلى منزلك، التقيت أحد أصدقائي القدامى والذي دعانا للعشاء مع شلّةٍ من الفاسدين ـ وقد رفضتُ.

ـ لقد أحسنت صنعاً.

ـ أجل، وهل ينبغي أن أقول لك ذلك؟ فالسبّب أني كنت آملُ أن تدعيني.

ـ يا لسوء الحظ! إني أتعشىّ في المدينة. ولكن غداً . . . .

ـ في هذه الحالة، لم أعدْ أضمن نفسـي. وعليك تقعُ مسؤولية العشـاء الذي سـأتناوله.

ـ اصغِ يا ماكس، إن المهمّ هو أن يبدأ المرءُ بدايةً جيدةً؛ فلا تذهبْ إلى عشاء هؤلاء الصّبيان، وأنا سأتعشى في منزل السّيدة دارسونيه. فتعالْ إلى هناك مساءً وسوف نتحدّث.

ـ أجل ولكن السّيدة دارسونيه مضجرةٌ حقًّا بعضَ الشّيء، ولسوف توجّه إلي مئة سؤال. ولن أتمكن من أن أقول كلمةً واحدةً لك؛ سوف أقول أشياء غير لائقة، ثم أن لها ابنةً طويلة القامة، بارزة العظام، ولم تتزوّج بعد ربما. . . .

ـ إنها امرأةٌ رائعة. . . . وبصدد الأقوال غير اللائقة؛ فكلامُك عليها الذي تفوّهت به هو واحدٌ من تلك الأقوال.

ـ أنا على خطأ، هذا صحيح. ولكن . . . بما أنّي قد وصلت اليوم، أفلا يبدو أني متعجّلٌ حقًّا؟

ـ حسنًا، فلتفعلْ كما تريد. ولكن هل ترى يا ماكس ـ بما أني صديقة عمتك، فلي الحقّ في أن أكلمك بصراحة ـ فلتتجنّب معارفك القدامى، فلا بدّ أن الزمن قد قطع بصورة طبيعية تمامًا علاقاتٍ كثيرة لم تكن تساوي لك شيئًا، فلا تُعد ربطها مجددًا؛ فأنا متأكدة منك طالما لم تنجرفْ؛ ففي مثل عمرك. . . . في مثل «عمرنا» يجب أن يكون المرءُ عاقلاً. ولكن لندعْ قليلاً النصائح والمواعظ، وحدثني عما فعلته منذ افترقنا. أعلم أنك قد ذهبت إلى ألمانيا، ثم إلى إيطاليا، هذا كلُّ شيء. وقد كتبتَ لي مرّتين، ليس أكثر. فلتتذكّر ذلك. رسالتان في عامين، وأنت تدركُ أن هذا لم يخبرني الشيء الكثير عنك.

ـ يا إلهي؟ يا سيدتي. إني مذنبٌ حقًّا. . . . ولكني شديدُ. . . ويجب حقًّا أن أقول ذلك ـ شديد الكسل! . . . . فقد بدأتُ عشرين رسالة موجّهةً إليك ـ ولكن ماذا كان يمكنني أن أقول لك من أمورٍ تهمّك؟ . . . . أنا لا أعرف كيف أكتبُ الرسائل،

ولو كتبت إليك في كلّ مرةٍ فكّرت فيها بك، لما كان يمكن لكلّ ورق إيطاليا أن يكفيني.

- حسنًا، فماذا فعلت إذن؟ كيف ملأت وقتك؟ لقد عرفت للتو أنك لم تشغله بالكتابة.

- أشغله! .... إنك تعلمين أني لا أهتمّ بشيء لسوء الحظّ، فقد رأيتُ، وركضت، وكانت لدي مشاريعٌ في الرّسم، غير أن رؤية العديد من اللّوحات الجميلة قد شفاني جذرياً من هوايتي التعسة - أه! ... ثمّ أن نيبي العجوز كان قد جعل مني مهتماً بالتُّحف القديمة تقريباً. أجل لقد سعيتُ لتنفيذ تنقيب بناءً على قناعةٍ منه.. . وقد عثرنا على غليونٍ مكسور، وعلى عددٍ من الكسرات الخزفية، لا أدري ما هو. وأخذت دروساً في الغناء، بعد ذلك، في نابولي. ولكنّي لم أصبحْ أكثر مهارةً منه .... وقمت...

- أنا لا أحبُّ موسيقاك كثيراً، مع أن لديك صوتاً جميلاً، وتغنّي جيداً، وهذا ما يضعكُ في علاقةٍ مع أناسٍ ليس لديك ميلٌ كبير للتردّد عليهم.

- إني أفهمك، ولكنني عندما كنتُ في نابولي، لم يكن هناك إلاّ القليل من الخطر. فقد كانت السّيدة الأولى تزنُ مئةً وخمسين كيلوغراماً. وكان فمُ السيدة الثانية أشبه بفرن، ولها أنفٌ مثل برج لبنان. وأخيراً، فقد مرّ عامان عليّ من غير أن أستطيع أن أقول كيف. فلم أصنع شيئًا، ولم أتعلّم شيئًا، غير أني عشتُ عامين من غير أن أنتبه لذلك.

- أودّ أن أعرف بأنك مشغولٌ بأمرٍ ما، وأودّ أن أرى لديك ميلاً معينًا لشيء ما مفيد. وأخشى عليك من الفراغ.

- أقول لك بصراحة، يا سيدتي، إن الأسفار قد ناسبتني في هذا الأمر. فمع أني لم أكن أصنع شيئًا أثناءها، فإني لم أكن متعطّلاً تماماً، وحين يرى المرء أشياء جميلة، لايشعر بالضجر. وأنا، عندما أضجر، أصبح قريباً جداً من القيام

بحماقات. لقد أصبحتُ، بالفعل، رصينًا إلى حدٍّ كاف، وحتى أنني نسيتُ عددًا من الطّرائق العجولة التي كنت أتبعُها لصرف نقودي؛ فقد دفعت عمتي المسكينة ديوني، ولم أقعْ في الدين بعد ذلك. ولم أعدْ أرغب في الاستدانة. إن لديّ ما يمكّنني من العيش كفتًى عازب. وبما أني لا أريدُ أن أظهر غنيًّا أكثر مما أنا عليه؛ فلن أقومَ بأعمال شاذّة. هل تبتسمين؟ هل أنت غير مؤمنة باهتدائي؟ وهل يلزمك إثباتات؟ فلتصغي إلى هذه المأثرة الجميلة؛ فقد أراد فامين، الصّديق الذي دعانا إلى العشاء، أراد اليوم أن يبيعني جواده بخمسة آلاف فرنك... إنه حيوانٌ رائع! وكانت أوّل اندفاعة له هي باتّجاه الحصول على الجواد. ثم قلتُ لنفسي إنني لستُ غنيًّا بما فيه الكفاية كي أدفع خمسة آلاف فرنك مقابل نزوة، فلأبقَ سائرًا على قدمي.

ـ هذا رائع يا ماكس... ولكن هل تعلمُ ماذا ينبغي أن تعمل كي تستمرّ في هذه الطريق الصحيحة من غير عوائق؟ يجب أن تتزوّج.

ـ آه! أن أتزوّج؟... ولمَ لا؟ .... ولكن من يرغب بي؟ أنا الشخصُ الذي لا يحقّ لي أن أكون متشددًا، أريد امرأةً... أوه! كلا، لم يعدْ هناك من يناسبني ....

فاحمرّ وجه السّيدة دوبيين قليلاً، فتابع ماكس من غير أن يلحظ ذلك:

امرأة ترغب بي... ولكن هل تعلمين ياسيدتي أن هذا قد يكون سببًا لكي لا أرغب بها؟

ـ ولمَ ذلك؟ وأيُّ جنونٍ هذا!

ـ ألم يقل عُطيل في موضعٍ ما ـ وذلك، على ما أظنّ كي يُسوّغ لنفسه الشكوك التي كانت تساوره نحو ديدمونته: ـ إن تلك المرأة لابدّ أن لها عقلاً غريبًا، وميولاً شاذّة، لأنها قد اختارتني، أنا الأسود البشرة ـ أفلا يمكنني أن أقول بدوري: إن امرأةً ترغبُ بي لا يمكن إلاّ أن يكون لها عقلٌ غريب الأطوار؟ ـ لقد كنت إنسانًا سيئًا ياماكس إلى درجة تكفي لأن يصبح من غير المفيد أن يُساء إليك أكثر مما أنتَ عليه.

فاحترسْ من الكلام بهذه الطّريقة عن نفسك لأن هناك أناسًا قد يصدّقونك بمجرّد الكلام. أما أنا، فأنا متأكدة من أنه، أجل . . . إذا ما أحببت حقًا امرأةً في يوم من الأيام، على أن تكون حائزةً على كامل تقديرك. . . حينذاك، ستظهر لها. . .

وكانت السيّدة دو پيين تشعر ببعض الصّعوبة لإكمال جملتها، أو ماكس الذي كان يحدّق بها بفضولٍ أقصى، فلم يكن يساعدها إطلاقًا على إيجاد نهايةٍ لدائرة الكلام التي كانت قد بدأتها بداية سيئة.

واستأنف أخيراً قائلاً:

ـ أنت تريدين أن تقولي لي إنه لو كنتُ عاشقًا فعلاً، لكان هناك من يحبُّني، لأنني حينذاك أستحقّ ذلك.

ـ أجل، حينذاك، ستكون جديراً بأن تحبَّ أيضًا.

ـ وكأنه لايلزمُ المرء أن يُحبَّ كي يكون محبوبًا. . . . إن ما تقولينه، ياسيدتي، ليس صحيحًا جداً . . . عجبًا! فلتجدي لي امرأةً شجاعة، فأتزوج، هذا إذا لم تكن شديدة القبح. أما أنا فلستُ عجوزاً بما يكفي، كي لا أشغف بها أيضًا . . . وأنت تتكفّلين بما تبقى، وقاطعته السيدة دوپيين بجديّة:

ـ أنت الآن راجعٌ من أين؟

وتحدّث ماكس باقتضاب شديد عن أسفاره، ولكن بطريقة يدلُّ بها على أنه لم يكن يصنعُ مثل أولئك السيّاح الذي يقول عنهم اليونانيّون: «ذهبوا بحقيبة وعادوا بحقيبة». وكانت ملاحظاته القصيرة تدلُّ على فكرٍ سليم لا يتّخذ آراء مُعدّةً سلفًا. مع أنه كان أكثر ثقافةً فعلاً مما كان يريد أن يظهر. فانسحب سريعًا، حين لاحظ أن السيّدة دو پيين تديرُ رأسها نحو ساعة الجدار، ووعد بأن يذهب مساءً إلى منزل السيّدة دارسوني، ولكنه كان وعداً لا يخلو من بعض الإحراج.

ومع ذلك، لم يذهب إليها؛ فاغتاظت منه السيّدة دو پيين قليلاً. وبالمقابل، فقد أتى إلى منزلها في صباح اليوم التالي ليعتذر إليها، متذرّعًا بتعب السفَر الذي

اضطرّه إلى البقاء في بيته؛ غير أنه كان يخفض عينيه، ويتكلّم بلهجة غير ثابتة، بحيث لم يكن من الضروري أن يكونَ المرء بمهارة السيّدة دو پيين في قراءة سيماء الوجوه كي يلاحظ أنه قد أخفق في إقناعها، وعندما أنهى حديثه بصعوبة، هدّدته بإصبعها من غير أن تردَّ عليه.

فقال: ـ أنت لا تصدقينني؟

ـ كلاّ، ولحسن الحظّ أنك لا تحسن الكذب حتى الآن؛ فأنت لم تذهب بالأمس إلى منزل السيّدة دارسونيه لكي تستريح من مشقات السّفر؛ فأنت لم تبق في منزلك.

فأجاب ماكس، وهو يبذل جهداً كي يبتسم:

ـ حسنًا، أنت على حقّ؛ فقد تناولت العشاء في روش ـ دور كانشال مع أولئك التافهين. ثم ذهبت كي أتناول الشاي في منزل فامين، ولم يقبلوا أن يتركوني، وبعد ذلك، لعبت.

ـ وخسرت، هذا أمرٌ طبيعيّ.

ـ كلاّ، لقد ربحت.

ـ هذا أسوأ، كنتُ أفضل لو أنك خسرت، خصوصًا إذا كان يمكن لذلك أن يجعلك تشمئز إلى الأبد من عادة حمقاء بقدر ما هي مقيتة.

وانحنت على الشغل اليدوي الذي تنهمك فيه، وأخذت تعملُ بمثابرة لا تخلو من التصنُّع. وسأل ماكس بخجل: ـ هل كان هناك أناسٌ كثيرون في منزل السيّد دارسونيه؟

ـ كلاّ، قليل من الناس.

ـ وما من آنسة تصلح للزّواج؟...

ـ كلاّ.

ـ ومع ذلك، فأنا أعتمد عليك، يا سيدتي فأنت تعرفين ما وعدتني به؟

ـ لدينا الوقت لنفكر في الأمر.

كان ثمة شيء جافّ، وينمّ عن الضيق في لهجة السيّدة دو پيين، وهذا ما لم يكن اعتيادياً فيها.

وبعد لحظة صمت، استأنف ماكس بتواضع:

ـ هل أنت مستاءة مني، يا سيدتي؟ فلماذا لاتوبخيني بصوت عالٍ، كما كانت تفعل عمتي كي تغفر لي بعد ذلك؟ هيّا هل تريدين أن أقطع لك وعداً بألا ألعب أبداً؟

ـ عندما يقطع الإنسانُ وعداً، فينبغي أن يشعر بالقدرة على الوفاء به.

ـ إذا كان وعداً مقطوعاً لك، يا سيّدتي، فأنا أحافظ عليه، وأظنّ في نفسي القوة والشجّاعة لذلك.

فقالت وهي تمدّله يدها:

ـ حسنًا، يا ماكس، وأنا أقبله.

فتابع قائلاً:

ـ لقد ربحت ألف ومئة فرنك، فهل تريدينها من أجل فقرائك؟ فما من نقودٍ كُسبت بطريقة أسوأ يمكن أن تجد أبداً استخداماً أفضل.

فتردّدت لحظة، وقالت لنفسها بصوتٍ عالٍ:

ـ ولم لا، هيا، يا ماكس. إنك سوف تتذكّر الدّرس، ولسوف أسجّل اسمك كمموّلٍ بألف ومئة فرنك.

ـ كانت عمتي تقول إن أفضل طريقة كي لا يستدين المرء هي أن يدفع نقداً باستمرار.

وكان، وهو يتكلّم، يسحب محفظته ليأخذ منها الأوراق النقديّة، وظنّت السيّدة دو پيين أنها ترى في المحفظة المفتوحة جزئيًا صورة امرأة، ولاحظ ماكس أنها كانت تنظر، فاحمرّ وجهه، وأسرع بإغلاق المحفظة، وبتقديم الأوراق النّقدية.

وأضافت السيّدة دو پيين وهي تبتسم بدهاء:

- أودّ أن أرى هذه المحفظة . . . إن كان هذا ممكنًا.

كان ماكس مضطربًا تمامًا، فتمتم ببضع كلماتٍ غير مفهومة، وجَهد ليصرف انتباه السيّدة دو پيين.

لقد كانت الفكرةُ الأولى التي خطرت لهذه السيّدة هي أن المحفظةَ تحتوي صورة حسناء إيطالية ما؛ غير أن الاضطراب الظاهر عند ماكس، ولون الصّورة المصغّرة العام - وهذا كلّ ما استطاعت أن تراه - قد أيقظا لديها في الحال شكًّا آخر؛ فقديمًا كانت قد أعطت السيّدة أوبريه صورتها، وتصوّرت أن ماكس، بصفته وريثًا مباشرًا لتلك السيّدة، قد ظنّ أن لديه الحقّ في امتلاك تلك الصّورة. وقد بدا لها هذا أمرًا ينمّ عن عدم لياقةٍ هائل. ومع ذلك، فلم تُشر إلى شيء من ذلك في البداية. غير أنّها قالت للسيد دو ساليني، حين كان يهمّ بالخروج:

- بالمناسبة، كانت لدى عمّتك صورة لي، وأودّ أن أراها ثانية.

فسأل ماكس بصوتٍ قليل الثبات:

- لا أعلم . . . أية صورة؟ . . . كيف كانت؟

وعزمت السيدة دو پيين على أن تتجاهل أنه كان يكذبُ، فقالت له بلهجةٍ طبيعية بقدر إمكانها:

ابحث عنها، ولسوف يسرّني ذلك.

بصرف النظر عن الصّورة كانت السيّدة دو بيين مسرورة إلى حدٍّ كافٍ من لين عريكة ماكس، وقطعت وعدًا على نفسها بتخليص خروفٍ ضالٍّ أيضًا.

وفي اليوم التالي، عثر ماكس على الصّورة، وأعادها بطريقة غير مبالية، ولاحظ أن التشابه لم يكن قطّ كبيراً، وأن الرسّام قد أضفى على الصورة تصلّباً في الوضعية، وقسوةً في التعبير ليسا طبيعيين في شيء. ومنذ تلك اللحظة، أصبحت زياراته للسيّدة دو پيين أقصر وكان يتّخذ في حضرتها مظهراً عابساً لم تكن قد رأته يوماً عليه. وقد عزت هذا المزاج لأول جهدٍ كان عليه أن يبذله ليحافظ على وعوده، ويقاوم الميول السيئة.

وبعد مرور خمسة عشر يوماً على وصول السيّد دو سالينبي، وكانت السيّدة دو پيين ذاهبة كعادتها لترى محميّتها، أرسين غيّو والتي لم تكن مع ذلك قد نسيتها، ولا أنتِ أيضاً، يا سيدتي، كما آمل. وبعد أن طرحت عليها بعض الأسئلة عن صحتّها، وعن التعاليم التي تتلقّاها لاحظت أن المريضة قد كانت متضايقةً أكثر أيضاً مما كنت في الأيّام السّابقة فعرضت عليها أن تقرأ لها كي لا تتعب في الكلام. وكانت الفتاةُ المسكينة تفضّل بلا شكّ أن تتكلّم بدلاً من أن تصغي لقراءة مثل تلك التي يعرضونها عليها، فأنت تقدّرين أن تلك القراءة تتعلّق بكتابٍ شديد الجديّة، ولم تكن أرسين قد قرأت سوى رواياتٍ عن الطبّاخات؛ فالكتاب الذي أمسكته السيّدة دو پيين إنما هو كتابٌ في التديّن، ولن أسميه لك، أولاً كي لا أسيء إلى مؤلفه، ثم لأنك قد تتهّمينني بالرغبة في أن استخلص منه استنتاجاً خبيثاً ما ضد هذه الأنواع من الكتب بعامّة. ويكفي أن الكتاب المعنيّ كان من تأليف شابّ في التاسعة عشرة من عمره، وهو معدٌّ خصيّصاً لحلّ الخاطئات الممعنات في خطيئتهن، وردّهن إلى الكنيسة. بحيث أن أرسين لم تستطع أن تغفو في تلك الليلة السابقة بسبب الإرهاق الذي أصابها.

وفي الصفحة الثالثة، حدث ما يمكن أن يحدثَ في كلّ كتاب. أكان جاداً أم لا، حدث ما لايمكن تلافيه. وأعني بذلك أن الآنسة غيّو قد أغلقت عينيها، ونامت، أما السيّدة دو پيين فقد لاحظت ذلك، واغتبطت بالتأثير المهدئ الذي أحدثته على أرسين منذ قليل؛ فخفضت صوتَها في البداية كي لا توقظ المريضة،

وتوقّفت فجأة، ثم وضعت الكتابَ، ونهضت برفقٍ كي تخرجَ على رأس أصابع قدميها، غير أن الممرّضة كانت معتادةً على النزول إلى عند بوابة المنزل، عندما كانت السيّدة دو پيين تأتي، فتلك الزيارات كانت بعضَ الشيء أشبه ما تكون بزيارات معرِّف، وكانت السيدة دو پيين تريد أن تنتظر عودة الممرّضة، وبما أنها كانت أكثرَ الناس في العالم عداءً للتعطّل عن العمل، فقد بحثت عن أي شيء يشغلها، فكتبت مسوّداتٍ لتضعها بجانب النائمة، وكان ثمة منضدة وحبرٌ وورق، في غرفة صغيرة، خلف مخدع النوم، فجلست إليها، وأخذت تكتبُ بطاقةً، وفيما كانت تفتّش عن معجون لختم الرسائل في أحد جوارير المنضدة، دخل فجأة شخصٌ إلى الغرفة، وأيقظ المريضة.

هتفت أرسين بصوتٍ مغايرٍ لصوتها، بحيث ارتعشت السيّدة دو پيين:

- إني أعرفُ أخباراً هائلة! مامعنى هذا؟ أن ترمي بنفسك من النافذة مثل بلهاء! هل رأى أحدٌ عقلاً مثل عقل هذه الفتاة!

لا أدري إن كنت أنقل الكلمات بدقّة، فهذا، على أيةِ حال، معنى ما كان يقولهُ الشّخص الذي دخل قبل قليل، والذي تعرّفته السيدة دو بيين بسرعةٍ من صوته على أنه ماكس دو سالينيي، ثم تلت ذلك بعضُ عبارات التّعجب والصّرخات المكتومة الصّادرة عن أرسين، ثم تلا ذلك تقبيلٌ مسموعٌ إلى حدٍّ كافٍ، وقد استأنف ماكس يقول:

- أيتها المسكينة أرسين؟ في أية حالة أجدُك؟ هل تعلمين أنه ما كان يمكن لي أبداً أن أعرف مخبأك، لو لم تقل لي جوليانا عن آخر عنوان لك؟ هل رأى أحدٌ قطّ جنوناً كهذا!

- آه! سالينيي! كم أنا سعيدةٌ! ولكنك لن تجدني لطيفةً بعد الآن، لأني قد تُبتُ عن كلّ ما فعلته. لن ترغَب بي بعد الآن!...

وكان ماكس يقول: كم أنت غبية. فلماذا لم تكتبي لي أنّك بحاجة إلى المال؟ لماذا لم تطلبي نقوداً من الآمر؟ فما الذي حصل للروسي الذي تعرفينه؟ هل رحلَ

قوزاقٌ(ك)؟ عندما تعرفت السيّدة دو پيين صوتَ ماكس، كانت مدهوشةً في البداية، مثلما كانت أرسين تقريبًا. وكانت المفاجأة قد منعتها من أن تظهر حالاً، ثم أخذت تفكّر إن كان ينبغي لها أن تظهر أم لا. وعندما يفكّر المرءُ وهو يصغي، فهو لا يتّخذ قراره بسرعة، وينتجُ من كلّ ذلك أنّها قد سمعت الحوار التوجيهيّ الذي أوردته منذ قليل، غير أنها أدركت حينذاك أنها معرّضةٌ لأن تسمع منه أكثر من ذلك، إذا ما بقيت في الحجرة الصّغيرة.

اتخذت قرارَها، ودخلت إلى الغرفة بتلك الهيئة الهادئة والشامخة التي نادراً ما يفقدها الأشخاص الفاضلون، ويتّخذونها عند الحاجة.

فقالت: يا ماكس، إنك تسيء إلى هذه الفتاة المسكينة، فانسحب من هنا. وتعال لتكلّمني بعد ساعة.

كان ماكس قد أصبح شاحبًا مثل ميت، عندما رأى السيّدة دو پيين تظهر في مكان لم يكن بإمكانه أن يتوقّع أبدًا أن يلتقيها فيه؛ وكانت أول حركةٍ قام بها هي طاعتها، فخطا خطوةً نحو الباب.

فصرخت أرسين وهي تنهضُ عن سريرها، وبجهدٍ يائس:

أتذهب! . . . . لا تذهبْ!

فقالت السيّدة دو بيين، وهي تمسك يدها:

- يا ابنتي، كوني عاقلةً، واصغي إلي، وتذكّري ما وعدتني به!

ثم نظرت إلى ماكس نظرةً هادئة، ولكنها آمرة، فخرج في الحال، وسقطت أرسين على سريرها، وهي تراه يخرجُ. لقد أُغمي عليها.

أسعفتها السيّدة دو پيين، والممرضة التي دخلت بعد ذلك، بتلك المهارة التي تمتلكها النّساء في مثل هذا النوع من الحوادث. وأخذت أرسين تستعيدُ وعيها بصورةٍ تدريجية، فجالت في البداية بنظراتها في الغرفة كلّها، وكأنها تبحثُ عن ذلك

الذي كانت تتذكّر أنها قد رأته فيها منذ قليل. ثم أدارت عينيها الكبيرتين السّوداوين نحو السيّدة دو پيين، وحدّقت بها وقالت:

ـ هذا هو زوجك؟

فأجابت السيّدة دو پيين، وقد احمرّ وجهُها من الخجل قليلاً، ولكن من غير أن تتغيّر عذوبةُ صوتها من جراء ذلك:

كلاّ إن السيّد دو سالينيي قريبي.

وظنت أنه يمكنها أن تسمح لنفسها بتلك الكذبة الصّغيرة لتفسّر السُّلْطة التي كانت لها عليه.

فقالت أرسين:

وإذن، فأنت المرأةُ التي يحبُّها!

وكانت تركّز عليها باستمرار عينيها المضطرمتين مثل مشعلين.

إنه!... والتمع جبينُ السيّدة دو بيين، وللحظة من الزمن، تلوّن خدّاها بلونٍ قرمزي فاقع، وتلاشى صوتُها على شفتيها، ولكنها سريعًا مااستعادت صفاءها. وقالت بلهجة جادّة:

لقد التبس عليك الأمر، يا ابنتي المسكينة. فقد أدرك السيّد دو سالينيي أنه قد أخطأ في أن يُعيد إلى ذهنك ذكرياتٍ بعيدة عن ذاكرتك، لحسن الحظ، فقد نسيت...

فبهتت أرسين، وهي تبتسم ابتسامة مُدانٍ يبعث منظره على الألم.

أجل، يا أرسين، فقد تخليت عن كل أفكارك الجنونية، أفكار الزمن الذي لن يعود، ففكّري، يا ابنتي المسكينة، في أن شقاءك إنما يرجعُ إلى تلك العلاقة الآثمة، فكّري... فقاطعتها أرسين من غير أن تصغي إليها:

ـ لايحبُك! لا يحبّك! ويفهم من نظرةٍ واحدة. لقد رأيت عينيك وعينيه، وأنا لا أخطئ في ذلك. . . . وفي الواقع . . . . هذا عـدلٌ! فـأنت جـمـيلةٌ، وشـابّة، ومتألقة، أما أنا، فمعقدة، ومشوّهة . . . . وعلى وشك الموت. . . .

ولم تستطع إكمال كلامها؛ فقد خنق النحيب ُصوتها، وكان قوياً جداً، ومؤلماً جداً بحيث صرخت الممرضة بأنها ستذهب ُللبحث عن الطّبيب؛ فكما كانت تقول؛ فالطبيب لم يكن يخشى شيئًا، مثلما يخشى تلك التشنّجات، وإذا ما استمر ّذلك، فإن الصّغيرة المسكينة ستقضي.

وحل ّتدريجياً محلّ ذلك النوع من القوة التي وجدتها في حدّة ألمها نفسها، حل ّمحلّه وهن ٌبليد ٌعدته السيدة دو پيين هدوءاً. وتابعت وعظها لها. ولكن أرسين، التي لم تكن تُبدي حراكًا، لم تكن تصغي إلى كل ّالمبررات الجميلة والجيّدة التي كانت تُقدّم لها كي تؤثر الحبّ الإلهي ّعلى الحب ّالأرضي. وكانت عيناها جافّتين، وأسنانها تصرُّ بصورةٍ متشنّجة. وفيما كانت حاميتها تحدثّها عن السّماء والمستقبل، كانت تفكّر بالحاضر، فقد أيقظ وصول ُماكس المفاجئ لديها، وفي لحظةٍ من الزمن، أوهاماً جنونية؛ غير أن نظرة السيّدة دو پيين قد بدّدتها بصورة أسرع أيضاً، وبعد حلمٍ سعيد دام دقيقةً واحدة، لم تجد أرسين إلاّ الواقع الكئيب الذي غدا رهيباً أكثر بمئة مرة، لأنه قد نُسي للحظةٍ من الزّمن.

سيقول لك طبيبُك، يا سيدتي، إن الغرقى الذين باغتهم النّوم في وسط عذابات الجوع، يحلمون بأنهم جالسون إلى المائدة، وهم يتناولون طعاماً شهياً. وهاهم يستيقظون مرةً أخرى وهم أشد ّجوعًا، ويودّون لو أنهم لم يناموا. كانت أرسين تعاني من عذابٍ مماثلٍ لعذاب هؤلاء الغرقى. وفيما مضى، كانت تحبُّ ماكس بقدر ما كان باستطاعتها أن تُحبّ؛ وبرفقته إنما كانت ترغب ُدوماً في الذهاب لحضور الاستعراض، ومعه إنّما كانت تتسلّى في زاويةٍ من زوايا الريّف، ومعه إنما كانت تتحدّث عن صديقاتها. وعندما رحل ماكس، بكت كثيراً. ومع ذلك؛ فقد تقبّلت مدائح رجلٍ روسي ّكان ماكس مبتهجاً لأنه خلّفه لديها، ولأنّه كان يعدّه رجلاً

لطيفًا مع النساء أي كريمًا. وطالما كان بمقدورها أن تعيشَ الحياةَ الجنونيةَ، حياةَ النساء اللواتي هن من صنفها، فإن حبّها لماكس لم يعدْ أكثر من ذكرى طيّبة يجعلها تتنهّدُ أحيانًا. كانت تفكرّ مثلما كان يفكرّ المرءُ بتسليات طفولته، والتي لا يودّ أحد مع ذلك أن يعود إليها من جديد، غير أنه عندما لم يعدْ لأرسين عشّاقٌ، وعندما ألفت نفسها مهجورةً، وأحسّت بكلّ ثقلِ البؤس والعار، حينذاك، تصفّى حبُّها لماكس، إذا صحَّ القول، لأنه كان الذكرى الوحيدة التي لم توقظْ لديها أسفًا، أو تبكيتًا للضمير. بل كان يرفعُها في نظر نفسها. وكلّما كانت تشعرُ بالإذلال، كلّما كانت صورةُ ماكس تكبر أكثر في خيالها. وكانت تقول لنفسها بنوعٍ من الغرور، عندما تُصاب بالاشمئزاز، وهي تفكر بحياتها كعاهرة: لقد كنتُ عشيقته، وقد أحبّني. لقد كان ماريوس[1]، في مستنقعات مينتيرن يعزّز شجاعته، حين يقولُ لنفسه: لقد انتصرتُ على السّمبريين[2]. أما الفتاةُ التي يُنفق عليها - وللأسف أنها لم تعدْ تلك الفتاة - فلم تكن تملك لتقاوم العار واليأس، غير هذه الذكرى: لقد أحبّني ماكس، وهو لا يزالُ يحبّني! لقد كان بإمكانها أن تفكرّ بتلك الطريقة للحظةٍ من الزمن. أمّا الآن، فقد انتزعوا منها منذ قليلٍ حتى ذكرياتها. وهي الثروة الوحيدة التي بقيت لها في العالم. وفيما كانت أرسين تستسلم لأفكارها الكئيبة، كانت السيدة دو بيين تُثْبت لها بحرارةٍ ضرورةأن تتخلّى إلى الأبد عما كانت تسميّه أفعالها الضّالة الإجرامية. إن القناعة القوية تجعل المرء عديم الإحساس تقريبًا، وكانت السيّدة دو پيين تتابع مهمّتها بصلابةٍ لا رحمة فيها، مثل ذلك الجرّاح الذي يطبّق الحديدَ والنار على جرحٍ معين، من غير أن يصغي لصرخات المريض. وكانت تقول إن عهدالسّعادة ذاك، والذي كانت أرسين المسكينة تلتجئ إليه وكأنها تهربُ من نفسها، كان عهداً للجريمة والعار، والذي تقوم اليوم بالتكفير عنه تمامًا. وكان لابدّ لها أن تمقت تلك الأوهام وأن تنفيها من قلبها. أما الرجلُ الذي كانت تنظر إليه على أنه حاميها، وعلى

(١) ماريوس: جنرال روماني من أصل شعبي، انتصر في معارك عديدة، وخصوصاً ضد الغزو الجرماني. (م: ز. ع).

(٢) غزاة هاجموا روما، وسُحِقوا على يد ماريوس. (م: ز. ع).

أنه جنّيٌ حارسٌ تقريباً، فلم يعدْ ينبغي أن يصبح في نظرها غير متواطئ مفسدٍ، ومُغوٍ يجب عليها أن تهرب منه إلى الأبد.

إن كلمة مغوٍ هذه التي لم يكن بوسع السيّدة دو پيين أن تشعر بتأثيرها المضحك، قد جعلت أرسين تبتسم تقريباً، في غمرة دموعها، غير أن حاميتها الفاضلة لم تلاحظ ذلك. وتابعت برباطة جأشٍ إرشادَها، فانتهت بخاتمةٍ ضاعفت من نحيب الفتاة المسكينة. وكانت تلك الخاتمةَ هي: لن تريه بعد الآن.

وذكَّر الطبيبُ الذي وصل، والوهنُ الكاملُ الذي أصاب المريضة، ذكّر السيدة دو پيين بأنها قد فعلت ما فيه الكفاية، فضغطت على يد أرسين وقالت لها وهي تتركُها:

- تشجّعي يا ابنتي، ولن يتخلى الربُّ عنك.

لقد أنجزت للتوّ واجباً، وبقي عليها واجبٌ ثانٍ أكثر صعوبة أيضاً؛ فهناك مذنبٌ آخر كان ينتظرها، ويتعين عليها أن تفتح روحه للتّوبة. وبرغم الثقة التي كانت تستمدّها من غيرتها الدّينية، وبرغم التأثير الذي كانت تمارسهُ على ماكس، والذي كانت لديها أدلّة عليه، وأخيراً برغم الرأي الجيّد الذي كانت تحملهُ في أعماق قلبها تجاه ذلك الفاسق، فقد كانت تحسُّ بقلقٍ غريب حين تفكر بالمعركة التي ستخوضُها. وقبل أن تبدأ ذلك الصراع المخيف، أرادت أن تستعيد قواها، فدخلت إلى الكنيسة، وسألت الربّ أن يلهمها أفكاراً جديدة للدفاع عن قضيّتها.

عندما رجعت إلى منزلها، قيل لها إن السيّد دو ساليني في قاعة الاستقبال وهو ينتظرها منذ مدةٍ طويلة، وقد وجدته شاحباً ومضطرباً ومليئاً بالقلق. فجلسا، ولم يكن ماكس يجرؤ على فتح فمه. أما السيّدة دو پيين التي كانت هي أيضاً منفعلةً، من غير أن تدري السّبب بصورةٍ يقينية، فقد ظلّت بعض الوقت من غير كلام، وكانت لا تنظر إليه إلاّ خلسةً، وأخيراً بدأت تقول:

- لن أوجّه اللومَ إليك يا ماكس.

فرفع رأسه باعتدادٍ كافٍ، فالتقت نظراتهما، فخفَض عينيه حالاً.

فتابعت قائلة: إن قلبك الطيّب يقول لك، في هذه اللحظة أكثر مما أستطيع أن أقوله لك. إنه درسٌ قد أرادت العنايةُ الإلهية أن تعطيك إياه. ولدي الأملُ والاقتناع... بأنها لن تهلكك.

فقاطعها ماكس قائلاً:

ـ يا سيدتي، أكادُ لا أعرفُ ماذا حدث؛ فهذه الفتاة التّعسة قد ألقت بنفسها من النافذة هذا ما قيل لي. ولكن ليس لديّ الغرور... وأريد أن أقول الألم... كي أظنّ بأن العلاقات التي كانت فيما بيننا في السّابق قد أمكن لها أن تحتّم ذلك العملَ الجنونيّ.

ـ قل لي يا ماكس إنه عندما كنت تفعلُ الشر، فأنت لم تكن على الأرجح تتوقّع نتائجه. وعندما ألقيت بهذه الفتاة المسكينة في الفساد، لم تكن تظنّ أنها ستعتدي على حياتها ذات يوم.

فهتف ماكس بشيءٍ من العنف: يا سيدتي اسمحي لي أن أقول لك إني لم أُغوِ أرسين غيّو على الإطلاق، وعندما عرفتُها، كانت قد أغويت من قبل. لقد كانت عشيقتي، وأنا لا أنفي ذلك، وحتى أنني سأعترف بذلك. لقد أحببتها... كما يمكن أن نحبَّ شخصاً من هذه الطّبقة... وأظنّ أنها قد تعلّقت بي أكثر بقليل مما تعلّقت بشخصٍ آخر... ولكن كلَّ علاقةٍ فيما بيننا قد توقّفت منذ زمنٍ طويل، ومن غير أن تبدي أسفًا كبيراً عليها. والمرّة الأخيرة التي تلقّيت فيها أخباراً منها، أرسلت إليها نقوداً، ولكنها لم تكن حائزة على أمر استلام... وقد خجلت أن تطلب مني ثانية نقوداً، فلديها شعورها الخاص بها بالكبرياء... وقد دفعها البؤس إلى ذلك القرار الرهيب... *وأنا آسفٌ لذلك... ولكني أكرّر لك، يا سيّدتي، بأن اللّوم لا يقعُ عليّ* إطلاقًا في كلّ هذا الأمر.

دعكت السيّدة دو پيين بعض الأشغال على منضدتها، ثم استأنفت قائلةً:

ـ لاشكّ أنك لست مذنبًا، حسب أفكار هذا العالم، ولاتتحمّل المسؤولية، غير أنّ هناك أخلاقًا أخرى غير أخلاق العالم. وأحبُّ أن أرى قواعد تلك الأخلاق تقودك... وربما لست الآن في حالةٍ تسمح لك بسماعي، فلندعْ هذا الأمر. أما اليوم، فالأمر الذي علي أن أسألك إياه هو وعدٌ لن ترفضه لي. أنا متأكدةٌ من ذلك. إن تلك الفتاة المسكينة قد مسّت التوبةُ قلبها. وقد أصغت باحترامٍ إلى وصايا كاهنٍ جليل قبلتْ أن تراه. ولدينا كلّ المبررات لنأمل بها ـ أما أنت، فلا ينبغي أن تراها بعد الآن، لأن قلبها لايزال يترجّح بين الخير والشرّ. ولسوء الحظّ، فليس لديك الرغبةُ في أن تكون مفيدًا لها، أو القدرةُ على ذلك ربّما، وإذا ما رأيتها ثانية، فمن الممكن أن تسيء إليها كثيرًا... لذلك أسألك الوعدَ بألاّ تذهب إلى منزلها بعد الآن.

فصدرت عن ماكس حركةٌ تنمُّ عن الدهشة.

ـ أنت لن ترفض لي هذا الطّلب يا ماكس، ولو كانت عمتُك حيّة، لرجتك أن تفعل ذلك. فتصور أنها هي التي تكلّمك.

ـ عجبًا! يا سيدتي، ما الذي تطلبينه مني؟ أيُّ سوءٍ تريدين أن أسبّبه لتلك الفتاة المسكينة؟ أليس لزامًا عليّ، بعكس ما تقولين،... وأنا الذي رأيتُها في زمن انحرافاتها، ألاّ أتخلّى عنها الآن، وهي مريضةٌ، ومريضةٌ بشكلٍ خطير، إذا كان مايقال لي حقيقيًا؟

ـ هذه بالتأكيد هي أخلاقُ العالم، ولكنها ليست أخلاقي، فكلّما كان هذا المرضُ خطيرًا كلّما كان من المهمّ ألا تراها بعد الآن.

ـ ولكن، يا سيدتي، أرجوك أن تفكّري بأنه من غير الممكن، في مثل حالتها، وحتى بالنسبة للاحتشام المتطرّف الأكثر عرضةً للذُّعر... هيّا، يا سيدتي، لو كان عندي كلبٌ مريض وكنتُ أعلم أنه يحسُّ ببعضِ السّرور حين يراني، لرأيت أن تركَه ينفقُ وحده يُعدُّ عملاً سيئًا. ومن غير الممكن أن تفكّري خلافًا لهذا، أنت الطيّبة

جداً، والكبيرة الرحمة؛ ففكري في الأمر، يا سيدتي، فمن جهتي، سيكون ذلك قسوةً حقيقية.

ـ قبل قليل، كنت أطلبُ إليك أن تقطع هذا الوعد باسم عمّتك الطيبة . . . وباسم الصّداقة التي تكنُّها لي . . . والآن، فإني أطلبُ إليك ذلك باسم تلك الفتاة التّعسة نفسها، إن كنت تحبُّها فعلاً . . . .

ـ آه! يا سيدتي، إني أتوسّل إليك، لا تقارني بهذه الطريقة أشياء لايمكن أن يُقارن بعضها بالبعض الآخر، وصدّقيني فعلاً، يا سيدتي، بأني أتألم إلى أقصى حدّ، حين أتصدى لك، في أيّ أمر. ولكني، في حقيقة الأمر، أظنّ أني مضطرٌ لذلك من منطلق الشرف ـ فهل تزعجك هذه الكلمة؟ فلتنْسها. إنّما دعيني يا سيدتي، بدوري، أتوسّل إليك، رأفةً بهذه التعسة . . . وكذلك رأفةً بي بعض الشيء . . . فإن كان عندي أخطاء . . . وإن كنت قد أسهمت في إبقائها في حمأة الفساد . . . فينبغي لي الآن أن أعنى بها. وسيكون من الفظيع أن أتخلّى عنها. ولن أغفر لنفسي ذلك. كلاّ، لا يمكنني أن أتخلّى عنها وأنت لن تطلبي ذلك مني، يا سيّدتي.

ـ ولن تفتقر إلى ضروبٍ أخرى من الرّعاية. ولكن أجبني يا ماكس، هل تحبّها؟

ـ أحبّها . . . أحبّها: للأسف! لا. فلقد بحثت لديها عن تسلية تصرفني عن شعورٍ أكثر جدّيةً، وكان ينبغي أن أحاربه . . . . إن ذلك يبدو لك مثيراً للسّخرية، وغير مفهوم؟ . . . . فنقاءُ نفسك لا يمكن أن يقبل بالبحث عن دواءٍ من هذا النوع . . . حسناً! ولكن هذا ليس أسوأ عملٍ قمت به في حياتي. فإذا لم يكن لدينا، نحن البشر، الوسيلة لحرف أهوائنا أحياناً . . . لكنت الآن ربّما . . . لكنت أنا ربّما من رمى نفسه من النّافذة . . . ولكني لا أعرفُ ماذا أقول، ولايمكنك أن تسمعيني . . . فلا أكاد أنا بالذات أفهمُ نفسي . . .

فاستأنفت السيّدة دو پيين، وهي مخفضة العينين، وبشيء من التردُّد:

لقد سألتك إن كنت تحبّها، لأنه إذا كنت تكنّ لها . . . المحبّة، فستكون لديك الشجاعة لإيلامها قليلاً، من أجل أن تصنع لها خيراً كبيراً فيما بعد. من

المؤكّد أن حُزنها على عدم رؤيتها لك سيكونُ ذا وطأةٍ يصعبُ عليها تحمّلها، غير أنه سيكون أخطر بكثير من أن تحوّلها اليوم عن الطّريق التي دخلت إليها بشكلٍ معجزٍ تقريبًا. ومن المهمّ، من أجل «خلاصها»، يا ماكس، إن تنسى تمامًا وقتًا يذكّرها به حضورك تذكيراً حاداً إلى درجة مفرطة.

هزّ ماكس رأسه، من غير أن يجيب، فهو لم يكن مؤمنًا. وكلمةُ «خلاص» التي كان لها الكثير من التأثير على السيّدة دو پيين، لا تخاطبُ نفسه بالقوة ذاتها، ولكنه لم يكن مستعداً لمجادلتها في تلك النقطة؛ فكان يتجنّب دومًا وبحرص أن يظهر شكوكه، وقد حافظ على الصمّت في تلك المرّة أيضًا؛ ومع ذلك، كان من السّهل أن يلاحظ المرءُ أنه لم يكن مقتنعًا.

وتابعت السيّدة دو پيين:

ـ سأكلّمك بلغة البشرِ إن كانت، لسوء الحظّ، هي اللّغة الوحيدةَ التي يمكنك فهمها، وسوق نتناقش، في الواقع، بتقديرٍ حسابيّ، فليس لديها شيء تكسبه من رؤيتك، ولديها الكثير لتخسره من ذلك، والآن، اخترْ.

فقال ماكس بصوتٍ ينمّ عن التأثر:

يا سيدتي، أنت لم تعودي تشكين. كما آمل، بأنه يمكن أن تكون هناك مشاعر أخرى من ناحيتي تجاه أرسين غير الاهتمام... الطبيعي تمامًا. فأيُّ خطر يمكن أن يكون في ذلك؟ ليس هناك أيُّ خطر. فهل تشكّين بي؟ وهل تعتقدين أني أريد الإساءة إلى النصائح الجيدة التي تقدّمينها إليها؟ آه! يا إلهي! فأنا الذي أمقت المشاهد الحزينة، والذي أهربُ منها بنوعٍ من الاستفظاع، هل تظنّين بأني أبحثُ عن رؤية مُحتضرةٍ لمقاصد آثمة؟ إني أكرّر لك ذلك، يا سيدتي، وبالنسبة لي، إن ماأتيت لأبحث عنه بقربها هو فكرتي عن الواجب، وهو تكفيرٌ وقصاص، إذا شئت.

رفعت السيّدة دو پيين رأسها، عندما سمعت هذه الكلمة، وحدّقت فيه بحماسة كانت تضفي تعبيراً ساميًا على كلّ قسماتها.

ـ أتقول: تكفيراً، أو قصاصاً؟ . . . حسنًا! أجل! إنك، يا ماكس، تمتثل، من غير علمٍ منك «لتحذيرٍ من الأعالي»، وأنت على حقّ في مقاومتي. . . . أجل، إني أعطي موافقتي على ما تريد. فلترَ هذه الفتاة، ولتصبح وسيلةً لخلاصك، كما أوشكتَ أن تكون وسيلةً لهلاكها.

ربّما إن ماكس لم يكن يدرك مثلما تدركين، يا سيدتي، ماذا يعني «تحذيرٌ من الأعالي»، فقد أدهشه هذا التغيير المفاجئ في قرارها، ولم يكن يدري لأيّ شيءٍ يُرجعه، ولم يكن يعرف إن كان يتوجَّب عليه أن يشكر السيدة دو پيين لأنّها قد رضخت في النهاية أم لا. ولكن همّه الأكبر في تلك اللحظة، كان في أن يخمّن إن كان إصرارُه قد أتعب تلك السيّدة التي يخشى فوق كلّ شيء أن يكدّرها، أو أقنعها.

وتابعت السيّدة دوبيين:

ـ إنّما عليّ، يا ماكس، أن أسألك، أو بالأحرى أن أطلب منك. . . وتوقفت لحظةً، فأومأ ماكس بحركةٍ من رأسه تدلُّ على أنه يمتثل لكلّ شيء؛ فاستأنفت قائلة:

أطلب ألاّ تراها إلاّ برفقتي.

فصدرت عنه حركةٌ تنمُّ عن الدهشة، غير أنه سارعَ ليضيف أنه سيمتثل.

وتابعت وهي تبتسم:

ـ إني لا أثق بك ثقةً مطلقة، ولا أزال أخشى أن تفسد عملي، وأريد أن أنجح. فإذا ما راقبتك، تغدو، على العكس، مساعداً مفيداً، ولديّ أملٌ بذلك، فامتثالك سوف يُكافأ.

ومدّت له يدها، وهي تقولُ هذه الكلمات؛ فاتفقا على أن يذهب ماكس، في اليوم التالي لرؤية أرسين غيّو، وأن تسبقه السيدة دو پيين كي تهيئها لتلك الزّيارة. أنت تفهمين مشروعها؛ فقد كانت تظنّ في البداية أنها ستجد ماكس مفعماً بالتوبة، وأن تستخرج بسهولة من مثال أرسين نصّ عظةٍ بليغةٍ تنتقدُ أهواءها السيّئة. ولكنها ألقت عن كاهلها كلّ مسؤولية، خلافًا لتوقّعاتها؛ فقدَ كان لابدّ لها من تغييرِ مقدّمةٍ

العظة. وفي لحظة حاسمة لابدّ أن تُفحَص بعناية عظة مدروسة، وهذا مشروعٌ يحفّ به الخطرُ، كاتخاذ ترتيبٍ جديد لمعركةٍ في غَمرة هجومٍ غير متوقّع تقريباً.

لم تكن السيّدة دو پيين تستطيع أن ترتجل مناورةً معينةً؛ فبدلاً من أن تعظ ماكس، كانت قد تناقشت وإياه في مسألة ملاءمة الموضوع. وفجأةً خطرت في ذهنها فكرةٌ جديدة وكانت تفكر قائلة: إن ندمَ شريكتها سوف يمسُّ قلبه. إن النهاية المسيحية لامرأةٍ أحبّها (ولم يكن بإمكانها لسوء الحظّ أن تشكّ بأن تلك النهاية وشيكةٌ) ستأتي بلا ريب بالضربة الحاسمة. فاعتماداً على هذا الأمل. إنما قررت فجأةً أن تسمح لماكس برؤية أرسين مجدّداً. ولسوف تكسب من ذلك أيضاً أن تؤجّل الإرشاد الذي كانت تنوي القيام به. لأنه برغم رغبتها الشديدة في تخليص رجلٍ كانت تأسف على ضلاله، وأظنّ أني قد قلت لك ذلك من قبل، فقد كانت فكرةُ الخوض معه في مناقشةٍ جديّةٍ إلى حدٍّ كبير ترعبُها من غير إرادةٍ منها.

كانت قد اعتمدت كثيراً على صلاح قضيّتها، وهي لاتزال تُشكُّ بنجاحها؛ فعدم النجاح كان يعني اليأس من خلاص ماكس، وأن تحكم على نفسها بتغيير شعورها تجاهه. ولكي تتجنّب ربما الاحتراس من المعزّة الشديدة التي كانت تحملُها لصديقٍ من أصدقاء طفولتها، فإن الشيطان قد عني بتسويغ تلك المعزّة من خلال رجاءٍ مسيحيّ. فكلُّ الأسلحة متاحةٌ للمجرِّب. وممارساتٌ كهذه مألوفةٌ لديه. وهذا هو السّبب في أن اللّغة البرتغالية تقول بأناقةٍ كبيرة: الجحيم مبلّطٌ بالنوايا الحسنة «DEBOAS INTENCOES ESTE O INFERNO CHEIO» وتقولين بالفرنسية إنه مبلّطٌ بألسنة النساء، وهذا يؤدّي المعنى نفسه، فالنّساء، في نظري، يردن الخير دائماً.

إنك تعيدينني إلى قصتي؛ ففي اليوم التالي، ذهبت السيّدة دو پيين إذن إلى عند محميّتها، وقد وجدتها ضعيفةً جداً، وخائرة القوى. ومع ذلك، فهي أكثر هدوءاً، وأكثر تسليماً مما كانت تأمله منها. وتحدثت ثانيةً عن السيّد دو سالينيي، ولكن بتحفّظٍ أكبر من حديثها عنه في الليلة السابقة. أما أرسين. فلابدّ أنها قد تخلّت، في حقيقة الأمر، عن سالينيي، ولم تعدْ تفكّر به إلا لتأسف على ضلالهما

المشترك. وكان يتعيّن عليها أيضًا، وهذا جزءٌ من تكفيرها، أن تُظهر توبتها لماكس نفسه، وأن تعطيه المثالَ، من خلال تغييرها لحياتها، وأن تؤمّن، من أجل المستقبل، راحةَ الضّمير التي كانت هي نفسها تتمتّع بها. ولم تغفل السيدةُ دو پيين أن تضيف إلى هذه الإرشادات المسيحية البحتة، بعضَ الحجج الأرضية. من مثلِ تلك الحجّة التي تقول: إن أرسين ينبغي لها أن تتمنّى الخير للسيد دو سالينيي، قبل كلّ شيء، وإذا كانت تحبّه فعلاً، وأنها ستستحقُّ من خلال تغييرها لسلوكها تقدير رجلٍ لم يكن بإمكانه حتى ذلك الوقت أن يمنحها هذا التقدير حقًّا.

تلاشى فجأة كلّ ما كان متشددًا وكئيبًا في ذلك الحديث، وعندما أعلنت السيّدة دو پيين لأرسين في النهاية أنها سترى ماكس ثانية، وأنّه سيأتي. وكادت السيّدة دو بيين تندمُ لأنها قد وافقت على اللّقاء، حين رأت الحُمرة الشديدة تجعلُ الحياةَ تدبُّ في خدّي أرسين اللذين أصبحا شاحبين من جرّاء المعاناة، والبريق غير العاديّ الذي التمعت به عيناها. ولكن الأوان كان قد فات لتغيير قرارها، واستخدمت بعضَ الدقائق التي تبقّت لها قبل وصول ماكس لتقدّم لأرسين إرشاداتٍ دينيةً، وقوية، ولكن أرسين كانت تصغي إليها بشرودٍ ملحوظ، فلم يكن يبدو أنها مهتمةٌ بغير ترتيب شعرها، وتركيز شريط قبّعتها المدعوك.

وأخيراً ظهر السيّد دو سالينيي، فغضّن كلّ تقاطيع وجهه ليعطيها مظهراً من المرح والثبات. فسأل أرسين عن صحتّها بنغمة صوتٍ حاول أن يجعلها طبيعيّة، إنما لا يمكن لأيّ زُكامٍ أن يؤديها. أما أرسين، من جهتها، فلم تعدْ مرتاحة، وكانت تتمتم، ولم تكن تتمكن من إيجاد جملةٍ واحدة، ولكنها أمسكت بيدِ السيّدة دو پيين، ورفعتها إلى شفتيها، وكأنها تريدُ أن تشكرها، وكان ما قيل خلالَ ربعِ ساعة هو ما يقال في كلّ مكان بين الناس المرتبكين. وكانت السيّدة دو پيين وحدها تحافظُ على هدوئها المعتاد، أو أنها بالأحرى تتمالك نفسها بصورةٍ أفضل، لأنها مهيئةٌ لذلك بشكلٍ أحسن. وغالبًا ما كانت تنتحبُ بُدلاً من أرسين، وكانت هذه الأخيرةُ تجد أن مترجمتها تنقلُ أفكارها نقلاً رديئًا إلى حدٍّ كاف. وما إن فترت المحادثة حتى

لاحظت السيّدة دو پيين أن المريضة كانت تسعل كثيراً، فذكّرتها بأن الطبيب يمنعها من الكلام. وقالت وهي تتوجّه إلى ماكس إنه يحسن به أن يقرأ قليلاً بدلاً من أن يتعب أرسين بأسئلته. وللحال، أمسك ماكس أحدَ الكتب بتعجّل، واقترب من النّافذة؛ فقد كانت الغرفةُ معتمةً بعض الشيء. فقرأ من غير أن يفهم كثيراً، ولم تكن أرسين تفهم أكثر منه بلا ريب، إنما كان يبدو عليها أنها تصغي باهتمام شديد. وكانت السيّدة دو پيين تعمل في أحد الأشغال النسوية والذي كانت قد جلبته معها. وكانت الممرّضة تقرص نفسها كي لا تنام. وكانت عينا السيّدة دو پيين تنتقلان باستمرار من السّرير إلى النافذة، ولم يكن أرغوس[1] يقوم بحراسةٍ أفضل منها بعيونه المئة التي كانت له. وبعد بضع دقائق، انحنت على أذن أرسين وقالت لها بصوتٍ خفيضٍ جداً:

ـ كم يقرأ جيدًا!

فرمقتها أرسين بنظرةٍ تتناقض بصورة غريبة مع ابتسامةِ فمها، وأجابت:

ـ أوه! نعم.

ثم خفضت عينيها، وكانت من دقيقةٍ إلى أخرى تظهر دمعةٌ كبيرة على حافّة جفونها، وتسحّ على خديها من غير أن تتنبّه لذلك. ولم يدر ماكس رأسه مرةً واحدة، وبعد بضع صفحات قالت السيّدة دو بيين لأرسين:

ـ سوف ندعك تستريحين، يا ابنتي. أخشى أن نكون قد اتعبناكِ قليلاً، وسنعود بعد قليل لرؤيتك.

ونهضت، فنهض ماكس مثل ظلّها، فقالت أرسين له وداعًا من غير أن تنظر إليه تقريبًا. وقالت السيدة دو پيين التي رافقها ماكس حتى باب غرفتها:

ـ إني مسرورة منك يا ماكس، ومنها أكثر أيضًا؛ فهذه الفتاةُ مفعمةٌ بالتّسليم، وهي تعطيك مثالاً على ذلك.

(١) أرغوس: أميرٌ كانت له مئة عين حسب الخرافة، وتظلُّ خمسون منها مفتوحةً دائمًا. (م: ز.ع).

- هل هو صعبٌ إلى هذه الدّرجة أن يتعلّم المرءُ المعاناة والصّمت، ياسيدتي؟

- إن ما ينبغي أن نتعلّمه خصوصاً هو إغلاق القلب عن الأفكار السيّئة.

فحيّاها ماكس، وابتعد بسرعة.

وعندما رأت السيّدة دو پيين أرسين ثانية في اليوم التالي، وجدتها تتأمّل باقةً من الورود النّادرة موضوعةً على منضدة صغيرة، بقرب سريرها.

فقالت:

- إن السيّد دو سالينيي هو الذي أرسلها إليّ، وقد أتى أحدهم من قبله ليسأل عن صحّتي، أما هو فلم يصعدْ.

فقالت السيّدة دو پيين ببعض الجفاف:

- هذه الورود جميلةٌ حقّاً.

فقالت المريضة وهي تتنهد:

- كنت أحبّ الورود كثيراً فيما مضى. وكان يدلّلني... كان السيّد دو سالينيي يدلّلني حين يعطيني كلّ الورود الجميلة التي يمكنه العثورُ عليها. غير أن هذا لم يعدْ يعني لي شيئاً حالياً... إن لها رائحةً قويّة... وعليك أن تأخذي هذه الباقة، يا سيدتي، فلن يستاء إذا ما أعطيتك إياها.

فاستأنفت السيّدة دو پيين بلهجةٍ أكثر رقة، فقد تأثّرت كثيراً بلهجة المسكينة أرسين العميقة في حزنها:

- كلاّ يا عزيزتي؛ فهذه الورود تسرُّ النظر، ولسوف آخذُ منها الورودَ الفائحة بالرائحة، فاحتفظي أنت بأزهار الكاميليا.

- كلاّ، إني أمقتُ الكاميليا... فهي تذكّرني بالمشاجرة الوحيدة التي حدثت بيننا... عندما كنتُ معه.

- لا تفكري بعد الآن بتلك الحماقات، يا ابنتي العزيزة.

فتابعت أرسين وهي تحدّق بالسيّدة دو پيين:

- ذات يوم، وجدت في غرفته زهرة كاميليا جميلةً ورديّة، موضوعةً في كأس ماء، وأردت أن آخذها، فلم يقبل. لقد منعني من أن ألمسها حتى، فألححتُ، وقلتُ له حماقات، فأخذها، وخبأها في خزانة، ووضع المفتاح في جيبه. أما أنا فقد ثارت ثائرتي، وكسرتُ له حتى إناءً من الخزف كان يحبّه كثيراً. ولكن هذا لم يجد نفعًا؛ وتأكّد لي أنه قد حصل عليه من سيدةٍ مرموقةٍ، ولم أعرفْ قط من أين أتته زهرةُ الكاميليا تلك.

كانت أرسين، وهي تتكلم على ذلك النحو، تركّز نظرةً ثابتةً وشريرة تقريبًا على السيّدة دو پيين التي خفضت عينيها عن غير إرادةٍ منها. وسيطر صمتٌ طويلٌ إلى حدٍّ كاف، ولم يكن يعكّره إلاّ تنفُّس المريضة المجهد. كانت السيّدة دو پيين قد تذكّرت بصورةٍ مشوّشة قصةَ زهرة كاميليا معيّنة؛ فذات يوم، وفيما كانت تتناول العشاء في منزل السيّدة أوبريه، قال لها ماكس إن عمّته قد أرسلت للتوّ تهنئةً له بعيده، وقد طلبت إليها أن تقدّم لماكس أيضًا باقةً من الورود. فنزعت السيّدة دو پيين من شعرها وهي تضحك وردةَ كاميليا، وأعطته إياها. ولكن كيف ظلّت حادثةٌ لاأهمية لها كتلك الحادثة عالقةً في ذاكرتها؟ لم يكن بمقدور السيّدة دو پيين أن تفسّر الأمر لنفسها. لقد أُصيبت بالذعر تقريبًا من جراء ذلك. وما كاد هذا النّوع من التشوّش الذي كانت تشعر به إزاء نفسها يتبدّد، حتى دخل ماكس، فشعرت أنها قد احمرّت خجلاً. وقالت أرسين: - شكراً على ورودك، ولكنها تؤذيني . . . ولن تضيع هباء. فقد قدّمتها إلى السيدة؛ فلا تجعلني أتكلّم، لأنني ممنوعةٌ من ذلك. فهل تريد أن تقرأ لي شيئًا؟

جلس ماكس وقرأ. ولم يصغِ أحدٌ في تلك المرّة، كما أظن: فكلٌّ واحدٍ، بمن فيهم القارئ، كان يتابع خطّ أفكاره الخاصّة.

عندمـا نهـضت السـيّدة دو پيـين كي تخـرج، كـانت تهمُّ بتـرك البـاقـة على المنضدة، غير أن أرسين نبّهتها إلى ما نسيته. فحملت الباقة إذن، وهي مستاءة لأنها قد أظهرت ربّما بعضَ التكلُّف لقبول تلك التفاهة منذ البداية. وكانت تفكّر قائلةً: ولكن أيّ ضيرٍ يمكن أن يكون في ذلك؟ بيد أنه كان ثمة ما يُسيءُ لمجرّد أن تطرح على نفسها هذا السؤال.

لحق بها ماكس إلى منزلها من غير أن يطلب إليه ذلك؛ فجلسا. وإذْ أشاحَ كلٌّ منهما بنظره عن الآخر، فقد مكثا صامتين لمدّةٍ طالت إلى درجة أنّهما قد ارتبكا.

وقالت السيّدة دو پيين أخيراً:

ـ إن هذه الفتاة المسكينة تحزنني حزنًا عميقًا. فلم يعدْ هناك أملٌ، كما يبدو.

فسألها ماكس:

ـ هل رأيت الطبيب، وماذا قال؟

فهزت السيّدة دو پيين رأسها وقالت:

ـ لم يعدْ لها سوى أيامٍ معدودة تمضيها في هذا العالم. فقد فحصها الطبيبُ هذا الصبّاح. وقال ماكس، وهو يتقدّم نحو فتحة إحدى النوافذ، ربّما لإخفاء تأثُّره:

ـ وكان وجهُها يؤلم الناظر.

فاستأنفت السيدة دو پيين بلهجةٍ جادّة:

ـ لاشك أن الموت في مثل سنّها أمرٌ قاس، غير أنها لو عاشت أكثر من ذلك، فربما كان هذا مصيبةً بالنسبة إليها، فمن يدري؟... فحين خلّصتها العنايةُ الإلهيةُ من موتٍ يائس، شاءت أن تمنحها وقتًا للتّوبة.... وهذه نعمةٌ عظيمةٌ تشعر هي نفسها الآن بقيمتها. إن القسّ دو بينيون مسرورٌ جداً منها، ولاينبغي أن نرثي لحالها كثيرًا يا ماكس!

فأجاب بشكلٍ مفاجئ إلى حدّ ما :

ـ لا أدري إن كان ينبغي أن نرثي لحال الذين يموتون شبانًا . . . أما أنا، فأحبُّ أن أموت شابًا، غير أن الذي يحزنني خصوصًا هو أن أراها تتألّم على هذا الشكلِ.

ـ إن عذاب الجسد مفيدٌ غالبًا للرّوح . . .

ومضى ماكس، من غير أن يجيب، ليجلس في طرف الشقّة، في زاويةٍ معتمة، ومغطاة جزئيًا بستائر سميكة . وكانت السيّدة دو پيين تشتغل أو تتظاهر بالعمل، وعيناها مركّزتان على عملٍ للتطريز، غير أنه كان يبدو لها أنها تحسُّ بنظرة ماكس، وكأنّها شيء ينُيخُ بثقله عليها . لقد كانت تظنُّ أنها تحسّ بتلك النظرة التي تهرب منها، وكأنّها تنتقل من يديها إلى كتفيها، إلى جبينها . كان يبدو لها أنها تتوقّف عند قدمها، فسارعت لتخبئها تحت فستانها .

ـ ربما هناك شيء صحيح فيما يُقال عن التيار المغناطيسي، ياسيدتي .

وسأل ماكس فجأة :

ـ هل تعرفين الأميرال دو رينيي، ياسيدتي؟

ـ أجل، قليلاً .

ـ ربّما أحتاج لخدمة تُسدينها عنده . . . رسالة توصية . . .

ـ ولم إذن؟

فتابع بمرحٍ مصطنع :

ـ لقد فكرتُ بمشروعاتٍ معينة، منذ بضعة أيام . فأنا أسعى إلى الاهتداء، وأريد أن أصنع شيئًا يفعله المسيحي المؤمن، ولكني حائرٌ لأني لا أعرف كيف أشرع بذلك . . .

فرمقته السيّدة دو پيين بنظرةٍ قاسية بعض الشيء .

فتابع :

ـ وإليك ما توصلّت إليه من قرارات . إني مستاء جداً لأنّي لا أعرف مدرسة المفارز المقاتلة ولكن هذا يمكن تعلّمه . . . وهكذا . فكما كان لي الشرفُ أن أقول

لك، أشعر برغبة غير عادية للذهاب إلى اليونان، كي أحاول أن أقتل تركيًا، في سبيل مجد الصّليب العظيم.

فصرخت السيّدة دو پيين وهي تترك كبّة الخيطان تسقط من يدها:

ـ إلى اليونان؟

إلى اليونان؛ فهنا، أنا لا أصنعُ شيئًا. إني أضجر، ولستُ صالحًا لشيء، ولست قادراً على أن أصنع شيئًا مفيداً. وما من شخصٍ في العالم أصلح لأن أصنع له شيئًا؛ فلماذا لا أذهب كي أحصدُ أكاليل الغار، أو أقتل في سبيل قضية جيّدة؛ فضلاً عن أني قلّما أرى وسيلةً أخرى للمضيّ إلى المجد، أو إلى معبد الذّاكرة. وهذا ما أحرص عليه أشدّ الحرص؛ فتصوّري، يا سيدتي، أيُّ شرفٍ سيكون لي، حين يقرأ في الصحيفة: «يكتبون إلينا من تريپوليتزا أن السيد ماكس دو سالينيي، صديق اليونانيين الشاب، والذي يؤمَّل منه الكثير ـ يمكن أن يقال ذلك في صحيفة ـ الذي يؤمّل منه الكثير قد قضى ضحيّة حماسته لقضية الدين المقدّسة، وقضية الحرّيّة. وقد أمعن خورشيد باشا الرّهيب في تناسي التقاليد المتّفق عليها، فوصل به الأمرُ إلى الحكمّ بقطع رأسه...».

وهذا بالضبط، أسوأ ما لديّ، كما يقول كلّ الناس، أليس كذلك، ياسيدتي؟

وكان يضحك ضحكةً مغتصبة.

ـ هل تتكلّم جديّا، يا ماكس، هل تذهبُ إلى اليونان؟

ـ جدّيًا جداً، يا سيدتي، إنما سأحاول ألا تنشر مقالتي عن سيرة الموتى إلاّ في أبعد وقتٍ ممكن.

ـ وما الذي ستفعله في اليونان؟ ليس الجنود هم الذين يفتقر إليهم اليونانيّون، إنك ستكون جنديّا ممتازاً، أنا واثقة من ذلك، ولكن....

فهتف وهو يقفُ بكل قامته:

ـ قاذفُ قنابل رائع، طولُه خمسة أقدام وست بوصات! سوف يشمئزّ اليونانيون فعلاً إذا لم يرغبوا بمتطوعٍ مثل هذا.

وأضاف وهو يهوي على كنبة:

هذا، كما أظن، أفضل ما عليّ أن أفعله؛ فليس باستطاعتي أن أبقى في باريس.

(ولفظ هذه الكلمات بنوعٍ من الشدّة)، فأنا تعسٌ فيها، وقد أصنعُ مئةَ حماقة... فليس لديّ القوة للمقاومة... ولكننا سنتحدثُ عن هذا، ولن أرحل في الحال... ولكني سأرحل... أوه! أجل، لابدّ من ذلك. وقد أقسمت عليه أكبر قسم - هل تعلمين أني أتعلم اليونانية منذ يومين؟ . Zwm´ uou sxcàyπw

إنها لغة جميلة، أليس كذلك.

كانت السيدة دو پيين قد قرأت كتابةَ اللورد بيرون؛ فتذكّرت تلك الجملة اليونانية، وهي لازمةٌ في إحدى مسرحياته الخاطفة، وترجمتها كما تعلمين، موجودةٌ في الحاشية، وهي: «يا حياتي، إني أحبّك». «إنها أساليب مجاملة في الكلام خاصة بتلك البلدان».

وكانت السيّدة دو پيين تلعنُ ذاكرتها الجيدة أكثر من اللازّم. وقد تحاشت فعلاً أن تسأل عما تعنيه تلك الجملة اليونانية، وخشيت فقط أن تُظهر هَيئةُ وجهها مافهمته منها، وكان ماكس قد اقترب من البيانو، فأصدرت أصابعه التي سقطت على ملامس البيانو وكأنما بالصّدفة، أصدرت بعضَ النغمات الكئيبة. وفجأة، أخذ قبّعته، واستدار نحو السيّدة دو پيين، وسألها عما إذا كانت تنوي أن تذهب في ذلك المساء الى منزل السيّدة دارسوني.

فأجابت وهي تتردّد بعض الشيء:

- أظنّ أني سأذهب.

فصافحها وخرج في الحال، وتركها فريسة لاضطرابٍ لم تكن قد شعرت به من قبل.

كانت كلُّ أفكارها مشوّشةً، وتتعاقب بسرعةٍ كبيرة، بحيث لم يكن لديها الوقت لتتوقّف عند واحدة منها. كانت تشبه ذلك التّتابع من الصورّ التي تظهر

وتختفي من باب عربة تنسحب على سكة حديدية. فكما أن العين التي لا تلمح التفاصيل كلّها تتوصّل مع ذلك إلى التقاط الصفة العامة للمناظر التي نجتازها، في غمرة انطلاق العربة الأكثر اندفاعًا، كذلك فإن السيدة دو پيين كانت تحسّ بانطباعٍ من الذّعر. وتشعر وكأنها مسوقةٌ على منعطفٍ سريع، وسط جروفٍ مرعبة، في خضمٍّ ذلك الخواء من الأفكار التي كانت تحاصرها. أما أن يكون ماكس قد أحبّها؛ فذلك أمرٌ لا يمكنها أن تشكّ به؛ فذلك الحبّ (أو كانت تقول: تلك المعزّة) كان يرجع إلى زمنٍ بعيد. ولكنها حتى ذلك الوقت، لم تكن قد تخوّفت من هذا الأمر؛ فقد كان ينتصب حاجزٌ لا يمكن اجتيازه، وكان يطمئنها فيما مضى، بين متديّنةٍ مثلها وفاسق مثل ماكس. ومع أنها لم تكن تفتقر إلى الإحساس بالسّرور أو الزهوّ، لأنها توحي بشعور جدّي لرجلٍ طائش مثل ماكس حسب رأيها فيه، فهي لم تكن قد فكّرت بأن تلك المعزّة يمكن أن تصبح ذات يوم مهدِّدة لراحة بالها. أمّا الآن، وقد غيّر الإنسان الخاطئ ما بنفسه؛ فقد بدأت تخشاه. إن اهتداءه الذي تنسبه إلى نفسها، أخذ يصبح إذن سببًا للأحزان والآلام بالنسبة إليها، وبالنسبة إليه. وكانت تحاول، على مراحل، أن تقنع نفسها بأن المخاطر التي تتوقّعها بصورةٍ غامضة لم يكن لها أيُّ أساسٍ واقعي؛ فتلك الرّحلة التي قرّرها فجأة، والتغيير الذي لاحظته في تصرّفات السيّد دو سالينيي يمكن أن تفسّر، في أسوأ افتراض، بالحبّ الذي كان يحتفظ به لأرسين غيّو. ولكن هذه الفكرة وذلك أمرٌ غريب، أصبحت لا تحتمل بالنسبة إليها أكثر من الأفكار الأخرى، وأصبح أمرًا يُسري عنها أن تبرهن على إمكانية استبعاده.

أمضت السيّدة دو پيين السّهرة كلّها في خلقِ الأوهام لنفسها، وفي القضاء عليها، ثم على إعادة تكوينها. ولم تشأ أن تذهب إلى منزل السيّدة دارسونيه، وكي تكون واثقةً من نفسها، سمحت لحوذيّها بالخروج، وأرادت أن تنام مبكّرًا، ولكن ما إن اتّخذت هذا القرار السّامي، وأصبح من غير الممكن أن ترجع عنه حتى تصوّرت أن ذلك القرار قد كان ضعفًا لا يليق بها، وندمت عليه. لقد خشيت

خصوصًا أن يرتاب ماكس بالسبّب، وبما أنها لم تكن تستطيع أن تُموّه على نفسها، الدافع الحقيقيّ لعدم خروجها من المنزل، فقد وصل بها الأمرُ إلى عدِّ نفسها مذنبةً؛ لأن مجرَّد اهتمامها بالسيّد دو سالينيي كان يبدو لها جريمةً؛ فصلّت طويلاً، غير أنها لم تجد التهدئة في ذلك. ولايمكنني أن أقول أيّة ساعةٍ توصلّت إلى النّوم، ولكن المؤكد هو أن أفكارها، عندما استيقظت، كانت مشوّشةً مثلما كانت في اليوم السّابق، وأنها كانت بعيدةً عن اتخاذ قرارٍ ما بالقدر نفسه الذي كانته بالأمس.

وفيما كانت تتناول الغداء ـ لأن المرء يتغذّى دائمًا ياسيدتي، خصوصًا عندما يكون قد تناول عشاءً سيئًا. قَرَأت في صحيفةٍ أن باشا لا أدري من هو قد قام بحصار مدينة في روميليا[1]، وذبح النساء والأطفال فيها. وقد مات بعضُ أنصار اليونانيين في تلك المعركة، وسلاحهم بيدهم، أو ذُبحوا ببطء بعد عذاباتٍ رهيبة. وكان هذا المقالُ الصّحفي قلّما يصلح لجعل السيّدة دو پيين تستحسنُ الرحلة إلى اليونان، والتي يتهيأ ماكس للقيام بها. كانت تتأمّل بحزنٍ أثناء القراءة، عندما أتوا إليها ببطاقة من هذا الأخير؛ ففي السّهرة الأخيرة، كان قد شعر بضجرٍ شديد في منزل السيّدة دارسونيه، وبما أنّ القلق قد انتابه لأنه لم يجدْ السيّدة دو پيين في منزل دارسونيه، فقد كتب لها مستفسراً عن أخبارها. وكي يسألها عن السّاعة التي يُفترض بها أن تذهب فيها إلى غرفة أرسين غيّو. ولم تمتلكْ السيّدة دو پيين الشجاعة كي تكتب له، بل أرسلت تجيبه بأنها ستذهب في الساعة المعتادة. ثم خطرت لها فكرةُ الذّهاب في الحال كي لاتلتقي ماكس هناك، ولكنها، من خلال التفكير بالأمر، وجدت أن ذلك كذبٌ صبيانيّ ومعيب، وهو أسوأ من ضعفها في اليوم السّابق، فتسلّحت، والحالة هذه، بالشّجاعة، وأدّت صلاتها بورع. وعندما حان الوقت، خرجت، وصعدت بخطا ثابتة إلى غرفة أرسين.

(١) روميليا: اسم أطلقه العثمانيون على مقاطعات تراسيا ومكدونيا التي احتلّها الأتراك في القرن الرابع عشر. (م: ز ـ ع)

وجدت السيدة دو ييبن الفتاةَ المسكينة في حالٍ تثير الشفقة . وكان واضحاً أن ساعتها الأخيرة قد دنت؛ فمنذ اليوم السّابق، كان المرض قد تقدّم تقدُّمًا مرعبًا . ولم يعدْ تنفُّسها سوى حشرجة مؤلمة . وقد قالوا للسيدة دو ييبن إن أرسين قد أُصيبت بالهذيان بضعَ مرات في الصّباح وإن الطبيب لايظنّ أنها يمكن أن تظلّ حيةً حتى اليوم التّالي .

ومع ذلك، فقد تعرّفت أرسين حاميتها، وشكرتها على المجيء لرؤيتها .

وقالت بصوتٍ مخنوق :

- لا تتعبي نفسك بعد الآن بصعود الدرّج .

كان يبدو أن كلّ كلمة تكلّفها جهداً مضنياً، وتستهلك ماتبقى من قواها . وكان لابدّ من الانحناء فوق سريرها كي تُسمع . كانت السيدة دو ييبن قد أمسكت يدها؛ التي أصبحت باردة، وكأنها فقدت الحياة .

وصل ماكس سريعًا، واقترب بصمتٍ من سرير المحتضرة، وأشار لها بإيماءةٍ خفيفة من رأسه، ولاحظ أنها تحملُ في يدها كتابًا داخل علبة .

وهمست بصوتٍ ضعيف :

- لن تقرأ اليوم .

ألقت السيدة دو ييبن نظرةً على ذلك الكتاب المفترض؛ فقد كان خريطة لليونان مجلّدة، وكان ماكس قد اشتراها في طريقه .

أما القسّ دو بينيون الذي كان بقرب أرسين منذ الصباح، ويلاحظ السّرعة التي تخورُ فيها قوى المريضة، فقد أراد أن يفيد من أجل خلاصها، من اللحظات القليلة التي تبقت لها، فأبعد ماكس والسيّدة دو ييبن، وانحنى على ذلك السرير - سرير الآلام، ووجّه إلى الفتاة المسكينة الكلماتِ الرّصينة والمواسية التي يخصّصها

الإرشـاد الديني لأوقـات مـشـابهـة لتلك اللحظة، وكـانت السـيّدة دو پيـين تصلّي جاثيةً، في إحدى زوايا الغرفة أما ماكس الذي كان واقفاً بقرب النافذة، فيبدو كأنه قد تحولّ إلى تمثال.

وقال الكاهن بصوتٍ ينمّ عن التأثر:

ـ هل تغفرين لكل أولئك الذين أساؤوا إليك ياابنتي؟

فأجابت المحتضرة، وهي تبذل جهدها كي يسمع صوتها:

ـ أجل! . . . فليكونوا سعداء!

فاستأنف الكاهن:

ـ ثقي إذن برحمة الرب، يا ابنتي، فالتّوبة تفتحُ أبواب السّماء.

وتابع الكاهن إرشاداته، خلال بضع دقائق أيضاً، ثم توقّف عن الكلام، غير متيقّن من أنه لم يعدْ أمامه سوى جثة. ونهضت السيدة برفق، وظلّ كلٌّ واحد بلاحراك لبعض الوقت، وهو ينظرُ بقلق إلى وجه أرسين الكامد. كانت عيناها مغلقتين، وكان كلٌّ واحد يحبس تنفسه، وكأنه لايريد أن يزعج النّوم الرهيب الذي كان ربما قد بدأ بالنسبة إليها. وكان يسمع بوضوح في الغرفة الرّنين الخفيف لساعةً موضوعة على منضدة الليل. وقالت الممرضة أخيراً، بعد أن قرّبت علبة السّعوط من شفتي أرسين:

ـ لقد توفيت الآنسة المسكينة، أنتم ترون أن الزّجاج لم يُغشّ فقد ماتت؛ فصرخ ماكس، وهو يخرج من الذّهول الذي كان يبدو غارقًا فيه:

ـ للصبيّة المسكينة! أية سعادة قد حصلت عليها في هذا العالم؟

فجأة وكأن أرسين عادت إلى الحياة بسبب صوته، فتحت عينيها، وهمست بصوتٍ مخنوق:

ـ لقد أحببت!

وأخذت تحرّك أصابعها، ويبدو كأنها تريد أن تمدّ يديها، وكان ماكس والسيّدة دو پيين قد اقتربا، وأمسك كلٌّ منهما بإحدى يديها، فردّدت بابتسامةٍ حزينة:

ـ لقد أحببت.

وكان تلك هي كلماتها الأخيرة، فأمسك ماكس والسيّدة دو پيين يديها المثلجتين طويلاً من غير أن يجرؤا على رفع عيونهما.

- ٤ -

حسنًا، يا سيدتي، أنت تقولين إن قصتّي قد انتهت، ولا تريدين أن تسمعي منها أكثر. وكنت أظن ّأن الفضولَ سيدفعك لتعرفي إن كان السيّد دو سالينيي قد قام برحلته إلى اليونان أم لا؛ وإذا . . . غير أن الوقت قد تأخرّ، وأنت تعرفين عن الأمر ما فيه الكفاية/ . فالحمد لله!

وعلى أية حال، احترسي من تكوين أحكام متهوّرة؛ فأنا أحتجّ بأني لم أقل شيئًا يمكنه أن يسمح لك بذلك.

فوق كلّ شيء، لاتشكي بأن قصتّي ليست حقيقيّة. هل تشكّين بذلك؟ فاذهبي إلى مقبرة بيرلاشيز. وعلى بعد عشرين خطوة من يسار قبر الجنرال فوا، ستجدين حجراً من الجير شديد البساطة، تحيطُ به الأزهار التي يُعتنى بها دائماً، وعلى الحجر، يمكنك أن تقرئي اسم بطلتي محفوراً بحروف كبيرة: «ARSÈN GUILLOT» أرسين غيو، وحين تنحنين على ذلك القبر، ستلاحظين، إذا لم يكن المطر قد سوّاها، سطراً مرسوماً بالقلم، لكتابةٍ دقيقةٍ جداً.

المسكينة أرسين! إنها تصلّي لأجلنا.

- ٢ -

كـــــارمـــــن



مدخل باليونانية:

(بالآداس)[1]

- ١ -

كانت تساورني الشكوك دومًا بأن الجغرافيين لم يكونوا على بيّنةٍ من أمرهم، حين حدّدوا مكانَ ساحةِ معركة موندا، ضمن منطقة باستولي- فيني، وعلى مقربةٍ من موندا الحديثة، وعلى بعد فرسخين من شمالي مارببلاّ. وحسب افتراضاتي الخاصّة التي بنيتُها على نصّ المؤلّف المغفل الاسم لكتاب: Bellum HISPANiENSE[2]، وعلى بعض المعلومات التي حصلت عليها من مكتبة الدّوق دو سوّنا الممتازة؛ فقد كنتُ أظنّ أنه ينبغي البحثُ في المناطق المجاورة لمونتيلاّ عن المكان المشهود الذي غامر فيه قيصر بكلّ شيء للمرّة الأخيرة، ضد أنصار الجمهورية. وإذ ألفيتُ نفسي في الأندلس، عند بداية خريف عام ١٨٣٠؛ فقد قمتُ برحلة طويلة إلى حدٍّ كافٍ كي أبدّد الشكوك التي كانت لاتزال تساورني. وآمل أن بحثًا سأنشره عما قريب لن يترك بعد الآن أي تشكّكٍ في ذهنِ علماء الآثار الحسني النيّة كافة. وبانتظار أن تحلّ دراستي أيضًا المشكلة الجغرافية التي تُبقي أوروبا العالمة في حالةِ ترقّب- سأروي لكم قصّة قصيرةً. وهي لاتحمل أيّة أحكام مسبقة حول المسألة المثيرة للاهتمام، مسألة موقع موندا.

كنت قد استأجرتُ في قرطبة مرشدًا وجوادين، وسافرتُ مصطحبًا معي: «المذكّرات التاريخية» لقيصر، وعددًا من القمصان هي كلّ ما حملته من أمتعة. وذات يوم، وأنا أتجول في الجزء المرتفع من سهل كاشينا، وقد أنهكني التّعب، وهدّني العطشُ، وأحرقتني شمسٌ ساحقةٌ، أبعدت عني قيصرًا، وأبناء بومبيوس طوعًا، عندما لمحتُ بعيدًا عن المعبر الذي كنت أسلكه مرجة خضراء موشاةً

---

(١) إن كلّ امرأة مثل المرّ؛ غير أن لها ساعتين طيبتين: إحداهما في السّرير، والأخرى عند موتها». بالآداس.

(٢) إسبانيا الجميلة. (م: ز. ع).

بالأسل[1] والقصب. وكان ذلك يبشّرني بوجود نبع مجاور. وأثناء اقترابي، رأيت في الواقع أن المرجة المفترضة كانت مستنقعًا تصبُّ فيه ساقيةٌ آتيةٌ، كما كان يبدو، من مضيقٍ صخريّ ضيق يقع بين خاصرتي جبل سيّرا دي كابرا. فاستنتجتُ أني سأجد ماءً أكثر برودةً، وأقلّ احتواء على العلَق والضفادع، وربما قليلاً من الظلّ في وسط الصّخور، حين أصعَد. وصهَل جوادي، عند مدخل المضيق، فردّ عليه حالاً جوادٌ آخر لم أكن أراه. وما إن سرتُ مئة خُطوة، حتى أخذ المضيقُ الذي اتسع فجأة، يريني مدرّجًا طبيعيًا يضلّله بشكلٍ كامل ارتفاعُ المنحدرات الوعرة التي تحيط به. وكان من المتعذّر إيجادُ مكان يتُيح للمسافر استراحةً مقبولةً أكثر. وكان الينبوعُ، في أسفل الصّخور العمودية، يندفعُ وهو يفورُ، ويسقطُ في بركةٍ صغيرة مفروشةٍ بالرّمل الأبيض كالثلج. وكانت خمسُ أو ستُّ سنديانات خضراء تنتصبُ على ضفافها، بمنأى من الرّيح، وتحت رطوبة الينبوع دائمًا، وتغطّيانه بظلالها الوارفة. وأخيرًا، فإن عشبًا ناعمًا ملتمعًا، كان يوفّر، حول البركة، سريرًا هو أفضل من أيّ سرير يمكن أن نجده في أيّ نزلٍ على دائرةٍ تبعدُ عشرة فراسخ من ذلك المكان.

لم يكن شرفُ اكتشاف مكانٍ جميل كذلك المكان يرجعُ لي؛ فقد كان رجلٌ يستريح فيه من قبل. وكان نائمًا بالتأكيد، عندما ولجتُ إليه. وما إن أيقظه صهيلُ الحصان، حتى نهض واقترب من حصانه الذي كان قد أفاد من نومٍ صاحبه ليلتهم وجبةَ عشبٍ جيدة من المناطق المجاورة. كان ذلك الرّجلُ شابًا جسورًا، ذا قامةٍ متوسّطة ولكنها متينةٌ كما يظهر، وذا نظرةٍ كئيبةٍ وأنوفة. أما لونُ بشرته، الذي كان يمكن أن يكون جميلاً، فقد غدا، بتأثير الشمس، أكثر قتامةً من لون شعره. كان يُمسك بإحدى يديه مقودَ مطيّته، وبالأخرى بندقيةً منفرجة نحاسية. وأعترف أن البندقية المنفرجة، والمظهر المخيف لحاملها قد فاجآني بعضَ الشيء في البداية.

---

(١) جنس نباتات عشبية تُستعمل لصنع السّلال. (م: ز.ع).

غير أني لم أعدْ أؤمن بوجود اللّصوص، بسبب كثرةِ سماع الحديث عنهم. ولأني لم أصادف قط أحداً منهم - زدْ على ذلك، أني كنت قد رأيت العديدَ من المزارعين الشرفاء يذهب إلى السوّق مدجّجًا بالسّلاح بحيث أن رؤية سلاحٍ ناريّ لا تُبيحُ لي أن أشكّكَ بأخلاقيةِ الرّجلِ الغريب - ثم أني كنتُ أقول لنفسي:

ماذا سيفعل بقمصاني، و«مذكراتي التاريخية» المكتوبة بخطّ الزّفير؟ فحييت إذن الرّجل ذا البندقية المنفرجة بإيماءةٍ عاديةٍ من رأسي وسألته وأنا أبتسم إن كنت قد أزعجت نومه. فقاس قامتي من رأسي إلى قدمي، من غير أن يجيب، ثم تأمّل بالاهتمام نفسه مرشدي الذي كان يتقدّم بعد أن اكتفى من معاينته لي؛ فرأيت مرشدي يشحبُ، ويتوقف مبديًا رعبًا واضحًا. فقلت في نفسي: يا له من لقاء سيئ! غير أن الحصافة نصحتني في الحال بألاّ أُظهرَ أيّ قلق؛ فنزلت إلى الأرض، وقلت للمرشد أن ينزع لجام الخيل. وبعد أن جثوت على ضفة الينبوع غطست فيه رأسي ويدي، ثم شربت جرعة ماءٍ جيدة واستلقيت على بطني كما يفعل جنودُ جيديون الأشرار.

كنت مع ذلك ألاحظ مرشدي والغريب؛ فكان الأوّل منهما يتقدّم على مضضٍ فعلاً أما الآخر فكان يبدو أنه لايحمل نوايا شريرةً ضدّنا؛ فقد أطلق جواده، وبندقيته المنفرجة التي كان يمسك بها أفقيًا في البداية، أصبحت الآن موجّهةً نحو الأرض. وإذ لم أظنّ أنه يتعيّن علي أن أغتاظ بسبب مابدا منه من استخفافٍ بشخصي، فقد تمدّدت على العشب، وسألت الرّجل ذا البندقية المنفرجة بمحيّاً طلق إن كان يحملُ ولاّعة. وأخذت في الوقت نفسه أسحبُ علبة سجائري. أما الغريبُ فقد بحث في جيبه، ودائماً من غير أن يتكلّم، وأخذ ولاعته، وسارع إلى تقديم شعلتها لي. لقد كان بالطبّع يُبدي تهذيبًا؛ فقد جلس قبالتي من غير أن يترك سلاحه مع ذلك، فاخترت وسيكاري مشتعلٌ، أفضَل سيكارٍ من بين تلك التي تبقّت عندي، وسألته إن كان يدخّن فأجاب: - نعم، يا سيّدي.

كانت تلك هي الكلمات الوحيدة التي سمعتها منه، ولاحظت أنه لم يكن يلفظ الـ «S» على الطريقة الأندلسية[1]. واستنتجت من هذا أنه كان مسافراً مثلي، ولكنه أقل مني علماً بالآثار فقط.

فقلت له، وأنا أقدّم إليه هدية سيكار حقيقيّة كوبيّة:

ـ ستجدُ هذا لذيذاً إلى حدٍّ كاف.

فحنى رأسه قليلاً، وأشعل سيكاره من سيكاري، وشكرني بإيماءةٍ أخرى من رأسه، ثم شرع يدخّن، وقد ظهر أنه يستمتعُ بذلك استمتاعاً كبيراً جداً.

وهتف وهو يترك أول نفخة دخان تخرج ببطءٍ من فمه ومنخريه:

ـ آه! لقد مضى عليّ وقتٌ طويل لم أدخن فيه!

وفي إسبانيا يُنشيء سيكارٌ يُقدَّمُ ويُقبَلُ علاقات ضيافة، مثلما تُنشئُها مشاركةُ الخبز والملح في المشرق. وقد ظهر الرّجل متحدّثاً أكثر مما كنتُ آمل. زدْ على ذلك أنه كان يبدو أنه لايعرفُ المنطقة معرفةً جيدة، مع أنه كان يقول إنه من سكان (منطقة مونتيلا) ولم يكن يعرف اسم الوادي السّاحر الذي كنّا فيه. ولم يكن بمقدوره أن يسمّي أية قرية من القرى المجاورة. وأخيراً، وبعد أن سألته إن كان قد رأى في الجوار جدراناً مهدّمة، وقرميداً عريضاً ذا حروف، وحجارةً منحوتة، اعترف بأنه لم ينتبه قط لأشياء مشابهة، وبالمقابل فقد بدا خبيراً في موضوع الخيول، فانتقد جوادي، وهذا لم يكن أمراً صعباً، ثم قدّم لي التسلسل النّسائي لجوادي الذي هو سليلُ مربط الخيول القرطبي الشهير. إنه حيوانٌ نبيل الأصل في الواقع، وهو شديدُ الاحتمال للتعب، وكما كان يزعمُ صاحبُه، فقد قطع في أحد الأيام ثلاثين فرسخاً جرياً، أو خبباً سريعاً، وتوقف الغريبُ فجأة في منتصف حديثه

(١) ـ إن الأندلسيين يلفظون الـ (S = س) بملء النفس، ويخلطونها في لفظهم لها مع الـ (S = س) الليّنة والـ «S = س» التي يلفظها الإسبان مثل الـ «Th» (ث) الإنكليزية، فبناء على كلمة «SENOR» وحدها يمكن أن نتعرّف أندلسيّاً.

الطّويل، وكأنه قد بوغت فاستاءَ من إطالة الحديث أكثر من اللازم، واستأنف بنوعٍ من الارتباك: «وذلك لأني كنت متعجّلاً جداً للذهاب إلى قرطبة، وكان عليَّ أن ألتمس عونَ القضاة في دعوى معينة. . . ».

لقد سحرني الظلُّ والينبوعُ إلى حدٍّ كبير بحيث تذكّرت بعضَ شرائحِ فخذ الخنزير الممتازة، والتي كان أصدقائي في مونتيلا قد وضعوها في جعبة مرشدي، وأمرت بإحضارها، ودعوتُ الغريب إلى مشاركتي في الوجبة المرتجلة. وبما أنّه لم يكن قد دخّن منذ زمن طويل، فقد بدا لي من المحتمل أنه لم يأكلْ منذ ثمان وأربعين ساعة على الأقل؛ فقد كان يلتهمُ الطّعام كالذئب الجائع، وخطر لي أن لقائي بذلك المسكين قد أتى في أوانه. أما مرشدي فقد كان مع ذلك يأكلُ قليلاً، ويشربُ أقلّ أيضاً، ولايتكلّم إطلاقاً، مع أنه قد تكشّف لي عن ثرثارٍ لامثيل له منذ بداية سفرتنا. وكان يبدو أن وجودَ ضيفنا كان يزعجه. وكان هناك شيءٌ من الريّبة يبعدُ كلاًّ منهما عن الآخر، من غير أن استشفّ السّبب بصورةٍ أكيدة.

كانت آخرُ كسرات الخبز، وقطعِ فخذ الخنزير قد اختفت، وكان كلٌّ منا قد دخّن سيكاراً ثانياً فأمرتُ المرشدَ بأن يلجمَ خيولنا، وكنت أهمُّ بتوديع صديقي الجديد، عندما سألني عن المكان الذي أنوي أن أبيت فيه.

وقبل أن أنتبه لإشارة مرشدي، كنتُ قد أجبتُ بأني ذاهبٌ إلى نُزل ديل كويرفو[1].

- إنه مبيتٌ رديءٌ بالنسبة لشخصٍ مثلك، يا سيّدي. . . أنا ذاهبٌ إليه، فإذا سمحت لي أن أرافقك، فإننا نسيرُ إليه معاً.

فقلتُ وأنا أمتطي جوادي:

- بكلّ طيبةِ خاطر.

---

(١) أي: نزل الغراب. (م: ز.ع).

كان مرشدي الذي يمسك لي الركاب، يومئ إليَّ إيماءةً جديدةً بعينيه، فرددت عليها بهزّ كتفي، وكأني أطمئنه بأني مرتاحٌ تماماً، وانطلقنا في الطريق.

كانت إشارات أنطونيو الغامضة وقلقه، وبعضُ الكلمات التي أفلتت من الغريب، وخصوصاً مسيرة الثلاثين فرسخاً التي قام بها، والتفسيرُ غير المستساغ الذي قدّمه عنها، كلُّ هذه الأمور كانت قد كوّنت رأيي برفيق سفري. ولم أعدْ أشكّ في أني أتعامل مع مهرّبٍ، وربّما مع لصّ. ولكن ما يهمّني؟ فقد كنتُ أعرفُ الطّباع الإسبانية بصورةٍ تكفي لتجعلني واثقاً جداً بأنه لا يتعيّن عليّ أن أخشى رجلاً قد أكَلَ، ودخَّن معي، بل أن وجوده كان حمايةً أكيدةً ضدَّ أيةِ مصادفةٍ سيئة. زدْ على ذلك أني كنت مرتاحاً تماماً لأني أعرف ما هو قاطعُ الطريق. إننا لا نصادف الكثير من قُطاعِ الطّرق أولئك يومياً، وهناك سحرٌ معين في أن يجد المرء نفسه إلى جانب كائنٍ خطر، خصوصاً حين نحسُّ أنه لطيفٌ ومستأنس.

كنت آملُ أن أدفع الغريب تدريجياً إلى أن يقدّم لي مساراتٍ معيّنة. وبرغم غمزاتِ عيني مرشدي، فقد ركّزتُ الحديث على لصوص الطّرق العامة. وقد تحدّثت عنهم طبعاً باحترام. وفي ذلك الوقت، كان هناك قاطعُ طريقٍ شهير في الأندلس، واسمه جوزيه-ماريا. وكانت مآثره على كلِّ لسان. وكنت أقول في نفسي: «آه، لو كنت إلى جانب جوزيه-ماريا؟... ورويتُ القصص التي كنتُ أعرفها عن ذلك البطل، وكانت جميعُها تمتدحُه، من جهةٍ أخرى، وعبّرت بصوتٍ عالٍ عن إعجابي بإقدامه وكرمه.

فقال الغريب ببرود:

- لا يتعدّى جوزيه-ماريا أن يكون رجلاً طريفاً.

فتساءلت بيني وبين نفسي: «وهل يعطي نفسه حقَّها أم أن هذه مبالغةٌ في التواضع من جهته؟». لأني توصّلت إلى تطبيق أوصاف جوزيه-ماريا على رفيق سفري، لكثرة ما تأمّلته. وهي أوصافٌ كنتُ قد قرأتها ملصقةً على أبواب مدن عديدة في الأندلس-أجل، إنه هو فعلاً... شعرٌ أشقر، عينان زرقاوان، فمٌ كبير،

أسنانٌ جميلة، يدان صغيرتان، وقميص ناعم، وسترةٌ من المخمل ذات أزرار فضيّة، وواقيتا ساقٍ من الجلد الأبيض، وجوادٌ كميت . . . ما من شكٍّ بعد الآن! إنما لنحترم تخفّيه.

وصلت إلى النّزل؛ فكان كما وصفه لي، أي من أكثر الأنزال التي صادفتُها، حتى ذلك الحين بؤساً؛ فثمة غرفة كبيرة تستخدم كمطبخ وقاعة للطعام، وغرفة للنوم. وكانت النّار تُتقد في وسط الغرفة، ويخرج الدّخان من ثقب قد أُحدث في السّقف، أو أنه على الأصحّ يتوقّف مشكّلاً غيمةً على ارتفاع بضعة أقدامٍ فوق الأرضية، وعلى طول الجداركانت تُرى خمسة أو ستة أغطية للبغال ممدودةً على الأرض. فتلك كانت هي أسرّة المسافرين، وعلى بُعد عشرين خطوة من النزل، أو بالأحرى من الغرفة الوحيدة التي وصفتها منذ قليل، كان ينتصب نوعٌ من ملجأ يُستخدم كإسطبل، ففي ذلك المقرّ السّاحر، لم تكن هناك كائناتٌ بشريةٌ أخرى، في ذلك الوقت على الأقل، غير امرأةٍ عجوز وبنتٍ صغيرة في العاشرة أو الثانية عشرة من عمرها. وكلتاهما بلون السّخام، وترتديان أسمالاً شنيعة؛ فقلتُ في نفسي. هذا كلّ ما تبقى من سكّان موندا بوتيكا القديمة! آه، ياقيصر! آه! يا سيكستوس بومبيوس! كم كنتم ستُفاجؤون لو ترجعون إلى العالم!

حين لمحت العجوز رفيقي أطلقت صرخةً تنمّ عن الدهشة وهتفت:

ـ آه! السيّد دون جوزيه!

فقطب دون جوزيه حاجبه، ورفع يده بحركةٍ آمرة أوقفت العجوز فوراً، فاستدرت نحو مرشدي، وأفهمته، بحركةٍ غير منظورة، أنه لايتعيّن عليه أن يعلمني أيّ شيء عن الشخص الذي كنت أعتزم المبيتَ معه. وكان العشاء أفضلَ مما كنت أتوقّع، فعلى منضدةٍ صغيرةٍ ترتفع قدماً واحداً عن الأرض، قدّم لنا ديكٌ عتيق مقليّ مع الرز، والكثير من الفليفلة، ثم طبقٌ من الفليفلة بالزيّت، وأخيراً طبقٌ من الغاسباشو، وهو نوعٌ من سلطة الفليفلة. وقد أجبرتنا ثلاثةُ أطباقٍ متبّلة على ذلك النحو أن نلجأ غالبًا إلى مطرةٍ من نبيذ مونتيلاّ الذي وجدناه لذيذاً. وبعد أن أكلنا،

لمحتُ ماندولينةً معلّقةً على السّور ـ ففي كلّ مكان، هناك ماندولينات في إسبانيا ـ فسألت الفتاة الصغيرة التي كانت تقدّمُ لنا الطعام إن كانت تحسنُ العزف عليه.

فأجابت:

ـ كلاّ، ولكن دون جوزيه يعزفُ عليه جيّدًا!

فقلت له:

ـ تكرّم بأن تغنّي لي شيئًا فأنا أحبُّ بشغفٍ موسيقاكم الوطنية.

فهتف دون جوزيه بلهجةٍ تنمّ عن مزاجٍ حسن:

لايسعني أن أرفض شيئًا لسيّد رفيع التهذيب، ويقدّم لي سيكاراً على درجةٍ عالية من الجودة.

وبعد أن طلب أن يعطوه الماندولينة، غنّى بمرافقة العزف. كان صوته خشنًا، ولكنه مقبول مع ذلك، وكان اللحنُ حزينًا وغريبًا؛ أما الكلمات فلم أفهمْ منها أيةَ كلمة.

وقلتُ له:

إذا لم أكن مخطئًا، فاللحن الذي غنيته ليس لحنًا إسبانيًا، إنه يشبه تلك الزّوريزيكو التي سمعتها في الأرياف[1]. ولا بدّ أن كلماتها بلغة الباسك.

فأجاب دون جوزيه بلهجةٍ كئيبة:

ـ أجل.

وضع المندولينة على الأرض، ووقف مكتوف اليدين، وأخذ يتأمّل النارَ التي كانت تنطفئ، وتعبيرٌ فريدٌ من الحزن على محيّاه. لقد كان وجههُ الذي ينيره

---

(١) الأرياف المتميزة التي تتمتع بامتيازاتٍ خاصة هي: ألفالا، لابيسكا، لاجيوبوسكا، وقسمٌ من ناڤار، أما لغة الباسك فهي لغة المنطقة.

مصباحٌ موضوعٌ على المنضدة الصّغيرة. ذلك الوجه النبيل والمخيف يذكّرني بالشيطان عند ميلتون[1]. فقد كان صاحبي، يفكّر مثله ربما بالمسكن الذي تركه، وبالمنفى الذي استحقه من جراء خطئه. وحاولت أن أحيي الحديث، غير أنه لم يرد؛ فقد كان غارقًا في أفكاره الكئيبة.

كانت العجوز قد نامت في إحدى زوايا القاعة، في حماية غطاء مثقَّبٍ ومشدودٍ على حبل، وكانت الفتاةُ الصغيرة قد لحقت بها إلى تلك الخلوة المخصّصة للجنس الناعم. حينذاك نهض مرشدي، ودعاني إلى اللحاق به في الاسطبل ولكنّ دون جوزيه ما إن سمع هذه الكلمة، حتّى استيقظ وكأنّه ينتفض، وسأله بلهجةٍ مفاجئةٍ عن المكان الذي سيذهب إليه:

فأجاب المرشد: ـ إلى الاسطبل.

ـ ولماذا تفعلُ ذلك؟ فالخيول يجب أن تأكل، فنمْ هنا، ولسوف يسمحُ السيّد بذلك.

ـ أخشى أن يكون جوادُ السيّد مريضًا، وأريدُ أن يراه السيّد؛ فربما يعرفُ ماذا يجب أن نصنع له.

كان واضحًا أن أنطونيو يريد أن يكلّمني على انفراد. ولكني لم أكن مهتمًا بإثارة الشكوك لدى دون جوزيه؛ ففي النقطة التي وصلنا إليها، كان يبدو لي أن أفضل موقف اتّخذه هو إظهارُ أكبر ثقة ممكنة، فأجبت أنطونيو، والحالة هذه، بأني لا أعرف شيئًا عن الخيول. وأن لديّ رغبة في النوم. ولحقَ به دون جوزيه إلى الاسطبل الذي رجع منه وحده في الحال وقال لي إن الحصان لا يشكو من شيء، وأن مرشدي يجدهُ حيوانًا ثمينًا، وأنه يفركهُ بسترته كي يجعله ينتح، وأنه ينوي أن يمضي الليل وهو يقومُ بهذا العمل اللّطيف. ومع ذلك، فقد كنتُ متمددًا على أغطية البغال، ومتلفعًا بشكل جيد بمعطفي كي لا ألامسها، وبعد أن اعتذر دون

(١) ميلتون: شاعر إنكليزي من أنصار كرومويل، وقد كتب: «الفردوس المفقود» وهي ملحمةٌ شعرية (م: ز.ع).

جوزيه لأنه سمح لنفسه بالاقتراب مني، اضطجع أمام الباب، وكرّر تذخير بندقيته المنفرجة التي عنِي بوضعها تحت الجعبة التي كان يستخدمها كوسادة. وبعد خمس دقائق من اللحظة التي تمنى كلٌ منا للآخر مساءً سعيداً، أغفينا بعمق.

كنت أظنّ أني متعبٌ بما يكفي لأتمكّن من النوم في مبيت كذلك المبيت، ولكن حكّةً مزعجةً جداً قد انتزعتني، بعد ساعةٍ من الزمن، من أولّ إغفاءةٍ لي. وما إن عرفت طبيعتها حتى نهضت وقد اقتنعت بأنه من الأفضل أن أُمضي بقية الليل تحت النجوم من أن أمضيه تحت ذلك السّقف غير المضياف. وإذ سرتُ على رأس أصابع قدميّ، فقد وصلتُ إلى الباب، ومررتُ من فوق مرقد دون جوزيه الذي كان ينامُ نومَ صدِّيق. وقد أحسنتُ التصرُّف بحيث خرجت من النزل من غير أن يصحو. وكان هناك مقعدٌ عريضٌ خشبيّ بقرب الباب، فتمدّدتُ فوقه، وتدبّرتُ أمري بقدر استطاعتي كي أُمضي ليلتي. وكنت على وشك أن أغلق عيني للمرّة الثانية، عندما بدا لي أن ظلّ رجل، وظلّ حصانٍ قد مرّا من أمامي، وهما يسيران من غير أن يحدث أيٌ منهما أدنى ضجة. فجلستُ وظننتُ أني قد تعرّفت أنطونيو. وإذ دهشت من أن أراه خارج الاسطبل في ساعةٍ كتلك السّاعة، فقد نهضت وسرتُ إلى لقائه، وكان قد توقّف عندما لمحني أولاً. وسألني أنطونيو بصوت خفيض: ـ أين هو؟

ـ في النزل، إنه ينام، وهو لايخشى البق، فلماذا إذن أتيت بهذا الحصان؟

فلاحظت حينذاك أن أنطونيو قد لفّ أقدام الحصان ببقايا غطاءٍ عتيق لفًّا متقنًا، كي لايحدث صوتًا، أثناء خروجه من الاسطبل.

وقال أنطونيو:

ـ تكلّم بصوتٍ أخفض، بالله عليك. أنت لا تعرفُ من هو هذا الرجل. إنه جوزيه ناڤارو، أعظم قاطع طريق في الأندلس. وقد أمضيت النهار كلّه في توجيه إشاراتٍ لك لم تردْ أن تفهمها.

فأجبت:

ـ سواء كان قاطع طريقٍ أم لا. ماذا يهمّني من ذلك؟ فهو لم يسرقْنا وأراهن أنه لا يرغبُ في ذلك.

ـ الحمد لله، ولكن ثمة مئتا دوقية[1] لمن يسلّمه. وأنا أعرف مركزاً للرمّاحين، على بعد فرسخ ونصف من هنا. وقبل أن يطلع النهار سآتي بعدد من الرّجال الأشداء، وأكون قد أخذت حصانه ولكنه حصانٌ شريرٌ لا يمكن أن يقترب منه إلاّ النّاڤاري.

فقلت له:

ـ فليأخذك الشيّطان. فأيُّ شرّ قد فعله بك هذا الرّجلُ المسكين كي تشي به؟ ومن ناحيةٍ أخرى، فهل أنت متأكّد من أنه اللّص الذي تتحدّث عنه؟

ـ متأكدٌ تماماً؛ فمنذ قليل، لحق بي إلى الاسطبل، وقال لي: «يبدو أنك تعرفني، فإذا ما قلت لهذا السيّد الطيب من أكون أفجّر رأسك». فلتبق يا سيدي، لتبق قريباً منه، فليس لديك ما تخشاه، وطالما يعرف أنك هنا، فلن يشكّ بشيء.

كنا قد ابتعدنا بما فيه الكفاية عن النزل، أثناء حديثنا، بحيث لم يعدْ ممكنًا سماعُ حذوات الحصان. وكان أنطونيو قد خلّصه بلمح البصر من الأسمال التي كان يلفُّ بها قدميه، وأخذ يتهيأ لركوب مطيته، وقد جربّت كلّ الرجاءات والتهديدات لمنعه من ذلك.

وكان يقول لي: ـ إني رجلٌ مسكين، يا سيدي، ومئتا دوقية ليست مبلغًا يمكن خسارته، خصوصًا حين تتعلّق المسألةُ بتخليص البلد من رجلٍ سيئ كهذا. ولكن احترس، إذا ما استيقظ الناڤاريّ، فسيقفزُ إلى بندقيته المنفرجة، والويل لك؟ أما أنا، فقد تقدّمت أكثر مما يمكنني أن أتراجع فرتّب أمورك، كما تستطيع.

كان ذلك الغريبُ الأطوار قد صَعَدَ على السرّج؛ فهمز حصانَه من الجانبين، وغاب عن عينيّ سريعًا في العتمة.

---

(١) الدوقية: نقدٌ ذهبي كان معمولاً به في البندقية قديمًا. (م: ز.ع).

كنتُ حانقًا على مرشدي، وقلقًا إلى حدٍّ مقبول. وبعد لحظةٍ من التفكير، حزمتُ أمري، ورجعتُ إلى النزل. كان دون جوزيه لايزالُ نائمًا، وهو يعوّض، بلاشك، في ذلك الوقت، التعبَ والسّهر اللذين عاناهما خلال بضعة أيامٍ من المغامرات. وكنتُ مضطرًا إلى هزّه بشدةٍ لإيقاظه. ولن أنسى قطّ نظرته المخيفة، والحركة التي قام بها ليمسك ببندقيته المنفرجة التي كنت قد وضعتها كتدبيرٍ احترازيّ، على مسافةٍ معينةٍ من مرقده.

وقلتُ له: إني أعتذر منك يا سيدي لأني أيقظتك، ولكن لدي سؤالاً أحمق أطرحهُ عليك. فهل ستكون مرتاحًا إذا ما رأيت نصف دزينةٍ من الرّماحين يصلون إلى هنا.

فقفز واقفًا على قدميه، وسألني بصوتٍ رهيب:

ومن قال لك ذلك؟

ـ لايهمّ من أين يأتي الإنذارُ بشرط أن يكونَ إنذاراً حسنًا.

ـ لقد خانني مرشدُك، ولكنه سيدفعُ ثمنَ ذلك. أين هو؟

ـ لا أعلم... في الاسطبل، أظنّ... ولكن أحدهم قد قال لي...

ـ من قال لك؟... لا يمكن أن تكون العجوز.

ـ واحدٌ لا أعرفه.... من غير كلامٍ أكثر، هل لديك، نعم أم لا، دوافع لعدم انتظار الجنود؟ إن كانت لديك مثل هذه الدّوافع، فلا تُضعْ وقتك. وإلاّ، فمساء الخير، وأنا أعتذر منك لأني قطعتُ عليك غفوتَك.

ـ آه! إنه مرشدُك! لقد ارتبتُ به منذ البداية... ولكنّ حسابه سوف يسوّى!... فوداعًا، يا سيدي... وليكافئك الربّ على الخدمة التي أدين بها إليك، فأنا لست شريراً تمامًا بالقدْر الذي تظنّني... أجل، فلا يزال لديّ شيء يستحق عطف رجلٍ مهذّب... فوداعًا، يا سيدي... ولست آسف إلاّ على شيء واحد، وهو أني لا أستطيع أنَ أفي ما عليّ تجاهك.

ـ مقابل الخدمة التي أدّيتها لك، عدْني، يا دون جوزيه، ألا ترتاب بأحد، وألاتفكّر بالانتقام. خذْ، هذه سيكارات للطريق، وسفراً موفّقًا!

ومددتُ له يدي.

فصافحني من غير أن يردّ، وأخذ بندقيّته المنفرجة وخُرْجَه، وبعد أن قال بعضَ الكلمات للعجوز بلغة محليّةٍ لم أستطع فهمها. هُرعَ إلى الحظيرة. وبعد بضع لحظاتٍ سمعته يعدو في السّهول.

أما أنا فقد عدتُ للنومِ على مقعدي، ولكني لم أغفُ. وكنت أتساءل إن كنت على حقٍّ في إنقاذي للصٍّ، أو ربما لقاتلٍ من حبل المشنقة. وذلك فقط لأني كنتُ قد أكلتُ معه شيئًا من فخذ الخنزير، وأرزاً على الطّريقة الفالنسيّة. ألم أخنْ مرشدي الذي كان يساندُ قضيةَ القانون. ألم أعرِّضه لانتقام رجلٍ أثيم؟ غير أن حقوق الضّيافة!... كنتُ أقول في نفسي: إنّه حكمٌ مسبقٌ وحشيٌّ. ولسوف يتعينُ عليّ أن أكون مسؤولاً عن كلّ الجرائم التي سيرتكبها قاطعُ طريق... ومع ذلك، فهل تعدُّ حكمًا مسبقًا غريزةُ الضّمير التي تصمدُ لكلّ المحاكمات؟ وربما لم يكن باستطاعتي أن أتخلّص من غير ندمٍ من الموقف الدقيق الذي وجدتُ نفسي فيه. لقد كنتُ لا أزال أسبحُ في أكبر انعدامٍ لليقين في موضوع الطّابع الأخلاقي للعمل الذي قمتُ به، عندما رأيتُ نصفَ دزّينةٍ من الخيالة مع أنطونيو الذي كان يتقدّم بحذرٍ في مؤخّرة المفرزة. فسرت لملاقاتهم، وأخبرتهم أن قاطع الطّريق قد هرب منذ أكثر من ساعتين. أما العجوز التي استجوبها العريفُ، فقد أجابت بأنها تعرفُ الناڤارو. وبما أنها كانت تعيشُ وحيدة، فهي لم تجرؤ قطّ على المخاطرة بحياتها، وتشي به. وقد أضافت أنه قد اعتاد، عندما كان يأتي إلى نزلها، أن يرحل دومًا في منتصف الليل. أما أنا، فقد توجّب علي أن أُبرزَ جوازَ سفري. وأن أوقّع تصريحًا أمام القاضي. وقد سمح لي بعد ذلك أن أستأنف تنقيباتي الأثريّة. أما أنطونيو، فقد حقد عليّ. إذ شكّ بأني أنا الذي حرمتُه من كسب المئتي دوقية. ومع ذلك فقد افترقنا كأصدقاء طيّبين في قرطبة. وهناك، أعطيته مكافأة بقدر ما أمكن لقدراتي المالية أن تسمح لي.

- ٢ -

قضيتُ بضعة أيامٍ في قرطبة . وكانوا قد دلّوني على مخطوطةٍ في مكتبة الآباء الدومينيكانيين ، حيث كان من المفترض أن أعثر على معلوماتٍ مثيرةٍ للاهتمام حول موندا القديمة . وبما أن الآباء الطيّبين قد استقبلوني استقبالاً جيداً جداً ؛ فقد كنت أقضي أوقات النّهار في ديرهم . وفي المساء كنت أتجولّ في المدينة ؛ فعند مغيب الشمس . في قرطبة ، يتجمّع عددٌ كبيرٌ من المتعطّلين على الرّصيف الذي يحاذي ضفّة غوادالكفير[1] اليمنى . وهناك ، يتنشّقُ المرءُ الروائح المنبعثة من مدبغةٍ لاتزالُ تحتفظُ بسمعة البلد القديمة في تحضير الجلود . وبالمقابل ، فإن المرءَ يتمتع فيها بمشهد له مزيته الخاصّة حقًّا . فقبل أن يقرع جرس ُصلاة التبّشير ببضع دقائق ، يتجمّع عددٌ كبيرٌ من النساء على ضفّة النهر ، في أسفل الرّصيف . وهو رصيفٌ مرتفعٌ كفاية ؛ فما من رجلٍ يجرؤ على الاختلاط بتلك الجماعة ؛ وما إن يقرعُ جرس الصلاة حتى يُفترض أن يكون قد حلّ الليل . وعند دقّة الجرس الأخيرة ، تتعرّى كلّ تلك النّسوة ، ويدخلن إلى الماء . فتتعالى حينذاك صرخاتٌ وضحكاتٌ ، وصخبٌ جحيميّ . ومن أعلى الرّصيف ، يتأمّل الرّجال المستحمّات ، وهم يحملقون بعيونهم ، فلا يرون شيئًا يذكر . ومع ذلك فإن تلك الأشكال البيضاء وغير الواضحة التي ترتسمُ على زرقة النّهر الداكنة ، تجعلُ الأذهان الشاعرية النزعة تعملُ ، وبقليلٍ من الخيال ، لايصعب على المرء أن يتخيّل ديانا وحورياتها في الحمّام . من غير أن يخشى المرء أن يلقى مصيرَ أكتيون[2] وقد قيل لي إن بعضَ الفتيانِ الفاسدين قد جمعوا اشتراكًا ذات يوم كي يرشوا قارعَ أجراس الكاتدرائية ، ويجعلوه يقرعُ جرسَ الصّلاة قبل الساعة الرسمية بعشرين دقيقة . ومع أن ضوءَ النّهار لم يزل ساطعًا ، فإن حوريّات غوادالكيڤير لم يتردّدن ، فاعتمدن على قرع الجرس أكثر مما اعتمدن على

(١) غالبًا ما يترجم بأنه : الوادي الكبير . (م: ز.ع) .

(٢) هو صيّاد قد فاجأ أرتيميس (ديانا) في الحمام ، فحولّته الآلهة الغاضبة إلى أيّل ، فالتهمته كلابُه . (م: ز.ع) .

الشّمس، فأخذن حماماً هو من أبسط الحمامات دائماً، وبكلّ اطمئنان أما أنا، فلم أكن حاضراً هناك. وفي عهد فتوتي، كان قارعُ الأجراس معصوماً عن الفساد، والشفق قليل الإنارة، وكان يمكن لقطٍّ فقط أن يميز بائعة البرتقال العجوز عن أجمل فتاةٍ مرحةٍ في قرطبة.

وذات مساء، وفي الساعة التي لايعود المرءُ يرى فيها شيئاً، كنت أدخّن متكئاً على حاجزِ الرّصيف، عندما أتت امرأةٌ لتجلس بجانبي، بعد أن صعدتُ الدّرج الذي يقود إلى النهر. وكانت تحملُ في شعرها باقةً كبيرة من الياسمين تفوحُ أوراق تويجها مساءً برائحةٍ تبعثُ على النشوة. لقد كانت ترتدي ملابس بسيطةً، وربما فقيرة، وكلّها سوداء، مثل ملابس معظم النساء المرحات أثناء السّهرة. أما النّساء الرّزينات فلا يرتدين الأسود إلاّ صباحاً. وفي المساء يرتدين ملابس على «الطريقة الفرنسية». وحين وصلت هذه المستحمّة إلى جانبي، تركت خمارها الذي كان يغطّي رأسها ينزلقُ على كتفيها، و «الضوء الباهت الذي يسقطُ من النجوم». لاحظتُ أنها قصيرةُ القامة، وشابّةٌ، وحسنةُ القوام، وأن لها عينين واسعتين جداً. فرميت سيكاري فوراً. ولقد فَهمتْ هذه المجاملة التي تنمّ عن تأدُّبٍ فرنسيّ بحت، وسارعَت لتقول لي إنها تحبُّ كثيراً رائحة التبغ، وحتى إنها تدخّن، عندما تجد تبغاً ذا ورقٍ ناعم حقّاً، ولحسن الحظّ، فقد كنت أحملُ سجائر من ذلك النّوع، فأسرعت إلى تقديم بعضٍ منه إليها. فتنازلت وأخذت سيجارةً واحدةً، وأشعلتْها من طرف فتيلٍ مشتعلٍ أتى به صبي إلينا مقابل فلسٍ واحد. لقد اختلطت أدخنتُنا، وتحدّثنا زمناً طويلاً، أنا والمستحمّة الحسناء، وقد وجدنا أنفسنا وحدنا على الرّصيف تقريباً. وظننتُ أني لم أكن غير متحفّظ، عندما عرضتُ عليها أن نذهب لتناول المثلّجات في مقهى المرطّبات[1]، فوافقت بعد تردّدٍ بسيط، ولكنها رغبت

---

(١) ترجمة لكلمة Niveria التي معناها: مقهى مجهّز بثلاجة، أو على الأصحّ، بمستودع للثلج، وفي إسبانيا قلّما نجد قريةً ليس فيها: «Niveria».

في أن تسأل عن الساعة، في ذلك الوقت، قبل أن تقرّر؛ فجعلت ساعتي تدقّ، وبدا أن ذلك الرّنين قد أدهشها كثيراً.

ـ أية ابتكارات نجد عندكم، أيها الأجانب، فمن أين أنت ياسيدي؟ إنكليزي بلاشك[1]؟

ـ فرنسي، وخادم كبير لك، وأنت، يا آنسة أو يا سيدة، أنت من قرطبة ربّما؟

ـ كلاّ.

ـ أنت أندلسية على أية حال. ويبدو لي أني أتعرف ذلك من خلال لهجة كلامك الناعمة.

ـ إذا كنت تلحظُ جيداً إلى هذا الحدّ لهجة الناس، فلا بدّ أن تحزر من أكون.

ـ أظن أنّك من بلاد يسوع، وعلى بعد خطوتين من الجنّة.

(كنت قد حفظت هذا الكلام المجازيّ الذي يدلُّ على الأندلس من صديقي فرنسيسكو سيڤيلا، وهو بيكادور شهير[2] جداً).

ـ عجباً! الجنة . . . إن الناس هنا يقولون إنها تُخلق لأجلنا.

ـ ربما تكونين إذن مغاربية أو . . .

وتوقفت، وأنا لا أجرؤ على أن أقول: يهودية.

ـ هيا، هيا! أنت تلاحظ جيداً أني غجرية. فهل تريد أن أقول لك لاباجي[3]: وهل سمعت بالكامانسيتا؟ إنها أنا.

---

(١) كلّ مسافر في إسبانيا لايحملُ معه عينات من الأقمشة القطنية (من كلكوتا) أو الحريرية ينظر إليه على أنه إنكليزي Imglesito، وكذلك الأمر، في الشرق الأقصى ففي كالسيس، تشرفت بأن يُعرِّفوا علي بكوني: Μελδρôο φ Ρανισεσο.

(٢) البيكادور هو فارس يقوم بإثارة ثيران المصارعة بالرّماح. (م: ز.ع).

(٣) أي أكشف لك الحظّ، وأتنبأ بالمستقبل. (م. ز: ع).

كنت حينذاك فاقداً للإيمان، قبل خمسة عشر عاماً من ذلك الوقت، بحيث لم أتراجع مذعوراً حين ألفيت نفسي بجانب ساحرة: «وقلتُ في نفسي: لقد تعشيت في الأسبوع الماضي مع لصٍّ من قطّاع الطرق. فلنذهبْ الآن لتناول المثلّجات مع خادمة الشيطان؛ فأثناء الترحال، على المرء أن يرى كلّ شيء» وأصبح لديّ أيضاً دافعٌ آخر لأنمّي معرفتي بها. فحين تخرجتُ من المدرسة الثانوية، وسأعترف بذلك خجلاً، كنت قد بدّدت بعضَ الوقت في دراسة علوم السّحر والتنجيم، وحاولتُ أن أطرد أرواح الظلمات[1]. ومع أني قد شفيت من شغفي بأبحاثٍ مماثلة، فلم أزلْ أحتفظ منها بشيء يشدُّني إلى الاطّلاع على كافة ضروب الاعتقادات الباطلة. وكنت أبتهج كثيراً حين أعرف المكانة التي ارتفع إليها علمُ السّحر بين الغجر.

كنا قد دخلنا إلى مقهى المرطّبات (نيفيريا) ونحن نتحدّث. وجلسنا إلى منضدة صغيرة تنيرها شمعةٌ محبوسةٌ ضمن كرة زجاجية. حينذاك توفّر لي متّسع من الوقت لأتفحصَ «غجريتي»، فيما كان بعضُ النّاس المهذبين يعتريهم الذّهول، أثناء تناولهم لمثلجاتهم، لأنهم يرونني أصطحب فتاة حسناء كتلك التي معي.

أشك كثيراً في أن تكون الآنسة كارمن ذات أصلٍ عريق؛ فهي، على أية حال أجمل بما لا يقاس من كافّة نساء قومها اللواتي صادفتهن يوماً. وكي تكون المرأة جميلةً، كما يقول الإسبان، يجب أن تجمع ثلاثين «نعم»، أو إذا شئنا، أن نتمكّن من تحديدها بواسطة عشرة نعوت تنطبق على ثلاثة أجزاء من شخصيتها؛ فمثلاً، ينبغي أن تكون لديها ثلاثةَ أشياء سوداء: العينان، والجفون، والحاجبان. إلخ... وارجعوا إلى برانتوم[2]، بالنسبة لما تبقى من أمور. أما تجربتي، فلم يكن بوسعها أن تطمح لكمال كذاك الكمال؛ فقد كانت بشرتها تقترب كثيراً من اللّون البرونزي، بالإضافة إلى أنها بشرةٌ صقيلةٌ تماماً. أمّا عيناها فقد كانتا مائلتين، ولكنّهما مشقوقتان بطريقةٍ رائعة، وشفتاها مكتنزتان قليلاً، ولكنهما مرسومتان

(١) أي: الشيطان.

(٢) برانتوم: كاتب مذكّرات فرنسي، وهو مؤلف: حياة مشاهير الرّجال... وحياة السيدات الشهيرات، والنساء العاشقات: (١٤٥٠ـ١٦١٤) (م: ز.ع).

رسمًا دقيقًا، وتُظهران أسنانًا أكثر بياضًا من حبّات اللّوز المقشورة. أما شعرُها الكثيفُ ربما بعض الشيء فقد كان أسود، وذا تموّجات زرقاء مثل جناح الغراب، وهو طويلٌ ولامع. وكي لا أتعبكم بوصف شديد الإسهاب، أقول لكم إجمالاً إنها كانت تقرن كلّ عيبٍ لديها بميزةٍ تبرزُ بروزًا قويًا، من خلال التباين مع ذلك العيب ربّما. لقد كانت ذاتَ جمالٍ غريب، ووحشيّ؛ فلها وجهٌ يثيرُ الدهشة في البداية، إنما لا يستطيع المرءُ نسيانه. وكان في عينيها خصوصًا تعبيرٌ مثيرٌ للذّة، ومخيفٌ في آن، ولم أجدْ له مثيلاً فيما بعد، في أية نظرة بشرية. فعينُ الغجريّ هي عينُ الذئب. هذا قولٌ إسبانيّ مأثور يدلُّ على حسن ملاحظة؛ فإذا لم يتوفّر لك الوقتُ للذّهاب إلى حديقة النباتات لدراسة نظرة ذئب، فتأمّل قطّك عندما يترصّد دوريًّا.

ندركُ أنه كان يمكن أن يعدّ أمرًا مثيرًا للسخرية لو أنني جعلت كارمن تقرأ مستقبلي في مقهى. وهكذا فقد رجوت الساحرة الحسناء بأن تسمح لي بمرافقتها إلى مسكنها؛ فوافقت على ذلك من غير صعوبة. إلاّ أنها أرادت أن تعرف أيضًا سير الوقت. ورجتني مجددًا أن أجعل ساعتي تدقّ.

وقالت وهي تتأمّلها باهتمامٍ بالغ:

هل هي ذهبيةٌ حقًّا؟

وعندما استأنفنا سيرنا، كان الليلُ قد هبط، وكان معظم الدكاكين مغلقًا، والشوارع خالية تقريبًا. لقد اجتزنا جسرَ غوادالكيفير. وتوقّفنا، عند آخر الضاحية، أمام منزلٍ لم يكن مظهره يدلُّ على أنه قصرٌ. وفتح لنا صبيٌّ الباب؛ فقالت له الغجرية بضعَ كلماتٍ بلغةٍ أجهلها. وقد عرفت فيما بعد أنها الرّومانية، أو شيبي كالي، وهي لسان الغجر. واختفى الطفلُ سريعًا. وتركنا في غرفةٍ واسعة إلى حدّ كاف، ومؤثثة بمنضدة صغيرةٍ ومقعدين لامسند لهما، وصندوق. ولاينبغي أن أنسى جرّةَ ماء، وكومةً من البرتقال، وحزمةً من البصل.

وما إن صرنا وحدنا، حتى سحبت الغجريةُ من صندوقها ورقًا للّعب يبدو أنه كان قد استخدم كثيراً، وقطعة مغناطيسية، وحرباء مجفّفة، وبعض الأشياء الأخرى

الضروريّة لفنّها، ثم قالت لي أن أرسم إشارة الصّليب بيدي اليسرى بقطعة نقود، وبدأت الطّقوس السّحرية.

لافائدة من أروي لكم تنبؤاتها. أما عن طريقتها في العمل، فقد كان من الواضح أنّها ليست ساحرةً ذات مهارةٍ مجزوءة.

ولسوء الحظّ، فقد حدَث ما أزعجنا سريعًا، فانفتح الباب فُجأةً بعنف، ودخل الغرفة رجلٌ متلفّعٌ حتى عينيه بمعطف بنيّ اللّون، وأخذ ينادي الغجرية بصورةٍ غير ظريفة. لم أكن أفهم ما كان يقوله، غير أن نبرةَ صوته كانت تدلُّ على أنه بمزاجٍ سيّئ جداً. وعندما رأته الغجرية، لم تبدِ دهشةً ولاغضباً، بل هُرعت إلى لقائه، ووجّهت إليه بذلاقة لسانٍ غير عادية بعض الجمل باللغة الغامضة التي كانت قد استخدمتها قبلاً أمامي. أما كلمة بيلّو (PAYLLO) التي غالبًا ما كانت تتكرَّر، فقد كانت الكلمة الوحيدة التي فهمتها. لأنّي كنتُ أعلمُ أن الغجر يدلّون بهذه الكلمة على كلِّ رجلٍ غريب عن بني جنسهم، وإذ افترضت أن الحديث يدورُ عليّ، فقد كنت أتوقّع تفسيراً لائقًا، وقبل ذلك، كانت يدي على قائمة أحد المقاعد الدائرية، كنت أقيس الأمور في ذاتي، كي أتكهّن باللحظة المحدَّدة بدقة والتي سيكون من المناسب أن ألقي بها على رأسِ المتطفّل الذي دفَعَ الغجرية بقسوة، وتقدّم نحوي، ثم تراجع خطوة، وقال لي:

- آه! يا سيّد، أهذا أنت!

ونظرت إليه بدوري، وتعرّفت فيه صديقي دون جوزيه. وفي تلك اللحظة، ندمتُ قليلاً لأنني لم أتركه يُشنَق.

وهتفت وأنا أضحكُ أقلّ الضحكات التي استطعتُها اصفراراً:

- إيه! هذا أنت، أيّها الرّجل الطيّب. لقد قاطعت الآنسة في اللحظة التي كانت تخبرني فيها بأشياء مثيرةٍ للاهتمام.

فقال وهو يتميّز غضباً، ويركّز عليها نظرةً رهيبة:

ـ أنت على الحال نفسها دائمًا! إن هذا الأمر سينتهي.

ومع ذلك، فقد كانت الغجرية تتابع الكلام معه بلغتها، وكانت تتحمّس تدريجيًا، واحتقنت عيناها بالدّم، وأصبحتا رهيبتين، وتقلّصت قسماتُ وجهها. وكانت تخبطُ الأرض بقدمها. وبدا لي أنها كانت تحثّه بشدة على أن يفعل شيئًا كان يبدي التردّد حياله. أما الأمر الذي كنت أظنُّ أني لا أفهمه أبدًا هو أني كنت أراها تمرّر يدها الصّغيرة بسرعة وتعيدُ تمريرها تحت ذقنها. وكان هناك ما يدفعني إلى الظنّ بأن الحديث يدورُ على عنقٍ يجب قطعها. وكانت لديّ بعضُ الشكوك في أن تلك العنق هي عنقي.

ولم يردّ دون جوزيه على ذلك السّيل من البلاغة إلاّ بكلمتين أو ثلاث تلفّظ بهما بنبرةٍ مختصرة. حينذاك، حدجته الغجريّة بنظرةٍ تنمُّ عن احتقار عميق، ثم جلست على الطريقة التركية في إحدى زوايا الغرفة، وانتقت برتقالةً، وقشّرتها، وشرعت تأكلُها.

أمسك دون جوزيه ذراعي، وفتح الباب، وقادني إلى الشارع؛ فسرنا تقريبًا مئتي خطوة، ونحن صامتان صمتًا مطلقًا، ثم مدَّ يده، وقال لي:

ـ تابع السيّر على خطٍّ مستقيم، فتجد الجسر.

وأدار لي ظهره حالاً، وابتعد بسرعة، فرجعتُ إلى منزلي، وأنا مرتبك قليلاً، وبمزاجٍ سيّئ، والأسوأ من ذلك هو أنني لاحظت، وأنا أنزع ثيابي، أني قد فقدتُ ساعتي. ومنعتني أسبابٌ مختلفةٌ من الذّهاب في اليوم التّالي للمطالبة بها، أو لرجاء السيّد القاضي كي يعطي موافقته بالبحث عنها. وأنهيت عملي حول مخطوطة الآباء الدومينيكانيين، وسافرتُ إلى إشبيليا. وبعد عدة أشهرٍ من التّجوال الهائم في الأندلس، أردت أن أرجع إلى مدريد، وكان يتوجّب عليّ أن أمرَّ ثانيةً بقرطبة. ولم أكن أنوي أن أقيم فيها طويلاً؛ فقد كرهتُ تلك المدينة الجميلة، ومستحمّات غوادالكيفير. ومع ذلك فقد استبقاني، في عاصمة الأمراء المسلمين القديمة لمدّة ثلاثة أو أربعة أيام على الأقل، استبقاني بعضُ الأصدقاء الذين أردتُ رؤيتهم مجدّدًا، وبعضُ المشتريات التي أردتُ القيام بها.

وما إن ظهرتُ ثانية في دير الدومينيكانيين، حتى استقبلني أحدُ الآباء بذراعين مفتوحتين. وكان قد أبدى دائماً اهتماماً شديداً بالأبحاث التي قمت بها لتحديد موقع موندا وهتف:

ـ ليكن اسمُ الربّ مباركاً، أهلاً بك يا صديقي العزيز. كنّا نظن أنكم قد متّم جميعاً، وأنا الشخصُ الذي يكلّمك، قد تلوتُ مراتٍ كثيرةٍ: أبانا والسّلام عليك[1]، من أجل خلاصِ نفوسكم، وأنا غير نادمٍ على تلاوتها. وهكذا، فلم يقتلوك، أما عن السّلب، فنحن نعلم أنّهم قد سلبوك.

فسألته، وقد فوجئت قليلاً:

ـ وكيف ذلك؟

ـ أجل أنت تعلمُ جيداً أن تلكم الساعةَ الدقّاقة التي كنت تجعلُها تدقُّ في المكتبة، حين كنا نقول لك إن الوقت قد حان للذّهاب إلى المذبح، حسنًا! أنت تعلم أنّه قد عُثر عليها، ولسوف يعيدونها إليك.

فقاطعته، وقد اضطربت قليلاً.

ـ أي أني كنتُ قد أضعتها. . . .

ـ إن الآثمَ في السجّن الآن، وكما هو معلوم؛ فقد كان رجلاً يطلقُ نار بندقيته على إنسان مسيحيّ لينتزع منه قطعةَ نقودٍ صغيرة. وكنّا خائفين حتى الموت من أن يكون قد قتلك. ولسوف أذهب معك إلى قاضي المدينة، ونعيد إليك ساعتك الجميلة. ثم هل تنوي أن تقول هناك إن القضاء لا يعرفُ مهنته في إسبانيا!

فقلت له: أعترف لك بأني أفضّل أن أفقد ساعتي من أن أشهد أمام القضاء كي أجعل رجلاً مسكيناً يُشنق خصوصاً لأن . . . لأن . . .

(١) "AVE"و"PATER" صلاتان يبدآن بـ: أبانا الذي في السّموات . . . . والسّلام عليك يا مريم . . . .

ـ أوه! لا يساورنّك أيُّ قلق؛ فقد أوصي به جيداً، ولا يمكن شنقه مرتين، وعندما أقول يشنق، فأنا مخطئ. فسارقُك إنما هو نبيلٌ إسباني، ولسوف يخنقُ إذن بعد غدٍ بلا هوادة[1] فأنت ترى جيداً أن سرقة أكثر أو أقل لن تغيّر شيئاً في قضيته. فليته لم يفعل شيئاً سوى السّرقة! إلاّ أنه قد ارتكب عدداً من جرائم القتل، كلٌّ واحدةٍ منها أكثر فظاعةً من الأخرى.

ـ وماذا يدعى.

ـ إنه معروفٌ في كلّ البلدان باسم جوزيه ناڤاو. غير أن له اسماً باسكياً آخر أيضاً لا نتلفّظ به قطّ، لا أنت ولا أنا، هيّا، إنه رجلٌ يستحقّ أن يُرى. وأنت يا من ترغبُ في معرفة ما تتفردّ به البلاد، لا ينبغي أن تغفل معرفة الكيفيّة التي يخرج بها الآثمون من هذا العالم. إنه الآن في المُصلّى، ولسوف يقودك إليه الأب مارتينيز.

أصرّ الأب الدومينيكاني كثيراً على أن أرى تحضيرات «الشنق الصغير الشّميل[2] حقّاً»، بحيث لم أقوَ على الامتناع عن حضورها. وذهبت لأرى السّجين، وأنا مزوّدٌ بعلبةٍ من لفائف التّبغ (السّيكار) والتي من المفروض كما كنت آملُ أن تجعله يعذرني على عدم تكتّمي.

أدخلوني على دون جوزيه في الوقت الذي كان يتناول فيه طعامه، فأومأ لي برأسه إيماءةً لا تخلو من البرود، وشكرني على الهدية التي جلبتُها له. وبعد أن عدّ سيكارات العلبة التي وضعتُها بين يديه، اختار منها عدداً معيناً، وأعاد لي الباقي، وأوضح أنه ليس بحاجة ليأخذ أكثر مما أخذ.

---

(١) في عام ١٨٣٠، كان النبلاء وحدهم لا يزالون يتمتعون بهذا الامتياز، أما اليوم، في النظام الدستوري، فالحقيرون قد ظفروا بالحق في «الخنق».

(٢) أي الجميل: وقد حرفناها عمداً لتتناسب ربما مع التحريف في النص الفرنسي الأصلي: "CHoli" بدلاً من "Joli" (م: ز.ع).

وسألته إن كنت أستطيع ببعض المال، أو بنفوذ أصدقائي، أن أحصلَ على شيء من التخفيف للحكم الذي سيناله؛ فهزّ كتفيه في البداية، وهو يبتسم بحزن وسرعان ما غيّر موقفه، ورجاني أن أعمل على إقامة قدّاسٍ من أجلِ خلاصِ روحه.

وأجاب بخجل:

- هل تتفضّل بأن تسعى لإقامة قداسٍ آخر من أجل شخصٍ قد أهانك؟

فقلت له:

- بالتأكيد يا عزيزي، ولكن لم يوجّه لي أيُّ شخص في هذا البلد إهانةً حسب علمي، وأمسك يدي، وشدَّ عليها بهيئةٍ رصينة، وتابع بعدَ لحظةٍ من الصّمت:

- هل أجرؤ أيضًا على أن أطلبَ منك خدمة؟... فربّما ستمرّ عبر ناڤار، حين تعود إلى بلدك. ولسوف تمرّ على أيةِ حال بڤيتوريا التي هي ليست بعيدةً جداً عن ناڤار.

فقلت له:

- أجل، سأمرُّ بالتأكيد عبر ڤيتوريا، ولكن ليس من المتعذّر أن أغيّر وجهتي، وأذهب إلى بامبولين، ومن أجلك، أظنّ أني سأقوم بذلك التّغيير بطيبة خاطر.

- حسنًا! إذا ذهبتَ إلى بامبولين؛ فسترى أكثر من أمرٍ يثير اهتمامك... إنها مدينة جميلة وسأعطيك هذه الميدالية (وأراني ميداليةً صغيرةً فضيةً كان يعلقها في عنقه) فتغُلّفها بالورق.... وتوقّف لحظةً ليسيطر على انفعاله.... وتُسلّمها أو تسعى لتسليمها لامرأةٍ طيبة، سأعطيك عنوانها - فتقول لها إني قد متُّ، ولاتقلْ لها كيف.

وعدتُ بتنفيذ تلك المهمة، ورأيته ثانية، في اليوم التالي، وأمضيت قسمًا من النهار معه. ومن فمه إنما عرفتُ المغامرات الحزينة التي ستقرؤها فيما يلي:

قــال: ولدتُ في إيليــزوندو، في وادي بازتان، واســمي: دون جــوزيه ليزاّرابينغوا. وأنت تعرفُ إسبانيا معرفةً كافية، يا سيدي، بحيث يدلُّك اسمي حالاً على أني باسكيّ، ومسيحيّ قديم. ولئن أخذت لقب دون[١]، فذلك لأن لي الحقّ في ذلك، ولو كنتُ في إليزوندو، لأريتك سلسلةَ نسبي المكتوبة على الرقّ. وكان يُراد لي الالتحاق بالكنيسة، وجعلوني أدرس، غير أني قلّما أفدتُ من ذلك؛ فقد كنتُ أحبّ كرةَ راحة اليد، وهذا ما دمّرني. فنحن الناڤاريين، عندما نلعب بكرة راحة اليد، ننسى كلّ شيء. ولمّا كسبت اللُّعبة ذات يوم، سعى أحد فتيان ألاڤا إلى الشّجار معي؛ فأخذنا عصيَّنا المحدّدة[٢]، فتغلّبت عليه أيضًا، ولكن ذلك قد أجبرني على مغادرة البلاد، والتقيتُ جنوداً خيّالة، فانخرطت في فيلق ألمانزا، قسم الخيّالة. إن النّاس في جبالنا يتعلّمون المهنة العسكرية بسرعة؛ فأصبحتُ عريفًا بعد قليل، وكانوا يعدونني بأن أصبح رقيبًا في الخيالة، عندما وضعوني لسوء حظّي، في حرسِ المعمل اليدوي للتبغ في إشبيليا. فلو ذهبتَ إلى إشبيليا، لرأيتَ ذلك البناء الضخمَ خارج الأسوار وقريبًا من نهر غواد الكيڤير، ويبدو لي أني لا أزال أرى البابَ، ومفرزة الحراسة بقربه، وحين يكونُ الإسبان في الخدمة، فهم يلعبون بالورق أو ينامون، أما أنا، فشأن كلّ ناڤاري قحّ، كنت أحاول أن أشغل وقتي باستمرار، وكنت أصنع سلسلةً من أسلاك الشبه[٣] كي تمسك بالشّارة التي أضعها. ويقول الرفاقُ دفعة واحدة: ها هو الجرس يدقّ، والفتيات سيرجعن إلى عملهن، وليكن معلومًا لديك يا سيدي أنّ هناك أربعمئة إلى خمسمئة امرأة يشتغلن في المعمل، وهن اللواتي يقمن بلفّ السيكارات في قاعة كبيرة لا يدخلُ إليها الرّجال من غير إذنٍ من الأربعة والعشرين[٤] لأنهن تخفّفن من ملابسهن على راحتهن، وخصوصًا الشابات منهن، حين يكون الطقس حاراً. وفي الساعة التي ترجعُ فيها العاملات إلى منازلهن، بعد العشاء، يأتي الكثير من الشبّان. ليروهنّ أثناء

---

(١) أي: السيد.

(٢) ترجمة لكلمة: raquilla، وهي عصا محددة يستخدمها الباسكيّون (م: ز. غ).

(٣) الشبّه: خليطٌ من النّحاس والتوتياء (م: ز. ع).

(٤) هو قاضٍ كانت تكلّفه الشرطة قديمًا في إسبانيا لإدارة البلدة.

مرورهن، ويغازلونهنّ بكلّ أنواعِ الغزل. والقليل من تلك الآنسات يرفضن خماراً من التافتا[1]. وهُواة ذلك الصيّد لايتعيّن عليهم إلا الانحناء كي يمسكوا بسمكة، وفيما كان الآخرون ينظرون، كنت أظلُّ جالساً على مقعدي، بقرب الباب. لقد كنت شاباًّ حينذاك، وأفكّر ببلدي باستمرار، ولم أكن أظنّ أن هناك فتياتٍ جميلات لايرتدين تنانير زرقاء، وليس لهن ضفائر تصل حتى الكتفين[2]. زدْ على ذلك أن الأندلسيات كنّ يُخفنني، ولم أكنْ قد اعتدتُ بعد على أساليبهنّ، فهن ساخراتٌ دائماً، ولاينطقن بكلمةٍ عاقلة واحدة. وهكذا، فقد كنت منهمكاً في صنع سلسلتي. عندما سمعت بعضَ أهلِ المدينة يقولون: هذه هي الغجريةُ الصغيرة! فرفعت عيني، ورأيتُها. وكان ذلك يوم جمعة، ولن أنساه قطّ، رأيت تلك الكارمن التي تعرفُها، والتي التقيتُك في منزلها، منذ بضعة أشهر.

كانت ترتدي فستاناً أحمر اللّون، شديد القصر، ويشفّ عن جوارب حريريةٍ بيضاء، مثقّبة بأكثر من ثقب، وحذاءً ناعماً من السُّختيان الأحمر، وكان مربوطاً بشرائط لونُها ناريّ. وكانت تُبعد خمارها كي تظهر كتفيها، وباقةً ضخمة من العنبر تخرجُ من قميصها. وكانت تحمل زهرة عنبر في زاوية فمها. وتتقدّم وهي تتمايل على وركيها مثل فِلوة[3] من فلوات مربط خيل قرطبة وفي بلادي، كان يمكن لامرأة ترتدي ملابس كارمن أن تُجبر الناسَ على رسم إشارة الصليب. أما في إشبيليا، فكان كلُّ واحدٍ يوجّه إليها بعضَ المجاملات الجريئة على شكلها، وكانت تردّ على كلّ واحد، واضعةً قبضتها على وركها، مسترقةً النظر، وبوقاحة تحاكي وقاحةَ الغجرية الحقيقية. ولم ترق لي في البداية، فاستأنفتُ عملي. أما هيٍ، فتبعاً لعادة النساء والقطط التي لا تأتي عندما تُنادى والتي تأتي عندما لاتُنادى. فقد وقفت أمامي، ووجّهت الكلام لي، وقالت على الطريقة الأندلسية:

---

(١) نسيجٌ حريري صقيل.

(٢) اللباس العادي لفلاحات نافار، والمقاطعات الباسكية.

(٣) فلوة: أنثى الفلو أو المهر (م: ز.ع).

- أيّها الفتى، هل تقبلُ أن تعطيني سلسلتك لتمسك بمفاتيح صندوقي؟.

فأجبتها:

- إنها مخصّصةٌ لتعليق شارتي.

فهتفت ضاحكة:

- آه! إن السيّد يشتغل في التخريم، بما أنه ليس بحاجةٍ لدبابيس!

فشرع كلُّ الناس الموجودين هناك يضحكون، وشعرت أنا بالخجل. فلم أجدْ شيئًا أردّ به عليها فاستأنفت قائلة:

- هيا، يا قلبي، اصنع لي سبعة أونات[1] من المخرّمات من أجل خمارٍ لي، ياصانع دبابيس روحي!

وأمسكت زهرةَ العنبر التي كانت تضعُها في فمها، وقذفتها بحركةٍ من إبهامها بين عيني تمامًا، فكان لذلك تأثير رصاصةٍ تأتي إليّ، ياسيدي... فلم أكن أدري أين أختبئ، فبقيت بلا حراك مثل لوحٍ من الخشب. وعندما دخلتُ إلى المعمل، رأيتُ زهرة العنبر التي كانت قد وقعت على الأرض بين قدميها. ولا أدري ماذا دهاني، ولكني التقطتها من غير أن يلاحظ رفاقي ذلك، ووضعتها بعنايةٍ فائقةٍ في سترتي. وهذه هي الحماقةُ الأولى!

وبعد ثلاث أو أربع ساعات، كنت لا أزال أفكر بها، عندما وصل إلى مفرزة الحرس بوّابٌ مبهور الأنفاس تمامًا، والاضطراب الشديد بادٍ على وجهه، وقال لنا: إن هناك امرأة اغتيلت، في قاعة لفِّ السّيكار الكبير، وإنه ينبغي إرسالُ الحرس إليها. فقال لي الرقيب أن آخذ رجلين وأذهب لأرى الأمر. فأخذت رجليّ وصعدت، فتصورّ، يا سيدي، أنني عندما دخلتُ إلى القاعة، وجدت في البداية ثلاثمئة امرأة، أو قد ينقصُ عددهن قليلاً، يرتدين القميص فقط، وكنّ يصرخن جميعًا، أو يعولن، ويؤشرن، ويُحدثن ضجيجًا لايُسمع من خلاله الرّعد

---

(١) الأونة: مقياس قديم يعادل ١١٨, ١ مترًا. (م: ز.ع).

القاصف؛ فمن جهة كانت ثمة امرأةٌ منقلبة على ظهرها، ومضرّجةٌ بالدماء، وإشارة × على وجهها كانت قد رُسمت بضربتي سكّين. ورأيتُ بمواجهة الجريحة التي كانت تسعفُها أفضلُ نساء المجموعة، رأيت كارمن التي تُمسك بها خمس أوستٍ نساء طيّبات، وكانت المرأة الجريحة تصرخ: الاعتراف! الاعتراف! أنا ميتة! لم تكن كارمن تقولُ شيئًا، بل كانت تصرُّ على أسنانها، وتجولُ بعينيها مثل حرباء. وسألت: «ما هذا؟» ووجدتُ مشقّةً كبيرةً في معرفة ما حدث؛ فكلُّ العاملات كنّ يكلّمنني في آنٍ واحد. ويبدو أن المرأة الجريحة كانت تفاخرُ بأن لديها من النّقود في جيبها ما يكفي لشراء حمارٍ في سوق تريانا «وقالت كارمن التي تُحسن الكلام: عجبًا، ألم تكتفي إذن من المكنسة؟» أما الأخرى التي جرحها التعبيرُ، وربما لأنّها كانت تشعرُ بنقطة ضعف تجاه هذه المسألة؛ فقد أجابتها بأنها ليست خبيرةً بالمكانس، لأنها لم تحظ بشرف أن تكون غجريّة، وابنةً للشيطان بالمعمودية، وأن الآنسة كارمنسيتا ستتعرف حالاً إلى حمارها، عندما يقودهُ السيّد قاضي المدينة إلى المتنزه مع خادمين وراءه كي يكشّا الذُّباب عنه. «فقالت كارمن: حسنًا، سأصنع لك موردين للذباب في خدك، وأريد أن أرسم فيهما رقعةَ ضامة[1] عند ذاك، قْلي! قْلان! بدأت كارمن ترسمُ لها صلبان سان-أندريه على وجهها بالسكّين التي كانت تقطعُ بها طرف السيكارات.

كانت الحالةُ واضحةً؛ فأمسكتُ كارمن من ذراعها، وقلتُ لها بأدب: ياأختي، عليك أن تتبعيني؛ فنظرت إلي وكأنها تتعرّفني. غير أنها قالت بامتثال: لنسر. فأين خماري؟ ووضعته على رأسها بحيث لم يعد يبين من وجهها إلاّ عينٌ واحدة من عينيها الكبيرتين، وتبعت رجليّ، وهي وديعةٌ مثل حمَل، وعندما وصلنا إلى مفرزة الحراسة، قال الرقيب: إن الأمر خطير، وإنه ينبغي أن نسوقها إلى السجن. وكان عليّ أنا أيضًا أن أقودها إليه. فوضعتها بين جنديّي خيالة، وسرتُ في الخلف كما يفعل العريف في مصادفة كهذه، وسلكنا الطريق إلى المدينة. وكانت الغجرية في البداية قد التزمت الصمت، ولكنها في طريق الأفعى[2]-وأنت تعرفها،

(١) PINTAR UN JAVEQUE: رسم شباكًا أوشبكة: كانت الشبكات الإسبانية تحتوي على رقعة مدهونة في معظمها، وذات مربّعات حمراء وبيضاء.

(٢) في النص: SERPENT، وقد ترجمتها إلى العربية مع أنها اسم علم لإيضاح ما سيأتي بعدها. (م: ز. ع)

فهي تستحق اسمها حقًا بسبب التعرّجات التي تسير فيها ـ ولكنها في طريق الأفعى، بدأت تترك خمارها يسقط على كتفيها، لكي تريني وجهها الطفولي الساحر، واستدارت نحوي بقدر استطاعتها، وقالت لي:

ـ إلى أين تقودني، يا سيدي الضابط؟

فأجبتها بأرق ما أمكنني، ومثلما ينبغي لجندي جيّد أن يكلّم سجينًا، وخصوصًا إذا كان امرأة.

ـ إلى السجن، يا حبيبتي المسكينة.

ـ يا للأسف! ماذا سيحدث لي؟ يا سيدي الضابط، ارأف بي. فأنت شابٌ ولطيفٌ جداً إلى درجة . . . ثم قالت بلهجة أخفض: دعني أهرب، ولسوف أعطيك قطعةً من الـ «بار لاشي» BARLACHI والذي سيجعل كلّ النساء يحببنك.

إن الـ «بار لاشي» هو، يا سيدي، حجر المغناطيس الذي يزعم الغجر أن المرء يصنع به عدداً من أعمال السّحر، إذا أحسن استخدامه، وإذا ما سُقيت امرأةٌ قبصةً مبروشةً منه، في قدحٍ من النبيذ الأبيض، تكفّ عن المقاومة. أما أنا، فقد أجبتها بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الجدّية:

نحن لسنا هنا لنقول تفاهات، ولا بدّ أن تذهبي إلى السجن هذه هي التعليمات وما من دواء لذلك.

إن لنا، نحن سكان بلاد الباسك، لكنةً يتعرّفنا الإسبان بسهولةٍ من خلالها. وبالمقابل، فما من إسباني واحد يمكنه فقط أن يتعلّم قول: باي جاوونا[1]. فلم تجد كارمن عناءً إذن في أن تستشف أن أصلي يعود إلى الأرياف. وأنت تعلم، ياسيّدي، أن الغجر يسافرون باستمرار، ويتكلّمون كلّ اللغات، لأنهم ليسوا من أيةِ بلاد، ومعظمهم يعدّون أنفسهم في بلادهم، في البرتغال، وفي فرنسا، وفي

---

(١) أي: نعم، يا سيدي.

الأرياف، وفي كـاتالونيـا، وفي أيّ مكان. وحـتى أنهم يتـمكّنون من التـفـاهـم مع المغاربة، ومع الإنكليز. وكانت كارمن تعرفُ الباسكية معرفةً حسنة.

فقالت لي فجأة:

- "LAGUNA ENE BIHOSTSARENA" يـا رفـيق قـلبي، هل أنتَ من هذه البلاد؟

إن لغتنا، يا سيدي، جميلةٌ جداً إلى درجة أنها تجعلنا نرتعش إذا ما سمعناها في بلدٍ أجنبي... وأضاف قاطعُ الطريق بصوتٍ أخفض:

- أريدُ معرِّفًا من الأرياف.

وتابع بعد لحظة صمت:

- لقد أجبتها بالباسكية: إني أدعى إيليزوندو، وكنتُ متأثراً جداً لأني سمعتها تتكلّم لغتي.

فقالت:

- أمـا أنا فـمن إيتـشـالار (وهي منطقـة تبـعـدُ أربع سـاعـات عن بلادنا) وقـد اصطحبني الغجرُ إلى (إشبيليا)، وكنت أشتغل في المعمل لأكسب ما أستطيع به أن أرجع إلى ناڤار، لأكـون بجـانب والدتي المسكينة التي ليس لها من معينٍ سواي، وغير حديقة فيها عشرون شجرة تفاح لصنع خمر التفاح. آه! ليتني كنت في بلدي أمـام الجـبل الأبيض. لقـد أهانوني لأني لستُ من بلاد اللّصـوص هذه، بلادُ باعـة البرتقال العفن. وكلّ تلك العاهرات قد وقفن ضدّي لأني قلت لهن إن كلّ فتيانهنّ المتبجّحين بسكاكينهم، لايخيفون فتًى من بلادنا بطاقيّته الزّرقاء، وعصاه المسلّحة بالمسامير. أيها الرّفيق، يا صديقي، ألا تصنعُ شيئًا لإحدى مواطناتك؟

لقد كانت تكذبُ، يا سيدي، ولطالما كذبت. ولا أدري إن كانت تلك الفتاة قد قالت يومًا كلمةَ صدقٍ واحدةً في حياتها، غير أني كنتُ أصدّقها، حين تتكلّم؛ فذلك الأمر كـان أقـوى مني. كـانت تحرّف البـاسكيـة، وأظنهـا ناڤارية؛ فـعيناها،

وثغرها ولونُ بشرتها فقط كانت توحي بأنها غجرية، وكنت مجنونًا، ولم أكن أحفلُ بشيء وكنتُ أظنُّ أنه لو ارتأى بعضُ الإسبان أن يتحدثوا بالسّوء عن بلدي، لكنتُ هشّمت وجوههم، كما فعلت كارمن منذ قليل برفيقتها تمامًا. لقد كنتُ باختصار مثل رجلٍ ثمل، وأخذت أقول أمورًا غبيةً وعلى وشك أن أفعل أشياءَ مثلها.

واستأنفت تقول بالباسكية:

- إذا ما دفعتُك، وسقطت، يا ابن موطني، فلن يمنعني هذان المجندان الكاستيليان من أن أفعل ذلك . . .

ونسيت، في الواقع، التعليمات، وقلتُ لها:

- حسنًا، يا صديقتي، يا ابنة موطني، حاولي، ولتكن سيّدة الجبل بعونك!

في تلك اللحظة، كنا نمرّ من أمام أحد الشوارع الفرعية الضيقة التي تزخر بها إشبيليا، فاستدارت كارمن، وقذفتني بلكمة في صدري، فتركت نفسي أسقط على ظهري عمداً، وقفَزت، بوثبةٍ واحدة، من فوقي، وأخذت تركضُ، وهي تظهر لنا زوجًا من السّيقان! . . .

يُقال: سيقان باسكيّة: لقد كانت ساقاها تفضلان العديد من سواهما . . . وكانتا سريعتين بقدر ما كانتا حسنتي التكوين. أما أنا؛ فقد نهضت في الحال، ولكني وضعتُ رمحي[1] بشكلٍ عرضاني بحيث سددت الطّريق، وإلى درجة أن الرفاق قد اضطّروا إلى التوقّف في لحظة المطاردة منذ البداية. ثم شرعتُ أركضُ، أنا شخصيًا، وهم خلفي. أمّا أن نصل إليها! فلم تكن هناك أية مخاطرة في الوصول إليها، بمهمازاتنا، وسيوفنا، ورماحنا! إلاّ أن السجينة كانت قد اختفت في أقل من الوقت الذي استغرقته لأروي لك ذلك. زدْ على هذا أن ثرثارات الحيّ كنّ يشجعّن هروبها، ويسخرن منا، ويدللنا على الطّريق الخاطئة. وبعد بضعة أشواطٍ

(١) كانت الخيالةُ الإسبانية كلُّها مسلّحةً بالرّماح.

من المسير، والمسير العكسي، كان لابدّ أن نرجعَ إلى مفرزة الحرس، من غير أن نحصل على تصريح استلام من حاكم السجن.

أما رجالي، فكي لايعاقبوا، قالوا إن كارمن قد تكلّمت معي بالباسكية، ولم يكن يبدو طبيعياً جداً، والحقّ يقال، أن تكون لكمةٌ من فتاة صغيرة مثل تلك الفتاة قد طرحت بسهولةٍ كبيرة فتًى متينَ البُنية في مثل قوّتي. وقد ظهر ذلك كلُّه مريبًا، أو على الأصحّ واضحًا. وعند إنزال الحرس، جُرّدت من رُتبتي، وأرسلتُ إلى السجن لمدّة شهر، وكانت تلك هي عقوبتي الأولى، منذ أن دخلت إلى الخدمة؛ فوداعًا يا شرائط الرقيب الذي كنت أظنّ أنني قد حصلتُ عليها.

قضيتُ أيامي الأولى في السّجن على نحوٍ كئيب جداً، فحين تطوّعت في الجنديّة، كنت أتصورّ أني سأصبح ضابطًا، على أية حال، فلونغا ومينا، مواطناي قد أصبحا نقيبين عامين، وشابا لانغارا، وهو زنجيٌّ مثل فينا، ولاجئٌ مثله إلى بلادكم، قد كان عقيداً، ولعبتُ كرةَ راحة اليد عشرين مرةً مع شقيقه والذي هو رجلٌ مسكين مثلي. وقد كنتُ الآن أقول لنفسي: إن كلَّ الوقتِ الذي قضيتُه من غيرِ عقابٍ هو وقتٌ ضائع. ها قد أعطوك علامةً سيئة؛ فكي تنسجم مع عقلية رؤسائك حقًّا، ينبغي لك أن تشتغل عشرَ مرات أكثر مما لو كنت قد أتيت كمجنّد! ولماذا عرّضت نفسي للعقاب؟ من أجل تلك الغجرية اللئيمة التي سخرت مني، والتي ترتكبُ سرقةً في إحدى زوايا المدينة، في هذه اللحظة. ومع ذلك، فلم أكن قادراً على الامتناع عن التفكير بها. فهل تصدّق ذلك يا سيّدي؟ إن جواربها الحريرية المثقّبة التي جعلتني أراها بكاملها وهي تهربُ لايزالان ماثلين أمام عينيّ. كنت أنظرُ من خلال قضبان السّجن إلى الشارع، وبين كلّ النساء اللواتي كن يعبرنه، فلم أكن أجدُ امرأةً واحدةً تضاهي تلك الفتاة اللعينة. ثم أني كنتُ أشتمّ، وبالرغم مني، وردةَ العنبر التي رمت بها إليّ، والتي كانت تحتفظُ برائحتها الزكيّة وهي يابسة... فإن كان هناك ساحرات، فتلك الفتاة واحدةٌ منهن!

وذات يوم، دخل السّجان، وأعطاني رغيفًا من خبز الكالا[1].

وقال:

ـ خذْ هذا ما ترسله إليك ابنةُ عمّك.

فأخذت الرغيف وأنا في دهشة كبيرة. فلم تكن لي ابنةُ عمٍ في إشبيليا، وخطر لي وأنا أنظرُ إلى الرّغيف أنّ ذلك خطأً ربّما، غير أنه كان مثيراً للشهية، وذا رائحةٍ زكية إلى درجةٍ كبيرة بحيث قررتُ أن آكله، من غير أن أهتمّ بمعرفة المكان الذي أتى منه والشخص الذي أُرسل إليه. وحين أردتُ قَطْعهُ اصطدم سكّيني بشيءٍ قاس؛ فنظرت، ووجدت مبرداً إنكليزاً صغيراً كان قد دُسّ في العجين، قبل أن يُخبَز الرغيف، كما كان في الرّغيف أيضًا قطعةٌ ذهبية قيمتها قرشان، فلم يعدْ ثمة شك حينئذ؛ فقد كان ذلك هديةً من كارمن؛ فبالنسبة لبني قومها، تعني الحريّةُ كلَّ شيء، ويمكنٌ أن يحرقوا مدينة كي يتخلّصوا من يوم سجن. زدْ على ذلك أن المرأة الطيّبة قد كانت حاذقةً، وأصبح السجّانون موضع سخرية، بسبب ذلك الرّغيف؛ ففي غضون ساعةٍ من الزمن، تمّ نشرُ أضخم قضيبٍ من القضبان بواسطة أصغر منشار، وبقطعة نقودٍ من ذات القرشين، بدلّت بمعطف السّجن الموحّد الزيّ لباسًا مدنيًا، من عند أولٍ بائع للثياب المستعملة. وأنت تتصوّر تمامًا أن رجلاً كان قد أخرجَ أفراخ النُّسور من أعشاشها مراتٍ عديدة في صخورنا، قلّما يقعُ في حيرةٍ من أمره، أثناء نزوله إلى المدينة، من نافذة ترتفعُ أقلّ من ثلاثين قدمًا. بيد أني لم أكن أريدُ الهرب؛ فقد كان لايزالُ لديّ شرفي كجنديّ، وكان الهربُ يبدو لي جريمةً كبرى. إلا أني قد تأثّرت بدلالة تلك الذكرى، فحين يكون المرءُ في السجن، يجب أن يفكّر بأن في الخارج صديقًا يهتم به. وكانت القطعةُ الذهبيةُ تصدمُني بعض الشيء وكنت أودُّ حقًّا أن أعيدها، ولكن أين أجدُ دائني؟ لم يكن ذلك يبدو لي سهلاً.

---

(١) الكالا دو لوس بانا ديروس هي دسكرةٌ تبعد فرسخين عن إشبيليا، حيث تصنعُ أرغفةٌ صغيرة من الخبز اللذيذ، ويزعمون أن الفضل في نوعيته الجيّدة يرجع إلى الماء، فيجلبون منه كلّ يوم كمية كبيرة إلى إشبيليا.

وبعد طقوس تنزيل رتبتي، كنت أظنّ أنه لن يكون هناك ما أعاني منه، غير أنه قد بقي لي أيضاً إذلالٌ لابدَّ أن أذوقه: وكان ذلك عند خروجي من السجّن، عندما أمروني بالخدمة، ووضعوني حارساً مثل جنديّ بسيط. لايمكنُك أن تتصورّ مايحسُ به رجلٌ ذو مروءة في مناسبة كهذه. أظن أني كنت أفضّل أن تُطلق علي النار، بدلاً من ذلك. فعلى الأقل، كنتُ أسيرُ بمفردي، في مقدمة جماعتي، وأشعرُ أنّي شيء ما، والناس ينظرون إليّ.

لقد وضعوني حارساً على باب العقيد، وكان فتى غنيّاً، طيّب الخلق، ويحبُّ اللّهو. وكان كلُّ الضباط الشبان في منزله، وعددٌ كبيرٌ من أهل المدينة، ونساءٌ أيضاً، وممثلات، كما كان يُقال. وكان يبدو لي، في تقديري، أن المدينة كلّها قد تواعدت عند بابه كي تنظر إليّ. وهاهي عربةُ العقيد تصلُ مع خادم غرفته الجالس على المقعد الخلفي، وما الذي أراهُ ينزل؟ . . . إنها الغجريةُ الحسناءُ. لقد كانت متزيّنةً، في تلك المرّة، وكأنّها مثوى وليّ، ومزوّقة، ومتبرّجةً، ومغطاةً بالذّهب، والشّرائط، إنها ترتدي فستاناً مليئاً بالبرّاق، وحذاء أسود ذا براق أيضاً، وتضعُ وروداً وشرائط في كلّ مكان. وكانت تحملُ دفّاً باسكيّاً بيدها. وكانت معها غجريّتان أخريان شابةٌ وعجوزٌ؛ فهناك دوماً عجوزٌ تقودهن ثم رجلٌ عجوز وقيثارته، وهو غجريٌّ أيضاً كي يعزفَ، ويجعلهن يرقصن. فأنت تعلمُ أن الناس يتسلّون غالباً بإحضار غجريات إلى المجتمع الراقي، كي يجعلوهن يرقصن رقصةَ الرّوماليس، وهي رقصتُهم، وغالباً أشياء أخرى أيضاً.

تعرّفتني كارمن، وتبادلنا نظرة، ولا أدري، ولكني وددتُ في تلك اللحظة أن أكون على عمق مئة قدمٍ تحت الأرض.

وقالت:

ـ أغور لاغونا[1]، ياسيّدي الضابط. إنك تقومُ بالحراسة مثل مجنّد!

وقبل أن أجد كلمةً أردّ بها، كانت قد أصبحت داخل المنزل.

(١) أي: صباح الخير، يا رفيقي: AGUR LAGUNA

كان كلُّ الناس في صحن الدار، وبرغم الحشد، فقد كنت أرى تقريبًا كلَّ ماكان يجري، من خلال البوابة المشبكة[1]. وكنت أسمعُ الصنّاجات، والدفّ، والضحكات، وصرخات الاستحسان، وأحيانًا، كنت ألمح رأسها حين تقفز مع دفّها. ثم أني كنت أسمع أيضًا ضبّاطًا يقولون لها أشياء كثيرة تجعل الحمرةَ تصعدُ إلى وجهي. أما بماذا كانت تردّ، فهذا ما لا أعرف عنه شيئًا. فمنذ ذلك اليوم، أظنّ أني قد بدأت أحبُّها جديًا، فقد خطرت لي ثلاث أو أربع مرات فكرة أن أدخل إلى صحن الدار، وأن أعمل سيفي في بطنِ كلّ هؤلاء الحقيرين الذين يقولون لها كلمات الغزل. ودامت محنتي ساعةً كاملةً. ثم خرج الغجرُ، وأعادتهم العربة. أما كارمن، فقد نظرت إلي أيضًا بعينيها اللتين تعرفهما، أثناء مرورها، وقالت لي بصوتٍ خفيض جداً:

- يا ابن موطني، عندما نحبُّ الطعام المقليّ الجيد، نذهب إلى تريانا لتناوله، عند ليلاس باستيا.

واندفعت إلى داخل العربة بخفة جدي، فساط الحوذيّ بغلاته، ومضت الشلّة المرحةُ لا أدري إلى أين.

إنك تتكهّن حقًا بأني قد ذهبت إلى تريانا، بعد إنزال الحرس، ولكني حلقتُ ذقني عند الحلاّق، ونظّفت ثيابي بالفرشاة، وكأنّي في يوم استعراض. لقد كانت كارمن عند ليلاس باستيا. وهو بائع مقليّات عجوز، وغجريّ، وأسود البشرة، مثل مغربيّ، وكان العديد من أهل المدينة يأتون ليأكلوا عنده سمكًا مقليًا، وخصوصًا، كما أظنّ، منذ أن أخذت كارمن تتناولُ طعامها عنده.

(١) إن لمعظم منازل إشبيليا باحة داخلية محاطة بالبوابات، ويجلسون فيها أثناء الصيف، وهذه الباحة مغطاة بنسيج كتاني يرشّونها بالماء خلال النهار، ويسحبونه في المساء، ويكون بابُ الشارع مفتوحًا تقريبًا على الدوام. أما الممرّ الذي يقودُ إلى الباحة Zaguan فيكون مغلقًا ببوابةٍ حديدية مصنّعة تصنيعًا أنيقًا.

وقالت حالما رأتني:

- يا ليلاس، لم يعدْ لديَّ شيء أصنعهُ في هذا النهار، وغداً يكون يومًا آخر[1]، فهيّا، يا ابن موطني، هيّا نتنزّه.

وضعت خمارها أمام أنفها، وها نحن نصلُ إلى الشارع من غير أن أعرفَ إلى أين أذهب.

فقلت لها:

يا آنستي، أظنّ أن عليّ أن أشكرك على هدية بعثت بها إليّ حين كنتُ في السجن. فقد أكلت الخبز. وسيفيدني المبرد في شحذ رمحي. وإني احتفظ به كذكرى منك. أما النقود، فهاهي.

فهتفت وهي تنفجرُ ضاحكةً:

- عجبًا، لقد احتفظ بالمال. وعلى أية حال؛ فهذا أحسن. إذ قلّما بقي لدي مال. ولكن، ما أهمية ذلك؟ فالكلبُ الذي يسيرُ لا يموتُ من الجوع[2]. هيا، فلنأكل كلّ شيء، وأنت تولمُ لي.

كنا قد سلكنا مجدّداً طريق إشبيليا، فاشترت كارمن، عند مدخل شارع الأفعى، اثنتي عشرة برتقالة جعلتني أضعها في منديلي. وأبعد من ذلك المكان بقليل، اشترت رغيفًا من الخبز أيضًا، وسجقًا، وزجاجةً من نبيذ الماتزانيلا، وأخيراً دخلت إلى عند حلواني. وهناك، ألقت على المبسط قطعة النقود الذّهبية التي كنتُ قد أعدتها إليها، وقطعةً أخرى أيضًا كانت في جيبها، مع بعضِ النقود الفضية البيضاء. وأخيراً طلبت مني كلّ ما كان معي، فلم أكن أملك سوى قطعة صغيرة، وبعض القروش، وقد أعطيتها إياها، وأنا شديدُ الخجل، لأني لا أملكُ المزيد، وظننت أنها تريد أن تجلب الدّكان بكاملها. وقد أخذت أجمل ما كان فيها،

(١) مثل إسباني: MANANA SERA OTRO DIA غداً سيكون يومًا آخر.

(٢) CHUQUEL SOSPIRELA COCAL TERELA: الكلب الذي يسير يجد عظمة (مثل غجري).

وأغلاها ثمناً: اليماس: YEMAS[1] والتيرون: TURON [2] والفواكه المسكّرة بقدر ما ظلّ هناك نقود. وكان يتوجّب عليّ أيضاً أن أحمل كلّ ذلك بأكياسٍ من الورق. ولربما تعرف طريق كانديلجو (القنديل) الذي وُضع فيه تمثالٌ لرأس الملك بيدرو[3] العادل، والذي كان لابدّ له أن يوحي لي بتأمّلاتٍ معينة.

وتوقّفنا في ذلك الشّارع أمام بيتٍ قديم؛ فدخلت كارمن إلى المعبر، وطرقت على باب القبو؛ فأتت غجريةٌ لتفتح لنا، وهي خادمةٌ حقيقية للشيطان. فقالت لها

---

(١) هو عددٌ من صفارات البيض المحلاّة بالسكر.

(٢) نوعٌ من النوغا (حلوى بيضاء معجونة بالسكر والفستق والجوز إلخ...)

(٣) الملك دون بيدرو الذي نسميه: القاسي، والذي لم تكن الملكة الكاثوليكية إيزابيل تسميه بغير: العادل، كان يحبّ أن يتجول مساءً في شوارع إشبيليا، باحثاً عن المغامرات شأن الخليفة هارون الرشيد، وذات ليلة، وقع في شجار مع رجلٍ يعزف موسيقا العاشق الليلية، في أحد الشوارع المنعزلة؛ فتقابل معه، وقتل الملكُ الخيّال العاشق. وأطلت سيدةٌ عجوز من نافذتها، لدى سماعها لقعقعة السيوف، وأضاءت المكان بقنديلٍ كانت تحملهُ بيدها. ولابدّ أن نعلم أن الملك دون بيدرو، مع أنه رشيقٌ وشديد البأس، فقد كان، إلى ذلك، يشكو من عيب في تكوينه الجسدي، فريدٍ من نوعه؛ فعندما كان يمشي كانت رضفتاه (عظام ركبته) تطقطقان بقوة. ولم تلاق السيدة العجوز عناءً لدى سماعها لتلك الطقطقة في أن تتعرّفه. وفي اليوم التالي. أتى الأربعة وعشرون، وهو القاضي المكلّف، ليقدم تقريره إلى الملك، فقال: «ياسيدي، لقد جرى قتالٌ بالمبارزة، في الليّلة الفائتة، في شارع كذا. وقد مات أحدُ المتبارزين - هل اكتشفت القاتل؟ - أجل ياسيدي - لماذا لم يعاقب بعد؟ - يا سيدي أنتظر أوامركم - نفذ القانون! إذ أن الملك كان قد عمّم مرسوماً ينصّ على أن كلّ متبارزٍ تقطع رأسه، وأن رأسه تظلّ معروضة في مكان المعركة. وقد تخلّص قاضي الأربعة وعشرين من المأزق كرجلٍ نبيه، فأمر بنشر رأس تمثال من تماثيل الملك، وعرضه في مشكاة، في وسط الشارع الذي هو مسرح الجريمة. وقد وجد الملك وكلّ الإشبيليين ذلك جيداً جداً. وأخذ الشارعُ اسمه من مصباح العجوز، الشاهدة الوحيدة على الحادثة - تلك هي الرّواية الشعبية، ويروي زونيغا القصة بشكل مختلف قليلاً (انظر: حوليات إشبيليا ج: ٢ ص: ١٣٦. ومهما يكن من أمر فلا يزال هناك في إشبيليا، شارع القنديل (قنديل العجوز). وفيه تمثال نصفي يقال إنه يمثل وجه دون بيدرو، ولسوء الحظ، فهذا التمثال النصفي حديث، فالتمثال القديم قد تآكل كثيراً في القرن السابع عشر واستبدلت به بلدية ذلك العهد التمثال الذي نراه اليوم.

كارمن بعض الكلمات بلغة الرّماني. فدمدمت العجوز متذمّرةً في البداية، فأعطتها كارمن عشر برتقالات، وقبضةً من السكّر كي تهدئها، وسمحت لها أن تتذوّق النبيذ، ثم وضعت عباءتها على ظهرها، وقادتها حتى الباب الذي أغلقته بعارضة خشبية. وما إن أصبحنا وحدنا، حتى شرعت ترقصُ وتضحكُ، مثل مجنونةٍ، وهي تغني:

ـ أنت زوجي، وأنا زوجتك[1].

أما أنا، فقد كنت في وسط الغرفة، محملاً بكل تلك المشتريات، ولا أعرف أين أضعُها، فرمت كلّ شيء إلى الأرض، وقفزت إلى عنقي، وهي تقولُ لي: إني أدفع ديوني. هذا هو قانون الكاليين (الغجر)[2].

آه! يا سيدي، ذلك النّهار! ذلك النهار!... عندما أفكّر به، أنسى نهار الغد.

وصمت قاطع الطريق لحظة، ثم استأنف بعد أن أشعل سيكاراً.

لقد أمضينا النهار بكامله معًا، نأكل ونشرب، إلى آخره. وبعد أن أكلت حبات السكاكر مثل طفلٍ في السادسة من عمره، أدخلت حفنات منها في جرة الماء التي تخصّ العجوز، وكانت تقول: «هذا كي نصنع لها شرابًا»، وكانت تسحقُ اليماس[3]، بأن تقذف به إلى السّور، وتقول: «هذا كي يدعنا الذبابُ بسلام».... فما من حيلة أو حماقة لم تصنعها وقلتُ لها إني أريد أن أراها ترقص. لكن أين نجد صناجات؟ وفي الحال، أمسكت الصّحن الوحيد، صحن العجوز، وحطمتّه إلى قطع، وهاهي ترقصُ رقصةَ الرومّاليس وهو تطقطق بقطعِ الخزف، كما لو كانت تحمل صنّاجاتٍ من الأبنوس أو العاج. ولم يحدثْ أن شعرت بالضجر

(١) ROM = زوج. وROMI = امرأة أو زوجة بلغة الغجر (وهما كلمتان واردتان في النص الفرنسي).

(٢) كالو: «CALO» ومؤنثها: CALLE، والجمع Calés وترجمتها الحرفية: أسود، وهو الاسم الذي يطلقه الغجر على أنفسهم بلغتهم.

(٣) هي صفارات البيض المحلاّة بالسكّر (ورد ذكرها سابقًا).

بقرب تلك الفتاة. وإني أكفلُ ذلك أمامك. وأتى المساء، فسمعت الطّبول التي كانت تدعو إلى التراجع فقلت لها:

- يجب أن أذهب إلى الثكنة تلبيةً للنّداء.

فقالت بلهجة تنمّ عن الاحتقار:

- إلى الثكنة. أنت إذن زنجيٌّ لأنك تُساقُ بالعصا؟ إنك كناريٌّ فعلاً، في ملابسك[1]، وفي طبعك، اذهب، إن لك قلبَ دجاجة.

ومكثت هناك وقد استسلمت سلفًا لفكرة الذهاب إلى قاعة التوقيف. وفي الصّباح، كانت كارمن هي أولَ من تكلّم عن افتراق كلّ منا عن الآخر.

وقالت: - اسمع، ياجوزيتو، هل سدّدت دينك؟ حسب شرعتنا، لم أكن مدينةً لك بشيء. بما أنك من مواطنيَّ. ولكنك فتى وسيم، وقد أعجبتني. فنحن الآن متعادلان، فطاب يومك.

وسألتها متى يمكنني رؤيتُها مجددًا:

فأجابت وهي تضحك:

- عندما تصبحُ أقلّ غباء.

ثم قالت بلهجة أكثر جدّية:

هل تدري، يا بنيّ، أني أظن أني أحبّك قليلاً؟ ولكن هذا لايمكنُ أن يدوم طويلاً، فالكلب والذئبُ لايصنعان أسرةً جيدة، زمنًا طويلاً. وإذا ما اتخذت شريعة مصر، فربما أرغب في أن أصبح زوجتك. ولكن هذه حماقات؛ إنها غير ممكنة التحقيق. باه! صدّقني، ياصغيري، بأنك بريء الذمّة بأقل الخسائر. لقد التقيت الشيطان. أجل، الشيطان. وهو ليس أسود تمامًا. ولم يلوِ عنقك. وأنا أرتدي الصّوف، ولكني لست خروفًا[2]. فاذهب، وضع شمعة أمام قديستك

(١) يرتدي الخيالة الإسبان ألبسةً صفراء.

(٢) هذه الجملة مثلٌ غجري: MEd Dicas vriarad de jorpoy bus ne sino racob

(MAJORI)[1]، فقد استحقّت ذلك حقًّا. هيّا، وداعًا، مرةً أخرى. ولا تفكّر بعد الآن بكارمانسيتّا، أو تجعلك تتزوّج أرملةً ذات ساقٍ خشبية.

كانت تزيحُ العارضة التي تغلقُ الباب، وهي تتكلم على ذلك النحو، وتلفّعت مرةً أخرى بخمارها في الشارع، وفرّت من أمامي.

كانت تقولُ الحقيقةَ؛ فقد كان من الحكمة ألاّ أعود إلى التفكير بها. ولكني لم أستطعْ، منذ ذلك النّهار في شارع قنديل العجوز، أن أفكّر بشيء آخر بعد. كنت أتجول طيلة النهار، آملاً أن ألتقيها، وسألت عن أخبارها العجوز، وبائع السّمك المقلي. وقد أجاب كلاهما أنها قد رحلت إلى لالورو[2]. فهكذا يسمّون البرتغال. ومن المحتمل أنهم كانوا يتكلمون على ذاك النحو، بناءً على تعليمات كارمن، غير أنه لم يطل بي الوقتُ لأعرف أنهما كانا يكذبان. فبعد مرورِ بضعة أسابيع على يوم شارع قنديل العجوز. كنت أقوم بالحراسة، على أحد أبوابِ المدينة. وعلى مسافة قريبة من ذلك الباب، كان ثمة ثغرة قد أُحدثت في جدار السّور. وكان العمل فيها يجري أثناء النهار. ويضعون فيها حارسًا أثناء الليل لمنع مهرّبي البضائع. وقد رأيت ليلاس باستيا، أثناء النهار، وهو يروح ويجيء من حول مفرزة الحراسة، ويتحدث مع عددٍ من رفاقي، وكانوا جميعًا يعرفونه، ويعرفون سمكاته وفطائره بصورة أفضل أيضًا. فاقترب مني، وسألني إن كانت عندي أخبار عن كارمن.

فقلت له: - كلا.

ـ حسنًا، ستحصل على أخبارها، يا شريكي.

ولم يكن مخطئًا؛ ففي الليل، وضعت لحراسة الثغرة. وما إن انسحب العريفُ، حتى رأيتُ امرأة تأتي إلي. وكان قلبي يحدثني بأنها كارمن. ومع ذلك، فقد صرخت.

فقالت لي، وهي تعرّفني بنفسها:

ـ لا تلعب إذن دور الشّرير.

---

(١) أي القدّيسة العذراء.

(٢) لالورو: (الأرض) الحمراء.

ـ ماذا! أهذا أنتِ يا كارمن!

ـ أجل، يا مواطني فلنتحدث قليلاً، ولنتحدث حسنًا. هل تريد أن تكسب دورو[1]، فسيأتي أناسٌ يحملون عددًا من العلب، فدعهم يمرّون.

فأجبت: ـ كلاّ ـ يجب أن أمنعهم من المرور، إنها التعليمات.

ـ التعليمات! التعليمات! لم تكن تفكّر بها في شارع قنديل العجوز.

فأجبت وقد جعلتني هذه الذكرى وحدها اضطرب كثيراً:

ـ آه!

كان ذلك يستحقّ أن يغفل المرءُ لأجله التعليمات. ولكني لا أرغب في مال المهرّبين.

ـ عجبًا، إذا كنت لاتريد مالاً فهل تريدُ أن نذهب أيضًا إلى منزل العجوز دوروتيه؟

فقلت، وأنا نصفُ مختنق، من جرّاء الجهد الذي كنت أقوم به:

ـ كلاّ، لايمكنني ذلك.

ـ حسنًا جداً، لئن كنت متشددًا إلى هذه الدّرجة. فأنا أعرفُ إلى من أتوجّه. سوف أعرض على ضابطك أن يذهب إلى منزل دوروتيه؛ فهو يبدو حسنَ الطباع، ولسوف يضعُ حارسًا فتى قويًا لايرى إلاّ ما ينبغي رؤيته. فوداعًا، أيها الكناري. لسوف أضحكُ جيداً في اليوم الذي تصدرُ فيه التعليمات بشنقك.

انتابني ضعفٌ حملني على مناداتها، وأعطيتُها وعداً بترك بوهيميا (بلاد الغجر) تمرُّ بكاملها، إن لزم الأمر، شريطة أن أحصل على المكافأة التي كنت أرغبُ فيها. وأقسمت لي في الحال أن تفي بوعدها، بدءاً من اليوم التالي. وأسرعت

(١) الدّورو: هو نقدٌ إسباني قديم (م: ز.ع).

لتخبر أصدقاءها الذين كانوا على بُعد خطوتين من ذلك المكان. وكانوا خمسةً، وبينهم باستيا، وجميعهم محمّلون جيداً بالبضائع الإنكليزية. وكانت كارمن تقومُ بالمراقبة، ويتعين عليها أن تحذّرهم بصنّاجاتها، ما إن تلمح الدّورية، غير أنها لم تكن بحاجةٍ لذلك؛ فقد قام المهرّبون بعملهم في لحظة.

وفي اليوم التالي. ذهبتُ إلى شارع قنديل العجوز، فتأخّرت كارمن بعضَ الوقت، وأتت، وهي بمزاجٍ سيّئ إلى حدّ كافٍ.

وقالت: ـ لا أحبّ الناس الذين يتمنّعون؛ فقد أدّيت لي، في المرة الأولى، خدمةً كبيرة جداً، من غير أن تعلم إن كنت ستكسب مقابلها شيئاً. أما بالأمس، فقد ساومتني، ولا أدري لماذا أتيت، فأنا لم أعدْ أحبّك. هيا. اذهبْ من هنا. وهذا دورو مقابل تعبك.

ولم يكن الأمر يحتاج كثيراً كي ألقي بالقطعة النقدية على رأسها، وقد اضطررت للقيام بجهد عنيف كي أتمالك نفسي، ولا أضربها. وبعد أن تجادلنا لساعة من الزمن، خرجتُ مغضباً جداً، وهمت على وجهي في المدينة لبعض الوقت، سائراً هنا وهناك مثل مجنون، وأخيراً، دخلتُ إلى كنيسة. وما إن وصلتُ إلى الزّاوية المعتمة أكثر من غيرها، حتى بكيتُ بدموعٍ سخية، وسمعت فجأةً صوتاً:

ـ إنها دموعُ التّنين! أريد أن أصنع منها شراب المحبّة.

رفعتُ عيني، فكانت كارمن قبالتي.

فقالت لي: ـ حسناً، يا مواطني، ألا زلتَ غاضباً مني؟ لابدّ أني أحبّك، برغم ما أصابني من ذلك؛ فمنذ أن تركتني، لا أدري ماذا بي. أما الآن، فأنا التي تسألك، إن كنت تريدُ أن تأتي إلى شارع قنديل العجوز.

وهكذا تصالحنا، غير أن مزاج كارمن كان مثل الطقس في بلادنا؛ فلا تكون العاصفة قطّ وشيكةً في جبالنا أكثر مما تكونُ في ذلك الوقت الذي تسطعُ فيه الشمسُ بأشدّ ما يمكن؛ فقد وعدتني بأن تراني ثانية في منزل دوروتيه. ولم تأت.

وقد قالت لي دوروتيه من جديد إن كارمن قد ذهبت إلى لالورو (البرتغال) من أجل أعمالٍ في مصر.

وإذ كنت أعلمُ بتجربتي من قبلُ إلى من ألجأ في هذا الموضوع، فقد أخذتُ أبحثُ عن كارمن، في كلّ مكان كنت أظن أنها يمكن أن تكون فيه. وكنت أمرُّ عشرين مرةً في اليوم، في شارع قنديل العجوز. وذات مساء، كنتُ في منزل دوروتيه التي ليّنت طبعها إلى حدّ ما وذلك بأن دفعتُ لها من وقتٍ لآخر ثمن قدحٍ من شراب اليانسون، عندما دخلت كارمن ووراءها شابٌ هو ملازمٌ في فيلقنا.

فقالت لي بالباسكية: ـ اذهب من هنا بسرعة.

فمكثت مدهوشاً، والغضب يفور في داخلي.

وقال لي الملازم:

ماذا تفعل هنا، ارحل، اخرج من هنا!

ولم أستطع أن أخطو خطوةً واحدة، وكأني أقعدت. أما الضّابط الغاضب، والذي رأى أني لا أبرح مكاني، وأني لم أنزع حتى قبعتي، قبعة الشّرطي. فقد أمسك بي من قبّتي، وهزّني بشدّة. ولا أدري ماذا قلتُ له. فسحبَ سيفه، وجرّدتُ سيفي من غمده، فأمسكت العجوزُ بذراعي، فضربني الضابط في جبهتي ضربةً لاأزال أحملُ علامتها، فتراجعتُ، وبضربةٍ من مرفقي، رميتُ دوروتيه على قفاها. وإذ كان الملازم يلاحقني، فقد وضعتُ رأس سيفي في جسده، فطُعِن به. وأطفأت كارمن عندئذٍ المصباح، وقالت لدروتيه بلغتها أن تهرب. أما أنا فشرعت أركض من دون أن أدري إلى أين. وكان يبدولي أن أحداً يتبعني. وعندما هدأتُ، وجدتُ أن كارمن لم تتركني.

وقالت لي: أيها الكناري الأحمق الكبير. ألا تحسنُ إلاّ الأفعال الغبية، كما أني قلت لك سابقاً إني سأجلب لك الشقاء. هيا، إن هناك دواءً لكلّ شيء، عندما

تكون فلمنكيةٌ من روما[1] هي صديقتك الطيّبة، فابدأ بوضع هذا المنديل على رأسك. وارم هذا الحزام، وانتظرني في ذلك المعبر، فأعود بعد دقيقتين.

واختفت، وجلبت لي سريعًا خمارًا مخطّطًا كانت قد ذهبت لتأتي به لا أدري من أين، وجعلتني أترك زيّي الرسمي، وأضع الخمار فوق قميصي. لقد كنت، بارتدائي على ذلك النّحو ملابس مضحكة هي المنديل الذي كانت كارمن قد ضمّدت به الجرح الذي أصابني في رأسي، كنت أشبه إلى حدٍّ كاف فلاّحًا فالنسيًّا، من مثل الفلاحين الموجودين في إشبيليا، والذين يأتون ليبيعوا شرابَ جذور السُّعْد[2]. ثم أخذتني إلى منزل شبيه بمنزل دوروتيه إلى حدّ ما، ويقعُ في نهاية شارعٍ صغير، وغسلت هي وغجريةٌ أخرى جرحي، وضمّدتاه على نحوٍ أفضل مما يمكن أن يفعله جرّاحٌ مقدّم، وسقتاني لا أعرف ماذا، وأخيرًا، وضعتاني على فراشٍ فنمت.

من المحتمل أن تكون هاتان المرأتان قد مزجتا في شرابي بعضًا من تلك العقاقير المنعّسة التي تحتفظان بسرّها، لأني لم أستفق إلاّ متأخرًا جدًا في اليوم التّالي. وكنتُ مصابًا بصُداعٍ شديد، وبقليل من الحمى. وكان يلزمُني بعضُ الوقت كي ترجعَ إليّ ذكرى الواقعة الرهيبة التي اشتركت فيها في اليوم السّابق. وبعد أن ضمّدت كارمن وصديقتُها جرحي، وهما جالستان القرفصاء على أعقابهما بجانب فراشي. تبادلتا بعضَ الكلمات بلغة الشيبي-كالّي، وكأنها تشبه استشارة طبّية ثم طمأنتاني كلتاهما بأني سأشفى بعد قليل، وإنما ينبغي لي أن أغادر إشبيليا في أقرب وقتٍ ممكن، فإذا ما أمسكوا بي فيها، فلسوف يرمونني بالرّصاص بلاهوادة.

---

(١) FIAMENCA DE ROMA: عبارة في اللهجة المحلية تشيرُ إلى الغجريات، ولا تعني كلمة: «روما» هنا: المدينة الأبدية، بل أمة الروميين، أو الناس المتزوجين، وهو الاسم الذي يطلقه الغجر على أنفسهم؛ فمن المحتمل أن الغجر الذين شوهدوا في إسبانيا كانوا قد أتوا من هولندا، ومن هنا أتت تسميتهم: الفلمنكيون.

(٢) جذر بصلي يصنع منه شرابٌ طيّب المذاق.

وقالت لي كارمن:

يا صغيري، يجب أن تفعل شيئًا، والآن، وقد كفَّ الملكُ عن إعطائك الخبز والسّمك المقدّد[1]، ينبغي أن تفكّر كيف تكسبُ عيشك. إنك أكثر غباءً من أن تستطيع السّرقة بطريقة النّشل[2]. غير أنك رشيقٌ وقويّ. فإذا كنت جسوراً، فاذهب إلى الساحل، واعمل في التهريب. ألم أعدك بأن أجعلك تشنق؟ هذا أفضل من أن تُرمى بالرصاص. زدْ على ذلك أنه إن يتحسّن عملُك، تعشْ مثل أمير، طالما لم تَقْبِض عليك الفرقُ غير النّظامية[3]، وحرسُ السّواحل.

وهكذا إذن، وبهذه الصّورة المشوّقة، إنما بيّنت لي تلك الفتاةُ العفريتةُ المهنة الجديدة التي كانت تخصّصها لي، وهي المهنة الوحيدة، والحق يُقال، التي بقيت لي الآن، وقد استحققتُ حكمَ الإعدام. فهل أقول لك ذلك يا سيّدي؟ لقد جعلتني أحزمُ أمري، من غير أن تبذل جهداً كبيراً. وكان يبدو لي أنني أرتبطُ بها بصورةٍ أوثق، من خلال تلك الحياة، حياة المصادفات، والتمرّد، وأظنّ، بدءاً من الآن، أني قد ضمنتُ حبَّها. وكنتُ قد سمعتُ عن بعض المهرّبين الذي يجوبون الأندلس، وهم يمتطون جواداً جيداً، والبندقيةُ المنفرجة في قبضتهم، وعشيقتُهم تركبُ خلفهم. وكنت أرى نفسي من قبل، وأنا أخبُّ على جوادي بين الجبال، والوديان، برفقة الغجرية اللطيفة التي تركب ورائي. وحين كنتُ أحدّثها عن ذلك، كانت تضحك مسرفة في الضحك، وتقول لي: إنّه لاشيء أجملُ من ليلةٍ يقضيها المرء في المعسكر، عندما ينسحب كلُّ زوجٍ مع زوجته إلى تحت خيمةٍ صغيرة مكوّنةٍ من ثلاثة إطارات، وغطاء فوقها. وكنت أقول لها: إذا ما أمسكت بكِ يوماً في الجبل، أكون واثقًا منك؛ فهناك، ما من ملازم يشتركُ معي بك.

---

(١) الطعام الاعتيادي للجندي الإسباني.

(٢) USTILAR APASTESAS: السّرقة بمهارة، الخطف من غير عنف. (أي النّشل كما نقول).

(٣) MiNONS: فصائل من فرق المكافحة غير نظامية.

وكانت تجيب : أه! أنت غيور . فتباً لك . وكيف يبلغُ بك الغباء الى هذا الحدّ. ألا ترى أني أحبّك . بما أني لم أطلب منك مالاً قط؟

حين كانت تتكلمُ على ذلك النحو ، كنت أرغبُ في خنقها .

وكي أختصر يا سيّدي، فإن كارمن قد حصلت لي على ملابس مدنيّة، خرجتُ بها من إشبيليا ، من غير أن يتعرّفني أحد . وذهبت إلى جيريز حاملاً رسالةً من باستيا إلى بائع شراب اليانسون الذي كان يجتمعُ عنده مهرّبون . وقد قدّمني إلى هؤلاء الناس الذين يتزعّمهم رجلٌ يلقّبونه بالدنّكايير . وقد قبلني في جماعته . وذهبت إلى غوسان حيث التقيت كارمن التي كانت قد أعطتني موعداً هناك . وخلال حملاتنا ، كانت تعمل كجاسوسةٍ لرجالنا . ولم يكن هناك قطّ من هو أفضل منها . لقد كانت عائدةً من جبل طارق . وقد رتّبت مع صاحب مركب ترحيل البضائع الإنكليزية التي كان من المفروض أن نستلمها على السّاحل . وذهبنا لننتظر تلك البضائع ، على مقربة من إيستبونا ، ثم خبّأنا قسماً منها في الجبل . وبعد أن قمنا في النهاية بالتّحميل ، توجّهنا إلى روندا وكانت كارمن قد سبقتنا إليها ، وهي التي حدّدت لنا أيضًا اللحظةَ التي ندخل فيها إلى المدينة . كانت تلك الرحلة ، وعددٌ آخر من الرّحلات غيرها بعد ذلك موفّقةً . وكانت حياةُ المهرب تروقُ لي أكثر من حياة الجندي ؛ فقد كنتُ أُقدّم الهدايا لكارمن ؛ فلديّ المال ، ولديّ عشيقة . وقلّما كنت أشعرُ بالنّدم ، لأن الجربَ مع السّرور لا يسبّب الحكّة ، كما يقول الغجر[1] . كنا نُستقبلُ استقبالاً حسنًا في كلّ مكان ، وكان رفاقي يعاملونني معاملةً جيّدةً ، وحتى إنهم كانوا يظهرون لي التقدير . والسببُ في ذلك هو أنني كنتُ قد قتلتُ رجلاً ، وكان ثمة رجال بينهم لم يثقلوا ضمائرهم بمأثرةٍ مماثلة . غير أن الأمر الذي كان يؤثّر بي أكثر من غيره في حياتي الجديدة ، هو أني كنت غالبًا ما أرى كارمن ، وكانت تظهر لي من المحبّة أكثر من أي وقت مضى . ومع ذلك ؛ فلم تكن تقرّ بأنها عشيقتي

(1) SARAPIA SAT PESQUITAL NE PUNZAVA ،

أمام الرفاق. وحتى أنها جعلتني أحلف بكل ضروب القسم ألا أقول لهم شيئًا عنها. لقد كنت ضعيفًا جداً أمام تلك المرأة بحيث امتثلت لكل نزواتها. زد على ذلك، أن تلك المرأة كانت هي الأولى التي تبدو فيها أمامي متحفّظة تحفُّظ امرأة عفيفة. وكنت من السّذاجة بحيث صدّقت أنها قد تخلّصت حقًا من أساليبها القديمة.

أما جماعتنا التي كانت تتكون من ثمانية إلى عشرة رجال؛ فقلّما كانت تجتمع إلاّ في اللحظات الحاسمة. وكنا نتفرق عادةً في المدن والقرى إلى جماعات من اثنين أو من ثلاثة وكان كلُّ واحدٍ منا يزعم أن له مهنةً معينة. فقد كان هذا صانعَ قدور، وذاك بائعَ خيول، أما أنا، فكنت تاجر أقمشة وخرداوات غير أني قلّما كنت أظهر في الأماكن المزدحمة، بسبب مشكلتي السيّئة في إشبيليا. وذات يوم، أو على الأصحّ ذات ليلة، كان موعدُنا في أسفل فيجيه. وقد وصلنا إليها، أنا والدنكايير، قبل الآخرين. وكان يبدو مرحًا جداً، فقال لي:

ـ سوف يكون لدينا رفيقٌ آخر إضافي؛ فقد نجحت كارمن بالقيام بإحدى أفضل حيلها.

لقد جعلت زوجها يهرب. وقد كان في سجن تاريفا للأشغال الشاقّة.

كنت قد بدأت أفهم اللّغة الغجرية التي كان يتكلّمها تقريبًا كلُّ رفاقي. وقد سببت لي تلك الكلمة، كلمة زوج، انقباضًا.

فسألت قائد السفينة: كيف! زوجُها! هي متزوجة إذن؟

فأجاب: ـ أجل! من غارسيا الأعور، وهو غجريٌّ داهيةٌ مثلها. لقد كان الفتى المسكين في سجن الأشغال الشاقة. وقد تملّقت جراحَ السّجن كثيراً حتى حصلت على إخلاء سبيل زوجها. آه! يا لتلك الفتاة! إنها تساوي وزنها ذهبًا. وها هي تسعى منذ عامين لجعله يهرب. ولم ينجح شيء لتحقيق ذلك. إلى أن استقرّ الرأي على تبديل آمر السّجن. أما مع الآمر الحالي، فيبدو أنها قد وجدت بسرعةٍ وسيلة للتفاهم.

أنت تتصورّ السرّور الذي أحدثه في نفسي ذلك النبأ. فقد رأيتُ غارسيا الأعور بعد قليل، وكان حقًا أحقر وحشٍ ربّته بوهيميا: أسود البشرة، ونفسه أكثر سواداً. لقد كان أكمل آثمٍ صادفته في حياتي. وقد أتت كارمن معه. وعندما كانت تدعوه بزوجها أمامي، كان لابدّ من رؤية النّظرة الغرامية التي ترمقني بها، وتقطيبات الوجه حين يديرُ رأسه. كنتُ غاضباً، ولم أكلّمها طيلة الليل.. وفي الصّباح. حزمنا بضائعنا، وانطلقنا على الطّريق. عندما لاحظنا أن اثني عشر خيالاً كانوا في إثرنا. أما المتبجحون الأندلسيون الذين لم يكونوا يتكلّمون إلاّ عند ذبح كلّ شيء، فسرعان ما اتّخذوا سحنةً حزينة، وحصل فرارٌ شامل. أما الدنكايير، وغارسيا، وفتى وسيم من إيسيجا، وكانوا ينادونه الرومانادادو، وكارمن، فلم يفقدوا رشدهم. بيد أن الباقين كانوا قد تخلّوا عن بغالهم، وألقوا بأنفسهم في المنحدرات التي لم تستطع الخيولُ أن تتبعهم إليها. ولم يكن بوسعنا أن نحتفظ بحيواناتنا، فأسرعنا إلى فكّ أفضل ما لدينا من مؤن، وحملناها على أكتافنا، ثم حاولنا أن نهرب عبر الصخور، وعن طريق المنعطفات الأشدّ وعورة. كنا نرمي بأكياسنا أمامنا، ونلحق بها قدر استطاعتنا، وذلك بأن ننزلق على أعقابنا. وخلال ذلك الوقت، كان العدو يقنصنا، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها أزيزَ الرَّصاص. ولم يعن ذلك لي شيئًا يذكر؛ فعندما يكون الرجلُ في متناول نظر امرأة، لايكون له فضلٌ في أن يهزأ بالموت. لقد نجونا، باستثناء ردمانادادو المسكين الذي أُصيب بطلقة في خاصرته، فألقيت بكيسي، وحاولت أن أمسك به. فصرخ بي غارسيا: أيها الأبله! ما الذي علينا أن نفعله بجيفة؟ اقضِ عليه، ولا تُضع الجوارب القطنية.

وكانت كارمن تصرخ بي قائلة: ارمه! ارمه!

وأجبرني التعب على وضعه للحظةٍ من الزمن في ظلّ صخرة، فتقدّم غارسيا وأفرغ بندقيته المنفرجة في رأسه.

وقال وهو ينظر الى وجه رومانادادو الذي مزّقته اثنتا عشرة رصاصة:

- إن من يتعرّفه الآن يكون بارعًا جداً.

تلك هي، يا سيدي، الحياةُ الحلوة التي عشتها. وفي المساء، ألفينا أنفسنا في دغل، وقد هدّنا التّعب وليس لدينا شيء نأكله. وأصبحنا مفلسين من جراء خسارتنا لبغالنا، فماذا فعل غارسيا، ذلك الجهنّمي؟ لقد سحبَ ورقة لعبٍ من جيبه، وأخذ يلعبُ مع الدنكايير على ضوء نارٍ أشعلاها وخلال ذلك الوقت، كنت راقداً أنظر إلى النجوم، وأفكّر برماندادو، وأقولُ في نفسي إنني أودّ أن أكون في مكانه أيضاً. وكانت كارمن جالسةً القرفصاء بجانبي، ومن وقتٍ لآخر، كانت تقرعُ الصّناجات لمرّةٍ واحدة، وهي تدندن بالغناء، ثم تقتربُ وكأنها تريد أن تقول لي شيئاً في أذني، فتقبّلني، رغماً عني تقريباً، مرتين أوثلاث مرات.

وكنت أقول لها: ـ أنتِ الشيطان.

وكانت تجيبني: ـ أجل.

وبعد بضع ساعاتٍ من الراحة، مضت إلى غوسان. وفي اليوم التالي، أتى راعٍ صغير للماعز حاملاً إلينا خبزاً. ومكثنا هناك طيلةَ النهار. وفي الليل، اقتربنا من غوسان. وأخذنا ننتظر أخباراً من كارمن. ولم يأتِ شيء.

عند الفجر، رأينا بغالاً يقودُ امرأة حسنة اللباس تحت مظلّة، ومعهما فتاةٌ صغيرة، تبدو كأنها خادمتها، فقال لنا غارسيا:

هاهما بغلتان وامرأتان يرسلهما إلينا القديس نيقولا. وكنت أودّ لو كن أربع بغلات ولكن لا أهمية لهذا. فسوف أتدبّر بهما أمري!

وأمسك بندقيته المنفرجة، ونزل نحو المعبر، وهو يختبئ في شجيرات العليق، وكنّا نتبعه، الدنكايير، وأنا على مسافة قريبة. وعندما أصبحنا قريبين، أظهرنا أنفسنا، وصرخنا بالبغّال أن يتوقّف. أما المرأةُ، فبدلاً من أن تُذعر، حين رأتنا، وكان منظرُ رؤوسنا يكفي لذلك، فقد انفجرت بضحكةٍ عالية:

ـ آ! ياللحمقى الذين يحسبونني امرأة راقية[1].

---

(١) بلغة الغجر في النص: *Lillipendi* = حمقى. Erani = امرأة راقية، سيّدة.

كانت تلك المرأة هي كارمن، ولكنها متقنِّعة بصورة جيّدة، إلى درجة أني لم أكن أقدر على تعرُّفها إذا ما تكلّمت لغةً أخرى. لقد قفزت بغلتها إلى الأرض، وتحدثت مع الدنكايير وغارسيا بصوتٍ خفيض، ثم قالت لي:

أيها الكناري، سوف نلتقي ثانيةً قبل أن تُشنَق. إني ذاهبةٌ إلى جبل طارق من أجل عمليات مصر، وستسمعون أخباري قريباً.

افترقنا، بعد أن دلّتنا على مكان يمكننا أن نجد فيه مأوًى لبضعة أيام. لقد كانت تلك الفتاة حاميةَ عصبتنا. واستلمنا بعد قليل بعضَ النقود التي أرسلتها إلينا، وإشعاراً كان يساوي أكثر من تلك النقود بالنسبة إلينا. ومفادُ ذلك الإشعار أنه في يوم كذا، سينطلقُ ميلوردان[1] إنكليزيّان ذاهبان من جبل طارق إلى غرناطة عبر طريق كذا. فتحيّةً للّبيب.

وكانا يحملان جنيهات إنكليزيةً جميلةً وكثيرة، وكان غارسيا يريد أن يقتلهما، غير أن الدنكايير وأنا عارضنا ذلك. فلم نأخذ منهما إلاّ النقود والسّاعات، فضلاً عن القمصان التي كنّا بحاجةٍ كبيرة لها.

يصبح المرء يا سيدي آثماً من غير أن يفكّر بذلك؛ فتجعلك فتاةٌ حلوةٌ تفقدُ رشدك، فتقاتلُ من أجلها، وتحدث مصيبةٌ. وتضطر إلى العيش في الجبل. ومن مهربٍ تصبح سارقاً، قبل أن تفكّر بذلك. وقد رأينا أنه لن يكون الجوُّ مناسباً لنا في تخومِ جبل طارق، بعد عملية الميلوردين، فتوغّلنا في سلسلة جبال دوروندا.

لقد حدثتني عن جوزيه-ماريا، فهناك قد تعرّفته، وكان يصطحب عشيقته معه في حملاته، وكانت فتاةً حلوةً وعاقلةً ومتواضعةً، وحسنةَ التصرّف، فلا تنطقُ بكلمة واحدة غير محتشمة-وذات إخلاص!... وبالمقابل، فقد كان جوزيه-ماريا يجلبُ لها التعاسة فعلاً؛ فهو يلاحق باستمرار كلَّ الفتيات، ويسيءُ معاملتها، وفي بعض الأحيان، كان يخطر له أن يلعبَ دورَ الغيور. وذات مرّةً طعنها بالسكّين. وهكذا، فقد ازداد حبّها له، فالنساءُ مجبولاتٌ على هذه الصّورة، وخصوصاً الأندلسيّات منهنّ. أما عشيقته هذه، فقد كانت فخورةً بالندبة الموجودة على

[1] الميلورد: هو رجلٌ غنيّ جداً، وفي الأصل، إنكليزي الجنسية. (م: ز.ع).

ذراعها، وكانت تظهرها، وكأنها أجملُ شيء في العالم. ثم أن جوزيه-ماريا كان أسوأ رفيق، وعلى نحوٍ فائق... ففي إحدى الحملات التي قمنا بها، رتّب أموره بحيث يبقى الربح كُلُّه له، وتكون لنا نحن الضّربات وإزعاجاتُ العملية، ولكني سأتابع قصتي، فلم نعدْ نسمعُ شيئًا عن كارمن، فقال الدّنكايير:

يجب أن يذهب أحدُنا إلى جبل طارق كي يستعلم عن أخبارها؛ فلا بدّ أنها قد حضَرت عمليةً ما. يمكن أن أذهبَ أنا، ولكني معروفٌ في جبل طارق أكثر من اللازم.

وقال الأعور:

- وأنا أيضًا، إنهم يعرفونني فيها أيضًا، وقد عملت فيها الكثير من الخدع ضد السّرطانات البحرية[1]، وبما أنه ليس لديّ سوى عين واحدة، فمن الصّعب أن أتقنَّع.

فقلتُ بدوري، وقد أبهجتني فقط فكرةُ رؤية كارمن مجدّدًا:

ينبغي أن أذهب أنا إلى هناك إذن؟ ماذا يجب أن أفعل؟

فقال لي الآخران:

- إما أن تُبحِرَ في قارب، أو أن تمرَّ بسان روك، حسبما تفضّل، وعندما تصبحُ في جبل طارق، اسألْ في المرفأ عن مكان إقامة بائعة شوكولاته تدعى لارولونا؛ وعندما تعثرُ عليها، تعرفُ منها ما يجري هناك.

واتفقنا أن نذهب ثلاثتُنا جميعًا إلى سلسلة غوسّان الجبلية التي أترك فيها رفيقيّ، وأتوجّه منها إلى جبل طارق كبائعٍ للفواكه. وفي روندا، كان قد حصل رجلٌ من جماعتنا على جوازِ سفرٍ لي. وفي غوسان، أعطوني حمارًا؛ فحمّلته بالبرتقال، والبطّيخ الأصفر، وانطلقت. وعندما وصلتُ إلى جبل طارق، وجدتُ أنهم يعرفون لارولونا فيها جيدًا، ولكنها ماتت، أو ذهبت إلى سجن الأشغال الشاقة[2]. وكان اختفاؤها يفسرّ، في نظري، السّبب الذي جعلنا نفقد وسيلةَ

(١) اسم يطلقهُ الشعب في إسبانيا على الإنكليز، بسبب لون زيّهم.

(٢) أو حسبما يقولون: إلى كلّ الشياطين.

اتصالنا بكارمن. ووضعت حماري في إسطبل، وأخذت برتقالاتي، وذهبت إلى المدينة، وكأني أريدُ بيعها. أما في الواقع، فكي أرى إن كنتُ سأصادف وجهًا أعرفهُ. وكان هناك عددٌ هائلٌ من أنذال بلدان العالم أجمع. إنها برجُ بابل؛ فلايمكن للمرء أن يخطو عشر خطوات، في أحد الشوارع، من غير أن يسمع الكلام بالعديد من اللّغات. كنت أرى الكثير من أهل مصر. غير أني قلّما كنت أجرؤ على أن أثق بهم. كنتُ أسبرُ نواياهم، وكانوا يسبرون نواياي. وكنّا نتهكن تمامًا بأننا أشرار، أما المهمّ فهو معرفة إن كنا ننتمي إلى العصابة نفسها أم لا. وبعد يومين انقضيا بتنقلاتٍ لا طائل منها، لم أعرفْ شيئًا بصدد لارولونا، ولابصدد كارمن. وكنت أفكّرّ بالرّجوع إلى رفاقي، بعد أن أقوم ببعض المشتريات، عندما سمعت، وأنا أتجولّ في أحد الشوارع عند المغيب، صوتَ امرأةٍ يقول لي، من إحدى النوافذ: «يا بائع البرتقال! . . . .». وها أنا أرفعُ رأسي، وأرى كارمن في إحدى الشّرفات، وهيَ تتكئ إلى جانب ضابطٍ يرتدي زيًا أحمر، وكتفيتين ذهبيتين. إنه أجعدُ الشعر، وله هيئة ميلورد واسع الثّراء، أما هي، فقد كانت رائعةً في ملابسها: شالٌ على كتفيها، ومشطٌ ذهبي، وكلٌّ شيء من الحرير. أما التُّحفة الرائعة التي تظلٌّ نفسها دائمًا، فقد كانت تُسرفُ في الضحك. وصاح الإنكليزي بي، وهو يرطن بالإسبانية، طالبًا إليّ أن أصعد، وقائلاً إن السيّدة تريد برتقالاً. أما كارمن فقد قالت لي بالباسكية:

ـ اصعد، ولا تدهشْ من شيء.

وفي الواقع، فلم يكن من المفترض أن يدهشني شيء من ناحيتها؛ فلا أدري إن كان عثوري عليها قد سبّب لي الفرح أو الغمّ. لقد كان على الباب خادمٌ إنكليزي، طويل القامة، ووجهه مطليّ بمسحوق للزينة. وقد اقتادني إلى قاعة استقبال رائعة؛ فقالت كارمن لي حالاً بالباسكية:

أنت لاتعرف كلمةً إسبانية واحدة، ولاتعرفني.

ثمّ استدارت نحو الإنكليزي، وقالت:

كنت أقول لك حقًا إني عرفت فوراً أنه باسكيّ. ولسوف تسمعُ أية لغة غريبة هي الباسكية. كم يبدو عليه الغباء. أليس كذلك؟ وكأنه قطٌ قد بوغت في خزانة الأطعمة. وقلت لها بلغتي:

وأنت تظهرين وكأنك غانيةٌ متهتكةٌ. ولدي فعلاً رغبةٌ في أن أشجّ وجهكِ أمام عشيقك.

فقالت:

عشيقي، عجبًا، هل حزرت ذلك وحدك؟ وأنت غيورٌ من هذا الأبله؟ إنك أكثر غباءً مما كنتَ عليه قبل سهراتنا في شارع قنديل العجوز. ألا ترى، أيها الأحمق، أني أقوم في هذا الوقت بعمليات مصر، وبالصّورة الأكثر مهارةً؟ إن هذا المنزل لي، ولسوف تصبحُ جنيهات هذا السّرطان البحري لي. إني أقوده حيث أريد، ولسوف أقوده إلى المكان الذي لن يخرج منه أبداً.

وقلت لها: وأنا، إذا ما قمت بعمليات مصر بهذه الطريقة، فلسوف أعمل فعلاً على ألا تعودي إليها ثانية.

- آه! أجل! هل أنت زوجي كي تأمرني؟ إن الأعور يجدُ الأمر جيداً، فما دخلك أنت في ذلك؟ ألا يفترضُ بك أن تكون مسروراً حقًا لأنك الوحيدُ الذي يمكنه أن يقول إنه عشيقي[1].

فسأل الإنكليزي:

- ماذا يقول؟

فأجابت كارمن:

يقول إنه ظمآن، وإنه يودّ أن يشرب قدحًا.

وانقلبت على الأريكة، وهي تقهقه، على إثر الترجمة التي قامت بها.

---

(١) MINCHORRö: عشيق، أو نزوة.

عندما كانت تلك الفتاة تضحك، يا سيدي، لايبقى هناك مجالٌ لكلام العقل؛ فكلُّ الناس يضحكون معها. وقد أخذ ذلك الإنكليزي الطويل القامة يضحك أيضاً، لبلاهته، وأمر بأن يؤتى بالشراب.

وفيما كنت أشربُ، قالت كارمن:

- أترى هذا الخاتم الذي يضعه في إصبعه، سأعطيك إياه، إذا شئت.

ولكني أجبت:

- إني أعطي أحد أصابعي مقابل الإمساك بميلورد (ك) في الجبل، وكلٌّ منا يحمل (ماكويلا)[1] في يده.

فسأل الإنكليزي:

- ماكويلا، ما معنى ذلك؟

فقالت كارمن، وهي تضحك باستمرار:

- ماكويلا، إنها برتقالة. أليس هذا اسمٌ غريبٌ حقًّا بالنسبة لبرتقالة. يقول إنه يودّ أن يطعمك ماكويلا.

فقال الإنكليزي:

- أجل، حسناً؟ فلتجلب غداً ماكويلا أيضاً.

وفيما كنا نتكلّم. دخل الخادم وقال إن العشاء جاهز؛ فنهض الإنكليزي، وأعطاني قرشاً، وقدّم ذراعه لكارمن، وكأنها لاتستطيع السيّر وحدها. فقالت لي وهي تضحك باستمرار:

- يا صغيري، لايمكنني أن أدعوك إلى العشاء، ولكن تعال إلى هنا غداً مع برتقالاتك، ما إن تسمع طبلَ الاستعراض، وستجد غرفةً أفضل تأثيثًا من غرفة شارع قنديل العجوز، وسترى إن كنت لا أزال دوماً حبيبتك كارمنسيتا، ثم نتكلّم عن عمليات مصر.

---

(١) بندقية.

فلم أجبْ بشيء، وأصبحتُ في الشارع، عندما صاح بي الإنكليزي.

ـ اجلب غداً ماكويلتك!

وكنت أسمع قهقهات، كارمن.

وخرجت وأنا لا أدري ماذا عليّ أن أفعل. وما نمتُ إلاّ قليلاً، وفي الصّباح، شعرت بأني غاضبٌ من تلك الخائنة إلى درجة أنني عزمتُ على الرحيل عن جبل طارق، من غير أن أراها ثانية. ولكن شجاعتي كلّها قد هجرتني، عندما قُرِعَ الطّبل للمرة الأولى، فأخذتُ حصيرة البرتقال، وهرعت إلى عند كارمن. وكانت مشربيّةُ نافذتها نصفَ مفتوحة، فرأيت عينًا كبيرة سوداء ترقُبني، وأدخلني الخادم المطلي الوجه بالمساحيق حالاً، وكلّفته كارمن بمشتريات معينة. وما إن أصبحنا وحدنا، حتى انفجرت ضاحكةً بإحدى ضحكاتها التمساحية، وارتمت على عنقي. ولم أكن قد رأيتُها قطّ جميلةً إلى تلك الدّرجة؛ فقد كانت متزيّنةً مثل عذراء، ومعطّرة.... أثاثها من الحرير، وستائرها مطرّزة... آه!... أما أنا... فقد كنت أشبه ما أكون بلصّ.

وكانت كارمن تقول: يا عشيقي، أرغب في أن أحطّم كلّ شيء هنا، وأن أشعل النار بالمنزل، وأهرب إلى الجبال.

وأتت عباراتُ الودّ... ثم الضّحكات!... وكانت ترقصُ، وتمزّق زينتها الكريهة؛ فما قام قردٌ قطّ بقفزاتٍ وتكشيراتٍ وشيطناتٍ مثلما فعلت.

وعندما استعادت جدّيتها، قالت لي:

ـ اسمع، إن الأمر يتعلّق بمصر، وأريد أن يأخذني إلى روندا التي لي فيها أختٌ راهبة.... (وهنا قهقهاتٌ جديدة)، وسنمرّ بمكان، سأرسل إليك من يحدّده لك؛ فتنقضّ عليه، وتسلبه كل شيء! وقد يكون من الأفضل أن تصرعه. وأضافت بابتسامةٍ شيطانية كانت تبتسمها في بعض الأوقات. ولم يكن يرغب أحدٌ حينذاك

بمحاكاة تلك الابتسامة: ولكن هل تعلم ماذا ينبغي أن تفعل؟ هو أن يظهر الأعور أولاً، فابقَ إلى الوراء قليلاً، لأن السرّطان البحريّ شجاعٌ وماهر: ولديه مسدّسات جيدة... هل تفهم؟

وقطعت كلامها بقهقهةٍ جديدة، جعلتني أرتعشُ، فقلت لها:

- كلاّ: أنا أكره غارسيا. ولكنه رفيقي. وسأخلّصك منه ذات يوم ربّما، غير أننا سوف نسوّي حساباتنا بطريقة بلادي، فأنا لست مصريّاً إلاّ بالصّدفة، وفي بعض الأمور، سأكون ناڤاريًا قحًا، كما يقول المثل[1].

- إنك غبي وأحمق، وفلاّح حقيقي، أنت مثل القزم الذي يظنّ نفسه طويل القامة، لأنه استطاع أن يبصق بعيداً[2]. أنت لا تحبّني فامض.

عندما كانت تقول لي: امض، لم أستطع أن أذهب، ووعدتُ بالرّحيل، وبالرجوع إلى رفاقي وانتظار الإنكليزي. ومن جهتها، وعدتني بأن تكون مريضة حتى لحظة مغادرة جبل طارق إلى روندا؛ فمكثت يومين، أيضاً في جبل طارق. وقد تجرأت على المجيء إلي لتراني في نزلي وهي مقنّعة. ورحلت، وكان لديّ أنا أيضاً مشروعي؛ فرجعت إلى المكان الذي اتفقنا على الالتقاء فيه، وأنا أعرف المكان والسّاعة التي يفترض أن يمرّ الإنكليزيّ وكارمن منهما. ووجدت الدنكايير وغارسيا ينتظراني، وأمضينا الليل في غابةٍ بقرب نارٍ أو قدناها على أكواز الصّنوبر التي تشتعلُ اشتعالاً رائعًا، واقترحت على غارسيا أن نلعب بالورق، فقبل. وفي الجولة الثانية، قلت له إنه يغشّ، فأخذ يضحك، فألقيت بالورق على وجهه، فأراد أن يمسك بندقيته المنفرجة، فوضعت قدمي فوقها، وقلت له: «يقالُ إنك تحسنُ اللعب بالسكّين مثل أفضل مدعٍ للشجاعة في مالاغا، فهل تريدُ أن تجرّب نفسك معي؟». وأراد الدنكايير أن يفرّق بيننا، وكنت قد وجّهتُ لكمتين أو ثلاثٍ لغارسيا؛

---

(١) NAVARRO FINO: أي: ناڤاري قحّ، أو حرّ إلخ...

(٢) مثل غجري معناه: مأثرة القزم هو أن يبصق بعيداً:
OR ESORJIE DE OR NARSICHISLE, SIN CHISMAR LACHINGUEL

فجعله الغضب ُباسلاً، وسحب سكّينه، وسحبت سكّيني، وقلنا كلانا للدنكايير أن يُخلي لنا المكان، كي نتبارز بحريّة. فلاحظ أنه ما من وسيلة لإيقافنا، فانتحى جانباً. كان غارسيا قد ثنى جسمه متحفزّاً مثل قطّ متأهب لينقض على فأرة. وكان يمسك ُقبعته باليد اليسرى ليتقي الضرّبات وسكّينه موجّهة إلى الأمام. إنها وضعية الاحتراس الأندلسيّة. أما أنا، فقد اتّخذت الوضعية الناڤاريّة، فانتصبت ُأمامه، وذراعي اليسرى مرفوعة، وساقي اليسرى إلى الأمام، والسكين على طول الفخذ الأيمن. كنت ُأشعر بنفسي أقوى من عملاق، فاندفع باتّجاهي كالسّهم؛ فدرت ُعلى القدم اليسرى، فلم يعدْ يجد شيئًا أمامه. ولكني أصبته في عنقه، ودخلت السكّين إلى الأمام كثيراً بحيث أصبحت يدي تحت ذقنه، وأدرت النّصل بقوة كبيرة بحيث انكسر. لقد انتهى الأمرُ. فخرج النّصل من الجرح، وقد قذفته رغوةٌ من الدمّ ثخينةٌ كالذراع، فسقط على أنفه جثةً هامدةً مثل وتد.

فقال لي الدّنكايير: ـ ماذا فعلتَ؟

فقلت له:

اسمع، لم يكن بإمكاننا أن نعيش معًا؛ فأنا أحبُ كارمن، وأريدُأن أكون وحدي. زدْعلى ذلك أن غارسيا كان نذلاً. وأنا أتذكّر ما فعله لروماندادو المسكين. ولم نعدْالآن غير اثنين. ولكننا فتيانِ طيّبان. حسنًا، هل تريدنُي صديقًا لك، في الحياة، وفي الموت؟

فمدّ الدنكايير لي يده، وكان رجلاً في الخمسين من عمره.

وصاح قائلاً:

فلتذهبْ الغراميات إلى الشيّطان. لو أنك طلبتَ منه كارمن، لباعك إياها مقابلَ قرشٍ واحد. لم نعدْسوى اثنين الآن، فماذا نفعلُ غدًا؟

فأجبته:

ـ دعني أتصرّف وحدي؛ فأنا الآن أسخرُ من العالم كلّه.

دفنّا غارسيا، وذهبنا لنقيم مخيّمنا على بُعد مئتي خطوة. وفي اليوم التالي، مرّت كارمن ورجُلها الإنكليزي برفقة بغّالين اثنين وخادم، فقلت للدنكايير:

- أتكفّل أنا بالإنكليزي، وقم أنت بتخويف الآخرين، فهم ليسوا مسلّحين.

وكان الانكليزي جسوراً، ولو لم تدفع كارمن يده لقتلني. باختصار، استعدت كارمن في ذلك اليوم. وكانت أول كلمة قلتها لها إنها قد أصبحت أرملةً، وعندما عرفت كيف جرى ذلك الأمر قالت لي:

- ستظل أحمق دوماً. وكان ينبغي لغارسيا أن يقتلك، فوضعيّة الاحتراس النافارية التي تتّخذها ما هي سوى حماقة. ولقد وضَع غارسيا في ظلمة القبر رجالاً أكثر مهارة منك. إنما قد حان أجلُه، وسيأتي أجلُك.

وأجبت:

- وأجلك، إذا لم تصبحي لي زوجة حقيقية[1].

فقالت:

- حمداً لله. فقد رأيتُ أكثر من مرّة في ثفل القهوة أنّه مقدّرٌ لنا أن ننتهي معاً. باه!

وطقطقت بصنّاجاتها، وهذا ما كانت تفعلهُ عندما تريدُ أن تتخلّص من فكرةٍ تضايقها.

إن المرء ينسى ذاته، عندما يتحدَّثُ عن نفسه، فكلٌّ هذه التفاصيل تشعرك بالضجر بلا شك، ولكني قد انتهيت منذ قليل. فالحياةُ التي عشناها قد دامت طويلاً إلى حدٍّ كاف. وقد اشتركنا، الدنكايير وأنا مع عددٍ من الرفاق الموثوقين أكثر من سابقيهم، وأخذنا نهتمّ بالتهريب، كما أننا كنا، في بعض الأحيان، ولابدّ من الاعتراف بذلك حقّاً، كنّا نتوقّف في طريق المسافرين. إنما في الطّرف الآخر منها،

---

(١) "LILLIPENDI" بلغة الغجر (م: ز.ع)

عندما لم يكن بمقدورنا أن نفعل سوى ذلك. زدْ على هذا أننا لم نكن نُسيء معاملة المسافرين. وكنا نكتفي بأن نأخذ نقودهم. وخلال بضعة أشهر، كنت مسروراً من كارمن.

فقد استمرّت تفيدنا في عملياتنا، وتُعلمنا بالعمليات الجيدة التي يمكننا القيام بها. كانت تقيمُ في مالاغا، أو في قرطبة، أو في غرناطة. غير أنها كانت تترك كُلَّ شيء عند سماعها لكلمةٍ مني، وتأتي لرؤيتي في بيتٍ منعزل، وحتى في المعسكر. وفي إحدى المرات فقط، وكان ذلك في مالاغا، أقلقتني بعض الشيء؛ فقد علمت أنها قد وقع اختيارها على تاجرٍ شديد الثّراء، ومن المحتمل أنها كانت تخطّط لتكرّر مُزاحة جبل طارق. وبرغم كلّ ما استطاع الدنكايير أن يقوله لي ليوقفني، فقد سافرتُ، ودخلت إلى مالاغا في عزّ النهار، وبحثت عن كارمن، واصطحبتُها معي في الحال، وحصل بيننا نقاشٌ عنيف، فقالت كارمن لي:

- أتدري أنه منذ أصبحت زوجي جديًّا، صرت أحبّك أقل من حبّي لك، حين كنتَ عشيقي؟

فأنا لا أريدُ أن أعذَّب، ولا أن أؤمر خصوصًا. إن ما أريده هو أن أكون حرّةً في أن أصنع ما يروقُ لي. فاحذر من دفعي إلى النّهاية. وإذا ما ضايقتني. أجدُ لك فتًى طيّبًا يصنع لك ما صنعته للأعور.

أصلح الدنّكايير ما كان بيننا؛ غير أن كلاًّ منا قد قال للآخر أموراً بقيت آثارها في قلوبنا، ولم نعدْ كما كنّا في السّابق. وبعد قليل، حلّت بنا مصيبةٌ؛ فقد باغتتنا جماعةٌ من الجنود، وقُتل الدنّكايير واثنان من رفاقي، وقُبض على اثنين آخرين. أما أنا، فقد جُرحت جُرحًا بليغًا، ولولا حصاني الجيّد، لبقيت بين أيدي الجنود. لقد أرهقني التّعب، وأصبت برصاصةٍ في جسمي، فذهبت لأختبئ في حرشٍ مع الرفيق الوحيد الذي بقي لي. لقد أغمي علي وأنا أنزل عن الجواد. وظننتُ أني سوف أقضي بين شجيرات العلّيق مثل أرنب برّي أُصيبَ بالرّصاص، فحملني رفيقي إلى

مغارة، كنا نعرفها. ثم ذهب ليأتي بكارمن التي كانت في غرناطة، فهرعت إليّ سريعًا. وخلال خمسة عشر يومًا، لم تتركني لحظةً واحدة، ولم تغفُ. كانت تُعنى بي بمهارةٍ واهتمامٍ لم تعرْه امرأةٌ قطّ لأكثر رجلٍ تحبّه. وما إن أصبحت قادراً على الوقوف على ساقي، حتى أخذتني إلى غرناطة، في جوٍّ من السرّيّة الشديدة؛ فالغجريات يجدن في كلّ مكانٍ مخابئ مأمونة، فأمضيت أكثر من ستة أسابيع، في أحد المنازل. وعلى مسافة بابين من منزل قاضي المدينة الذي كان يبحث عني. وكنت أراه يمرّ أكثر من مرّة حيث كنتُ أنظر من خلف إحدى الستّائر. وأخيراً، تعافيت، ولكني كنت قد أمعنتُ التفكير كثيراً، وأنا على سرير آلامي. وكنت أعتزم أن أغيّر حياتي، وتكلّمت مع كارمن، مقترحاً مغادرة إسبانيا، والبحث عن العيش بنزاهةٍ في العالم الجديد(1)، فسخرت مني، وقالت:

لسنا مؤهَّلين لزراعة الملفوف؛ فمصيرنا المحدّد لنا هو أن نعيش على حساب الفلاحين. هيا، لقد رتّبتُ عمليةً مع ناثان بن جوزيف من جبل طارق؛ فلديه أقمشةٌ قطنيةٌ لا تنتظرُ سواك كي تمرّ. إنه يعلمُ أنك حيّ، ويعتمد عليك. فما يقولُ مراسلونا في جبل طارق إذا نكثت بوعدك لهم؟ وتركت نفسي أنزلق، وعدت لمزاولة تجارتي القبيحة.

وفيما كنت مختبئًا في غرناطة، أجريتْ سباقات للثيران ذهبت كارمن إليها. وبالمقابل، فقد تَحدثّت كثيراً عن مهيّج الثيران (بيكادور)(2) ماهر جداً اسمه لوكاس. وكانت تعرفُ اسم حصانه. وكم كانت تكلّفه سترته المطرّزة، ولم أنتبه لذلك. أما جوانيتو الرفيق الذي بقي لي، فقد قال، بعد بضعة أيام، إنه قد رأى كارمن مع لوكاس، عند تاجرٍ من زاكاتين. وقد بدأ ذلك يقلقني، فسألت كارمن لماذا وكيف تعرفت إلى البيكادور.

---

(1) تسميةٌ قديمة للقارّة الأمريكية التي كانت قد اكتشفت حديثًا (م: ز.ع).

(2) هو فارس يهيّج الثيران المعدّة للمصارعة في الحلبة بواسطة رمحه. (م :ز.ع).

فقالت لي: - إنه فتى يمكن أن تقوم وإياه بعملية ما؛ فالوادي الذي يُحدث ضجّة يحتوي ماءً أو حصى[1]؛ فقد كسب ألف ومئتي ريال في السّباقات. وهناك أحدُ أمرين؛ فإما ينبغي أن تحصل على هذا المال، أو يمكننا أن ندخله في عصبتنا. بما أنه خيّال جيد، وفتى مقدام. لقد مات هذا وذاك وأنت بحاجة لتستبدل بهما آخرين، فخذه معك.

فأجبت:

- لا أريد ماله ولا شخصه، وأمنعك من الكلام معه.

فقالت لي:

احترس، عندما يتحدّونني بأن أفعل أمراً، يصبحُ هذا الأمر في الحال مفعولاً!.

وذهب البيكادور لحسن الحظ إلى ما لاغا. أمّا أنا، فقد تهيأت لإدخال ملبوسات قطنية، وأخذت تلك الحملة على عاتقي، وكذلك كارمن، ونسيت لوكاس، ولعلّها قد نسيته هي أيضاً، في تلك المدّة على الأقل. وفي ذلك الوقت، إنّما التقيتك يا سيدي. في البداية، على مقربةٍ من مونتيلاّ. ثم بعد قرطبة. ولن أتكلّم عن آخر لقاء لنا. فأنت تعرفُ عنه ربّما أكثر مما أعرفُ. وقد سرقت كارمن ساعتَك، وكانت تريدُ أيضاً نقودك، وخصوصاً ذلك الخاتم الذي أراه في إصبعك، والذي هو، كما تقول كارمن، حلقةٌ سحريةٌ كان يهمّها كثيراً أن تمتلكه.

وقد حصلت بيننا مشاحنة عنيفة، فضربتها، فشحبُ لونها، وبكت. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي أراها فيها تبكي. وقد أثّر علي ذلك تأثيراً رهيباً، فسألتها أن تغفر لي، ولكنها حردت مني طيلة يومٍ كامل. وعندما ذهبت ثانية إلى مونتيلا لم تشأ أن تقبّلني. وكنت مغتماً عندما أتت لتلتقي بي، بعد ثلاثة أيام، وهي

(١) مثلٌ غجري: LEN SOS SONSI ABELA
PANI O REBLENDANI TERELA

ضاحكةٌ ومرحةٌ مثل طائر البرقش[1]، نسينا كلّ شيء، وبدونا مثل عاشقين ليومين اثنين. وفي لحظة افتراقنا، قالت لي:

هناك عيدٌ في قرطبة، ولسوف أشاهده، ثم أعرفُ من هم الناسُ الذين سيذهبون إليه مع نقودهم، وسأعلمك بذلك.

تركتها تذهب، وحين أصبحتُ وحدي، فكّرت بذلك العهد، وبذلك التبدّل في مزاج كارمن، وقلت في نفسي: لابدّ أنها قد ثأرت لنفسها مني، لأنّها هي التي رجعت أولاً. وقال لي فلاّحٌ بأن في قرطبة ثيرانًا للمصارعة. فأخذ دمي يغلي، فانطلقتُ مثل مجنون، وذهبت إلى السّاحة، فدلّوني على لوكاس. وتعرّفت كارمن التي كانت جالسةً على مقعد، عند الحاجز، وكان كافيًا بالنسبة لي أن أراها لأتأكّد من الخبر الذي أتاني. أما لوكاس، فقد كظم غيظه، عند الثّور الأول، كما كنت قد توقّعت، وقد نزع شارة[2] الثور، وحملها إلى كارمن التي اعتمرت بها فوراً. وتكفّل الثور بالثأر لي؛ فقد قَلَبَ لوكاس وجواده على صدرهما والثور فوقهما. ونظرتُ إلى كارمن؛ فلم تعد جالسةً في مكانها. وكان من المستحيل بالنسبة لي أن أخرج من المكان الذي كنت فيه، واضطررت إلى انتظار نهاية السّباقات. حينذاك، ذهبت إلى المنزل الذي تعرفه، ومكثت فيه مطرقًا طيلة المساء، وجزءاً من الليل. ورجعت كارمن حوالي السّاعة الثانية صباحًا. وكانت مدهوشةً قليلاً من رؤيتها لي.

فقلت لها: تعالي معي.

فقالت: حسنًا، فلنذهب!.

وذهبت لآخذ حصاني، وأردفتُها ورائي، وسرنا لما تبقّى من الليل من غير أن يقول أحدُنا للآخر كلمةً واحدة. وتوقّفنا عند طلوع النّهار في نزلٍ منعزل، وعلى مقربةٍ من منسكٍ صغير، وهناك قلت لكارمن:

---

(١) طائر مغرّد ذو ريش أزرق وأخضر، ومقطّع بالأسود. (م: ز.ع).

(٢) LADIVISA: هي عقدة شرائط يدلُّ لونها على المراعي التي تأتي منها الثيران، وتكون مثبتةً في جلد الثور بواسطة كلاّب صغير، ويعدّ قمة التظرّف أمام النساء أن تُنتزع من الحيوان الحيّ كي تقدّم إلى امرأة.

ـ اسمعي، إني أنسى كلّ شيء، ولن أكلّمك عن شيء، ولكن أقسمي لي بأمرٍ واحد، وهو أن تتبعيني إلى أمريكا، وأن تبقي هادئة فيها.

فقالت بلهجة مستاءة:

ـ كلاّ، لا أريد أن أذهب إلى أمريكا، وأجد نفسي مرتاحةً هنا.

ـ هذا لأنك بقرب لوكاس، ولكن فكّري بالأمر جيداً. إن يشفَ، فلن يعيش طويلاً، وفضلاً عن ذلك، لماذا أهتمّ به. لقد تعبت من قتل كلّ عشّاقك. وأنت التي سأقتلها. فحدّقت بي بنظرتها المتوحشة، وقالت لي: طالما فكرتُ بأنك سوف تقتلني. وفي المرّة الأولى التي رأيتُك فيها، كنت قد التقيت منذ قليلٍ كاهنًا عند باب المنزل. وهذه الليلة، وأنا خارجةٌ من قرطبة. ألم ترَ شيئًا؟ لقد اجتاز الطريق أرنب بريّ بين قوائم جوادك. إن هذامكتوب.

فسألتها:

ـ يا كارمنسيتا، هل كففتِ عن حبّي؟

فلم تجب. وكانت جالسةً وساقاها متصالبتان على حصيرة، وترسمُ خطوطًا بإصبعها على الأرض.

وقلتُ لها بلهجةٍ متوسّلة:

ـ لنغيّر حياتنا يا كارمن، ولنذهب لنعيش في مكانٍ لانفترق فيه أبدًا. وأنت تعلمين أن لدينا، تحت سنديانةٍ، وليس بعيداً عن هذا المكان، مئة وعشرون أونسة مدفونة في الأرض. . . ثم أن لدينا أيضًا رصيداً عند اليهودي بن جوزيف.

فأخذت تبتسم، وقالت لي:

ـ أنا أولاً، وأنت بعد ذلك. اعلم جيداً أن الأمر يجبُ أن يحدث على هذا النحو.

فاستأنفتُ قائلاً:

ـ فكري، لقد كاد صبري ينفدُ. وشجاعتي، فاتخذي قرارك، وأتّخذ قراري. وتركتها، وذهبت لأتجوّل من جهة المنسك، فوجدت الناسكَ الذي كان يصلّي، وانتظرت حتى تنتهي صلاته، وكنت أريد حقًّا أن أصلّي، ولكني لم أستطع. وعندما نهض ذهبت إليه، وقلت له:

يا أبتِ هل تريد أن تصلي من أجل إنسانٍ في خطرٍ عظيم؟

فقال:

أنا أصلّي من أجل جميع المكروبين.

ـ هل يمكنك أن تقيم قدّاسًا من أجل نفسٍ قد تمثُلُ أمام خالقها؟

فأجاب وهو يحدّق بي:

أجل.

وبما أنه كان ثمة شيء غريب في هيئتي؛ فقد أراد أن يجعلني أتكلّم:

ـ يبدو لي أنّي قد رأيتك.

ووضعت قرشًا على مقعده:

ـ وسألته:

متى ستقيم القدّاس؟

ـ بعد نصف ساعة. ولسوف يأتي ابنُ صاحبِ النّزل ليخدمه. فقل لي، أيها الشاب، أليس هناك أمرٌ يعذّب ضميرك؟ وهل تريدُ أن تصغي لنصائح مسيحيّ؟

كنت أحسّ أني على وشك البكاء. وقلت له إني سأرجع، وهربتُ، وذهبت لأنام على العشب، إلى أن أسمعَ الجرس. اقتربت حينذاك، ولكني بقيت خارج المصلّى.

وما إن أقيمَ القدّاس حتى عدت إلى النّزل، وكنتُ آمل أن تكون كارمن قد هربت وكان يمكن لها أن تأخذ حصاني، وتهرب . . . ولكني وجدتُها هناك.

لم تكن تريدُ أن يقال إني أخفتها، وأثناء غيابي كانت قد حلّت هدبَ فستانها لتُخرج منه الرّصاص. وكانت آنذاك أمام منضدة، وتنظر داخل طنجرةٍ خزفيةٍ ملأى بالماء إلى الرّصاصة التي أذابتها، والتي رمتها في تلك الطنجرة. وكانت منهمكةً في سحرها بحيث لم تلاحظ عودتي في البدء. وحينًا كانت تمسكُ قطعة رصاص، وتديرُها في كافّة الاتجاهات، والحزنُ بادٍ عليها، وحينًا تغنّي إحدى تلك الأغنيات السّحرية التي تتضرّع فيها لماري باديلاّ، عشيقة دون بيدرو، والتي كانت، كما يُقال الـ BARI GRALLISA أو ملكة الغجر العظيمة[1].

وقلت لها:

يا كارمن، هل تريدين أن تأتي معي؟

فنهضت، ورمت طاستها، ووضعت خمارها على رأسها، وكأنّها مستعدّة للرحيل، وأتوني بحصاني، فصعدت خلفي وابتعدنا.

وقلتُ لها، بعد أن قطعنا مسافةً من الطريق:

وهكذا، ياعزيزتي كارمن، فأنت تريدين أن تتبعيني حقًّا، أليس كذلك؟

ـ أتبعك إلى الموت، أجل، ولكن لن أعيش معك بعد الآن.

كنا في مضيقٍ صخري منعزل، فأوقفتُ جوادي، وقالت:

ههنا؟

---

(١) لقد اتُّهمت ماري باديلاّ بأنها قد سحرت الملك دون بيدرو، وثمة تقليد شعبيّ يروي أنها كانت قد أهدت الملكة بلانش دوبوربون حزامًا ذهبيًا، ولكنه بدا في عيني الملك المسحورتين وكأنه أفعى حية. وهذاهو مصدرُ النّفور الذي طالما أبداه الملك تجاه الأميرة التعسة.

وقفزت، فصارت على الأرض، فنزعت خمارها، ورمته عند قدميها، ولبثت بلاحراك، وقبضتها على وركها، وهي تحدّق بي، وقالت:

أتريد أن تقتلني. إني أرى ذلك جيداً. هذا مكتوبٌ ولكنك لن تجعلني أتراجع.

فقلت لها:

أرجوك أن تكوني عاقلةً. اصغي إليّ! لقد نُسي الماضي برمّته. ومن أجلك، إنما أصبحت سارقًا وقاتلاً. يا كارمن، ياعزيزتي! دعيني أنقذْك، وأُنقذ نفسي معك.

فأجابت:

ـ يا جوزيه. أنت تطلبُ مني المستحيل. لم أعدْ أحبك. أما أنت، فمازلت تحبّني، ولهذا، فأنت تريدُ قتلي. ويمكنني أن أكذب عليك أيضًا، غير أنّي لن أكلّف نفسي ذلك العناء لقد انتهى كلُّ شيء بيننا. ولكن يحقُّ لك، بكونك زوجي، أن تقتل زوجتك. إلا أن كارمن ستكون حرّةً على الدّوام، لقد ولدتُ CALLI [1] وستموت CALLI.

فسألتها:

أنت تحبين لوكاس إذن.

ـ أجل، لقد أحببته كما أحببتك، للحظة من الزمن، وربّما أقلّ منك. أما الآن، فلم أعد أحبُّ شيئًا، وأكره نفسي لأني أحببتك.

وارتميت على قدميها، وأمسكت بيديها، وبللتهما بدموعي. وذكّرتها بكلّ لحظات السّعادة التي أمضيناها معًا. وعرضتُ عليها أن أظلّ قاطع طريق كي أرضيهاَ. كلّ شيء، يا سيّدي، كلّ شيء. لقد عرضتُ عليها كلّ شيء، بشرط أن توافق على أن تحبّني من جديد.

---

(١) CALLI = حرّة، بلغة الغجر. (م: ز.ع).

فقالت لي:

أن أحبَّك من جديد، هذا غير ممكن. أما أن أعيش معك، **فهذا ما لا أريده.**

وتملكني غضبٌ مسعور، فسحبت سكيني. وكنت أريد أن تخاف، وأن تسألني العفو عنها، غير أن تلك المرأة كانت شيطانًا.

وصحت:

ـ للمرّة الأخيرة، هل تريدين أن تبقي معي؟.

فقالت وهي تخبط بقدمها:

ـ كلاّ، وكلاّ، وكلاّ.

وأخرجت من إصبعها خاتمًا كنت قد أعطيتُها إياه، ورمته بين شُجيرات العلّيق.

فطعنتُها مرتين. وكانت سكينُ الأعمى هي التي استخدمتها، بعد أن كسرتُ سكيني، فسقطت عند الطعنة الثانية، من دون أن تصرخ، ويخيّل إليّ أني لا أزال أرى عينها الكبيرة السّوداء وهي تحدّق بي. ثم غدت عكرةً، وانغلقت. ومكثتُ متلاشيًا لأكثر من ساعة أمام تلك الجثّة. ثم تذكّرت أن كارمن غالبًا ما كانت تقول لي، إنها تحبّ أن تُدفن في غابة فحفرت لها حفرةً بسكيني ووضعتها فيها. وبحثت طويلاً عن خاتمها، ووجدته في النّهاية، ووضعته في الحفرة إلى جانبها، مع صليبٍ صغير. وربما أكون قد أخطأت، وبعد ذلك، امتطيت جوادي، وسرتُ عدواً حتى قرطبة. وعرّفت بنفسي عند أول جماعة للحرس، وقلت إني قد قتلت كارمن، ولكني لم أشأ أن أقول أين جثمانها. وكان الناسك رجلاً قدّيسًا فصلى من أجلها، وأقام قدّاسًا لراحة نفسها ـ يا للصبيّة المسكينة! إن السّود[1] هم المذنبون، لأنهم قد ربّوها على هذا النحو.

---

(١) السّود: هم الغجر (م: ز ـ ع).

إن إسبانيا هي إحدى البلدان التي لايزال يقيمُ فيها اليوم أكبرُ عددٍ ممكن من أولئك الجوّالين المنتشرين في أوروبا بكاملها والذين يعرفون بتسميات: Bohemiens[1] أو Gitanos أو Gypsies أو Zigeuner إلخ . . . . إن معظمهم يقيمون في إسبانيا، أو يعيشون، على الأصحّ، حياةً مترحّلةً في مقاطعات الجنوب والشّرق، وفي الأندلس، وفي استرامادور، في مملكة مورسي. وهناك الكثير منهم في كاتالونيا. وهؤلاء الأخيرون غالبًا ما ينتقلون إلى فرنسا. ونصادف أعداداً منهم في كلّ معارض الجنوب الفرنسي؛ فالرّجال يمارسون عادةً مهنة سمسار لبيع الخيول، وبيطريّ، وقصّاص بغال، ويجمعون إليها صناعةَ إصلاح المواقد، والأدوات النحاسية، هذا عدا التهريب، ومزاولة الأعمال غير المشروعة. إن نساءهم يكشفن الحظّ، ويتسوّلن، ويبعن كلّ أنواع العقاقير البريئة وغير البريئة.

إن الصفّات الجسدية للغجر يسهلُ تمييزها أكثر مما يسهل وصفُها. وحين يشاهدُ المرء واحداً منهم، يمكنه أن يتعرّف فرداً من هذا الجنس من بين ألفِ فرد. إن ملامح الوجه، وتعابيره، تلك هي الأمور التي تفرّق بينهم وبين الشعوب التي تقطنُ البلَد نفسه. إن لونَ بشرتهم شديد السّمرة، وهو لونٌ غامقٌ أكثر دومًا من لون السكان الذين يعيشون بين ظهرانيهم.

ومن هنا تأتي تسمية Calés أي السّود الذين يتميّزون عنهم غالبًا[2]. إن عيونهم مائلةٌ بصورةٍ ملحوظة، ومشقوقة جيداً، وشديدة السّواد، وتحميها أجفانٌ طويلةٌ، وسميكة، ولايمكن أن تقرن نظرتُهم إلاّ بنظرة حيوانٍ متوحّش. وترتسم فيها الجسارة والحياء في آن واحد.

---

(١) تسميات تؤول جميعها إلى التسمية المعروفة عمومًا: «الغجر» (م: ز.ع).

(٢) لقد بدا لي أن الغجر الألمان لايحبّون أن يطلق الناسُ عليهم هذه التسمية، مع أنهم يفهمون فهمًا تامًا معنى كلمة (السّود)، بل يتنادون بتسمية بـ: روماني ـ تشاڤي ـ.

وتحت هذه العلاقة، تكشف عيونهم بصورة حسنة عن صفات أمّتهم الماكرة، والجسورة، والتي تخشى الضّربات بطبعها مثل بانورج[1]. أما الرِّجال، في معظمهم، فهم مشيقو القامة، رشيقون، خفيفو الحركة. ولا أظنّ أني قد رأيتُ يومًا واحدًا منهم مثقلاً بالبدانة. أما في ألمانيا، فالغجريّات غالبًا ما يكنّ في غاية الملاحة. والجمالُ نادرٌ جدًا بين غجريات إسبانيا gitanas). فحين يكنّ في عزّ الصّبا، يمكن عدّهن قبيحات مقبولات، ولكن ما إن يصبحن أمّهات، حتى يصرن منفّرات. إن قذارة جنسيّ الغجر مذهلةٌ، ومن لم ير شعر امرأةٍ غجريةٍ مُسنة، فلسوف يصعب عليه تكوينُ فكرةٍ عن ذلك، حتى إذا ما تخيّل شعر ذيل الخيل الأكثر قسوةً، والأشدّ إشباعًا بالدّهون، والأكثر تلوثًا بالغبار. وفي بعض المدن الأندلسية الكبيرة، ثمة عددٌ من الفتيات، المقبولات أكثر من الأخريات بقليل، يُعنين بشخصيّتهن أكثر، ويذهبن ليرقصن مقابل المال، ويؤدين رقصاتٍ تشبه كثيراً الرقصات التي تكون ممنوعةً في حفلات الرّقص العامة، في مهرجان المساخر. إن السيّد بورو، وهو أحد رجال الإرساليات الإنكليزية، ومؤلّف كتابين مثيرين للاهتمام عن غجر إسبانيا الذين كان قد بدأ يهديهم على نفقة الجمعية التوراتية، يؤكّدُ أنه أمرٌ لا مثيل له أن يكون لغجريةٍ ميلٌ نحو رجلٍ غريبٍ عن بني قومها، ويبدو لي أن ثمةَ مبالغة كبيرة في المدائح التي يكيلُها لعفّتهن؛ فالعدد الأكبر منهن هو في الحالة التي يصفُ بها أوڤيد قبيحته: Casta Quamnemo Rogavit[2]. أما المليحات منهن، مثل كلّ الإسبانيات، صعباتٌ في اختيار عشاقهن، فلا بدّ من إرضائهن، ويجب على الرّجل أن يستحقّهن. إن السيّد بورو يوردُ كدليلٍ على فضيلتهن، مأثرةً ترفع من شأن فضيلته، وخصوصًا من شأن سذاجته. فقال: إن رجلاً لا أخلاقيًا من معارفه قد عرضَ عدّة أونسات من الذّهب على غجريةٍ حسناء، ولكن دون جدوى. وقد زعم أندلسيٌّ رويت له هذه الحكاية أن ذلك الرّجل

(١) شخصية أساسية في كتاب «بانتاغرويل» لرابليه. (م: ز.ع)

(٢) أي: «عفيفةٌ هي تلك التي لم يطلبْها أحد قط» أوڤيد، غراميات، المجلد الأول، الفصل: ٨، الصفحة: ٤٣.

اللاأخلاقي كان يمكن أن يُحرز نجاحًا أكبر لو أنه عرض قرشين أو ثلاث قروش، وأن عرض أونسات من الذّهب على غجرية هو وسيلة إقناع رديئة مثل تقديم وعدٍ بمليون أو مليونين لإحدى فتيات النّزل.

ـ ومهما يكن من أمر؛ فمن المؤكّد أن الغجريات يُبدين نحو أزواجهن إخلاصًا فائقًا للعادة؛ فما من خطر، ولا أوقات شقاء لايجابهنها من أجل نجدتهم في أوقات حاجتهم. إن أحدَ الأسماء التي يطلقها الغجر على أنفسهم ROMÉ أو الأزواج يبدو له أنّه يؤكّد احترام هؤلاء القوم لحالة الزّواج. ويمكن القولُ بصورةٍ عامّةٍ إن فضيلتهم الرئيسة هي حبُّ الوطن، إذا أمكننا أن نطلق هذه التسمية على الوفاء الذي يراعونه في علاقاتهم مع الأفراد الذين هم من منبتهم نفسه، وعلى إسراعهم إلى التعاون فيما بينهم، وعلى السرّ المصون الذي يحتفظون به في القضايا المنذرة بالخطر، وفضلاً عن ذلك؛ فإننا نلاحظ أمراً شبيهاً بهذا، في كلّ الجمعيات المحاطة بالأسرار، والتي تخرجُ على القوانين.

لقد زرت، منذ بضعة أشهر، عشيرةً مترحّلة من الغجر تقيمُ في جبال القوج. وقد كان في كوخ امرأةٍ عجوز، هي كبيرةُ القبيلة سنًا كان هناك رجلٌ غريب عن عائلته، ومصابٌ بمرضٍ مميت. وكان ذلك الرّجل قد غادر مشفى يتلقّى فيه عنايةً جيدةً ليذهب كي يموت بين أبناء وطنه. إنه يلازمُ السّرير في منزل مضيفيه منذ ثلاثة عشر أسبوعًا، ويُعامل معاملةً هي أفضل من المعاملة التي يتلقّاها الأبناءُ والأصهار الذين يعيشون في المنزل نفسه. كان له سريرٌ جيدٌ من القشّ والطّحالب، وأغطيةٌ بيضاء إلى حدّ كاف، فيما كانت بقيّة الأسرة التي عددُها أحد عشر شخصًا، تنامُ على ألواحٍ خشبية طولُها ثلاثة أقدام. هذا ما يتعلّق بضيافتهم، والمرأة نفسها التي ترأف كثيراً بزائرها، كانت تقولُ لي أمام المريض: Singo, Singo,Hom Te Hemulo أي: بعد قليل من الوقت، لابدّ أن يموت. إن حياةَ هؤلاء الناس، بعد كلّ حساب، بائسة إلى درجةٍ كبيرة بحيث أن إعلان الموت لايحمل شيئًا مرعبًا بالنسبة إليهم.

وثمة سمةٌ جديرة بالملاحظة عن طباع الغجر، وهي عدمُ اكترائهم بمسألة الدين، وليس هذا لأنّهم واسعو الأفق، أو شكّاكون؛ فلم يجاهروا قطّ بالإلحاد. وبعكس هذا، فإن دينَ البلد الذين يقطنونه هو دينهم. ولكنهم يغيّرونه حين يغيّرون وطَنَهم. أما الاعتقادات الباطلة التي تحلّ محلَّ المشاعر الدينية عند الشّعوب البدائية، فهي غريبةٌ عنهم أيضًا، وكذلك إمكانية كون المعتقدات الباطلة موجودة، في الواقع، عند الناس الذين يعيشون، في معظم الأحيان من سرعة تصديق الآخرين. ومع هذا، فقد لاحظتُ عند الغجر الإسبان رُعبًا فريداً من ملامسة جثّة. وقليلون منهم هم الذين يقبلون لقاء المال أن يحملوا ميتًا إلى المقبرة. قلت إنّ معظم الغجريات يتعاطين كشفَ الحظّ، وهن يقمن بهذا بصورةٍ جيدة، غير أن الذي يشكّل، بالنسبة إليهم، مصدراً للأرباح الكبيرة، هو بيعُ شراباتِ السّحر، وشرابات المحبّة. فهن لا يمسكن قوائم الضفادع الصغيرة كي يثبتن القلوب الفرفارة ولا يأخذن مسحوق حجر المغناطيس كي يجعلن باردي القلوب يحبّوننا فحسب، ولكنهن يقمن، عند الحاجة، بتعزيماتٍ مقتدرة تجبرُ الشيطان على تقديم المعونة لهن.

وقد روت لي امرأةٌ إسبانية في السنة الماضية القصة التالية: كانت مارةً ذات يوم في شارع الكالا، وهي حزينةٌ ومنشغلة؛ فصاحت بها غجريةٌ تجلسُ القرفصاء على الرصيف: «يا سيدتي الجميلة، لقد خانك عشيقك»، وكانت تلك هي الحقيقة. «فهل تريدين أن أعيده إليك؟». نحن ندركُ بأيّ سرورٍ قد قُبل هذا العرضُ، وماذا يفترض أن تكون الثقة التي أوحى بها شخصٌ يتكهن على ذلك النّحو، وبلمحة بصر، بأسرار القلب الحميمة. وبما أنه كان من المتعذّر القيامُ بعمليات سحرية في الشارع الأكثر ازدحامًا في مدريد، فقد تمّ الاتّفاق على موعدٍ لليوم التالي؛ «فلا شيء أسهلُ من إحضار عديم الوفاء إلى تحت قدميك». هكذا قالت الغجرية. «فهل لديك منديلٌ أو وشاحٌ، أو خمارٌ كان قد أعطاك إياه؟» فسلمتها خماراً للكتفين من الحريَر. «والآن خيطي بالحرير القرمزيّ اللون قرشًا في زاوية الخمار - وفي زاوية أخرى، خيطي نصفَ قرش، وهنا قطعة نقدية صغيرة، وهناك قطعة من ذات الرّيالَين، ثم ينبغي أن تخيطي في الوسط قطعةً ذهبية، ومن الأفضل

أن يكون ديناراً إسبانياً ذهبياً». فيخاطُ الدينارُ مع البقية. «أما الآن، فأعطني خمار الكتفين، فأحمله إلى كامبو ـ سانتو ـ عند منتصف الليل تماماً، فهل تأتين معي، إذا أردت مشاهدة سحرٍ جميل. وأعدك بأنك سترين ذلك الذي تحبّينه منذ الغد.
ومضت الغجرية بمفردها إلى كامبو ـ سانتو، لأن السيّدة كانت شديدة الخوف من الشياطين، بحيث لم تجرؤ على موافقتها. وإني أدعك تتفكّر فيما إذا كانت العشيقة المهجورة قد رأت منديل كتفيها، وحبيبها الخائن.

إن الغجر، برغم بؤسهم، وذلك النّوع من النُّفور الذي يوحون به، يتمتّعون إلى ذلك بتقديرٍ معين في أوساط الناس القليلي الثقافة والّذين يغترّون بهم كثيراً. إن الغجر يُحسّونَ أنهم جنسٌ متفوّق في ذكائه، ويحتقرون من كلّ قلوبهم الشّعب الذي يستضيفهم. وكانت غجريةٌ من القوج تقول لي: إن اللُّطفاء على درجة كبيرة من الغباء بحيث لا أجدُ أيّ فضلٍ في خداعهم. ففي أحد الأيام، نادتني فلاّحةٌ في الشارع، فدخلت إلى منزلها، وكانت مدفأتها تدخّن، فطلبت مني سحراً كي يجعلها تعمل. أما أنا، فقد جعلتُها في البداية تعطيني قطعةً جيدة من دهن الخنزير. ثم أخذتُ أتمتم ببعض الكلمات باللّغة الرّومانية: «وكنت أقول لها: أنت غبيّة، لقد ولدت غبية، وستموتين غبيّة.... »، وعندما صرتُ بقرب الباب، قلتَ لها باللغة الألمانية الجيّدة: «إن الوسيلة التي لا تخطئ لمنع مدفأتكَ من التدخين هي ألاّ توقدي فيها ناراً».

وأسرعت بالهرب.

إن تاريخ الغجر يعدّ مشكلةً أيضاً؛ فمن المعلوم، في حقيقة الأمر، أن عصاباتهم الأولى، القليلة العدد جداً، قد ظهرت في شرق أوروبا، حوالي بداية القرن الخامس عشر، غير أنه لايمكن أن تقول من أين أتوا، ولا لماذا وصلوا إلى أوروبا. والأمر الأكثر غرابة هو أننا نجهلُ كيف تكاثر عددهم في وقتٍ قليل، وبصورةٍ عجيبة، في بعض المناطق المتباعدة جداً بعضها عن البعض الآخر. إن الغجر، بحدّ ذاتهم، لم يحافظوا على أية روايةٍ حول أصلهم، ولئن كان معظمهم يتحدّث عن مصر، وكأنهم يتحدّثون عن موطنهم الأوليّ، فذلك لأنهم قد تبنّوا خرافة قد انتشرت قديماً جداً حولهم.

إن معظم المستشرقين الذين درسوا لغة الغجر يعتقدون أنهم من أصلٍ هندي. وفي الواقع، يبدو أن عدداً كبيراً من الجذور والأشكال النحويّة للرُّمانية موجودة في الاصطلاحات التعبيرية المشتقّة من السّنسكريتية، وندرك أن الغجر في ارتحالاتهم الطويلة، قد تبنّوا الكثير من الكلمات الأجنبية. وفي كافة اللهجات الرّمانية المحلية، نجدُ عدداً من الكلمات الإغريقية، من مثل (كوكال) أي عظم من: ZOZZaπor وبيتالي PETALI: حدوة حصان من: ΠEAROR و CAFi(كافي): مسمار: من Zapφr. واليوم يمتلك الغجر عدداً من اللّهجات المحلية المختلفة بقدر مالديهم من عشائر مترحّلة منفصلة، كلّ منها عن الأخرى. إنهم يتكلمون، في كل مكان لغة البلد الذي يسكنونه على نحوٍ أسهل مما يتكلمون لغتهم الخاصّة التي قلّما يستخدمونها إلاّ ليتمكّنوا من أن يتحادثوا بحريّةٍ أمام الغرباء. فإذا ماقارنّا لهجة الغجر المحلية في ألمانيا بلهجة الإسبان المحلية والذين لا تواصل فيما بينهم وبين الغجر لقرونٍ خلت، فإننا نتعرّف كميةً كبيرة جداً من الكلمات المشتركة. أما اللغةُ الأصلية في كلّ مكان، فقد تبدلت بصورةٍ ملحوظة، ولو بدرجات مختلفة، بسبب تماسّها مع لغاتٍ أكثر تهذيباً. وكان هؤلاء المترحّلون قد اضطروا إلى استخدامها، فالألمانية من جهةٍ، والإسبانية من جهةٍ أخرى قد بدّلتا أساس اللغة الرّمانية بحيث أصبح من المتعذر على غجريّ من الغابة السّوداء[1] أن يتحدّث مع أحد إخوته الأندلسيين مع أنه يكفيهما أن يتبادلا بعض الجمل كي يُقرا بأنهما يتكلّمان كلاهما لهجةً محليّةً مشتقة من اللغة نفسها. إن بعضَ الكلمات التي لها استخدامٌ شديد الشيوع مشتركة، كما أظنّ، بين كافة اللهجات المحلية. وهكذا، فقد استطعت أن أجد، في كافة المعاجم المختصرة أن: PANI(پاني) تعني: الماء، و MANRO(مانرو) تعني الخبز و Màs تعني اللّحم، و LON (لون) تعني: الملح.

أما تسميات الأعداد فهي تقريباً نفسها في كلّ مكان. إن اللّهجة الألمانية المحلية تبدولي أكثر صفاء من اللهجة المحلية الإسبانية، لأنها قد احتفظت بعددٍ

(١) الغابة السّوداء: سلسلة جبلية في ألمانيا تقابل جبال القوج الفرنسية (م: ز.ع).

من أشكالها النحويّة الأولية، فيما تبنى الغجر أشكال اللهجة القشتالية المحلية. ومع ذلك، تستثنى بعضُ الكلمات لتُثبت وحدة اللغة - إن الأفعال الماضية في اللّهجة الألمانية المحلية تتكوّن بإضافةI´UM على صيغة الأمر التي هي جذرُ الفعل دومًا. أما الأفعال في اللغة الرّمانية الإسبانية فتتصرّفُ جميعها حسبَ نموذج الأفعال القشتالية من التصريف الأول. فمن المصدرJAMAR : أكل، يجب أن نشتقّ حسب القاعدة JAMÉ أي: أكلتُ. ومن Lillor= أخذ، ينبغي أن نشتقّ: Lillé أي: أخذتُ. ومع ذلك، فإن بعض الغجر الشيوخ يقولون Jayon, Lillon، ولا أعرف أفعالاً أخرى قد احتفظت بهذا الشكل القديم.

وفيما استعرض على هذا النحو معارفي الهزلية في اللغة الرّمانية، ينبغي أن أذكر عدداً من الكلمات في العامية الفرنسية والتي استمدّها سارقونا من الغجر. إن كتاب «أسرار باريس» قد علّم الصّحبة الأنيسة أن CHOURIN تعني: سكّين، وهي من اللّغة الرّمانية الصّرفية، فكلمة: TCHOURi هي إحدى تلك الكلمات المشتركة بين كافّة اللهجات المحليّة. إن م. ڤيدوك يسمي: الحصان GrÉs وهذه كلمةٌ غجرية أيضًا: gris, greste,gré, gras أضف أيضًا كلمةROMANCHOL التي تعني في العامية الباريسية: الغجر هي تحريف ROMANE TCHAVE: الفتيان الغجر. ولكن اشتقاقًا أفخر به هو اشتقاق FRiMOUSSE: مُحيًا، وجه، هي كلمةٌ يستخدمها التلاميذ، أو كانوا يستخدمونها في زمني فلاحظوا أولاً أن أودان، في معجمه الغريب يكتب عام ١٦٤٠ : FiRliMOUSSE، وهكذا فإن FIRLA وFILA بالرّمانية تعني الوجه وMUNI لها الدلالة نفسها، وهي بالضبط، عند اللاتين «OS». أما التركيبFIRLAMUI، فقد فهمه غجريٌ صفائي[1] فوراً، وأظن أنها مطابقةٌ لعبقرية لغته.

هذا ما أعدّه كافيًا لإعطاء قارئ كارمن فكرةً مفيدةً عن دراساتي في الرُّمانية وإني أختم كلامي بهذا المثل الذي يأتي في الوقت المناسب: EN RETUDI PANDA NASTI ABELA MACHa الفم المغلق لا تدخل فيه ذبابةٌ أبدًا.

---

(١) صفائي: الذي يحافظ على صفاء اللغة. (م: ز.ع).

- ٣ -

رئيس الدّير أوبان

لافائدة من أن نقول كيف وقعت الرسائلُ التالية بين أيدينا؛ فقد بدت لنا مثيرةً للاهتمام، وأخلاقيةً، ومهذّبة للنفس، ونحن ننشرها من دون أيّ تغيير، ماعدا حذف بعض أسماء العلم، وبعض المقاطع التي لا تتّصل بمغامرة رئيس الدير أوبان.

الرّسالة الأولى

من السيّدة دو پ . . . إلى السيدة دو ج . . .

نوارموتييه . . . تشرين الثاني، ١٨٤٤ :

لقد وعدتُ أن أكتبَ إليك؛ ياعزيزتي صوفيا، وها أنا أفي بوعدي، وكذلك، فليس لدي أفضلُ من هذا الأمر، في هذه السّهرات الطويلة. كانت رسالتي الأخيرة تُعلمك كيف لاحظتُ في آنٍ واحد أني قد بلغت الثلاثين، وأني قد أفلستُ. وللأسف؛ فما من دواءٍ لأولى هاتين المصيبتين. أما للثانية منهما، فإننا نمتثل بصعوبة، ولكننا، في نهاية الأمر، نمتثل لها. وحتى نستعيد مصالحنا، لابدّ لنا من أن نمضي عامين على الأقل في القُصير الريفي الذي أكتبُ لك منه. لقد تساميتُ. فما إن عرفتُ حالتنا الماديّة، حتى اقترحتُ على هنري أن نذهبَ إلى الريف كي نقتصد. وبعد ثمانية أيام، كنّا في نوارموتييه ولن أقول لك شيئًا عن الرّحلة؛ فقد مرّت سنواتٌ طويلةٌ منذ أن ألفيت نفسي وحدي لمدّة طويلة إلى هذا الحدّ مع زوجي. وبطبيعة الحال. فقد كان مزاجنا كلانا سيئًا. ولكن كلّ شيء قد سار على مايرام لأني قد عزمتُ تمامًا على إظهار رباطة جأشٍ تامّة. أنت تعرفين قراراتي الكبيرة، وتعلمين أني كنت أتمسّك بها. وها نحن قد استقرينا. إن نوارموتييه، مثلاً، لاينقصها شيء من حيث موقعها الطّبيعي: غابات، وشواطئ صخرية، والبحر يبعدُ عنها ربع فرسخ. وعندنا أربعة أبراج ضخمة، سماكة جدرانها تصلُ إلى خمسة عشر قدمًا. وقد هيأت غرفة عملٍ في فتحة إحدى النوافذ. أما قاعةُ الاستقبال عندي فطولها ستّون قدمًا. وهي مزخرفة بورق للجدران «شخصياته ورسومه من الحيوانات»، إنه رائع حقًّا، وتضيئه ثماني شمعات؛ تلك هي إنارة الأحد. إني أموتُ خوفًا في كلّ مرةٍ أمرّ فيها بعد غروب الشمس. إن الأثاث سيئ حقًّا، كما

يمكن أن تفكّري بالفعل؛ فالأبواب لاتطبق، ونجارة البيت تطقطق، والريح تصفر، والبحرُ يزمجرُ على نحوٍ هو الأكثر كآبةً في العالم. ومع ذلك، فقد بدأت أعتاد على هذا. إني أرتّب، وأصلح، وأغرس، فقبل أن تأتي أوقاتُ البرد الشديدة، أكونُ قد أعددت لنفسي إقامة مؤقتة يمكن قبولها، ويمكنك أن تكوني متأكدةً من أن برجك سيكون جاهزاً في الربيع، فليتني أستطيع أن أستقبلك فيه، منذ الآن! إن ميزة نوارموتييه هي أنه ليس لدينا جيران، بل عزلةٌ كاملة. وأشكر الربَّ أنه ليس لديّ زوّار آخرون سوى كاهني رئيس الدير أوبان. إنه شابٌ لطيفٌ جداً، مع أن له حاجبين مقوّسين وكثيفين حقًّا، وعينين سوداوين كبيرتين مثل خائنٍ في ميلودراما[1]. وفي يوم الأحد الماضي، أسمعنا عظةً ليست شديدة السوّء قياساً إلى عظة ريفيّة. وقد أتت وكأنها موافقةٌ للحال، فقال فيها: «إن الشقاء نعمةُ من العناية الإلهية، من أجل تطهير نفوسنا». فليكن! وعلى هذا، فإننا ندينُ بالشكر لذلك الصرّاف النّزيه الذي قَبِل أن يطهّرنا، عندما استولى على كلّ ثروتنا. فوداعاً، ياصديقتي العزيزة؛ فقد وصل بياني مع الكثير من الصناديق، ولسوف أرى كيف سأرتّب كلّ هذه الأشياء.

تذييل: أعيدَ فتح رسالتي لأشكرك على إرساليّتك؛ فكل ما أرسلتيه جميلٌ بصورةٍ فائقة. وهو مفرطٌ في جماله بالنسبة لنوارموتييه. إن المعطفَ الرّماديّ يروق لي. وقد تعرّفتُ ذوقك فيه. ولسوف أرتديه نهارَ الأحد في القداس. ولربّما يمرّ وكيلٌ متجولٌ ليبدي إعجابه به. ولكن من تظنينني برواياتك؟ فأنا أريدُ أن أكون امرأةً رصينةً وأنا كذلك فعلاً». أليس عندي مبرراتٌ جيدة لهذا؟ أريد أن أثقّف نفسي. ولدى عودتي إلى باريس، بعد ثلاثة أعوام من الآن (سيكون عمري حينئذ ثلاثة وثلاثين عاماً. أيتها السّماء العادلة!)، أريد أن أصبح مثل فيلامنتا[2]. وأنا في الحقيقة، لا أعرف ماذا أطلبُ منك فيما يتعلّق بالكتب، فبماذا تنصحينني أن أتعلم؟ الألمانية أم اللاتينية؟ سيكون أمراً محبّباً بالنسبة لي أن أقرأ فيلهلم ميستر. في

(١) مسرحية عاطفية مؤثّرة، أو مشجاة. (م: ز.ع).

(٢) إحدى شخصيات «النساء العالمات» لموليير، وهي بورجوازية مولعة بالعلم والأدب... (م: ز.ع).

نصوصه الأصلية، أو حكايات هوفمان. إن نوارموتييه هي المكان الحقيقي لقراءة الحكايات العجيبة. ولكن كيف أتعلّم الألمانية في نوارموتييه؟ إن اللاتينية ربّما تروق لي بما فيه الكفاية، فأنا أجدُ من التّعسف أن يعرفها الرجالُ وحدهم، ولدي رغبةٌ في أن أتعلّمها على يد كاهني. . .

الرسالة الثّانية

من السيّدة ذاتها إلى السيّدةالثانية ذاتها

نوارموتييه . . . كانون الأول ١٨٤٤ .

مهما اعترتك الدهشةُ، فالزمن يمرُّ أسرع مما تظنين، وأسرع مما كان يمكن أن أظنّ، أنا نفسي. إن الذي يُساند خصوصاً شجاعتي، هو ضعف زوجي. فالرّجال، في الحقيقة، أدنى منّا قدرةً إلى حدٍّ كبير؛ فهو مصابٌ بوهنٍ، وبشعور بالإذلال يتجاوز الحدَّ المباح. إنه ينهضُ متأخراً إلى أبعد حدّ يستطيعه، ويمتطي جواده، أو يذهب إلى الصيّد، أو يزور أكثر الناس إثارةً للضّجر في الوَسط الراقي، من مثل موثّقي العقود، أو مفوّضي الملك، والذين يسكنون في المدينة. أي على بعد ستّة فراسخ من هنا. ولابدّ من رؤيته حين يسقط المطر! ها قد مرّت ثمانية أيّام منذ أن بدأ يقرأ كتاب: «آل موبرا»، ولايزال في المجلّد الأول منه، ومن الأفضل أن يمتدح المرءُ نفسه من أن يغتاب الآخرين». وهذا أحد الأمثال التي تقولينها. لذلك فإني أدعهُ يكلّمك عني. إن هواء الرّيف يفيدني فائدةً كبيرة، وأتمتع بصحة ممتازة. وعندما أنظرُ إلى نفسي في مرآتي (أيةُ مرآة) لا أعطي نفسي ثلاثين عاماً، ثمّ أني أتنزّه كثيراً. وبالأمس، بذلتُ جهداً كبيراً حتى أتى هنري معي إلى شاطئ البحر. وفيما كان يصطاد النوارس، قرأت: «نشيد القراصنة» في «الجياور»[1]! إن تلك الأبيات الشعريّة الجميلة تبدو، على السّاحل الرملي، وأمام بحرٍ متلاطم الأمواج، أكثر جمالاً أيضاً. إن بحرنا لايضاهي بحر اليونان، ولكن له شاعريته مثل كلّ البحار.

(١) قصيدة لبايرون. (م: ز.ع).

أتعلمين ماذا يؤثّر بي عند لورد بايرون؟ هو أنه يرى الطبيعة ويفهمها. إنه لايتكلّم على البحر، لأنه قد أكل سمك التّرس أو المحارات. لقد سافر في البحر، ورأى العواصف؛ فكلّ ماقدّمه من وصفٍ هو صورٌ طبق الأصل[1]. والقافية، في نظرِ شعرائنا، تأتي أولاً ثم الحسّ السّليم، إن كان ثمة مكان له في البيت الشعري. وفيما كنتُ أتجول، وأنا أقرأ، وأنظر، وأستحسن، فإن رئيس الدّير أوبان - ولا أدري إن كنت قد حدثتك عن رئيس الدّير عندنا، وهو خوري قريتي - قد أتى لينضم إلي. إنه خوريّ شاب يروق لي على نحوٍ كاف؛ فهو مثقّف، ويحسن الكلامَ على أمور معينة مع «الناس الشـرفـاء». زدْ على ذلك أني أرى، من خـلال عـينيـه الكبـيـرتين السّوداوين، ووجـهه الشّاحب والكئيب، أرى حقًّا أن له قصةً مثيرةً للاهتمام، وأطمحُ إلى أن يرويها لي. لقد تحدثنا عن البحر، والشّعر، والأمرُ الذي يفاجئك في خوري لنوارنوتييه أنه يتكلّم عنهما جيداً. ثم رافقني إلى خرائب ديرٍ قديمٍ، على ساحلٍ صخريّ، وأراني بوابةً عظيمةً قد نحتت عليها وحوشٌ كانوا يعبدونها. آه! كم كنت أتمنى لو كان لديّ مال، أن أقوم بإصلاح كلّ ما رأيته! وبعد ذلك، وبرغم ملاحظات هنري الذي كان يريدُ أن يذهب لتناول العشاء، أصررت على المرور ببيت كاهن الرعية، كي أرى مذخراً[2] مثيراً للاهتمام كان الخوري قد وجده في منزل أحدِ الفلاحين. إنه حقًّا على درجة عاليةٍ من الجمال: فهو صندوقٌ خزفيٌ من ليموجٍ مطليّ، ويمكن أن يصبح علبةً توضع فيها الحليّ. ولكن أيّ منزل، أيها الربُّ العظيم! ونحن الذين نعدّ أنفسنا فقراء! تصوّري غرفةً صغيرةً في القبو، مبلّطةً تبليطًا سيئًا، ومطليةً بالكلس، ومؤثّثةً بمنضدة، وأربع كراسي، إضافة إلى كرسيّ بذراعين من القش، ورُقاقة صغيرة هي وسادةٌ محشوةٌ بنُوى الدراق التي لا أعرف ماهي، ومغطاة بقماشٍ سميك مقطع إلى مربّعات بيضاء وحمراء. وعلى المنضدة، كانت هناك ثلاثة أو أربعة كتبٍ كبيرة من قياس نصفي[3]، باليونانية أو اللاتينية. إنها كتبٌ

---

(١) على طريقة تصوير داكيّر (طريقة خاصة في التصوير). (م: ز.ع).

(٢) صندوق يحتوي بقايا أجساد القدّيسين أو ذخائر دينية (م: ز.ع).

(٣) أي أن الورقة مطويّة مرّتين، فتشكّل أربع ورقات في كتاب أو ملزمة (م: ز.ع).

من تأليف آباء الكنيسة، وتحتها، ضبطتُ قصيدة «جوسلين»[1]، وكأنها مخبأةٌ هناك، فاحمرّ وجه الفلاح خجلاً. من جهة أخرى، فقد كان يحسنُ جيدًا الاستقبال في كوخه البائس. من غير كبرياء أو حياء زائف. ولقد شككت بأن له قصةً حالمة، ولديّ الآن إثباتٌ على ذلك؛ ففي الصّندوق البيزنطي الذي أرانا إياه، كان ثمة باقة ذابلة منذ خمسة أوستّة أعوام على الأقلّ.

وسألته:

وهل هذه ذخيرةٌ؟

فأجاب وقد اعتراه الاضطراب قليلاً:

كلاّ، لا أعلم كيف وصلت هذه إلى هنا.

ثم أخذ الباقة، وخبأها في منضدته بعنايةٍ فائقة. هل هذا واضحٌ؟... وقد عدت إلى القصر مفعمةً بالحزن والشّجاعة؛ بالحزن لأني قد رأيت فقرًا شديدًا، والشجاعة كي أحتمل فقري الذي يمكنُ أن يكونَ بالنسبة لذلك الرّجل ثراءً آسيويًا. لو أنك شاهدت دهشته، حين أعطاه هنري عشرين فرنكًا من أجل امرأةٍ أوصانا بها! ينبغي أن أقدّم له هدية. إن كرسيّ القش ذا الذراعين هذا والذي جلستُ عليه قاسٍ أكثر مما ينبغي. وأريد أن أعطيه هذه الكراسي ذات الذراعين، والمصنوعة من الحديد والتي يمكن أن تطوى مثل تلك الكرسي التي حملتها إلى إيطاليا. ستختارين لي كرسيًا مثلها وترسلينها إلي بأسرع وقت....

---

(١) قصيدة للامارتين هي «يوميّات شعرية لكاهن». وكان من المفروض أن تكون آخر قصيدةٍ في ملحمة هي: «سقوط ملاك». (م: ز.ع).

الرسالة الثالثة

من السيّدة نفسها إلى السيّدة الأخرى نفسها

نوارموتييه . . . شباط ١٨٤٥ .

إني أشعرُ بالضجر في نوارموتييه بالتأكيد. ومن ناحيةٍ أخرى؛ فقد وجدت عملاً مثيراً للاهتمام. وإني مدينةٌ به إلى رئيس الدّير عندنا؛ فرئيس ديرنا يعرفُ كلّ شيء، بالتأكيد، وعلم النبات، زيادةً على ذلك. وقد تذكّرت رسائل روسّو، حين سمعته يسمي باللاتينية بصلةً رديئة كنتُ قد وضعتها على موقدي، لعدم وجود ما هو أفضلُ منها.

ـ أنت تعرفُ علم النبات إذن؟

فأجاب:

بصورةٍ سيئة، وبما يكفي لأدلَّ الناس في هذه المنطقة على النباتات البسيطة الطبّية التي يمكن أن تُفيدهم. وبصورةٍ كافيةٍ خصوصاً، وينبغي الإقرار بذلك، كي أضفي بعضَ الفائدة على نزهاتي المتوحّدة.

لقد أدركت حالاً أنه سيكون أمراً مسلياً أن أقطف زهوراً جميلة في نزهاتي، وأن أجففّها، وأرتّبها بصورةٍ نظيفة في «طيّات كتاب بلوتارك[1] الذي امتلكه»

وقلت له: علّمني علم النبات.

وكان يريدُ أن ينتظر الربيع، فلم تكن ثمة زهورٌ في ذلك الفصل الرديء.

ولكني قلت له: ولكن لديك زهورٌ مجففة، فقد رأيتُ بعضاً منها في منزلك.

(١) بلوتارك: كاتب يوناني (٥٠ ـ ١٢٥م) سافر كثيراً، وكتب دراساتٍ عديدة، منها المؤلفات الأخلاقية التي غدت شعبيةً بفضل ترجمة «أميو» لها. (م: ز.ع).

أظن أني قد حدثتُك عن باقة قديمة محفوظة بعناية ـ لو أنك رأيت وجهَه! . . . يا له من منكودٍ مسكين! وقد ندمتُ سريعًا على تلميحي غير المتحفّظ .

وحتى أجعله ينساه، سارعتُ لأقول له إنه يتعيّن عليه أن يعدَّ مجموعةً للنباتات الجافّة .

وهذا ما يسمى «كتاب الأعشاب» فوافق على ذلك حالاً، وبدءاً من اليوم التالي . فقد جلبَ لي، ضمن صندوقٍ من الورق الرّمادي، العديد من النباتات الجميلة . وعلى كلٍّ واحدة منها بطاقةُ تسمية . لقد بدأ درسُ علم النبات، وأحرزت نجاحاتٍ مذهلةً في الحال، غير أن الشيء الذي لم أكن أعلمه هو لا أخلاقية علم النبات ذاك، وصعوبة الشروحات الأولى خصوصاً بالنسبة لكاهن .

ستعرفين، ياعزيزتي أن النباتات تتزاوج مثلنا، غير أن لمعظمها العديدَ من الأزواج؛ فنسمي الأولى منها : باديات الزّهر : "Phanérogames"، إذا كنتُ قد حفظتُ جيّداً هذا الاسم الأعجميّ . وهي كلمةٌ مأخوذةٌ من اليونانية، ومعناها : المتزاوجة علنًا، في دار البلدية . ومنها ما نسميه Cryptogames، أي المتزاوجة سراً؛ فالفطور التي تأكلينها تتزاوج سراً .

إن كلّ هذا فاضحٌ إلى حدّ كبير، غير أن الكاهن لا يتخلّص من الحرج بصورة جدّ سيئة ولكن على نحوٍ أفضل مني، فقد وصلت بي الحماقة أن أخذت أقهقه، مرّة أو مرتين، عند المقاطع الأكثر صعوبة . أما الآن، فقد غدوت حذرةً، ولم أعد أطرحُ أسئلة .

الرّسالة الرّابعة

من السيّدة نفسها . . . . إلى السيّدة الأخرى نفسها

نوارموتييه . . . شباط ، ١٨٤٥ .

أنت تريدين حتماً أن تعرفي قصّة تلك الباقة المحفوظة بعناية كبيرة ، ولكني لاأجرؤ في الواقع على أن أطلبَ منه ذلك ؛ فأولاً ، يبدو أكثر من محتملٍ ألاّ تكون هناك قصّةٌ في الأمر . ثم أنّه إذا ما كانت هناك قصّة ما ، فربّما لايحبّ أن يرويها . أما أنا ، فمقتنعةٌ حقًّا أن . . .

هيا ! لا أكاذيب فيما بيننا . أنت تعلمين جيداً أني لا أقدر على أن أكتمَ عنك سراً . فأنا أعرفُ تلك القصة ، وسوف أقولها لكِ بكلمتين ؛ فليس هناك ما هو أبسطُ منها . لقد قلتُ له ذات يوم :

كيف حَدَث ، يا سيدي الكاهن أنك قد ارتضيت لنفسك أن تصبحَ خورياً في قريةٍ صغيرةٍ ، وأنت على هذه الدّرجة من رجاحة العقل ، ومن الثقافة .

أما هو ، فقد أجاب بابتسامةٍ حزينة :

من الأسهل على المرء أن يكون راعياً للفلاحين الفقراء من أن يكون راعياً لأهل المدينة . فكلُّ إنسان ينبغي أن يحدّد مهمته بناءً على قدراته .

فقلت : لأجل هذا ينبغي أن تكون في مركزٍ أفضل .

فتابع :

قيل لي فيما مضى أن سيّدنا مطران ن *** عمك قد تنازل واختارني لمركز خورنية سانت ـ ماري . وهي أفضلُ خورنية في الأبرشيّة . وكانت عمتي العجوز ، وهي القريبة الوحيدة التي بقيت لي ، والتي تقيمُ في ن *** كانت تقو ل لي إن ذلك الموقع يُعدُّ ، بالنسبة لي ، موقعاً مرغوباً فيه . غير أني مرتاحٌ هنا . وقد علمت بسرور أن سيّدنا قد قام باختيارٍ آخر . فما الذي يلزمُني ؟ ألستُ سعيداً في نوارموتييه ؟ فإذا

كنت أصنع فيها بعض الخير، فهذا هو موقعي. ولا ينبغي أن أغادره، ثم أن المدينة تذكّرني. . .

وتوقّف، وعيناه كئيبتان وذاهلتان، ثم استأنف فوراً، وقال:

نحن لانشتغل، وعلمُ النبات الذي نتابعه؟ . . .

حينذاك، لم أعدْ أفكّر إلاّ قليلاً بالحشائش القديمة المبعثرة على المنضدة، وتابعت أسئلتي:

متى دخلت إلى الكهنوت؟

ـ منذ تسعة أعوام.

ـ تسعة أعوام. . . ولكن يبدو لي أنّه كان من المفروض في ذلك الوقت أن تكون في السنّ التي يختار المرء مهنةً فيها. لا أدري، غير أني طالما تصوّرت أنه ليس ميلاً من ميول مرحلة الشباب هو الذي قادك لتصنع من نفسك كاهناً.

فقال بصوتٍ ينمُّ عن الخجل:

ـ لا للأسف، إنما لو كان ميلي قد جاء متأخراً، ولئن جعلته أسبابٌ معينة يتحدّد. . . أو سبب. . .

وارتبك، ولم يستطعْ إنهاء كلامه. أما أنا، فقد استجمعت أكثر ما لديّ من شجاعةٍ، وقلت له:

لنراهن على أن باقةً معينة قد رأيتُها كان لها دورٌ في ذلك القرار.

وما إن أطلقت هذا السؤال الوقح، حتى أخذتُ أعضُّ لساني، لأنّي قد دفعته على ذلك النحو، ولكن الوقتَ كان قد فات.

ـ حسناً! يا سيدتي، نعم، هذا صحيح. سأقول لكِ كلَّ ذلك. ولكن ليس الآن. . . بل في مرّةٍ أخرى. ها هو جرس صلاة التبشير سيقرع.

ومضى قبل أوّل دقّةٍ من دقّات الجرس.

كنت أتوقع قصةً رهيبة. وقد عاد في اليوم التالي، وكان هو الذي تابع حديثنا، حديث اليوم السابق. واعترف لي أنه كان قد أحبَّ فتاةً شابةً من ن ***، غير أنها لم تكن ذات حظ من الثروة، وكان، هو، طالبًا ولم يكن له مصدرٌ آخر غير فكره... فقال لها:

أنا ذاهبٌ إلى باريس، وآمل أن أحصل فيها على مركز ما، وأنتِ فيما أعمل نهاراً وليلاً، كي أجعل نفسي جديراً بك، هل ستنسينني؟

كانت الفتاة الشابة في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها، وكانت حالمةً جداً. فأعطته باقتها علامةً على وفائها. وبعد عامٍ من ذلك التاريخ علم أنها قد تزوّجت من كاتب العدل في ن *** تماماً في الوقت الذي كان سيأخذ فيه كرسيَّ الأستاذية في إحدى المدارس الثانوية؛ فرزح تحت تأثير هذه الضّربة، وتخلّى عن متابعةالمسابقة، وقال إنه لم يستطع لسنوات أن يفكّر بشيءٍ آخر. وحين تذكّر تلك المغامرة البسيطة جداً، كان يبدو متأثراً وكأنّها قد حدثت له منذ قليل، ثم قال وهو يسحب الباقة من جيبه:

- لقد كان الاحتفاظ بها عملاً صبيانيًا، ولربما كان أمراً سيئًا حتى.

ورماها في النار، وعندما توقفت الزهور المسكينة عن الفرقعة والاشتعال، استأنف كلامه بهدوءٍ أكبر:

- إني أشكرك لأنك قد طلبت مني رواية هذه القصّة، وأدين لكِ بأنّي قد هجرت ذكرى قلما يناسبني أن أحتفظ بها.

يبدو أنه كان مغتمًا. وكان المرء يلاحظ من غير عناءٍ كم كانت تكلّفه تلك التضحيةُ؛ فأيه حياةٍ، يا إلهي، هي حياةُ هؤلاء الكهنة المساكين! حتى الأفكار الأكثر براءةً ينبغي لهم أن يمنعوها عن أنفسهم. إنهم ملزمون بأن يطردوا من قلوبهم كلَّ تلك المشاعر التي تصنعُ السّعادة للناس الآخرين... وحتى الذكريات التي تربطُ المرءَ بالحياة. إن الكهنة يشبهوننا، نحن النساء المسكينات؛ فكلُّ شعورٍ حيّ يعدّ

جريمةً. ومامن شيء مسموحٌ به سوى الألم، وبشرط ألاّ يظهر ذلك الشّعور كذلك. وداعًا. إني ألوم نفسي على فضولي، وكأنه عملٌ سيّئ، ولكن أنت السببُ في ذلك.

(تحذف بضعة رسائل لم يعدْ يدور الحديث فيها على رئيس الدّير أوبان).

الرّسالة الخامسة

من السيّدة نفسها إلى السيّدة الأخرى نفسها

نوارموتييه.... أيّار ١٨٤٥.

ها قد مرّ زمنٌ طويلٌ، وأنا أريدُ أن أكتب إليك، يا عزيزتي صوفيا، ولا أدري أيّ خجلٍ سيّئ قد منعني من ذلك دائمًا. إن ما لديّ لأقوله لك غريبٌ جداً، ومضحكٌ جداً وحزينٌ جداً في آن. بحيث لا أدري إن كنت ستتأثّرين به أو تضحكين منه. فأنا نفسي لازلت لا أفهم من الأمر شيئًا. ومن غير مزيدٍ من المقدّمات، سأصل إلى الموضوع، فقد حدّثتك عدداً من المرّات في رسائلي عن الكاهن أوبان، خوري قريتنا نوارموتييه. حتى أنني قد رويتُ لك مغامرةً معينةً كانت سبب المهنة التي اتّخذها.

إن مخالطة رجلٍ نبيه العقل، ومثقفٍ ومحبّب قد كانت ثمينةً للغاية بالنسبة لي، في حياة الوحدة التي أحياها، ومع تلك الأفكار الكئيبة التي تعرفينها لديّ. ومن المحتمل أن أكون قد جعلته يستشفُّ أنه يثير اهتمامي. وخلال وقتٍ قصيرٍ جداً، أصبح في منزلنا مثل صديق قديم. وإني أعترف بأن الحديث مع رجلٍ متفوقٍ كان جهلُ المجتمع الراقي يُبرز تميّزه الفكريّ يعدّ بالنسبة لي أمراً يبتعثُ لديّ مسرةً جديدة تمامًا. ولربما أيضًا ينبغي أن أقول لك كلّ شيء؛ فلست أنت من أستطيع أن أخفي عنها عيبًا من عيوب طباعي، ولربّما أن «سذاجتي» في الغنج أيضًا (وهذه هي كلمتُك)، والتي طالما كنت تأخذينها عليّ، ربما قد فعلت فعلها من دون أن أدري. فأنا أحبُّ أن أروقَ للنّاس الذين يروقون لي. أريد أن أُحَبّ من أولئك الذين أحبُّهم

. . . عند هذا الاستهلال، أراك وأنت تفتحين عينيك على اتساعهما، ويبدو لي أنّي أسمعكِ تقولين: «جوليا! . . . ». اطمئني، فليس يبدأُ المرءُ في مثل سنّي في القيام بحماقات. ولكني أتابعُ. إن نوعًا من الألفة قد نشأ فيما بيننا. وذلك، وأسارعُ إلى القول، من غير أن يكون قد قال أو فعل شيئًا لا يتناسب مع الطّابع الجليل الذي يتلفّع به. لقد كان يشعر بالسّرور في منزلي، وكنّا غالبًا ما نتحدّث عن عهد شبابه. ولقد أخطأتُ أكثر من مرّة، حين تعرّضت لتلك التجربة العاطفية الحالمة التي كلّفته باقةَ زهورٍ (وقد أصبحت الآن رمادًا في موقدي)، وللرداء الكئيب الذي يرتديه. ولم يطلْ بي الوقت لألاحظ أنه لم يعدْ يفكّر إلاّ قليلاً بفتاته غير المخلصة. وذات يوم، كان قد صادفها في المدينة، وحتى أنه كلّمها، وقد روى لي كلّ ذلك، لدى عودته، وقال لي من غير تأثّرٍ إنها سعيدةٌ، وإن لديها أطفالاً ساحرين. وقد جعلته المصادفة يكون شاهدًا على عددٍ من المواقف التي نَفَد فيها صبرُ هنري. ومن هنا أتت مساراتٌ قسريةٌ إلى حدّ ما من جهتي، أما من جهته فقد ضاعفت اهتمامه. إنه يعرفُ زوجي، وكأنه قد خالطه لعشرة أعوام. بالإضافة إلى أنه كان صاحب نُصحٍ جيّد مثلك، وأكثر حيادًا؛ فأنت تظنين باستمرار بأن الأخطاء تأتي من الجانبين. أما هو، فقد كان يحكمُ لصالحي دائمًا، ولكنه يوصيني بالحذر والمهارة، وبكلمة فقد كان يظهر لي صديقًا مخلصًا. إن في شخصه شيئًا أنثويًا يفتنني؛ فهو ذو عقلٍ يذكّرني بعقلك، وله طبعٌ متحمّسٌ وحازم، وحسّاس، ومركّزٌ، ومتعصّبٌ للواجب. . . إني أخيطُ الجملُ، بعضها بالبعض الآخر كي أؤخّر الإيضاح؛ فلا يسعُني أن أتكلّم بصراحة. وهذا الورقُ يخيفني. وكم أودُّ أن أجلس وإياك في زاوية الموقد، وبيننا عملٌ يدوي نقوم به كلانا، فنطرّز على السّجف نفسه! ـ وأخيرًا، أخيرًا، يا عزيزتي صوفيا، لابدّ لي أن أُطلق الكلمة الكبيرة. لقد كان التّعس المسكين مغرمًا بي. هل تضحكين، أو أنت تستنكرين ذلك؟ أودّ أن أراك في هذه اللحظة. إنه لم يقلْ لي شيئًا، بطبيعة الحال، ولكننا قلّما نخطئ التقدير، وعيناه السّوداوان الكبيرتان! . . . عند هذه الجملة أظنُّ أنك تضحكين ـ فكم من الأسود تودّ أن تكون لها تلك العيون التي تتكلّم من غير أن تشاء ذلك! لقد رأيت العديد من هؤلاء السّادة

الذين كانوا يريدون إنطاق عيونهم، والذين لايقولون إلاّ الحماقات. وعندما تعرّفت حالة المريض، أقرُّلك بأن خبث طبيعي قد تمتّع بذلك تقريباً في بداية الأمر. أظَفَرٌ غرامي في مثل سني بريءٌ مثلُ ذلك الظفر! . . . إن إثارة عاطفة كتلك العاطفة، وحبٌ مستحيل هي شيء يعتدّ به. ما أحقر هذا إذن! إن هذا الشعور السيء قد زال عني سريعًا. وقلتُ في نفسي: هذا هو رجلٌ رقيق الحاشية قد يسبب طيشي شقاءً له. إن هذا رهيبٌ، ويجب أن ينتهي الأمر حتمًا، فأخذت أبحث في عقلي عن الكيفية التي يمكنني أن أبعده بها. وذات يوم، كنّا نتنزه على الشاطئ الرّملي، والجزر في أقصاه، ولم يكن يجرؤ على أن يقول لي كلمةً واحدة، وكنت أنا مرتبكةً أيضًا. وهيمنت لحظاتٌ من الصّمت القاتل، خلال خمس دقائق أخذتُ خلالها أجمعُ القواقع كي أُظهر رباطة جأشي، وقلتُ له:

يا عزيزي الكاهن، ينبغي حتمًا أن يعطوك خورنيةً أفضل من هذه، وسأكتبُ إلى عمي المطران عن هذا، وسأذهب لأراه إن لزم الأمرُ.

فصاح وهو يضمّ يديه:

أن أترك نوارموتييه، ولكني جدُّ سعيد فيها؛ فما الذي يمكنني أن أرغبَ فيه، منذ أن أتيتِ إلى هنا؟ لقد غمرتني بالفرح، وأصبح مسكنُ كاهنِ الرّعية الصّغير قصراً بالنسبة لي.

فاستأنفتُ قائلة:

كلاّ، إن عمي عجوز جداً، ولو نزل بي مكروهٌ وفقدته، لما عرفت إلى من أتوجّه لأجعلك تحصلُ على مركزٍ مناسب.

- واحسرتاه، يا سيدتي، سوف يؤسفني كثيراً أن أغادر هذه القرية! . . . إن خوري سانت - ماري قد مات . . . غير أن الذي يطمئنني هو أن كاهن الرّعية راتون سوف يحلُّ محلّه. إنه كاهنٌ أهلٌ لمنصبه حقًّا، وأنا مسرورٌ لذلك، فسيّدنا كان قد فكّر بي . . . وصحتُ:

إن خوري سانت - ماري قد مات، وسوف أذهب اليوم إلى ن *** لرؤية عمي.

ـ آه! يا سيدتي، لا تفعلي شيئًا، إن الكاهن راتون هو أكثر جدارةً منّي حقًّا، ثم إن ترك نوارموتييه! . . .

فقلتُ بلهجةٍ حازمة:

ـ يا سيدي الكاهن، لابدّ من ذلك.

عند سماعه لهذه الكلمة، خفض رأسه. ولم يعدْ يجرؤ على المقاومة. ورجعت وأنا أركض تقريبًا إلى القصر، وكان يتبعني، وعلى بعد خطوتين ورائي، ذلك الرّجل المسكين الشديد الاضطراب إلى درجةٍ لم يكن يجرؤ معها على فتح فمه. لقد كان منهكًا، ولم أُضعْ دقيقةً واحدة، وفي الساعة الثامنة، كنتُ في منزل عمي؛ فوجدته شديدَ الانحياز لكاهنه راتون، ولكنه يحبّني، وأنا أعرفُ تأثيري عليه. وأخيراً، وبعد مجادلاتٍ طويلةٍ حصلتُ على ما كنتُ أريده، فتمّ استبعاد راتون، وأصبح الكاهن أوبان هو خوري سانت ـ ماري. إنه في المدينة منذ يومين، وقد فهم الرّجل المسكين كلمتي «لابدّ من ذلك» فشكرني عليها برصانةٍ، ولم يتكلّم إلاّ عن عرفانه بالجميل. وأبديت سروري له لأنه سيغادر نوارموتييه في أسرع وقتٍ ممكن، ولأنه قال لي إنه متعجّلٌ في الذهاب كي يشكر سيّدنا. وأثناء رحيله، أرسل لي صندوقه الصّغير البيزنطي الجميل، وسألني أن أسمح له بأن يكتبَ إليّ أحيانًا. حسنًا، يا حلوتي! هل أنتَ مسرورٌ، يا كوسي؟ ـ إنه درسٌ لن أنساه حين أرجع إلى المجتمع الراقي. لكن حينذاك، سأكون قد بلغت الثالثة والثلاثين، ولن يكون هناك تقريبًا ما يجعلني أخشى أن أُحبّ. . . حبًّا مثل ذلك الحبّ ـ إن ذلك غير ممكن بالتأكيد، ولا أهمية لذلك، فمن كلّ تلك الحماقة، قد تبقّى لي صندوقٌ صغيرٌ جميل، وصديقٌ حقيقيّ. وعندما أبلغ الأربعين، وأصبح جدّةً، أدبّر الأمور كي يحصل الكاهن أوبان على خورنية في باريس، ولسوف ترينه، يا عزيزتي، وهو الذي سيشرفُ على أولّ تناولٍ لابنتك.

الرّسالة السادسة

من الكاهن أوبان إلى الكاهن برينو

أستاذ اللاهوت في سانت آ***

ن ***أيّار ١٨٤٥ .

معلمي العزيز، إن خوري سانت ـ ماري هو الذي يكتبُ إليك، ولم يعدْ خادمَ كنيسة نوارموتييه المتواضع . فقد تركت مستنقعاتي، وها أنا ذا مدنيٌّ يقيمُ في خورنيّة جميلة في شارع ن *** الكبير . إني خوري كنيسة كبيرة، حسنة البناء ومصانة بشكل جيد، ورائعة في فنّها المعماري، ومصوّرةٍ في كلّ مجموعات صور فرنسا . في المرة الأولى التي أقمت فيها القدّاس، أمام مذبحٍ من الرّخام، يتلألأُ بالتذهيبات، تساءلت إن كنت أنا حقًّا نفسي . لاشيء حقيقيّ أكثر من هذا الأمر . إن أحدَ دواعي سروري هو أن أفكر بأنك ستأتي لزيارتي في العطلة القادمة، وأنه سيكون لدي غرفةٌ جيدةٌ أعطيك إياها، وسريرٌ جيد، هذا عدا بعض نبيذ البوردو الذي أسمّيه نبيذي، نبيذ بوردو نوارموتييه الذي يليق بك، إذا تجرأتُ على القول . ولكن هل ستسألني كيف تسمّيه نوارموتييه في سانت ـ ماري؟ لقد تركتني عند مدخل جناح الكنيسة، ولسوف تلتقيني عند قبة الجرس :

O MELIBOEE, DEUS NOBIS HŒC OTIA FECIT [(١)]

يا معلمي العزيز، إن العناية الإلهية قد قادت إلى نوارموتييه سيدةً عظيمةً من باريس، جعلتها ظروفٌ معاكسةٌ، من مثل تلك التي لا تحدث لنا قطّ، جعلتها مؤقتًا تعيشُ بعشرة آلاف ريال في العام . إنها شخصيةٌ محبَّبة وطيبةٌ، وقد أفسدتها لسوء الحظّ مطالعاتٌ تافهة، وصحبةُ أناسٍ طائشين من العاصمة . وبما أنها قد ضَجرت

(١) آه، يا ميليبيه! لقد منحنا أحدُ الآلهة «أوقات الفراغ هذه» ڤيرجيل، الرّعويات، الجزء الأول، القسم السادس .

حتى الموت من زوجٍ كانت راضيةً عنه رضًى متدنّيًا، فقد شرّفتني بأن أحاطتني بعطفها، فقد كانت تقدّم لي هدايا لا تنتهي، وتدعوني دعوات متواصلةً، ثم تأتي كلّ يومٍ بمشروعٍ جديد أكون ضروريًا فيه: «أيها الكاهن، أريد أن أتعلّم اللاتينية . . . أيها الكاهن، أريد أن أتعلّم علم النبات». HORRESCO REFERENS[1] ألم ترغبْ في أن أعرض لها علم اللاّهوت؟ أين كنت، يا معلمي العزيز؟ باختصار، كان يلزمنا كلٌّ أساذتنا في سانت ـ آ***، من أجل ذلك الظمأ إلى المعرفة. ولحسن الحظّ، فقلّما كانت أهواؤها العابرةُ تستمرُّ، ونادرًا ما كانت مادّة التدريس تمتد حتى الدرس الثالث. وعندما كنتُ أقولُ لها إن ROSA في اللاتينية تعني وردة، كانت تصيحُ قائلة: «ولكنّك، أيها الكاهنُ، بئر معرفة، فكيف تركت نفسك تُدفَن في نوارموتييه؟». إن كان من المفروض أن أقول لك كلّ شيء، يا معلّمي العزيز، فإن تلك السيّدة الطيّبة، ولكثرة ما قرأت من تلك الكتب الشريرة التي يصنعونها اليوم، قد وضعت في رأسها أفكارًا غريبةً حقًّا. وذات يوم، أعارتني كتابًا كانت قد تلقّته للتوّ من باريس. وقد أثارها. إنه «أبيلار» من تأليف السيّد دو ريموزا. ولا شكّ أنك قد قرأته، وأعجبت بأبحاث المؤلّف البارعة، والتي تتوجّهُ لسوء الحظ بروحٍ سيئة. أما أنا، فقد قفزت منذ البداية إلى المجلد الثاني، إلى فلسفة أبيلار. وبعد أن قرأته بأكبر اهتمامٍ ممكن، رجعت إلى المجلّد الأول، أي إلى حياة الهرطقي الكبير. وكان ذلك، بطبيعة الحال، هو كلّ ماتنازلت سيدتي العظيمة لتقرأه. وقد فتح هذا عينيّ، يا معلمي العزيز، وأدركت أن هناك خطرًا في صحبة السيّدات الجميلات المغرمات بالعلم إلى حدّ كبير. إن هذه السيّدة قد تضاهي إيلويز[2] في اندفاعها. ولقد أربكني بشدة موقف جديد عليّ، حينما قالت لي فجأة: «أيها الكاهنُ يلزمني أن تصبح خوري سانت- ماري، فصاحبُ هذا المنصب قد مات! إن هذا أمرٌ لازم!» وفي الحال، ها هي تصعدُ إلى العربة، وتذهبُ للقاء سيّدنا، وبعد بضعة أيام، أصبحتُ كاهن سان- ماري، وأنا خجلٌ بعضَ الشّيء لأني حصلتُ على هذا اللقب عن

(١) «إني أرتعش، وأنا أروي هذا»، ڤيرجيل، الإنيادة، الجزء: ٢. ص: ٢٠٤.

(٢) إيلويز: تزوجت أبيلار سرًا، ثم انفصلت عنه، ودخلت الدير، وقد تراسلت معه بحماسة. (م: ز. غ).

طريق الحظوة، ولكني في حاصل الأمر، مبتهج لأني أجدُ نفسي بعيداً عن مخالب لبوةٍ من لبوات العاصمة، واللّبوة، يا معلمي العزيز، هي، باللهجة الباريسية الإقليمية، امرأة على الدَّرْجة السّائدة:

ΩZEV̄,γνrαEXwŵr, oιor wπaacverof[1]

فهل كان ينبغي، والحالة هذه. أن أرفض الحظَّ الجيّد كي أواجهَ الخَطَر؟ فأيُّ أحمق أكون! ألم يقبل سان- توما دو كانتور بيري قصورَ هنري الثاني؟ وداعًا، يامعلّمي العزيز، وآمل أن أتحدَّثَ في الفلسفة معك، بعدَ بضعة أشهر، وكلٌّ منا جالسٌ في كرسيٍّ مريح ذي ذراعين، وأمام فرخةٍ مقطوشة[2]، وزجاجة من نبيذ بوردو:

MORE PHILOSOPHORUM. VALE ET ME AMA[3]

---

(١) بيت شعريّ مستمد، كما أظنّ، من «الزعماء السّبعة ضدّ طيبة» لإيسخيلوس:

آه، من النساء، يا جوبيتر! أيُّ نسلٍ قد أعطيتنا!»

إن رئيس الدير أوبان ومعلمه، رئيس الدير برونو هما عالمان بالآداب القديمة.

(٢) دجاجة مخصيّة ومسمنة. (م.ز.ع).

(٣) على عادة الفلاسفة، أحييك وأبعث إليك بمحبتي.

- ٤ -

زقاق السَّيدة لوكريزيا

كان عمري ثلاثة وعشرين عامًا، عندما سافرتُ إلى روما. وقد أعطاني والدي اثنتي عشرة رسالةَ توصية. وكانت واحدةٌ منها فقط مختومةً، ولا يقلُّ عدد صفحاتها عن أربع. وكان العنوانُ كما يلي: «إلى المركيزة ألدوبراندي».

وقال لي والدي: اكتبْ لي إن كانت المركيزة لا تزالُ جميلةً.

وهكذا، فمنذ طفولتي، كنت أرى في غرفة عمله، صورةً مصغّرةً معلقةً على الموقد لسيّدةٍ على حظٍّ كبيرٍ من الجمال، ووجهُها مزينٌ بالمساحيق، ومكلّل باللبلاب، وتضعُ على كتفيها معطفًا من جلد النّمر. وكان المرءُ يقرأ على خلفية الصّورة: روما ۰۰۰, ۱۸۰۰. أما طقمُ السّيدة فكان يبدو لي فريداً من نوعه. وقد حدثَ لي مراتٍ عديدة أن سألتُ من تكونُ تلك السّيدة، وكانوا يجيبونني:

إنها كاهنةٌ من كاهنات باخوس.

غير أن تلك الإجابة قلّما كانت ترضيني، وحتى أنني كنتُ أشكُّ بوجود سرٍّ ما؛ فقد كانت والدتي، عند ذلك السؤال البسيط جداً تعضُّ على شفتيها، ويتخذُ والدي مظهراً جدّيًا.

وفي تلك المرّة، نَظَرَ إلى الصورةِ خفية، وهو يعطيني الرّسالة المختومة، وفعلتُ مثله عن غير إرادةٍ مني، وخطرت لي فكرةٌ تقولُ إن تلكَ الكاهنة الباخوسية المرشوشة بالمساحيق يمكن أن تكون فعلاً هي المركيزة ألدوبراندي، وبما أني قد بدأتُ أفهم أمورَ هذا العالم، فلسوف أستخرج كلَّ أنواع الاستنتاجات من ملامح وجه أمّي، ومن نظرة والدي.

حين وصلتُ إلى روما، كانت أولُ رسالةٍ أوصلتُها هي رسالةُ المركيزة، وقد كانت تسكنُ في قصرٍ جميل على مقربةٍ من ساحةِ سان- مارك.

أعطيت رسالتي وبطاقتي لخادمٍ يرتدي زيًّا أصفر، فأدخلني إلى قاعةِ استقبالٍ معتمةٍ وحزينةٍ، ومؤثثة تأثيثًا سيئًا. ولكن هناك لوحاتٌ لأساتذةٍ في الرسّم

في كلّ قصور روما. وكانت تلك القاعةُ تحتوي عدداً كبيراً من تلك اللّوحات، وبعضُها يُلفتُ النَّظر كثيراً.

ميّزتُ في بادئ الأمر صورةً لامرأةٍ بدت لي من تصوير ليوناردو دافنشي، وبناءً على نفاسة إطارها، وعلى الحامل المصنوع من الخشب الفاخر[1] والذي كانت موضوعةً عليه، لم يكن بالإمكان أن يشكّ المرءُ بأنّ تلك القطعةَ الفنيّة هي القطعةُ الأساسيةُ في المجموعة. وبما أن المركيزة لم تأتِ، فقد كان لدي الوقتُ الكافي لتفحُّصها. وحتى أني وضعتُها بقربِ إحدى النوافذ كي أراها تحت إضاءةٍ أكثر ملاءمةً. لقد كانت، بطبيعة الحال، صورةً لشخص وليست وجهاً من ابتكارِ الخيال. إذ لايمكن ابتكارُ مثل تلك الوجوه. امرأةٌ جميلةٌ ذات شفتين ممتلئتين قليلاً. حاجباها مقفلان تقريباً، ونظرتها متعاليةٌ وملاطفةٌ في آن. وفي خلفية الصّورة. كان يُرى شعارُها الذي يعلوه إكليلٌ دوقيّ. غير أنَ الذي أثّر بي أكثر من غيره هو الملابسُ التي كانت، باستثناء مسحوق الزّينة، هي ملابسُ الكاهنةِ الباخوسيّة نفسها في الصّورةِ التي عند والدي.

كنت لاأزال أمسِك الصورةَ بين يديّ، عندما دخلَتْ المركيزةُ، وهتَفَت وهي تتقدّم نحوي:

تماماً مثل أبيه. آه! يا للفرنسيّين! يا للفرنسيين! لم يكدْ يصلْ حتى انقضّ على السّيدة لوكريس.

سارعتُ إلى تقديمِ اعتذاراتي عن عدم تحفُّظي. وأخذت أكيلُ المديحَ إلى أبعدِ مدى على رائعةِ ليوناردو التي بلغ بي التهوّرُ أن حرّكتُها من مكانها.

فقالت المركيزة:

إنها فعلاًمن أعمال ليوناردو، وهذه هي صورةُ لوكريس بورجيا الشّهيرة. وهي اللوحةُ التي كان والدك يُعجَبُ بها أكثر من أيةِ لوحةٍ أخرى من لوحاتي...

---

(١) الباليسّاندر: وهو خشبٌ بنفسجيٌ فاخر. (م: ز: ع).

ولكن، سبحان الله! أي شبَه! يخيّلُ إليّ أني أرى والدك كما كان منذ خمسة وعشرين عامًا، فكيف صحتُه؟ وماذا يعملُ؟ ألن يأتي لرؤيتنا ذاتَ يومٍ في روما؟

ومع أن المركيزة لم تكن تضعُ مساحيق أو جلد النّمر، فقد تعرّفتُ فيها كاهنةَ باخوس التي عند والدي، من النّظرة الأولى، وبقوةِ عبقريتي.

إن خمسةً وعشرين عامًا لم يكن بإمكانها أن تمحو بصورةٍ كاملةٍ آثار الجمال الرائع. لقد تبدّل شكلُه التعبيريّ فقط، كما تتغيّر الزّينة. فقد كانت ترتدي الأسود. أما ذقنها الثلاثية وابتسامتُها الرصينةُ، ومظهرُها الارتساميّ والمتألّقُ، فكانت تنبّهُني إلى أنّها قد أصبحت متديّنةً. ومن جهةٍ أخرى، فقد استقبلتني بصورةٍ وديّة ليس هناك ما هو أفضل منها، وبكلماتٍ ثلاث، قدّمت لي منزلَها، ومالَها، وأصدقاءَها الذين سمّت فيما بينهم عدداً من الكرادلة.

وقالت لي: - انظرْ إلي، مثل والدتك...

وخفضت عينيها بتواضع.

إن والدك يكلّفُني بأن أسهر عليك، وأن أُسدي إليكَ النُّصح.

وكي تُثبِتَ لي أنّها لاتفهمُ مهمتها على أنها مهمةُ عطالةٍ عن العمل، فقد بدأت، منذ ساعتها تحذّرني من المخاطرِ التي يمكن لروما أن تعرّض فتًى في مثل سنّي لها. وحثتني كثيراً على تجنُّبها؛ فكان يتعينُ عليّ أن أتحاشى رفقاءَ السّوء، والفنانين بخاصّة، وألاّ أرتبطَ إلاّ بالأشخاص الذين تدلُّني عليهم. باختصارٍ، فقد تلقّيت عظةً من ثلاثِ نقاط، وقد أجبت عليها باحترامٍ، وبالنّفاق المناسب.

وعندما وقفتُ كي أستأذنَ بالانصراف، قالت لي:

يؤسفني أن ابني المركيز موجودٌ الآن في أراضينا، في لارومانيا[1]، ولكنّي أريد أن أقدم إليك ابني الثاني، دون أوتاڤيو الذي سيصبحُ عمّاً قليل أسقفًا، وآمل أن يروقَ لك، وأن تصبحا صديقين كما ينبغي أن تكونا...

---

(١) مقاطعة إيطالية هي غير رومانيا المعروفة حاليًا. (م: ز.ع).

وأضافت بسرعة :

لأنكما في السّن نفسها تقريبًا، وهو صبيٌّ رقيقٌ رصينٌ مثلك .

وفي الحال، أرسلت في طلب أوتاڤيو، فرأيتُ شابًا طويلَ القامة وشاحبًا، ذا هيئةٍ كئيبة، وعيناه مخفضتان دائمًا، وهو يشعرُ منذ الآن بالسّوداء .

ومن غير أن تتركَ المركيزةُ له الوقتَ ليتكلم، فقد قدّمت لي باسمة، كلَّ عروض الخدمات التي تدلُّ على أكبر اللّطف . أما هو، فقد كان يؤكّدُ بحركات تبجيلٍ واسعةٍ على جُملِ والدته كلّها . وقد تمّ الاتّفاقُ على أن يذهبَ، بدءًا من اليوم التالي، ليأخذني للقيام بجولات في المدينة، ويعيدني لتناول العشاء عائليًّا في قصر الدوبراندي .

وما إن خطوت عشرين خطوة في الشارع حتى صاح أحدهم خلفي بصوتٍ آمر :

وأين تذهبُ وحدك إذن، في مثلِ هذه الساعة، يا دون أوتاڤيو؟ .

فاستدرتُ، ورأيتُ كاهنًا ضخمًا يتأمّلني من قدمي إلى رأسي، وهو يحملقُ بعينيه : فقلت له :

لست دون أوتاڤيو .

حيّاني الكاهنُ تحية توقيرٍ حتى الأرض، وأخذ يُغالي في الاعتذار، وبعد لحظة من الزمن، رأيتُه يدخلُ إلى قصر ألدوبراندي ؛ فتابعتُ طريقي، وأنا أشعرُ ببعضِ الإطراء لأنهم قد ظنّوني أسقفًا مأمولاً .

وبرغم تنبيهاتِ المركيزة، وربما بسبب تنبيهاتها، لم يصبحْ لديّ أمرٌ أكثر إلحاحًا من أن اكتشف مقرَّ رسّامٍ من معارفي . وقد أمضيتُ ساعةً معه في مرسمه، ونحن نتحدّثُ عن وسائل للتسلية، مشروعةً أم غير مشروعة والتي يمكن لروما أن تقدّمها . ووضعته في صورة آل ألدوبراندي . وقد قال لي : إن المركيزةَ التي كانت

شديدةَ الطّيش، قد ألقت بنفسها في أعلى درجات التديُّن، عندما أقرّت بأن عهدَ المغامرات الغراميّة قد انقضى بالنسبة إليها.

كان ابنُها البكر إنسانًا فظًّا، يُمضي أوقاته في الصّيد، وتخزين المال الذي كان يأتيه به مزارعوه العاملون في أراضيه الواسعة، وكانوا يهمّون بتخبيل الابن الثاني، دون أوتاڤيو الذي كانوا يريدون أن يصنعوا منه ذاتَ يومٍ كاردينالاً. وبانتظار ذلك الوقت، فقد سلّم إلى اليسوعيّين، فلم يعدْ يخرجُ بمفرده قطّ، ويمنعُ عليه أن ينظرَ إلى امرأة، أو أن يخطو خطوة من غير أن يكون في أعقابه الكاهنُ الذي ربّاه كي يخدمَ الربّ، وهو الذي أخذ في ذلك الحين يديرُ منزلَ المركيزة بسلطةٍ استبداديةٍ تقريبًا، بعد أن كان آخر «أصدقائها».

وفي اليوم التّالي- أتى دون أوتاڤيو، الذي يتبعهُ الكاهنُ نيغروني، وهو الكاهنُ نفسه الذي ظنّ أني القاصرُ الذي يُعنى به، أتى ليبحث عني بعربته، وليقدّم لي خدماته، مثل مرشدٍ سياحيّ.

كان المَعْلَمُ الأثريّ الأول الذي توقفنا عنده كنيسةً، فجثا دون أوتاڤيو فيها، على مثال كاهنه، ودقّ صدره، ورسم إشارةَ الصّليب بعددٍ لا يُحصى من المرات، وبعد أن نهض، أراني الرّسوم الجداريةَ والتمّاثيل، وحدّثني عنها كرجل ذي عقلٍ رشيدٍ وذوقٍ، فأشعرني ذلك بدهشةٍ محبّبةٍ. وبدأنا نتحدّثُ، فراقَ لي حديثُه. وكنّا قد تكلّمنا لبعض الوقتِ بالإيطالية، فقال فجأةً بالفرنسية:

إن مربيّ لا يفهمُ كلمةً واحدة من لغتك، فلتتكلّمْ بالفرنسيّة نكنْ أكثرَ حريةً.

كان ذلك التبديلُ في اللّغة قد حولّ ذلك الفتى؛ فما من شيءٍ في خطابه ينبئُنا بأنّه كاهنٌ. وظننتُ أنني أسمعُ أحدَ متحرريّ «ليبراليّي» الريّف، ورأيتُ أنه كان

يتلفّظُ بكلّ شيء بنبرة الصّوت الرتيبة نفسها، وأن كلامه هذا كان يتباينُ على نحوٍ غريبٍ مع حيوية عباراته. وكانت تلك عادةً قد اتّخذها على ما يظهرُ كي يضلّل النّيغروني الذي كان، من وقتٍ لآخر، يطلبُ إيضاحًا لما كنّا نقوله. وبطبيعة الحال، فقد كانت ترجماتُنا متصرّفةً إلى أبعد حدّ.

ورأينا فتى يرتدي جوارب بنفسجيةً يمرّ، فقال لي دون أوتافيو:

- انظر، ها هم نبلاؤنا اليوم. يا للزيّ المقزّز! وسيكون زيي بعد بضعة أشهر! وأضاف بعد لحظة من الصمت:

يا لها من سعادةٍ أن يعيشَ المرءُ في بلدٍ مثل بلدك! فلو كنتُ فرنسيًا، لأصبحتُ ربّما نائبًا ذات يوم!

أعطاني ذلك الطموحُ النبيلُ رغبةً شديدةً في الضّحك. وقد لاحظ الكاهنُ ذلك، فاضطررتُ لأشرحَ له أننا كنّا نتحدّثُ عن خطأ ارتكبه عالمُ آثارٍ قد ظنّ أنّ تمثال برنان تمثالٌ قديم.

رجعنا لنتناولَ العشاءَ في قصرِ ألدوبراندي. وبعد أن تناولنا القهوةَ بقليل، اعتذرت المركيزةُ مني عن ابنها الذي كان مضطرًا بسبب بعضِ الواجباتِ الدينية أن ينعزل في شقّته، وبقيتُ وحدي معها، ومع الكاهن نيغروني الذي كان ينامُ نوم الصّالحين، منقلبًا على ظهره في كرسيّ ذي ذراعين.

ومع ذلك، فقد أخذت المركيزة تسألني بالتّفصيل عن والدي، وعن باريس، وعن حياتي الماضية، وعن مشاريعي للمستقبل، وقد بدت لي لطيفةً وطيبةً، ولكنها فضوليةٌ أكثر من اللازم بقليل، ومهتمةٌ أكثر من اللازم بخلاصي خصوصًا. زدْ على ذلك أنها كانت تتكلّمُ الإيطالية بصورةٍ تثير الإعجاب. وقد تعلمتُ منها دروسًا جيدة في التلفّظ، وقطعتُ على نفسي وعدًا بأن أردّدَها.

لقد رجعتُ غالبًا لرؤيتها، وفي كلِّ صباحٍ تقريبًا، كنتُ أزورُ الأماكنَ القديمةَ برفقةِ ابنها ونيغروني الدائم الحضور، وفي المساء، كنت أتناولُ العشاءَ

معهم في قصر ألدوبراندي، وكانت المركيزة تستقبلُ عدداً قليلاً من النّاس، وهم فقط من رجالُ الكنيسة تقريبًا. ومع ذلك، فقد قدّمتني ذاتَ مرّةٍ إلى سيّدة ألمانيةٍ قد اهتدت حديثًا، هي صديقتُها الحميمة. لقد كانت تدعى السّيّدة دو سترالينهايم، وهي على حظٍّ كبيرٍ من الجمال. وقد أقامت منذ زمنٍ طويل في روما، وفيما كانت هاتان السيدتان تتحدّثان فيما بينهما عن واعظ شهير. كنت أتأمّل، على ضوء المصباح، صورةَ لوكريس، عندما ظننتُ أنّي يجبُ أن أتدخَّل في النقاش، فهتفت:

يا لهما من عينين! كأن هذه الأجفان تتحرك!

عند هذه المبالغة المتكلّفة بعضَ الشيء، والتي غامرتُ بها كي أجعل من نفسي خبيراً راسخًا أمام السيدة دو سترالينهايم. ارتَعَشت من الرعب، وغطّت وجهها بمنديلها.

فقالت لها المركيزة: ماذا بكِ، يا عزيزتي؟

- آه! لا شيء، غير أن ما قاله السّيدُ منذ قليل! ...

وحاصروها بالأسئلة. فما إن قالت إن عبارتي قد ذكّرتها بقصةٍ مرعبة، حتى غدت مجبرةً على روايتها.

وهذه هي بكلمتين:

كان للسّيدة سترالينهايم أختُ زوج تدعى ڤيلهلمين، وهي مخطوبةٌ لفتى من ڤيستفاليا هو جوليوس كاتزينلنبوجن، المتطوّع في فرقة العميد كلايست. وأنا مستاءٌ من أن عليّ تكرار أسماء أعجميّة، غير أن القصص العجيبة لاتحدثُ قطّ إلاّ لأشخاص يحملون أسماء يصعبُ لفظُها.

كان جوليوس صبيًا ظريفًا مفعمًا بالروح الوطنية والميتافيزيقا. وحين ذهب إلى الجيش، أعطى ڤيلهلمين صورتَه، وأعطته ڤيلهلمين صورتها التي كان يضعها على صدره دائمًا. وكان الناسُ في ألمانيا يفعلون ذلك كثيراً.

وفي ١٣ أيلول ١٨١٣، كانت ڤيلهلمين في كاسّيل، حوالي السّاعة الخامسة مساءً، في قاعة استقبال، وهي منشغلةٌ في الحياكة مع والدتها، وأخت زوجها،

وكانت تنظرُ، أثناء عملها، إلى صورة خطيبها الموضوعة قبالتها، على منضدةٍ صغيرةٍ للشغل. وإذْ بها تطلقُ صرخةً رهيبةً وتضعُ يدَها على قلبها، فيُغمى عليها. وقد أعيتهم الجهودُ التي بذلوها كي يجعلوها تستعيدُ وعيها، وما إن أصبحَ بإمكانها أن تتكلّم، حتى صرخت:

لقد مات جوليوس، جوليوس قد قُتِل!

وأكدّت، والرعبُ المرتسمُ على قسماتِ وجهها كلّها يُثبتُ اقتناعَها، بأنها قد رأت الصورةَ تغلقُ عينيها، وأنها قد أحسّت في اللحظة نفسها بألمٍ فظيع، وكأن حديداً محمى قد اخترق قلبها.

بذل كلٌّ واحدٍ جُهدَه ليبيِّن لها من غير فائدةٍ أن رؤياها لا تمتُّ بشيءٍ إلى الواقع، وأنه لا ينبغي أن تعيرها أيّةَ أهمية؛ فقد كانت الصّبيّة المسكينة لا تتعزّى، وقضت ليلتها في النحيب. وفي اليوم التالي، أرادت أن ترتدي ملابسَ الحداد، إذ أنها كانت متأكّدةً مسبقًا من المصيبة التي كُشِفت لها.

وبعد يومين، وصل خبرُ معركةِ لايبزغ الدامية، وكان جوليوس قد كتبَ إلى خطيبته بطاقةً مؤرّخة في السّاعة الثالثة من يوم ١٣ أيلول، بعدَ الظّهر. ولم يكن قد أُصيب بجرحٍ في حينها. وتميّز في المعركة، ودخل إلى لايبزغ حيث كان ينوي أن يُمضي اللّيل مع القيادةِ العامة فيكون نتيجةً لذلك بعيداً عن كلّ خطرٍ. وما كان لتلك الرّسالة أن تهدئ من روع ڤيلهلمين التي ظلّت ثابتةً على اعتقادها بأن حبيبها قد مات الساعة الخامسة، عندما لاحظت أن الرّسالة موقتةٌ بالسّاعة الثالثة.

ولم تكن التعسةُ مخطئةً في ذلك؛ فقد علِم بعد ذلك بقليل أن جوليوس الذي كان مكلّفًا بأن يحمل أمراً معينًا قد خرج من لايبزغ في السّاعةِ الرابعة والنصف، وأن جنديًا متأخراً من جيش العدو، وكامنًا في إحدى الحفر، قد قتله بطلقة نارية، على مسافةِ ثلاثة أرباع فرسخ من المدينة، فيما وراء نهر الإليستير، أما الرّصاصةُ فقد حطّمت صورة ڤيلهلمين، عندما اخترقت قلبه.

- وما الذي جرى لتلك الشابة المسكينة؟

- أوه! لقد مرضت كثيراً. أما الآن، فهي متزوجةٌ من السيد المستشار العدلي في ڤيرنر، وإن تذهبْ إلى داساو، تُرِكَ صورةَ جوليوس.

فقال الكاهنُ الذي كان متيقظًا أثناء قصة السيدة دو سترالينهايم:

كلّ هذا يجري بسبب تدخّلِ الشيطان؛ فذلك الذي كان يجعلُ آلهةِ الوحي تتكلّم عند الوثنيين يمكنُهُ حقًّا أن يجعل عيني صورةٍ تتحرك، عندما يبدو له هذا حسنًا. ولم تمضِ بعد مئةُ عام، منذ أن خَنَقَ أحدُ التماثيل إنكليزيًّا.

فصرخت:

تمثال، وكيف ذلك؟

- لقد كان نبيلاً إنكليزيًا يقومُ بأعمالِ تنقيب في تيڤولي، وكان قد عثر على تمثال للإمبراطورة أغريبين، أولميسّالينا... قلّما يهمُّ ذلك، والمهمّ أنه أمرَ بنقلها إلى منزله. ولكثرةِ ما نَظَرَ إليها، واستحسنها، فقد غدا مجنونًا بها، وكلُّ هؤلاء السادة البروتستانتيين قد أصبحوا كذلك في معظم الأحيان، كان يسمّي التمثال امرأته، وسيدتّه الكريمة، وكان يقبّله، مع أنه مصنوع من الرخام. وكان يقولُ إن التمثال تدبُّ فيه الحياةُ، في كلّ مساءٍ لمصلحته. حتى أنهم وجدوا السّيد الكريم ميتًا في سريره. وهكذا، فهل تصدّق ذلك؟ وقد صادف أن إنكليزيًا آخر قد اشترى ذلك التمثال. أما أنا، فلو كنتُ مكانه لعملت على أن يحولّ التمثال إلى جبس.

ما إن يباشرِ الناسُ الحديثَ مرةً في موضوع الحوادثِ الخارقةِ للطبيعة، حتى يستمروا فيه بعد ذلك، ويكونُ لكلٍّ قصتهُ التي يريدُ أن يرويها، وأدليتُ بدلوي شخصيًا في تلك الحفلة، حفلةِ الحكاياتِ المرعبة بحيث أننا قد أصبحنا جميعًا، في لحظة افتراقنا، منفعلين إلى درجةٍ لابأس بها، ومفعمين بالتقدير لسُلطة الشيطان.

رجعت إلى مسكني سيراً على الأقدام. وحتى أصل إلى شارع كورسو، فقد سلكتُ زقاقًا متعرّجًا لم أكن قد مررتُ فيه من قبل. وكان خاليًا. ولم يكن تُرى فيه غير أسوارٍ طويلة لحدائق، أو بعض البيوت البائسة التي لم يكن أيٌّ منها مُضاءً. وانتصفَ الليلُ، وكان الجوّ معتمًا. وكنتُ في وسط الشارع، وأسيرُ بسرعةٍ كافية، عندما سمعتُ فوق رأسي صوتًا خفيفًا: إست! وفي اللحظة نفسها، سقطت وردةٌ عند قدمي، فرفعت عينيّ، ولمحتُ برغمِ الظلّمة، امرأةً ترتدي البياض، في إحدى النوافذ، وهي تمدُّ ذراعها نحوي، إنّنا نحن الفرنسيين أيضًا، لائقون جداً في البلدان الأجنبية، وآباؤنا، قاهرو أوروبا قد هدهدونا بالتقاليد المخادعة، تقاليد الكبرياء الوطنية. وقد كنت مؤمنًا إيمانًا جليلاً بسرعة شغف السيدات الألمانيات، والإسبانيات، والإيطاليات بالفرنسيّ، لمجرّد رؤيتهن له. باختصار، لقد كنتُ في ذلك العهد لا أزالُ جديراً بوطني حقًّا، زدْ على ذلك أن كلامَ الوردة قد كان واضحًا جداً.

فقلتُ بصوتٍ خفيض، وأنا ألتقط الوردة:

يا سيدتي، لقد أوقعتِ باقتك...

غير أن المرأة كانت قد اختفت، والنافذةَ قد أغلقت، من غير أن تُحدث أدنى صوت، ففعلتُ مثلما كان يمكن لأيّ إنسانٍ آخر أن يفعل لو كان مكاني. بحثتُ عن أقرب باب، فكان على بعد خطوتين من النافذة. وجدته، وانتظرت أن يأتي أحدٌ ليفتحه لي، ومرّت خمسُ دقائق في صمتٍ عميق، حينذاك- سعلتُ، ثم حككتُ قليلاً. ولكن البابَ لم ينفتح؛ فعاينته باهتمامٍ أكبر، آملاً أن أجدَ مفتاحًا أو مزلاجًا. ولدهشتي الكبيرة، فقد وجدتُ فيه قفلاً نقالاً، فقلت في نفسي:

إن الغيور لم يرجع إلى منزله إذن.

التقطت حجراً صغيراً، وألقيتُ به إلى النافذة، فاصطدم بالمصراع الخارجي الخشبي، وسقط ثانية عند قدمي.

فـفكرت: - يا للشـيطان! هـل تظنُّ النسـاء الرومـيّات إذن أن المـرءَ يحـملُ سلالـم في جيبه.

لـم يحدثّني أحدٌ عن هذه العادة.

انتظرتُ بضعَ دقائق، من غير فائدة كذلك، إلاّ أنه قد بدا لي لمرةٍ أو لمرّتين بأني أرى مصـراع النافذة يرتجفُ بصورةٍ خفيـفة. وكأن أحداً قـد أراد إبعاده من الدّاخل كي ينظر إلى الشارع. وبعد مضيٍّ ربعِ ساعةٍ كان صبري قد نفد، فأشعلتُ سيكاراً، وتابعتُ طريقي، من غير أن أتعرّفَ جيداً وضْعَ ذلك البيت الموصد بالقفل.

وفي اليوم التالي، وصلتُ إلى الاستنتاجات التالية، بعد أن فكّرتُ بتلك الحادثة: إن سيدةً روميةً شابةً، ربما تكون على حظٍّ كبير من الجمال، قد رأتني أثناء تجوالي في المدينة، وقد شغفت بجاذبيتي الهزيلة. ولئن كانت لم تكاشفْني بتدلُّهها بي إلاّ من خلال إعطاء زهرةٍ ملغزةٍ، فذلك لأن احتشاماً شريفاً قد منعها من ذلك. أو لأن حضورَ مربيةٍ عجوزٍ قد ضايقها، أو ربمّا حضورَ وصيٍّ لعين من مثل بارتولو دو روزين. وقد عزمتُ على إقامةِ مركزٍ نظامي أمام ذلك المنزل الذي تسكنُه تلك الابنةُ الملكية.

خرجتُ من منزلي حاملاً هذه الخطة الجميلة، بعد أن فرشتُ شعري بطريقةٍ جذّابة، وكنت قد ارتديتُ معطفي الجديد، وقفازاتٍ صفراء، وتوجّهت مرتدياً تلك البزّة إلى الشارع الذي لم أكن أعرفُ اسمه حتى ذلك الحين. وقد أنزلت قبعتي إلى أذني، ووضعت الوردة الذابلة في عروة أحد الأزرار. ولكني لم أجدْ عناءً في اكتشاف اسمه؛ فقد أعلمتني لافتةٌ فوق صورةٍ للسيّدة بأنهم كانوا يطلقون عليه اسم: «زقاق السيّدة لوكريزيا».

أدهشني ذلك الاسم، وتذكرت حالاً صورة ليوناردو دافنشي، وحكايات الهواجس والعفاريت التي كانت تُروى في منزل المركيزة في العشية. ثم خطر لي

أن ثمة قصصًا للحبّ قد حتمت حدوثها السّماء. فلماذا لايسمّى موضوعي لوكريس؟ ولماذا لايشبه لوكريس الموجودة في رواق ألدوبراندي؟

كان النهار قد طلع، وكنتُ على بُعد خطوتين من تلك المرأة الفاتنة، ولم تكن أيةُ فكرةٍ مشؤومة تخالط الانفعال الذي كنت أُحسّ به.

كنت أمام المنزل الذي يحملُ الرّقم «١٣»، وهذا. للأسف! . . . فألٌ سيّئ، ولم يكن ينسجمُ إلاّ قليلاً مع الفكرةِ التي كنتُ قد كوّنتها عنه لأنني رأيته ليلاً. لم يكن قصرًا، وهيهات أن يكون كذلك؛ فقد كنت أرى أرضًا مسوّرةً بجدران اسودّت بفعل الزمن، ومغطاةً بالطحالب، وخلفها تقضي أغصان بعضِ الأشجار التي تحملُ ثمارًا ينخرها الدّود.

وفي إحدى زوايا الأرض المسوّرة، كان ينتصب جناحٌ من طابقٍ واحد، وله نافذتان مطلّتان على الشارع، وقد سدّتهما كلتيهما مصاريع خارجيةٌ قديمة، مجهزة من الخارج بقضبان حديدية عديدة. كان الباب واطئًا، ويعلوه ترسٌ منقوشٌ بشعار ممحو، وكان مغلقًا كما في اليوم السّابق بقفلٍ مربوط بسلسلة، وكانت تُقرأ على ذلك الباب جملةٌ مكتوبةٌ بالطبشور هي: «منزلٌ للبيع أو للإيجار».

ومع ذلك، فلم أكن مخطئًا؛ فمن تلك الناحية من الطّريق، كانت المنازل على درجة كافية من النّدرة بحيث أن أيّ خلطٍ كان غير ممكنٍ؛ وكان ذلك القفل هو قفلي فعلاً بالإضافة إلى أن ورقتين من ورقات الوردة واقعتين على الأرض، كانتا تشيران إلى المكان الدقيق الذي تلقيتُ فيه مكاشفة محبوبتي بالإشارة، وتدلاّن على أنهم قلّما كانوا يكنسون الأرض أمام المنزل.

توجّهت بالسؤال إلى بعض الناس الفقراء من الجوار لأستعلم عن مكان إقامة حارس ذلك المسكن المحاط بالأسرار.

فأجابوني على الفور:

ليس هنا.

كـان يبـدو أن سـؤالي لم يرقْ لأولئك الذين وجّهـتـه إليـهم، فـزاد ذلك من فضولي، فانتقلت من بابٍ إلى باب، وانتهى بي المطاف إلى الدّخول إلى نوع من قبوٍ مظلم، كانت تقيمُ فيه امرأةٌ عجوزٌ يمكن للمرء أن يتّهمها بمزاولة السّحر لأنها تمتلك قطًا أسود، وتطبخ لا أدري ماذا في دست.

وقالت: أنت تريد أن ترى منزل السيدة لوكريس، فأنا التي أحمل مفتاحه.

ـ حسنًا، أريني إياه.

وسألت وهي تبتسم وبلهجةٍ تنمّ عن الشكّ:

هل تودّ أن تستأجره؟

ـ أجل إذا كان يناسبني.

ـ لن يناسبـك، ولكن، هيّا، هل تعطيني كتـاب القـديس بولـس، إذا مـا أريتك إياه؟

ـ بكل طيبة خاطر.

ونهضت بخفةٍ عن كرسيّها، بعد هذا الوعد، نزعت عن الجدار مفتاحًا قد أكله الصّدأ. وقادتني إلى أمام رقم ١٣.

وقلت لها: لماذا يسمّى هذا المنزل منزل لوكريس؟

فقالت العجوز حينذاك وهي تضحك هازئةً:

لماذا يسمّونك أجنبيًا، أليس لأنك أجنبيّ؟

ـ حسنًا، ولكن من كانت تلك السيدة لوكريس؟ هل كانت سيّدة من روما؟

ـ كيف! أنت تأتي إلى روما، ولم تسمعْ عن السيّدة لوكريس! ما إن ندخل حتى أروي لك قصتّها! ولكن ها هو سحرٌ شيطاني آخر! لا أعلم ماذا أصاب هذا المفتاح إنه لايدور، حاولْ بنفسك.

لم يكن أحدٌ قد رأى القفل والمفتاح فعلاً منذ زمن طويل. ومع ذلك فبواسطة ثلاث عبارات قسم أطلقتها، وبالقدْر نفسه من صرير الأسنان، توصلتُ إلى جعل المفتاح يدورُ، غير أني مزّقت قفازيّ الأصفرين، وصدعت راحة يدي، ودخلنا إلى معبرٍ معتمٍ يفضي إلى عدة قاعاتٍ منخفضة.

كانت السّقوف الملبّسة بطريقة غريبة مغطّاةً بأنسجة العنكبوت التي لايكاد المرء يميز تحتها بعضاً من خطوط التذهيب. وكان يتّضح من رائحة العفونة التي تنبعث من الغرف كافة أنّها لم تكن مسكونةً منذ زمن بعيد. فلم تكن تُرى فيها أيةُ قطعة أثاث، وكانت تتدلّى بعض المزق الجلدية القديمة على طول الجدران المغطاة بملح البارود. وقد استنتجتُ، من نحاتة بعض الأفاريز، ومن شكل المواقد، بأن المنزل يعود بتاريخه إلى القرن الخامس عشر، ومن المحتمل أنه كان قد زُين في السّابق بشيءٍ من الأناقة. أما النوافذ ذات المربعات الصّغيرة المحطّمة في أغلبها، فقد كانت تطلّ على الحديقة التي لمحت منها شجيرةَ وردٍ مزهرة، إلى جانب بعض الأشجار المثمرة، وكميةً من قنبيط الشتاء.

وبعد أن تجولتُ في كلّ غرف القبو، صعدتُ إلى الطّابق العلويّ الذي كنت قد رأيت فيه سيدتي المجهولة، وقد حاولت العجوز أن تمنعني وذلك بأن تقول لي إنه لا شيء يستحقّ الرؤية، وإن الدّرج سيئ جداً. وحين لاحظت إصراري تبعتني، ولكن بنفورٍ جليّ. لقد كانت الغرف في ذلك الطابق تشبه الغرف الأخرى كثيراً، إلاّ أنها كانت أقلّ رطوبةً، وكانت الأرضية الخشبية والنوافذ أيضاً في حال أفضل، وفي الغرفة الأخيرة التي دخلت إليها، كانت هناك كرسيّ عريضةٌ بذراعين، وهي مصنوعة من الجلد الأسود، ولم تكن مغطاةٌ بالغبار، وهذا أمرٌ غريب، فجلست عليها، ووجدتها مريحةً لسماع قصّة ما. فرجوت العجوز أن تروي لي قصّة السيّدة لوكريس، ولكنيّ أهديتها بعضَ النقود مسبقاً كي أنعش ذاكرتها، فسعلت ومخّطت وبدأت على النحو التالي:

- كان الكسندر امبراطوراً، في زمن الوثنييّن، وكانت له فتاةٌ جميلة كالنّهار، ويسمّونها السيدة لوكريس، وهذه هي!...

استدرت باندفاع، فكانت العجوز تدلّني على حامل إفريز منحوت يسند الجسر الرئيسي للقاعة. وكان يمثّل امرأةً فاتنةً، وقد نُفّذت تنفيذاً غير متقن إلى حدّ كبير.

استأنفت العجوز قائلة: - يا سيدتنا العذراء! لقد كانت امرأة تحبُّ اللهو. وبما أن والدها كان يمكن أن يجد في ذلك ما يعيبه عليها؛ فقد ابتنت لنفسها هذا المنزل الذي نحن فيه.

« كانت تنزل كلّ ليلة من الكيرينال[1] وتأتي إلى هنا كي تلهو. وكانت تطلّ من هذه النافذة، وعندما يمرّ في الشارع فارسٌ وسيمٌ مثلك يا سيدي، كانت تدعوه، وإني أدعك تفكر فيما إذا كان يستقبل استقبالاً حسنًا؛ بيد أن الرّجال ثرثارون، أو البعض منهم على الأقلّ، وكان يمكن أن يسيئوا إليها بإفشاء الأسرار. وهكذا فقد كانت تعالجُ ذلك الوضعَ المؤسف. وحين كانت تودّع مغازلاً، كان خدمها المسلّحون يقفون على الدرج الذي صعدنا منه، فيتخلّصون منه، ثم يدفنونه في أحواض القنبيط الشتوي تلك! هيا! لقد عثروا على بقايا عظام في تلك الحديقة!

« لقد استمرت تلك اللعبة زمنًا طويلاً فعلاً. ولكن ها هو شقيقها الذي كان يُدعى سيستو تاركينو يمرُّ من تحت نافذتها مساءً، فلا تتعرّفه، وتدعوه. فيصعد، وفي الليل يصعب التمييز بين الأشياء. وقد حدث مع هذا الرجل الأخير مثلما حدث مع غيره إلاّ أنه كان قد نسي منديله الذي كان اسمه مكتوبًا عليه.

« ولم يقيّض لها أن تلاحظ قبل ذلك الأذى الذي فعله مسلّحوها، فاستبدّ بها اليأس، فحلت رباط ساقها، وشنقت نفسها بتلك العارضة الخشبية.

حسنًا! هذا هو مثلٌ يُقدَّمُ للشبيبة!».

وفيما كانت العجوزُ تخلط على هذا النحو كلّ الأزمنة، فتمزج أسرةَ تاركوان بأسرة بورجيا، كانت عيناي تحدّقان بالأرضية الخشبية، فقد اكتشفت عليها للتوّ بعضَ تويجات الوردة التي كانت لا تزال غضّة، والتي أثارت لدي الكثيرَ من الأفكار.

---

(١) الكيرينال: هي إحدى الهضاب التي بنيت عليها روما. (م: ز. ع)

وسألتُ العجوز: ـ ومن الذي يزرع هذه الحديقة؟

ـ إنه ابني يا سيّدي، وهو حدائقي السيّد ڤانوزي الذي يمتلك الحديقة المجاورة، فالسيّد ڤانوزي يقيم دومًا في لاماريم، وقلّما يجيءُ إلى روما، وهذا هو السَّبب في أنّ الحديقة ليست محطَّ عنايةٍ جيدةٍ جداً، فأضافت وهي تتنهد:

وأخشى ألا يعود مبكراً.

ـ إنه كثيرُ الانشغال مع السيّد ڤانوزي.

ـ آه! إنه رجلٌ غريب الأطوار ويشغله بأمورٍ أكثر من اللازم. . . وأخشى أن تحدث أمورٌ سيئة. . . آه! يا ولدي المسكين!

وخطت خطوةً باتجاه الباب، وكأنها تريدُ أن تقطَعَ الحديث.

فاستأنفتُ وأنا أوقفها:

ـ لا أحد يسكن هنا إذن؟

- لا أحد إطلاقًا.

- ولمَ ذلك؟.

فهزت كتفيها. وقلت لها وأنا أقدم لها قرشًا:

- اسمعي، قولي لي الحقيقة. ثمة امرأة تأتي إلى هنا.

- امرأة، يا يسوع الإله!

- أجل، لقد رأيتها بالأمس، وتكلّمتُ معها.

فصرخت العجوز، وهي تهرعُ باتجاهِ الدّرج.

- أيتها القديسة العذراء. لقد كانت السّيدة لوكريس إذن؟ لنخرجْ، لنخرج من هنا، يا سيدي الطيّب. لقد قيل لي إنها كانت تعودُ في الليل، غير أنيّ لم أشأ أن

أقول لك ذلك. كي لا أسيءَ إلى مالكِ المنزل، لأني كنت أظنّ أنك ترغبُ في استئجاره.

كان من المستحيل عليّ أن أحتجزها؛ فقد كانت متعجلةً لمغادرة المنزل، وكانت تقول: إن عليها الإسراع لتذهبَ وتقدم نذْراً إلى أقرب كنيسة.

خرجت أنا شخصياً، وتركتُها تذهب، فقد فقدت الأمل في أن أعرِفَ منها أموراً أكثر.

إن المرءَ يتكهّن بأني لم أروِ قصتي في قصرِ ألدوبراندي؛ فقد كانت المركيزةُ تتصنّعُ الحياءُ على نحوٍ مفرط. وكان دون أوتاڤيو مشغولاً بالسياسة حصراً، وإلى حدٍّ كبير بحيث لايمكنهُ أن يكون ناصحاً جيّداً في قصةِ غراميةٍ عابرة، ولكنني مضيتُ للبحثِ عن المصورّ الذي أقصدهُ والذي يعرفُ كلَّ شيءٍ في روما، من أكبر شيءٍ إلى أصغرهَ، وسألتُه عن رأيه بالأمر، فقال:

- أظن أنك قد رأيت شبحَ لوكريس بورجيا، فأيُّ خطرٍ قد واجهت! فقد كانت خطرةً جداً في حياتها، فاحكمْ بنفسك على ما يمكنُ أن تكونه الآن وهي ميتة! إن هذا الأمر يبعثُ الرّعدة.

- لندعِ المزاحَ جانباً، ماذا يمكن لذلك أن يكون؟

- أي أن السيّدَ ملحدٌ وفيلسوف، ولايؤمنُ بأكثر الأشياء جدارةً بالاحترام، حسنًا جداً، وإذن، فما قولك بهذه الفرضيةِ الأخرى؟ فلنفترضْ أن العجوزَ تُعير منزلها لنساء قادرات على مناداة الناس الذين يمرّون في الشّارع. وقد رأينا عجائزَ على درجةٍ من فسادِ الأخلاق بحيث يقمن بمهنةٍ كهذه.

فقلت:

بامتياز، ولكن يبدو إذن أن لي مظهرَ قدّيسٍ بحيث لم تقدّمْ لي العجوزُ عروضَ خدمة. إن هذا يشعرنُي بالإهانة. ثم، يا عزيزي، تذكرّ تأثيثَ المنزل، لابّد أن يكون المرءُ شديد الاضطراب كي يكتفي به.

- إذن، فهو شبحٌ لم يَعد ممكنًا أن نشك بذلك؛ فانتظر إذن، هناك فرضية أخيرة. لابدّ أنك قد أخطأت في المنزل. عجبًا! إني أتذكّر: على مقربةٍ من حديقة! باب صغير منخفض... حسنًا، إن لاروزينا صديقةٌ قديمة لي. ولم يمضِ أكثر من ثمانية عشر شهراً منذ أن كانت زينةَ الشّارع، صحيح أنها قد غدت عوراء، غير أن هذا تفصيلُ بسيطٌ، فلا يزال منظرُ وجهها جميلاً جداً، من جانبه.

لم ترضني كلُّ تلك الإيضاحات، فما أن حلَّ المساءُ، حتى مررتُ على مهلٍ من أمام منزل لوكريس، فلم أرَ شيئًا، ومررتُ ثانية، فلم أرَ أكثر مما رأيت. وعلى مدى ثلاث أماس أو أربعة، وقفت طويلاً تحت نوافذه، وأنا راجعٌ من قصر ألدوبراندي، من غير أيّ نجاحٍ يُذكَر دائمًا. وبدأت أنسى الساكنةَ الغامضة للمنزل رقم ١٣، عندما سمعُ بوضوح، أثناء مروري في الزّقاق، عند منتصف الليل، ضحكةً خفيضةً لامرأة من خلف مصراعِ النّافذة التي كانت مقدّمةُ الباقات قد ظهرت لي منها، سمعتُ ذلك الضحك الخفيفَ مرّتين، ولم أستطعْ أن أدفعَ عن نفسي نوعًا من الرُّعب، عندما رأيتُ، في الوقت نفسه، جماعةً من التائبين تصلُ إلى الطّرف الآخر من الطريق، مغطاة الرّؤوس، وتحملُ شموعًا في أيديها. وكانت تحملُ ميتًا إلى المدفن. وعندما مرّوا، انتصبتُ تحت النافذة، كحارس، ولكني لم أعدْ أسمعُ شيئًا حينذاك. وحاولتُ أن أرمي حصى، وحتى أنني ناديتُ على نحوٍ واضحٍ تقريبًا، فلم يظهرْ أحد، واضطرّتني زخةُ مطرٍ أتت فجأةً للانسحاب.

إني أخجلُ من القولِ كم من المرّات توقّفتُ أمام ذلك المنزل اللّعين من غير أن أتمكّن من التوصّل إلى حلّ اللغز الذي كان يعذّبني. ومررتُ مرةً واحدةً في زقاقِ السّيدة لوكريزيا مع دون أوتافيو، وكاهنه الذي لا مفرَّ منه، فقلت:

هذا هو منزلُ لوكريس.

فلاحظتُ أن لونَ وجهه قد تغيَّر.

وأجاب:

أجل - إن تقليداً شعبياً، غيرَ مؤكّدٍ إلى حدٍّ بعيد، يزعمُ أن لوكريس بورجيا كانت تمتلكُ بيتًا صغيراً هنا، ولو كان يمكنُ لهذه الجدران أن تتكلّم لكشفت لنا عن الكثيرِ من الفظاعات! ومع ذلك، يا صديقي، فعندما أُقارنُ ذلك العهدَ بزمننا، أحسُّ بالأسف عليه، ففي عهدِ الكسندر السّادس، كان لايزالُ هناك رومانيّون، أما الآن، فلم يعدْ هناك أحدٌ منهم. وقيصرُ بورجيا كان وحشاً، ولكنه رجلٌ عظيم. كان يريدُ أن يطردَ الأعاجمَ من إيطاليا. ولو قُيِّض لوالده أن يعيشَ، فربما كان باستطاعته أن يُنجزَ ذلك الهدفَ العظيم. آه! فلتعطِنا السّماءُ طاغيةً مثل بورجيا، وليحرّرنا من هؤلاء البشر المستبدين الذين يخبلون عقولنا.

عندما كان دون أوتاڤيو يندفعُ في الميادينِ السياسية، كان من المستحيل إيقافُه. كنا قد أصبحنا في ساحة الشّعب، ولم يكن تقريظَه، للحكم الاستبداديّ المستنير قد انتهى بعد، غير أننا كنّا على بُعدِ مئةِ فرسخٍ من لوكريس التي أعنيها.

ذات مساء، كنتُ ذاهبًا في وقتٍ متأخرٍ لأقدّم للمركيزة تحياتي واحترامي، فقالت لي إن ابنها متوعّكُ الصحة، ورجتني أن أصعد إلى غرفته. فوجدتُه راقداً على سرير، بكاملِ ملابسه، وهو يقرأُ صحيفةً فرنسيةً كنتُ قد أرسلتُها إليه في الصّباح، مخبأةً بعنايةٍ في أحدِ مجلّدات كتاب: آباء الكنيسة: فقد كنّا نستخدمُ مجموعةَ الآباءِ القدّيسين، منذُ بعض الوقت، في مراسلاتنا التي كان ينبغي إخفاؤها عن الكاهن وعن المركيزة. وأثناء أيام بريد فرنسا، كانوا يجلبون لي كتابًا من القطعِ النصفي، وكنت أُعيد كتابًا آخر أدسُّ فيه صحيفةً كان أمناء سرّ السّفارة يعيرونني إياها. وكان ذلك يُعطي المركيزةَ ومديرَها فكرةً ساميةً عن تديُّني، وكان مديرُها أحيانًا يرغبُ في أن يتحدّثَ معي في اللاهوت.

وبعد أن تحدثتُ لبعضِ الوقت مع أوتاڤيو، ولاحظتُ أنه كان شديدَ الاضطراب إلى درجةِ أن السّياسة نفسها لم يكن من شأنها أن تجتذبَ اهتمامه، وأوصيتُه بأن ينزعَ ثيابَه، وودّعتُه. كان الطقسُ بارداً. ولم يكن لدي معطفٌ، فألحَّ عليّ دون أوتاڤيو لآخذ معطفَه، فقبلتُه، وتلقيتُ درسًا في الفنّ الصّعب، فنّ التلفّعِ بملابسِ رومانيّ حقيقيّ.

تدثّرتُ حتى أنفي، وخرجتُ من قصرِ ألدوبراندي. وما إن قمتُ ببضعِ خطوات على رصيف ساحة القديس- مرقص حتى اقتربَ مني رجلٌ من عامة الشّعب كُنتُ قد لاحظته جالساً على مقعدٍ، عند باب القصر، ومدَّ إلى ورقةً مدعوكة، وقال:

من أجل محبّة الرب، اقرأ هذه.

واختفى حالاً، وهو يركضُ بسرعةٍ كبيرة.

كنت قد أمسكت بالورقة، وأخذتُ أبحثُ عن ضوءٍ كي أقرأ. فلاحظتُ، على ضوء مصباحٍ مضاءٍ أمامَ صورةٍ للعذراء، أن تلك الورقة كانت بطاقةً مكتوبةً بقلم الرّصاص، وبيدٍ مرتعشةٍ، كما كان يبدو، وقد قرأتُ بصعوبةٍ كبيرة حروفَ الكلماتِ التالية:

«لا تأت هذا المساء، أو نهلك! إنّهم يعرفون كلّ شيء باستثناء اسمك، فلاشيء يمكن أن يفرّق بيننا- حبيبتُك: لوكريس».

فصحتُ: - لوكريس، لوكريس ثانية! أيُّ خداعٍ شيطانيّ موجود في خفايا هذا الأمر كلّه؟ «لا تأتِ». ولكن، يا حسنائي، أيةُ طريقٍ يسلكُها المرءُ كي يذهبَ إليك؟.

أخذت أسلكُ آليًّا الطريق إلى زقاق السّيدة لوكريزيا، وأنا أقلّب الفكر بصدد تلك البطاقة، ووجدتُ نفسي بعد قليل قُبالة المنزل رقم «١٣».

كان الشارعُ مقفراً كالمعتاد، وكان دبيبُ قدمي يعكّرُ وحده الصّمتَ العميق الذي يُهيمنُ في الجوار، فوقفتُ ورفعتُ عينيّ نحو نافذةٍ معروفةٍ لديّ فعلاً، ولم أخطئ في تلك المرّة، فقد أُزيحَ مصراعُ النافذة الخارجي.

وانفتحت بصورةٍ كاملة.

ظننتُ أني أرى شكلاً بشريًّا يبرزُ على خلفيةِ الغرفة السوداء.

وقلت بصوت خفيض: يا لوكريس، هل هذا أنت؟فلم يردّ علي أحدٌ، غير أني سمعت اصطفاقًا خفيفًا، لم أدرك سببه في البداية، فاستأنفت قائلاً بصوت أعلى قليلاً: يالوكريس، أهذا أنت؟

وفي اللحظة نفسها، تلقيت ضربةً رهيبةً في صدري، وسُمع انفجارٌ، فوجدت نفسي ممدّدًا على أرض الغرفة.

وصرخ بي صوتُ مبحوح:

هذا من قبل السيدة لوكريس!

وانغلق مصراعُ النافذة بلا صوت.

فنهضتُ حالاً، وأنا أتمايلُ، وتلمّستُ نفسي في البداية، ظنًّا مني أني سأجدُ ثقبًا كبيرًا في وسط معدتي. وكان المعطفُ مثقوبًا، وكذلك ملابسي. غير أن الرّصاصةَ قد أُخمدت في ثنيات القماش، ولم أُصَبْ إلاّ بكدمة قوية.

خطرت لي فكرة مفادُها أنّه يمكن لطلقة ثانية فعلاً ألا تتأخّر، وجررتُ نفسي في الحال مجانبًا ذلك المنزل غيرَ المضياف، وأنا أسيرُ بمحاذاة الجدران بحيث لايمكن التصويبُ عليّ.

كنت أبتعدُ بأسرع ما أستطيع، وأنا لاأزالُ ألهثُ، عندما أمسك ذراعي رجلٌ لم أكن قد لاحظتُه خلفي، وسألني باهتمام إن كنتُ جريحًا.

تعرفتُ دون أوتافيو من صوته. ولم تكن اللّحظةُ مناسبةً لأطرحَ عليه الأسئلة، بسبب الدهشة التي اعترتني لرؤيته بمفرده في الشارع، في تلك الساعة من الليل.

فقلت له، باختصار شديد، إنه قد جرى اطلاقُ النّار عليّ من نافذة معينة، وإني لم أُصَبْ إلاّ بكدمة.

فصرخ قائلاً: -إنه خطأ! ولكني أسمعُ أناساً قادمين. فهل تستطيعُ السّير، فإن يرونا معاً، أهلَك. ومع ذلك، فلن أتخلّى عنك.

أمسك بي من ذراعي، وسحبني بسرعة، فسرنا، أو على الأصحّ، ركضنا بقدر ما استطعتُ الركضَ. غير أني اضطررتُ سريعاً إلى الجلوس على أحد الحدود كي ألتقطَ أنفاسي. حينذاك وجدنا أنفسنا، لحسن الحظ، على مسافةٍ قريبة من منزلٍ كبير يقدمّون فيه حفلةً راقصةً. وكان هناك عددٌ من العربات أمامَ الباب؛ فمضى دون أوتاڤيو ليأتي بإحداها وجعلني أصعد إليها، ورافقني إلى نزلي، وبعد أن جعلني تناولُ قدحٍ كبيرٍ من الماء أستعيدُ صحّتي تماماً، رويتُ له بالتفصيل كلّ ما حدثَ لي أمام ذلك المنزل المشؤوم، منذ هديةِ الوردة، حتى هدية طلقة الرّصاص.

كان يصغي إليّ، وهو يُخفضُ رأسه التي كان يخبّئُها جزئياً بإحدى يديه. وعندما أريتهُ البطاقةَ التي تلقيتُها للتو، أمسك بها، وقرأها بفهم، وصاح أيضاً:

إنها غلطةٌ، غلطةٌ فظيعة!

فقلت له: سوف توافقُني، يا عزيزي، على أنّها غلطةٌ مزعجةٌ بالنسبة لي، وبالنسبة لك أيضاً. فقد كادوا يقتلونني، وأحدثوا عشرة إلى اثني عشر ثقباً في معطفك الجميل. سحقاً! يا لمواطنيك من حاسدين!

كان دون أوتاڤيو يشدُّ على يدي، والأسفُ بادٍ على وجهه، ويُعيدُ قراءة البطاقة من غير أن يجيبني.

فقلتُ له: فلتحاولْ إذن أن تقدّم لي تفسيراً ما لهذه القضية كلّها، وليأخذْني الشيطانُ إن كنتُ أفهمُ منها شيئاً.

وهزّ كتفيه، فاستأنفتُ قائلاً:

ماذا ينبغي أن أفعل على أية حال؟ ولمن يتعيّن علي أن أتوجّه. في مدينتك المقدّسة كي ينصفني من ذلك السّيِّد الذي يقنصُ المارة من غير أن يسألهم حتى عن أسمائهم. وأقرّ لك بأن شنقه سوف يبهجني.

فصاح: احترس جيداً في هذا! فأنت لاتعرفُ هذا البلد، ولا تقلْ لأحدٍ عما حدث لك، فأنت تعرّض نفسك للخطر كثيراً.

- كيف. أأعرض نفسي للخطر؟ سحقًا! إني أنوي أن أثأر لنفسي فعلاً، ولو كنتُ قد أهنتُ إنسانًا فظًا، لما قلتُ شيئًا. إنما لأنني التقطتُ وردةً... بصراحة، لم أكن أستحقّ رصاصةً.

فقال دون أوتاڤيو: اتركْني أتصرف، ولربّما أتوصّل إلى إيضاحِ هذا السرّ الغامض. ولكني أطلبُ منك كفضلٍ علي، وكدليلٍ بارز على صداقتك لي، لاتتحدّثْ عن هذا الأمر لأحدٍ في العالم، فهل تعدُني بذلك؟

كان يبدو عليه الحزنُ الشديدُ، وهو يرجوني، بحيث لم تكن لدي الشجاعةُ لأقاومه، فوعدتهُ بكلّ ما أراده. وشكرني بعاطفةٍ دافقة، وبعد أن ألصقَ بنفسه ضمادةً مشربةً بماء الكولونيا على صدري، شدَّ على يدي وودّعني.

وسألتهُ، وهو يفتح البابَ ليخرج:

بالمناسبة، أوضح لي إذن كيف كنتَ موجوداً هناك، في اللحظة المناسبة كي تأتي إلى مساعدتي؟

فأجاب: لقد سمعتُ طلقة البندقية، فاعتراني بعضُ الاضطراب، وخرجتُ حالاً لخشيتي من أن يكونَ قد حدث لك مكروهٌ.

تركني على عجل، بعد أن أوصاني مجدّداً بحفظِ السرّ.

وفي الصباح، أتى لزيارتي جراحٌ أرسله من غير شكٍ دون أوتاڤيو، وقد وصفَ لدي كمّادةً لاصقة، ولكنه لم يطرح أيّ سؤالٍ عن السّبب الذي أحدثَ لي هذا الجرحَ في صدري (خلَطَ أزهارَ البنفسج مع زنابق صدري). إنكم متكتمون في روما، وأردتُ أن ألتزم بعاداتِ البلد.

مضت بضعةُ أيامٍ من غير أن أتمكّن من التحدُث مع أوتاڤيو بحريّة؛ فقد كان لايزالُ منشغلَ البال، ومكتئبًا أكثرَ من المعتاد أيضاً. زدْ على ذلك أنه كان يبدو لي

أنه يسعى لتحاشي أسئلتي، وأثناء اللحظات النّادرة التي أمضيتُها معه، لم يقلْ أيّةَ كلمةٍ حول الزائرين الغريبين لزقاق السيدة لوكريزيا. وكان الوقت المحدَّدُ لاحتفالِ رسامته كاهنًا يقتربُ، وكنت أعزو كآبته إلى نفوره من المهنة التي كانوا يجبرونه على اتخّاذها.

أما أنا، فكنتُ أتهيأ لمغادرةِ روما، والذهاب إلى فلورنسا. وما إن أعلنتُ للمركيزة أولدوبراندي عن رحيلي حتى رجاني دون أوتاڤيو أن أصعد إلى غرفته، تحت حجةٍ لا أدري ما هي.

وهناك أمسك يديّ الاثنتين، وقال لي:

ياصديقي، إذا لم تمنحني الفضل الذي أطلبه منك. فلن أطلق رصاصة في رأسي بالتأكيد. فما من وسيلةٍ أخرى لدي للخروج من المأزق. لقد عقدتُ العزم تمامًا على ألاّ أرتدي الثوبَ القبيحَ الذي يريدون أن يجعلوني ألبسه. أريدُ أن أهربَ من هذه البلاد. وما أريدُ أن أطلبه منك، هو أن تصحبني معك. ولسوف تجعلُهم يظنّون أني خادمك. ويكفي أن تُضافَ كلمة واحدةٌ إلى جواز سفرك لتسهيل هروبي.

حاولتُ في البداية أن أثنيه عن نيّته، وذلك بأن حدثّته عن الغمّ الذي سوف يسبّبه لوالدته. غير أني حين وجدته لاينثني في عزمه، انتهى بي الأمر إلى أن أقطعَ له وعدًا بأن آخذه معي، وأن أرتّب جوازَ سفري بناءً على ذلك.

وقال لي: ليس هذا كلّ مافي الأمر؛ فرحيلي يرتبطُ أيضًا بنجاح مشروعٍ انخرطتُ فيه. وأنت تريدُ أن ترحَلَ بعدَ غد. وربمّا أكون قد نجحتُ بعد غدٍ، فأكون حينذاك لك بكلّيتي.

وسألته من غير قلق: هل أنتَ على درجةٍ من الجنون بحيث تورطتَ في مؤامرةٍ ما.

فأجابني: كلا، إن المسألة تتعلّق بمصالح أقلّ خطورةً من مصير وطني، ولكنها على درجة كافية من الخطورة بحيث ترتبطُ حياتي وسعادتي بنجاح مشروعي. ولايسعني أن أكلّمك عن هذا الأمر أكثر الآن، ولسوف تعلمُ كلَّ شيءٍ بعد يومين.

كنت قد بدأتُ أعتادُ على السرّ الخفيّ، فرضختُ. واتفقنا على أن نرحلَ في الساعة الثالثة صباحًا، وألا نتوقّفَ إلاّ بعد أن نصلَ إلى الأراضي التوسكانية.

وبما أني كنتُ مقتنعًا بأنه من غير المفيد أن أنامَ قبل الرحيل، في مثل تلك السّاعة المبكّرة، فقد شغلت السّهرةَ الأخيرة التي كان علي أن أُمضيها في روما في القيام بزيارات إلى كلّ المنازل التي استقبلتُ فيها. وذهبتُ لأودّع المركيزة، وأصافح، ابنها رسمياً، وحفاظًا على الشكليات. وشعرتُ أن يدَه كانت ترتجفُ في يدي، وقال لي بصوتٍ جدّ خفيض:

في هذه اللحظة، حياتي في الميزان، ولسوف تجدُ عندما ترجعُ إلى نزلك رسالةً مني، إذا لم أكن عندك في السّاعة الثالثة تمامًا، فلا تنتظرني.

أثّر بي تبدّلُ قسمات وجهه، ولكني عزوتُ ذلك إلى انفعالٍ طبيعيّ جداً من جهته، في اللّحظة التي سيفترقُ فيها عن أسرته ربمّا إلى الأبد.

حوالي الساعة الواحدة تقريبًا، رجعت إلى مسكني، وأردت أن أمرَّ، مرةً أخرى أيضًا، على زقاق السيدة لوكريزيا، كان ثمة شيء أبيض يتدلّى من النافذة التي رأيت فيها تجليّين جدّ مختلفين. واقتربتُ بحذرٍ، فكان ذلك حبلاً معقّدًا، فهل كان ذلك دعوةً للذهابِ من أجل توديعِ السّيدة، كان الأمرُ يبدو كذلك تمامًا. وكان الإغراءُ شديداً. ومع ذلك، فلم أرضخْ له عندما تذكّرتُ الوعدَ الذي قطعتُه لدون أوتاڤيو. وكذلك الاستقبال غير المستحبّ، ولابدّ من قول ذلك، والذي سببته لي جسارةٌ أقل بكثير، قبل بضعة أيام.

تابعتُ طريقي، وإنما ببطء، فقد أسفتُ لأنني قد أضعتُ الفرصةَ الأخيرةَ لاكتشاف أسرارِ ذلك المنزل رقم ١٣ الغامضة. وكنت، عند كلّ خطوةٍ أخطوها،

أديرُ رأسي، متوقّعًا دائمًا أن أرى شكلاً بشريًا ما يصعد أو ينزلُ على طول الحبل. ولم يظهر شيءٌ. فوصلتُ أخيرًا إلى نهايةِ الزّقاق، وكنتُ أهمّ بالدّخول إلى كورسو.

فقلت، وأنا أرفعُ قبّعتي للمنزل الذي كنتُ لاأزالُ ألمحه:

وداعًا، أيتها السّيدة لوكريس، ابحثي، من فضلك، عن شخصٍ آخر غيري، كي يثأر لك من الغيور الذي يسجنُك.

كانت الساعةُ الثانية، عندما رجعتُ إلى نزلي، وكانت العربةُ في الباحةَ، وقد تمّ تحميلُها وسلّمني أحدُ خدمِ النّزل رسالةً، وكانت رسالةُ دون أوتافيو. وبما أنها كانت تبدو لي طويلةً، فقد رأيتُ بأنّه من الأفضل أن أقرأها في غرفتي، وقلتُ للخادم أن يقدّمَ لي إيضاحًا.

فقال لي: ياسيّدي، إن خادمك الذي كنت قد أعلمتنا به، والذي يُفترَضُ أن يسافر مع السّيد...

- حسنًا، هل أتى؟

- كلا، يا سيّدي.

- إنه في البريد، وسوف يأتي مع الخيول.

- لقد أتت يا سيدي منذ قليل سيدةٌ، وطلبت أن نتكلّم مع خادم سيدي، وأرادت بإصرارٍ أن تصعد إلى غرفةِ سيدي، وكلّفتني أن أقول لخادمِ سيدي، حالما يصل، إن السّيدة لوكريس كانت في غرفتك.

فصرخت، وأنا أشدُّ بقوةٍ على حاجزِ الدرج:

في غرفتي؟

- أجل، يا سيدي، ويبدو أنها مسافرةٌ أيضًا؛ فقد أعطتني علبةً صغيرة، وقد وضعتها على البقرة.

كان قلبي يدقّ بقوة، ولا أدري أي مزيجٍ من الرُّعبِ التطيُّري، والفضول قد استولى علي. فصعدت السّلم درجةً فدرجة، وحين وصلتُ إلى الطابق الأول (فقد كنت أقيم في الثاني) تعثّر الخادم الذي كان يسبقُني، ووقعت الشمعةُ التي كان يمسكُها في يده، وانطفأت؛ فأخذ يعتذرُ مني أشدّ الاعتذار. ونزل ليشعلها من جديد، ومع ذلك، فقد كنتُ أتابع الصعود.

كنت قد أمسكت مفتاح غرفتي بيدي، فترددّت. فأيّةُ رؤية ستظهر أمام عيني؟ كانت قد رجعت إلى ذاكرتي قصةُ الراهبة بدمائها. فهل كنتُ تحت تأثير شيطانٍ من مثل دون ألونسو؟ لقد بدا لي أن خادم النّزل قد تأخّر تأخُّرًا مرعبًا.

فتحتُ بابي، فشكرًا للسّماء! كان ثمة ضوء في غرفةِ نومي؛ فاجتزتُ بسرعةٍ غرفةَ الاستقبال الصّغيرة التي تتقدّمُها. فكانت نظرةٌ واحدة كافية لتُثبت لي أنه لم يكن هناك أحدٌ في غرفة نومي. ولكني سمعت خلفي في الحال وقعَ خطواتٍ خفيفة، وحفيفًا لفستانٍ، وأظنُّ أن شعري كان ينتصبُ على رأسي، فاستدرتُ فجأة.

كانت امرأةٌ ترتدي الأبيض، ورأسُها مغطاةٌ بخمارٍ أسود تتقدَّمُ، وذراعاها ممدودتان، وهتفت وهي تمسك يدي:

ها أنت أخيرًا، يا حبيبي!

كانت يدُها باردةً كالجليد، وقسماتُها مصطبغةً بشحوبِ الموت، فتراجعتُ إلى الجدار.

- أيتها السيدة العذراء، ليس هذا هو!... السّيد، هل أنت صديقُ دون أوتافيو؟

عندما لفظتُ هذه الكلمة، اتّضح كلُّ شيء، أما المرأةُ، فبرغم شحوبها، لم يكن يبدو عليها أنها شبحٌ إطلاقًا. كانت تُخفِضُ عينيها، وهذا ما لا تفعلُه الأشباحُ قط، وتجعلُ يديها متصالبتين على مستوى زنارها، وتتخذُ وقفةً متواضعةً جعلتني

أظنّ أن صديقي دون أوتاڤيو لم يكن سياسيًا عظيمًا بالقدْر الذي كنتُ أتصورّه فيه. باختصار، كان الوقتُ قد حان تمامًا لاختطاف لوكريس. ولسوء الحظّ، فإن دورَ كاتمِ الأسرار قد كان الدّورَ الوحيد الذي خُصّص لي في تلك المغامرة.

بعد لحظةٍ من الزمن، وصل دون أوتاڤيو متخفيًا، وأتت الجيادُ، فانطلقنا، ولم يكن لدى لوكريس جوازُ سفر. ولكن المرأةَ، والمرأةَ الحسناء، قلّما توحي بالشكوك، ومع ذلك فقد أبدى أحدُ رجالِ الشرطة تشددًا، فقلت له إنه رجلٌ نبيلٌ. ومن المؤكّد أنه قد خدَم في عهد نابوليونَ العظيم، فأقرّ بذلك، وأهديته صورةً من الذّهب لذلك الرجلِ العظيم، وقلت له إني معتادٌ على السفر مع صديقة[1] ترافقني. وإني كنتُ أظنّ أن لافائدة من وضع أسمائهن على جواز سفري، نظرًا لأنّي غالبًا ما أبدلّهن.

وأضفت قائلاً:

أما هذه، فترافقني إلى المدينةِ التالية، وقد قيل لي إني سأجدُ هناك نساء أخريات يفضلنها.

فقال لي الشرطيّ، وهو يغلقُ بابَ العربة باحترام: ستكون مخطئًا إذا بدلّتها.

إذا كان لابدّ أن أقول لك كلّ شيء، ياسيّدتي، فإن ذلك الخائنَ دون أوتاڤيو قد تعرّفَ تلك المرأة اللّطيفة التي هي شقيقة شخصٍ اسمه ڤانوزي، وهو مزارعٌ غنيّ، ومعروفُ بسلوكه السيّئ كرجلٍ ليبراليّ قليلاً، ومهربٍ كبير. وكان دون أوتاڤيو يعرفُ جيدًا أنه ما كان لعائلته أن توافقَ قطّ على أن تدعه يتزوج فتاةً من وضعٍ اجتماعيّ أدنى من وضعه الاجتماعي إلى تلك الدّرجة، حتى لو لم تكن قد كرّسته للكنيسة.

إن الحبّ خلاق. وقد توصّل تلميذُ رئيسِ الدّير نيغروني إلى إقامة اتصّال سرّي مع حبيبته؛ ففي كلّ الليالي، كان يهربُ من قصر ألدوبراندي. وبما أنَ تسلّق

(١) بالإيطالية، في النص (م: ز. ع).

منزل ڤانوزي كان غيرَ مأمون، فقد كان العشيقان يتواعدان في منزل السيّدة لوكريس الذي كانت سمعتُه السيّئةُ تؤمّن لهما الحمايةَ فيه. وكان ثمة بابٌ تخفيه شجرةُ تينٍ يجعلُ الحديقتين متّصلتين. أما لوكريس وأوتاڤيو، فلم يكونا يشكيان من عدمِ كفايةِ أثاثهما الذي كان يقتصر على مقعدٍ مُريحٍ من الجلد، كما أظنّ أني قد قلتُ ذلك قبلاً.

ذات مساء، ظنت لوكريس، وهي تنتظر دون أوتاڤيو أني هو؛ فقدّمت لي الهدية التي تحدثت عنها في موضعها. صحيحٌ أن ثمةَ تشابهاً في القامة، والهيئة بين دون أوتاڤيو وبيني، وكانت تزعمُ بعضُ ألسنةِ السّوء التي عرفت والدي في روما أن هناك ما يسوّغ ذلك الأمر. وحدث أن اكتشف الشقيقُ الملعونُ تلكَ المغامرة الغرامية. غير أن تهديداته لم تقدرْ على إجبارِ لوكريس على كشفِ اسم مغويها. ونحن نعلم ماذا كان انتقامُها، وكيف أني كدتُ أدفعُ الثمنَ عن الجميع. ولافائدة من أن أقول لكم كيف لاذ العشيقان بالفرار، كلٌّ من ناحيته.

خاتمة: - وصلنا ثلاثتنا إلى فلورنسا، فتزوّج دون أوتاڤيو من لوكريس، وسافر معها إلى باريس في الحال. وقد استقبله والدي الاستقبال ذاته الذي أحاطتني به المركيزة. وأخذ على عاتقه التفاوضَ من أجل مصالحته. وقد أفلح في ذلك بعد عناء. وقد أصيب المركيز ألدوبراندي بحمى السّبخات في الوقت المناسب، فمات بسببها، فورث دون أوتاڤيو لقبه وثروته، وأنا عرّابُ طفله الأول.

٢٧ نيسان ١٨٤٦

- ٥ -

الغرفة الزّرقاء

إلى السيّدة دو لارون

في رواق محطة سكة الحديد، كان أحدُ الشبّان يتجولُ والاضطرابُ بادٍ عليه، وكان يلبسُ نظّارةً زرقاء، ومع أنه ليس مصابًا بالزكام، فقد كان يضعُ باستمرار منديلاً على أنفه، ويمسُك كيسًا يحتوي، كما عرفتُ ذلك فيما بعد، مبذلاً من الحرير، وسروالاً تركيًا.

كان يذهب من وقت لآخر إلى باب المدخل، وينظر إلى الشارع، ثم يسحبُ ساعته، وينظر إلى منّبه المحطة. ولم يكن القطار ينطلقُ إلاّ بعدَ ساعة، غير أن هناك أناسًا يخشون دائمًا أن يتأخّروا. وذلك القطار لم يكن من تلك القطارات التي يستقلها الناسُ المتعجّلون فكان فيه القليلُ من عربات الدرّجة الأولى. ولم تكن تلك الساعةُ هي الساعة التي تسمح لسماسرة الأوراق المالية أن يذهبوا، بعد انتهاء الصفقات التجارية كي يتناولوا العشاء في منزلهم الرّيفي. وحين بدأ المسافرون يفدون، صار بوسع رجلٍ باريسي أن يتعرّفَ مزارعَ الضّاحية، وباعتها الصّغار من هيئتهم. ومع ذلك، فقد كان قلبُ الفتى ذي النظارة الزرقاء ينفتحُ مثلَ بالونٍ في كل مرة تدخلُ فيها امرأة إلى المحطة، وفي كلّ مرة، تتوقّفُ فيها عربةٌ عند بابها. وكانت ركبتاه ترتجفان، ويوشكُ كيسُه أن يفلتَ من بين يديه، وأن تسقطَ نظّارتُه عن أنفه التي كانت موضوعةً عليه، ولا نلحُّ على ذلك، بصورةٍ منحرفة. وكان الأمرُ أسوأ فعلاً، عندما ظهرت، بعد انتظارٍ طويل، ومن بابٍ جانبي، امرأة ترتدي الأسود، وتغطّي وجهها بخمارٍ سميك، وكانت آتيةً بالتّحديد من النقطة الوحيدة التي لم تكن موضوعَ ملاحظةٍ دائمة، وهي تمسكُ بيدها حقيبةً من جلد الماعز، بنّية اللون، وتحتوي، كما اكتشفتُ فيما بعد، مبذلاً رائعًا، وخفًا من السّاتان الأزرق. وتقدّمت المرأةُ والشابّ، كلٌّ منهما نحو الآخر، وهما ينظران يمنةً ويسرةً، وليس إلى الأمام إطلاقًا، والتحما وتلامسا بالأيدي، ومكثا بضعَ دقائق، من غير أن يقولا أيّة كلمة، وهما يرتعشان ويختلجان وقد وقعا تحتَ تأثيرِ أحدِ تلك الانفعالات المؤثّرة التي أعطي مقابلها مئةَ عام من حياة فيلسوف.

وقالت المرأة الشابة (وقد نسيت أن أقول إنها كانت شابةً ومليحة)، عندما استعادا قوتهما للكلام:

يا ليون، أية سعادةٍ هذه، يا ليون! ما كان لي أن أتعرّفك قطّ بهذه النظّارة الزرقاء.

- أية سعادة! ماكان لي أن أتعرّفك بهذا الخمارِ الأسود قط.

فاستأنفت قائلة:

أية سعادة! فلنأخذْ أماكننا بسرعة، كيلا ينطلق القطارُ بدوننا!...

(وشدّت ذراعه بقوّة)، فلا أحدَ يشكُّ بشيء. وأنا في هذه اللحظة مع كلارا وزوجها في الطّريق إلى منزلها الريّفي، حين يُفتَرضُ أن أودّعها غداً... وأضافت وهي تضحكُ وتُخفض رأسَها. وقد مضت ساعةٌ على سفرها. وغداً... وبعد أن أمضى السّهرة الأخيرة معها... (ومن جديد، شدّت على ذراعه) غداً، في الصّباح، ستتركني في المحطّة حيث ألتقي أورسولا التي أرسلتُها قبلي، إلى منزل عمتي... أوه! لقد احتطتُ لكلّ شيء! فلنأخذ بطاقاتنا... فمن غير الممكن أن يكشفونا أوه! وإذا ما سألونا عن اسمينا في النّزل؟ لقد نسيتُ كلّ شيء...

- السيدة والسيد دورو.

- أوه! كلا، ليس دورو. فقد كان ثمةَ حذاء يسمّى هكذا في المنزل المفروش.

- وإذن، ديمون؟

- دومون.

- على بركةِ الله، ولكنهم لن يطلبوا منا شيئًا.

وقرع الجرس، فانفتح بابُ غرفة الانتظار، فاندفعت المرأةُ الشابة إلى عربةِ جيادٍ مع رفيقها الشاب، وهي لاتزالُ تَضعُ خمارها بعناية. ورن الجرسُ للمرة الثانيةَ، فأغلق بابُ مقصورتهما، وهتفا بفرح- نحنُ وحدنا!.

ولكن رجلاً على مشارف الخمسين من عمره، يرتدي ملابس سوداء بالكامل، دخل إلى العربة ذاتها، في الوقت نفسه تقريباً، وجلس في إحدى الزّوايا برزانة، والضّجر بادٍ عليه. وصفرت القاطرةُ؛ فبدأ القطار يتحرك. أما الشابّان اللذان انسحبا إلى أبعد موضع، فقد أمكنهما الوصولُ إليه عن طريق جارهما غير المريح؛ فقد أخذا يتحدّثان بصوت خفيض باللغة الإنكليزية، زيادةً في الحذر.

فقال المسافرُ الآخر باللغة ذاتها، وبلهجة بريطانية أكثر نقاءً فعلاً من لهجتهما:

- ياسيّدي، إذا كان لديكما أسرار تريدان أن تبوحا بها؛ فمن الأفضل ألا تقولاها بالإنكليزية أمامي. فأنا إنكليزيّ. ويؤسفني أن أزعجكما، غير أن رجلاً كان بمفرده في المقصورة الثانية. وقد اتخذ مبدأ بعدم السّفر قطّ مع رجل منفرد... وكان ذلك الرجل يشبه يهوذا في سحنته، وكان يمكن لهذه أن تغريه.

وأشار إلى حقيبة السّفر التي يحملها، والتي كان قد ألقاها أمامه، على أحد المساند.

- على أية حال، فأنا سأقرأ، إذا لم أنمْ.

وفي الواقع، فقد حاول بصدق أن ينام، وفتح حقيبته، وسحب منها عمرةً مناسبة، ووضعها على رأسه، وأبقى عينيه مغمضتين، خلال بضع دقائق، ثم فتحهما ثانية بحركة تنمّ عن فراغ صبر. وبحث في حقيبته عن نظارة، ثم عن كتاب يوناني، وأخيراً أخذ يقرأ بكثير من الاهتمام. فلكي يُخرج الكتاب من الحقيبة، كان لابدّ له أن يُبعثر أغراضاً عديدةً متراكمة بلا نظام. ومن بين تلك الأغراض، سحب من المواضع العميقة في الحقيبة رزمةً ضخمة من الأوراق النقدية الصّادرة عن مصرف إنكلترا، ووضعها على المقعد الموجود قبالته، وقبل أن يُعيد وضعها في الحقيبة، أراها الشابّ، وسأله عن إمكانية أن يجد تبديلاً للعملة الورقية في مصرف ن***

- هذا محتمل، وهو على طريق انكلترا.

كانت ن*** هي المكان الذي يتوجّه إليه الشابان. وكان في ن*** فندقٌ صغير يبالغ في النظافة إلى حدٍّ كافٍ. وقلّما يتوقّفُ الناسُ فيه إلاّ مساء السبت. ويزعمون أن غرفهُ جيدة، ولم يكن مدير العاملين فيه، والخدم بعيدين عن باريس إلى حدٍّ كاف بحيث لايتّصفون بتلك النقيصةِ الريفية. أما الفتى الذي أسميته ليون قبلاً، فقد كان يعرفُ ذلك الفندق، منذ بعض الوقت، من غير نظارةٍ زرقاء. وبناءً على التقرير الذي قدّمه عنه، كان يظهر أن صديقته قد أبدت رغبتَها في زيارته.

ومن ناحيةٍ أخرى، فقد ألفت نفسها، في ذلك النهار، في حالةٍ ذهنيةٍ قد تبدو لها فيها جدرانُ السجن مفعمةً بالسّحر، إذا ما سُجنت مع ليون.

ومع ذلك، فقد كان القطارُ يتابع سيره، وكان الإنكليزيّ يقرأ في كتابه اليوناني، من غير أن يدير رأسه نحو رفيقيه اللذين كانا يتحدّثان بصوتٍ خفيضٍ جداً لايمكن إلاّ للعشاق أن يتفاهموا بها. ولعليّ لا أفاجئ قرّائي، وإذا قلتُ لهم إنّهما عاشقان بكلّ ما لهذا التعبير من قوّة. أما الأمر الذي يدعو للأسف، فهو أنّهما لم يكونا متزوّجين، وأن هناك أسبابًا تحولُ دون أن يكونا كذلك.

وصل القطارُ إلى ن***، فنزل الإنكليزيّ أولاً، وفيما كان ليون يساعد صديقته على الخروج من العربة، من غير أن تظهر ساقيها، اندفع رجلٌ من المقصورة المجاورة إلى رصيف المحطة. كان شاحبًا، وحتى أصفر الوجه، وكانت عيناه غائرتين، ومحتقنتين بالدّم. أما لحيته فكانت مشعّثةً. وهي علامة غالبًا ما يستدلُّ بها المرء على المجرمين العُتاة. كانت بدلته نظيفةً ولكنّها مهترئة للغاية. أما معطفُه، الذي كان أسودَ قديمًا، وأصبح الآن رماديًا، في الظهر، وعند المرفقين، فقد كان مزررًا حتى ذقنه ليخفي ربّما صدريةً رثة أكثر ضيقًا. وتقدّم نحو الإنكليزيّ، وقال له بلهجةٍ شديدة التّواضع:

يا عمّي! . . .

فصاح الإنكليزي الذي التمعت عيناه ببارقة غضب:

دعني بسلام، أيّها التّافه[1].

وخطا خطوة كي يخرج من المحطة.

واستأنف الرجلُ الآخر، بلهجةٍ متوعدّة تقريباً، وتثير الشفقة في آن:

لا تدفعني إلى اليأس[1].

وقال الإنكليزيّ الشيخُ، وهو يلقي حقيبة سفره عند قدميّ ليون:

هل تريد أن تتكرّم وتحرس لي حقيبتي للحظةٍ من الزّمن؟

وأمسك في الحال ذراع الرجل الذي كان يدنو منه، واقتاده أو على الأصحّ، دفعه إلى إحدى الزوايا التي كان يأملُ ألاّ يسمعه أحدٌ فيها. وهناك، كلّمه للحظةٍ من الزّمن بلهجةٍ شديدة القسوة، كما كان يبدو، ثم سحبَ من جيبه بعض الأوراق، ودعكها، ووضعها في يد الرّجل الذي كان يدعوه عمّه. فأخذ هذا الأخير الأوراق النقدية من غير أن يشكره، وابتعد في الحال تقريباً وتوارى.

ليس هناك غير فندق واحد في ن ***، فلا ينبغي إذن أن ندهش إذا كانت كلُّ شخصيات هذه القصة الحقيقية قد التقت ثانية، بعد بضع دقائق. إن كلّ مسافرٍ يحالفه الحظّ بمرافقة امرأةٍ حسنة المظهر يكون واثقاً، في فرنسا من الحصول على أفضل غرفةٍ في كافّة الفنادق.

وهكذا فقد أصبح أمراً مُثبتّاً أنّنا الأمّة الأكثر تأدّباً في أوروبا.

ولئن كانت الغرفة التي أعطيت لليون هي أفضل غرفة؛ فمن التهوّر أن نستنتج من ذلك أنها ممتازةٌ. كان فيها سريرٌ من خشب الجوز، وستائر فارسيّة يرى المرءُ قصة بيرام وتيسبيه مطبوعةً عليها باللّون البنفسجي. أما الجدران فكانت مغطّاةً

(١) الجملتان واردتان بالإنكليزية في النص الفرنسي. (م: ز.ع).

بورق ملوّن يمثّل منظراً من نابولي، وفيه العديدُ من الشخصيات. ومن المؤسف أن يكون مسافرون متعطّلون ومزعجون قد أضافوا شوارب وغلايين على تلك الوجوه الذكريّة والأنثوية، كما أن الكثير من الحماقات النثريّة والشّعرية المكتوبة بأقلام الرّصاص كانت تُقرأ على صورة السّماء والبحر. وكانت تعلّق على تلك الخلفية بعضَ الصّور من مثل «لويس-فيليب يقسم اليمين لميثاق عام ١٨٣٠، واللقاء الأول بين جوليا وسان برو، و «انتظار السّعادة والندم»، حسب السيّد دوبوف». كانت تلك الغرفة تسمّى الغرفة الزرقاء، لأن المقعدين الموجودين على يمين وشمال الموقد كانا من مخمل أوتريخت الأزرق اللّون؛ غير أنهما كانا، لسنواتٍ عديدة، مخبئين تحت قمصان قطنية رمادية، ذات شرائط قطيفية[1] اللون.

وفيما كانت خادماتُ الفندق يُبدين مجاملاتهن للواصلة الجديدة، ويقدّمن لها عروض خدماتهن، مضى ليون إلى المطبخ ليأمر بالعشاء؛ فهو لم يكن مجرّداً من الحسّ السّليم، مع أنه عاشقٌ. وكان يتعيّن عليه أن يستخدم كلّ فصاحته، وبعضَ وسائل الرشوة ليحصل على الوعد بإعداد عشاءٍ منفرد. غير أن فزعه كان كبيراً، عندما علم أنّ السّادة، ضباط فرقة الخيالة الثالثة الذين سيحلّون محلّ السّادة ضبّاط فرقة القنّاصة الثالثة في ن*** من المفروض أن يجتمعوا بهؤلاء الأخيرين، في قاعة الطّعام الرئيسة، أي بجانب غرفة ليون، وذلك في اليوم نفسه، كي يحضروا عشاءً وداعياً تسودُ فيه روحٌ وديّة عاليةٌ. وقد أقسم صاحب الفندق أغلظ الإيمان بأن السّادة الخيالة، والسّادة القنّاصة معروفون في المدينة كلّها برقّتهم وتعقّلهم، بصرف النّظر عن ذلك المرحِ الذي يُعدّ طبيعياً عند العسكريين الفرنسيين كافّة، وأن جيرتهم لن تسبب أدنى إزعاجٍ للسيّدة؛ فعادةُ السّادة الضبّاط هي أن ينهضوا عن المائدة قبل منتصف اللّيل.

وإذ كان ليون يتّجه نحو الغرفة الزّرقاء، بناءً على طمأنة صاحب الفندق التي كانت تثير قلقه إلى درجةٍ غير قليلة، لاحظ أن رجُله الإنكليزيّ يشغل الغرفة

---

(١) أي: حمراء نبيذية. (م: ز.ع).

المجاورة لغرفته، وكان الباب مفتوحًا. أما الإنكليزيّ، الذي كان جالسًا إلى طاولة عليها قدحٌ وزجاجةٌ، فقد كان ينظر إلى السّقف باهتمامٍ عميق، وكأنّه يعدُّ الذباب الذي يتجوّل فيه.

وقال ليون في نفسه: وما أهمية الجوار! فالإنكليزيُّ سينام بعد قليل، وسيذهب الخيّالة قبل منتصف الليل.

كان اهتمامه الأوّل، عندما دخل إلى الغرفة الزّرقاء، هو أن يتأكّد من أن أبواب الاتّصال مغلقةٌ جيداً، وأن لها مزاليج؛ فمن جهة الإنكليزي، كان هناك بابٌ مزدوجٌ، وكانت الجدران سميكة. ومن جهة الخيالة، كان الحائط أكثر رقّةً. ولكن الباب كان يحمل قفلاً ومزلاجًا. وبعد كلّ حساب، فقد كان هناك حاجزٌ من التطفّل هو أكثر فعالية بكثيرٍ من ستائر عربة، وكم من الناس يظنّون أنهم معزولون عن العالم داخل عربة!

إن الخيال الأكثر غنًى لايمكنه بالتأكيد أن يتصوّر اغتباطًا أكثر اكتمالاً من اغتباط عاشقين شابين يجدان نفسيهما، بعد انتظارٍ طويلٍ، وحدهما، بعيداً عن الحاسدين، والفضوليّين، وهما يتبادلان رواية معاناتهما الماضية، على مهلهما، ويتذوّقان ملذّات الاتّحاد الكامل، غير أن الشّيطان يجدُ دومًا الوسيلةَ كي يسكب قطرةً مريرةً في كأس السّعادة.

لقد كتب جونسون، ولم يكن الأوّل في هذا؛ فقد أخذه عن يوناني، أنه مامن إنسانٍ يستطيع أن يقول لنفسه: «اليوم، سأكون سعيدًا». إن هذه الحقيقة التي أقرّها، في حقبةٍ زمنيةٍ قديمة جدًا، أكبرُ الفلاسفة، هي حقيقةٌ يجهلها عددٌ من أناسنا الفانين، وخصوصًا معظم العاشقين منهم.

أما ليون وحبيبته فقد فُرض عليهما أن يعانيا الكثير من الحديث الذي كان هؤلاء السّادة يتجاذبونه، في القاعة المجاورة، في الوقت نفسه الذي يتناولان فيه عشاءً متواضعًا جدًا في الغرفة الزرقاء، ومؤلّفًا من بعض الأطباق المختلسة من

مأدبة القنّاصة والخيّالة الذين كانوا يتناولون في حديثهم الاستراتيجية والتكتيك، وإني حريصٌ فعلاً على ألاّ أنقله.

كان ذلك الحديثُ سلسلةً من القصص السّخيفة، وكلّها تقريبًا قصصٌ مستهترةٌ، ترافقها ضحكاتٌ صاخبةٌ كان من الصّعب أحيانًا على عاشقينا ألاّ يشاركا فيها. فلم تكن حبيبة ليون متصنّعةً في احتشامها، غير أن هناك أشياء لانحبُّ سماعها، حتى لو كنا وحدنا مع من نحبُّ. وأخذ الموقفُ يُصبح محرجًا أكثر فأكثر. وفيما كان يجري تقديمُ الحلويّات إلى السّادة الضبّاط، ظنّ ليون أنه يتعيّن عليه أن ينزل إلى المطبخ كي يرجو صاحبَ الفندق أن يبيّن لهؤلاء السّادة أن هناك امرأةً مريضةً في الغرفة المجاورة، وأنّه ينتظر من تأدُّبهم أن يقبلوا بإحداث ضجّةٍ أقلّ.

كان رئيس الخدم، كما يجري في المآدب الجماعيّة شديد الارتباك، ولايدري على أيّ شخصٍ يردّ. وفي اللحظة التي كان ليون يقدّم فيها رسالته الموجّهة إلى الضبّاط، كان أحدُ الخدم يطلبُ منه نبيذ الشّامبانيا من أجل الخيّالة، وتطلبُ منه خادمةٌ نبيذَ بورتو من أجل الرّجل الإنكليزي.

وأضافت: قلتُ له إنه ليس لدينا منه.

أنت حمقاء، لديّ كلُّ أنواع الخمور، وسوف أجدُ له بعضًا من البورتو! هاتي لي زجاجة الراتافيا[1]، وزجاجة معتّقةً من خمسة عشر عامًا وكرازًا صغيراً من ماء الحياة[2].

وبعد أن صنع صاحبُ النّزل بعضًا من نبيذ البورتو بمهارة، دخل إلى القاعة الكبيرة، وقام بالمهمة التي كلّفه بها ليون منذ قليل، فأثارت في البداية عاصفةً غاضبة.

---

(١) خمرة فيها ربّ الفواكه. (م: ز.ع).

(٢) خمرة مسكرة قوية. (م: ز.ع).

ولكن صوتًا خفيضًا كان يهيمن على كل الأصوات الأخرى طلبَ أن يعرف أيّ صنفٍ من النساء كانت جارتهم، فسيطر نوعٌ من الصّمت، وأجاب صاحبُ النزل:

- الواقع، أيها السّادة، أني لا أعرف كثيراً ماذا أقول لكم. فهي جدٌّ لطيفة، وشديدةُ الحياء. وتقول ماري - جان إنها تضعُ خاتم زواجٍ في إصبعها. ومن الممكن حقًّا أن تكون عروساً قد أتت إلى هنا لتُنهي العرس، مثلما تأتي غيرها من العرائس أحيانًا.

فصاح أربعون صوتًا:

عروس؟ يجب أن تأتي لتشرب معنا نخبًا! ولسوف نشربُ على صحتها، ونعلّم زوجها واجباته الزّوجية.

عند هذه الكلمات، سُمع صوتُ مهامز قويٌّ، فارتجف عاشقانا، فقد ظنّا أن غرفتهما سوف تُقتحم. ولكن صوتًا ارتفع فجأة، فأوقف تلك الحركة. وكان واضحًا أن المتكلّم قائدٌ؛ فوبّخ الضبّاط على عدم لياقتهم، وأصدر أمرًا إليهم بالجلوس من جديد، وبأن يتكلّموا باحتشامٍ، من غير صُراخ. ثم أضاف بعضَ الكلمات بصوتٍ خفيض جداً، بحيث لايُسمع من الغرفة المجاورة، ولقد أصغى الضبّاط إليها باحترام، ولكنها أثارت مع ذلك مرحًا مكتومًا وبدءاً من تلك اللحظة، سيطر في قاعة الضبّاط سكونٌ نسبيّ، أما عاشقانا اللذان باركا سُلطةَ الانضباط الخلاصيّة؛ فقد أخذا يتكلّمان بعفويةٍ أكبر. . . إنما كان يلزمهما الوقتُ، بعد ذلك القدر من الإزعاج، كي يسترجعا الانفعالات العذبة التي عكّرها القلقُ، ومضايقات السّفر، وخصوصًا الابتهاج الفظّ لجيرانهما، تعكيراً شديداً. ومع ذلك، ففي مثل عمرهما، ليس الأمرُ شديدَ الصّعوبة؛ فكان من الممكن أن ينسيا سريعًا كلَّ مزعجات رحلتهما المليئة بالمخاطر كي لايفكّرا إلاّ بنتائجها الأكثر أهميّة.

لقد ظنّا للأسف، أن الصّلح قد عقُد مع الخيالة! ولكن ذلك لم يكن سوى حلم. وحين أصبحا على مسافة ألف فرسخٍ من ذلك العالم الأرضي[١]، في اللحظة التي كانت أبعد ما تكون عن توقّعهما، هاهي أربعةٌ وعشرون بوقًا تدعمها بعض المتردّدات[٢] تصدحُ باللّحن الذي يعرفه الجنودُ الفرنسيون: النصرّ لنا! فما هو السّبيل للتصدي لعاصفةٍ من ذلك النّوع؟ لقد أصبح العاشقان المسكينان جديرين بالرّأفة.

كلاّ، لم يكونا جديرين كثيراً بالرأفة، ففي النهاية، غادر الضباط قاعة الطعام، ومرّوا بالتّتابع من أمام باب الغرفة الزرقاء، وهم يقرقعون بسيوفهم، ومهامزهم بقوة، ويصرخون واحداً تلو الآخر:

مساء الخير، ياسيدتي العروس!

ثم توقفت كلُّ ضجة. لقد أخطأت فقد خرج الإنكليزيُّ إلى الممرّ وهتف:

- أيها الخادم! اجلب لي زجاجةً أخرى من نبيذ البورتو نفسه.

أعيد الهدوء إلى فندق ن ***، وكان الليلُ رقيقًا، والقمرُ بدراً؛ فمنذ زمنٍ موغلٍ في القدم، والعشّاق يروق لهم أن ينظروا إلى كوكبهم. وفتح ليون وحبيبتُه نافذتهما التي كانت تُطلُّ على حديقةٍ صغيرة، واستنشقا بلذّةٍ الهواء الرّطب الذي كان يعطرّه معرّشٌ من الياسمين البريّ.

ولم يمكثا طويلاً على النافذة مع ذلك، فقد كان هناك رجلٌ يتجوّل في الحديقة، خافض الرأس، ومكتوف اليدين، وهو يضع سيكاراً في فمه. وظنّ ليون أنه يتعرّف فيه ابنَ أخِ الانكليزي الذي يحبُّ نبيذَ البورتو.

إني أكره التّفاصيل غير المفيدة، زدْ على ذلك، أني لا أظنّ نفسي مضطراً لأقول للقارئ كلَّ ما يمكن أن يتخيّله بسهولةٍ، وأن أروي ساعةً بعد ساعةٍ كلَّ ماحدث في فندق ن*** سأقول إذن إن الشمعة التي كانت تحترق على الموقد

---

(١) أو: تحت القمري (أي أنهما ارتفعا إلى أجواء الحبّ القمرية): (م: ز.ع).

(٢) المتردّدات: أبواق ذات نفيرين. (م: ز.ع).

الذي لانار فيه، في الغرفة الزّرقاء، قد ذاب أكثرُ من نصفها، عندما سُمع، في شقّة الرّجل الإنكليزي التي كانت هادئةً قبل قليل، سُمع صوتٌ غريبٌ، مثل ذلك الصوت الذي يمكن أن يحدثه جسمٌ ثقيل، وهو يسقط. ورافق هذا الصّوت نوعٌ من قرقعة ليست أقل غرابة منه، تلتها صرخةٌ مخنوقة، وبعضُ الكلمات غير الواضحة التي تشبه إطلاق لعنة. فارتعد ساكنا الغرفة الزرقاء، وربما يكونان قد أُيقظا منتفضين. وقد أحدث ذلك الصوت الذي لم يجدْ له أحدُ هذين السّاكنين والآخر منهما تفسيراً، أحدث لكليهما انطباعًا مشؤومًا تقريبًا.

وقال ليون وهو يجبر نفسه على الابتسام:

إن رجلنا الإنكليزي يحلمُ.

ولكنه أرادَ أن يطمئن رفيقته، فارتعش بدون إرادةٍ منه، وبعد دقيقتين أو ثلاث دقائق، انفتح بابٌ في الممر بحذر، كما يبدو، ثم انغلق بهدوء شديد، وسمعت خطوةٌ بطيئةٌ وغير ثابتة، وكانت تسعى إلى إخفاء نفسها على الأرجح.

فصاح ليون قائلاً:

يا للنّزل اللعين!

فردّت المرأة الشابة وهي تدعُ رأسها تسقط على كتف ليون:

آه! إنه الفردوس! . . . وأنا أموت من النعاس . . .

وتنّهدت، وعادت إلى النوم في الحال تقريبًا.

قال أحد الكتّاب الأخلاقيين الشهيرين إن الناس ليسوا ثرثارين قطّ حين لايعود لديهم شيءٌ يطلبونه. فلا ندهش إذنْ إذا لم يقم ليون بأية محاولةٍ لاستئناف الحديث عن فندق ن *** أو للكلام على الضجيج فيه. لقد كان منشغل البال، رغمًا عنه، بتلك الأصوات وكان خيالُه يربط بها ظروفًا عديدة لم يكن ممكنًا أن يعيرها أيّ اهتمام. لو كان في حالةٍ ذهنيةٍ أخرى. وكان وجه ابن أخِ الرّجل

الإنكليـزي يرجعُ إلى ذاكـرته . وكـان ثمّة حـقـد في النّظرة التي كـان يوجّهـهـا إلى عـمه، في الـوقت نفسه الذي كان يكلّمه فيه بخضوع، لأنه، بلا شك، كان يطلبُ منه نقوداً .

وأيُّ شيء أكثر سهولة، بالنسبة لرجلٍ لايزال شابًا، وقـويّ البنيـة، ويائساً فضلاً عن ذلك، من أن يتسلّق من الحديقة إلى الغرفة المجاورة؟ زدْ على ذلك أنه كان يقيمُ في الفندق . إذ أنه كان يتجوّل في الحديقة ليلاً . وربّما . . . وعلى الأرجح حتى . . . ومن دون ريب، وأنه كان يعرفُ أن حقيبة عمّه السّوداء تحتوي على حزمةٍ أوراقٍ نقـدية ضـخـمـة . . . وتلك الضّربة المـخنوقـة التي تشـبـه ضـربةَ دبّوسٍ على جمجمةٍ صلعاء! . . . تلك الصّرخة المخنوقة! . . . وتلك الشتيمة المرعبة! وتلك الخطا بعد ذلك! كان لابن الأخ ذاك وجهُ قـاتل . . . إنمـا لايجـري اغـتـيالٌ في فندقٍ مليء بالضّباط . لاشكّ أن ذلك الإنكليزي قد أغلق المزلاج كرجلٍ حذر، خصوصاً وأنّه يعرفُ أن غـريب الأطوار موجودٌ في الأماكن المحيطة بالفندق . . . كـان لايثق به . إذ أنه لم يرد أن يدنو منه، وهو يحمل بيده حقيبته . . . لماذا ينساق المرء لأفكارٍ فظيعة حين يكون مغموراً إلى تلك الدرجة بالسّعادة؟

هذا ما كان ليون يقوله لنفسه ذهنيًا . وفي غمرة أفكاره التي سأتجنّب تحليلها مطولاً على نحوٍ أكبر، والتي كـانت تحضرُه مشوّشةً مثل رؤى حلمٍ ما تقريبًا . كان يحدّق آليًا بباب الاتّصال، فيما بين الغرفة الزرقاء وغرفة الرّجل الإنكليزي .

إن الأبواب تنغلق انغلاقًا رديئًا في فرنسا . وبين هذا الباب والأرضية الخشبية كان ثمة فراغ لايقلُّ عن سنتمترين، وفجأة ظَهَر، في ذلك الفراغ الذي ينُيره بصعوبةٍ لمـعـان الأرضـيـة الخـشـبـيـة ظهـر شيءٌ ضـاربٌ إلى السّواد، ومُسطحٌ ويشـبـه حـدّ السكين، لأن حـافّته التي يقعُ عليـها ضوء الشمعة، يتبدّى مثلَ خيطٍ رفيعٍ، شديد الالتـماع . وكـان يتـحرك ببطء باتجـاه خفّ من السّاتان الأزرق ملقًى من غير تحفّظ على مسـافـة قـريبـة من ذلك البـاب . فـهل كـان ذلك حـشـرةً تشـبـه أمّ أربع وأربعين؟ . . . كـلاّ، إنهـا ليـسـت حـشـرةً، ليس لذلك الشيء شكلٌ مـحـدّد . خيطان أو ثلاثة خيـوط بنُية، وكلٌّ منها يحمل خطًا من الضّوء على حوافه، قد دلفت إلى الغرفة . إن

حركتها تتسارع، بفضل انحناء الأرضية الخشبية . . . إنها تتقدّم بسرعة، وتأتي لتلامس الخفّ الصّغير. لم يعدْ هناك شكّ! إنه سائل، وهذا السّائل ويمكن للمرء الآن أن يرى لونه بوضوح على ضوء الشّمعة. هذا السّائل دم! وفيما كان ليون ينظرُ بذعرٍ إلى تلك الخيوط المرعبة، من غير حراك، كانت المرأة مستمرّة في نومها الهادئ. وكان تنفّسها المنتظم يُدفئ عنق حبيبها وكتفه.

إن الاهتمام الذي كان ليون قد أولاه طلبَ العشاء حين وصوله إلى فندق ن*** يثبت بصورة كافية أن لديه عقلاً راجحًا، وذكاءً عاليًا، وأنه يحسن التكهن بالأمور. ولم يكذب، في تلك المناسبة، السّمة التي أمكن الاعتراف له بها من قبل؛ فلم يأت بأية حركة واتجهت كلُّ قوة فكره بجهدٍ لاتخاذ قرارٍ معيّن لمواجهة المصيبة المخيفة التي تهدّده.

أتصور أن معظم قرائي، وخصوصًا قارئاتي، المفعمين بالمشاعر البطولية، سوف يلومون في هذه المناسبة سلوك ليون وعدم تحرّكه. ولسوف يقال لي إنه كان يتعين عليه أن يهرع إلى غرفة نوم الرّجل الإنكليزيّ، وأن يوقف القاتل، أو، على الأقل، أن يدقّ جرسه، وينذر خدم الفندق. ولسوف أردّ على هذا أولاً أنه ما من أجراسٍ في فنادق فرنسا إلاّ لتزيين الغرف، وأن حبالها لاتتّصل بأيّ جهازٍ معدني. وسأضيف باحترام، ولكن بجزمٍ أنه إذا كان أمرًا سيئًا أن تترك إنكليزيًا يموت قريبًا منك، فليس أمرًا تُحمد عليه أن تضحّي للإنكليزي بامرأة تنام مستندةً إلى كتفك. فماذا كان يمكن أن يحدث لو أن ليون قد أحدث ضجّة توقظُ الفندق؟ كان رجال الشرطة والمدّعي الامبراطوري، وكاتبه يمكن أن يصلوا في الحال. وقبل أن يسألوه عما رآه وسمعه؛ فإن هؤلاء السّادة سيكونون فضوليين بسبب مهنتهم، بحيث يقولون له بادئ ذي بدء:

ماذا تدعى؟ هات أوراقك! والسيدة؟ ماذا كنتما تفعلان معًا في الغرفة الزرقاء؟ سوف يتعيّن عليكما أن تمثلا في محكمة الجنايات لتقولا في أي يومٍ من أيِّ شهر، وفي أيةِ ساعةٍ من الليل كنتما شاهدين على تلك الواقعة.

إن فكرة المدّعي الامبراطوري، ورجال القضاء هي بالضبط الفكرة التي خطرت أولاً في ذهن ليون. إن في الحياة أحياناً مشكلات ضميرية يصعب حلّها. أمن الأفضل أن يترك مسافرٌ مجهولٌ يذبح أم أن تتلطّخ سمعة المرأة التي نحبّها فيقضى عليها؟

من المزعج أن يكون على المرء أن يطرح على نفسه مشكلةً كهذه، وإني أعطي الأكثر مهارة...

صنع ليون إذن ما يمكن أن يصنعه بضعة أشخاص لو كانوا مكانه: لم يتحرك.

لقد مكث طويلاً وكأنه مسحورٌ، وهو يحدق بالخفّ الأزرق، وبالجدول الصّغير الأحمر الذي كان يصلُ إليه. كان يبلّل صدغيه عرقٌ باردٌ، وقلبهُ يدق في صدره حتى ليكاد يمزّقه.

كان يستحوذُ عليه حشدٌ من الأفكار، والصّور الغريبة والمرعبة، وكان يصرخ به صوتٌ داخليٌّ في كل لحظة: «بعد ساعة، سيعرفون كلّ شيء، هذا هو خطؤك!». ومع ذلك، فلكثرة ما يقول المرء في نفسه: ماذا سأفعل في سجن الأشغال الشاقّة هذا؟» سينتهي به الأمر إلى أن يلمعَ بصيص أمل. إنه يقولُ في نفسه أخيراً:

ليتنا نغادر هذا النزل اللعين قبل اكتشاف ما حدث في الغرفة المجاورة. فلربّما أمكننا أن نجعلهم يفقدون أثرنا. فلا أحدَ يعرفُنا هنا، ولم يرني أحدٌ إلاّ بنظّارتي الزّرقاء. ولم يرها أحدٌ إلاّ وهي تضعُ خمارها. إننا قريبان من محطة قطار، وسنكون بعيدين عن ن*** في غضون ساعة.

ولما كان ليون قد درس دليلَ القطارات طويلاً كي ينظم رحلته، فقد تذكّر أنّ قطاراً سيمرُّ في السّاعة الثامنة، منطلقاً إلى باريس. وبعد ذلك، سرعان ما يضيعان في تلك المدينة الهائلة الاتّساع والتي يختبئ فيها العديدُ من الآثمين. فمن يمكنه أن

يعثر فيها على شخصين بريئين؟ ولكن ألا يدخل إلى غرفة الرّجل الإنكليزيّ، قبل السّاعة الثامنة؟ لقد كان السّؤال كلّه يكمن في ذلك الأمر.

وبما أنه كان مقتنعًا بأنه ليس لديه قرارٌ آخر يتّخذه، فقد قام بجهدٍ يائسٍ كي يهزّ الهمود الذي استولى عليه مدة طويلة. ولكن رفيقته الشابّة استيقظت لدى أول حركةٍ قام بها، وقبّلته بنشوةٍ. وعندما لامست خدّه المتبرّد، أفلتت منها صرخةٌ صغيرة، وقالت له بقلق: ما بك، إن جبينك باردٌ كالرّخام.

فأجاب بصوتٍ ينقصه الثّبات:

هذا لاشيء، لقد سمعت صوتًا في الغرفة المجاورة...

تملّص من بين ذراعيها، وأبعد الخفَّ الأزرق أولاً، ووضع مقعدًا أمام باب الاتصال بحيث يحجب عن صديقته السّائل المرعبَ الذي أصبح في ذلك الحين يشكّل بقعةً عريضةً على الأرضية الخشبية، بعد أن توقّف عن الانتشار. ثم فتح الباب الذي يطلُّ على الممر جزئيًا، وأصغى بانتباه: وحتى أنه تجرأ على الاقتراب من باب الرّجل الإنكليزي. وكان هذا الباب مغلقًا. وأصبحت هناك بعضُ الحركات في الفندق. وأخذ النهار يطلعُ، وكان خدمُ الاسطبل يحثّون الخيول في الباحة، وينزل الدّرج ضابطٌ من الطّابق الثّاني وهو يحدث رنينًا بمهمازيه لقد كان ذاهبًا ليدير ذلك العمل المفيد الذي يروق للخيول أكثر مما يروق للبشر، والذي يسمّونه بعبارات فنيّة: تهيئة الحذاء[1].

دخل ليون إلى الغرفة الزرقاء، وعرض على صديقته الموقف الذي يجدُ نفسه فيه، مستخدمًا كلّ ضروب المراعاة التي يمكن للحبِّ أن يبتكرها، ومستندًا إلى المواربات الكلامية والتلميحات.

فالبقاء خطرٌ والرحيل المتعجّل أكثر من اللازم خطرٌ، وهناك خَطَرٌ أكبر أيضًا، إذا ما انتظرا في الفندق إلى أن تُكتشف كارثة الغرفة المجاورة.

(١) أي: الاستعداد للرحيل. (م: ز.ع).

لافائدة من أن نتحدث عن الذعر الذي سبّبه ذلك الإطْلاع الذي قام به ليون، وعن الدموع التي تلته، وعن الاقتراحات التي قدّمت أولاً. فكم من المرات ارتمى كلٌّ من التعيسين بين ذراعي الآخر، وهما يتبادلان القول: «سامحني! سامحيني!». كان كلٌّ منهما يعدّ نفسه مذنبًا، وتواعدا على أن يموتا معًا؛ فالمرأة الشابّة لم يكن لديها شكٌّ بأن العدالة لن تجدهما مذنبين بمقتل الرّجل الإنكليزي. وبما أنهما لم يكونا متأكّدين من أنّه سوف يُسمح لهما بأن يقبّل كلّ منهما الآخر على المشنقة أيضًا؛ فقد كانا يتبادلان القُبل، حتى ليكادا يختنقان، ويتنافسان على الابتلال بدموعهما. وأخيراً، وبعد أن قالا الكثير من الأشياء المنافية للعقل، والعديد من الكلمات الرقيقة والمؤثّرة؛ فقد أقرّا وهما غارقان وسط ألف قبلة بأن الخطّة التي يفكّر ليون فيها، أي الرّحيل في قطار السّاعة الثامنة هي، في الواقع، الخطّة الوحيدة التي يمكن تطبيقها، وأفضل خطّة يمكن اتباعها. غير أنه بقي عليهما أن يُمضيا ساعتين مميتتين. وقد كانا يرتعشان بكلّ فرائصهما، عندما يسمعان أية خطوةٍ في الممرّ، وكانت كلُّ طقطقة جزمةٍ تُنذرهما بوصول المفوّض الامبراطوري لقد أعدّا بطرفة عينٍ صندوقهما الصّغير، وكانت المرأة الشّابة تريدُ أن تحرق الخفَّ الأزرق في الموقد، غير أن ليون التقطه، وبعد أن مسحَه على سجادة السّرير، قبّله ووضعه في جيبه، وأصيب بالدهشة عندما وَجَد أنه يفوح برائحة الفانيليا، فقد كانت صديقته تضعُ عطراً هو باقة زهور الامبراطورة أوجينيا.

كان كلُّ الناس قد استيقظوا في الفندق، فأخذت تسمع أصوات الصّبية الذين يضحكون، والخادمات اللواتي يغنّين، والجنود الذين ينظّفون ملابس الضبّاط بالفرشاة. وكانت السّاعة قد دقت سبع دقّات، فأراد ليون أن يجبر صديقته على تناول فنجان القهوة والحليب، بيد أنها أعلنت أن حنجرتها شديدة الانقباض إلى درجة أنّها قد تموتُ، إذا ما حاولت أن تشرب شيئًا.

أمّا ليون الذي كان مجهّزًا بنظارته الزّرقاء، فقد نزل ليدفع حسابه، وقد استماحه صاحبُ الفندق عذراً عن الضجيج الذي حدث، وعن كونه لايزال غير

قادر على تقديم الإيضاحات؛ طالما كان هؤلاء السّادة الضبّاط جدّ هادئين دائمًا! وقد أكدّ له ليون بأنّه لم يسمع شيئًا، وأنه قد نام على الوجه الأكمل.

فتابع صاحب الفندق قائلاً:

ـ فمثلاً، لم يكن لجارك، في الناحية الأخرى، أن يزعجك؛ فذلك الرّجل لايحدث الكثير من الضجّة، وأراهن أنه لايزال نائمًا مطمئنّ البال.

استند ليون على المبسط لئلا يسقط، وتعلّقت المرأة الشّابة التي كانت تريدُ أن تتبعه، بذراعه، وهي تشدُّ خمارها إلى أمام عينيها.

وتابع صاحبُ الفندق من غير رحمة:

ـ إنه سيّدٌ إنكليزي، ويطلب باستمرار أفضلَ الأشياء! إنه رجلٌ جيّد ولائق! ولكن الإنكليز ليسوا جميعًا مثله. فقد كان ههنا واحدٌ منهم شديد البخل! فهو يجدُ كلَّ شيء غالي الثمن: الشقة والعشاء. وكان يريدُ أن يحسب لي ورقته النّقدية بمئةٍ وخمسين فرنكًا، وهي ورقةٌ نقديةٌ من ذات الخمسة جنيهات استرلينية، وصادرةً عن مصرف إنكلترا... وعسى أيضًا أن تكون ورقةً سليمةً!... وإذن، يا سيدي، لابدّ أنك خبيرٌ بهذا الأمر، وقد سمعتك تتكلّم الإنكليزية مع السيّدة... فهل هي ورقةٌ سليمةٌ.

كان صاحبُ الفندق، وهو يتكلّم على هذا النّحو، يعرضُ على ليون ورقةً من ذات الخمسة جنيهات استرلينية. وعلى إحدى زواياها، كانت هناك بقعةٌ صغيرةٌ حمراء، فاتّضح الأمر لليون حالاً، وقال بصوتٍ مخنوق:

ـ أظنّ أنها سليمةٌ تمامًا.

فاستأنف صاحبُ الفندق قائلاً:

ـ أوه! لديكما الوقتُ الكافي؛ فالقطار لايمرّ إلاّ في السّاعة الثامنة، وهو يتأخرُ دائمًا، فتفضّلي بالجلوس، يا سيدتي، يبدو أنك متعبةٌ...

في تلك اللحظة، دخلت خادمةُ سمينةٌ، وقالت:

- احضروا الماء السّاخن بسرعة من أجل الشّاي للسيّد الإنكليزي! واجلبوا أيضًا اسفنجة، فقد كَسَر زجاجته، وغرقت غرفته كلّها.

عند هذه الكلمات، ترك ليون نفسه يرتمي على كرسيّ، وفعلت رفيقته كذلك، وسيطرت على كليهما رغبةٌ شديدةٌ في الضّحك. وبذلا بعض الجهد كي لايقهقها، وشدَّت المرأة الشّابة على يده بفرح.

وقال ليون لصاحب الفندق:

- بالتأكيد، لن نسافر إلاّ في قطار السّاعة الثانية، فحضروا لنا غداءً جيداً عند الظهيرة.

بياريتز، أيلول، ١٨٦٦.

- ٦ -

لــوكيــــــس

مخطوطة للأستاذ ڤيتمباك

- ١ -

قال الأستاذ ڤيتمباك: يا تيودور، أعطني من فضلك ذلك الدفتر المجلّد بالرقّ، على الرفّ الثاني، فوق المكتب؛ كلاّ، ليس هذا، بل قَطْعَ الثُّمن الصّغير؛ فقد جمعت فيه كلّ مدوّنات يومياتي للعام ١٨٦٦، أو على الأقلّ، تلك المدوّنات المتعلقة بالكونت زيميوت.

لبس الأستاذ نظّارته، وقرأ مايلي، في جوٍّ من السكون العميق:

لوكيس

مع هذا المثل اللّيتواني كعبارة افتتاحية:

MISZKA ZU LOKIU

Abu Du ToKiu[1]

عندما صدرت في لندن الترجمة الأولى للكتابات المقدّسة باللّغة الليتوانية، نَشَرتُ في الصّحيفة العلمية والأدبية في كينغسبرغ، مقالةً ظننت أنه ينبغي لي أن أُشير فيها إلى بعض الأخطاء الطّفيفة، في الوقت نفسه الذي أنصفت فيه إنصافًا تامًا جهود المترجم العلاّمة، والمقاصد الطيّبة للجمعية التوراتيّة. وقد وجّهتُ الانتباه، فضلاً عن ذلك إلى أن النَّص المترجم لا يمكن أن يكون مفيداً إلاّ لقسمٍ من السكّان الليتوانيين فقط. وفي الواقع؛ فإن اللهجة المحلية التي استُخدمت في الترجمة صعبةٌ على أفهام سكّان المناطق التي يتكلمون فيها اللغة الجومائيتية التي يسمّيها العامّة: الجمودية، أي في مرحلة ساموجيسيا الاقتراعية[٢]. وهي لغةٌ تقاربُ السّنسكريتية ربما أكثر مما تقارب الليتوانية القديمة، ولقد هدت هذه الملاحظةُ أعضاء مجلس إدارة الجمعية التوراتيّة الأجلاء، برغم ضروب النّقد الغاضبة التي

(١) الاثنان يشكلان زوجًا، وحرفيًا ميشون (ميشيل) ولوكيس كلاهما واحد.

Michaelium Cum Lokide Ambo (DUO) Ipsissimi (باللاتينية)

(٢) أي التي كان فيها لأميرٍ من أمراء البلاط الحقُّ في انتخاب الامبراطور(م: ز.ع).

أثارتها على يد أُستاذٍ معروفٍ جداً في جامعة دوربات. ولم يتردَّد في أن يوجّه إليّ عرضاً متملِّقاً لإدارة ومراقبة تحرير إنجيل القدّيس متى باللّغة السّاموجيستية.

وكنتُ حينذاك منهمكاً انهماكاً كبيراً بدراساتي على لغات ماوراء الأورال، بحيث لايمكنني الشروع في عملٍ أكثر اتساعاً، ولابدّ أن يشمل الأناجيل الأربعة. وهكذا، فقد أجّلت زواجي بالآنسة جيرترو ڤيبير، وذهبت إلى كوڤنو (كاوناس) قاصداً تجميع كلّ الروائع اللّغوية المطبوعة أو المخطوطة في لغة جُمود والتي سيكون بإمكاني الحصول عليها من دون أن أغفل، بطبيعة الحال، الأشعار الشّعبية (داينوس)، والقصص والأساطير، (باساكوس) والتي يمكنُ أن تزوّدني بوثائق للمفردات الجومائيتية، وهو عملٌ كان من المفروض أن يسبق عملَ الترجمة.

كانوا قد أعطوني رسالةً موجّهةً إلى الكونت الشابّ ميشيل شيميوت، والذي كان والده، حسبما كانوا يؤكّدون لي، يمتلك المؤلَّف الشّهير: مبادئ الديانة السّاموجيتية للأب لاڤيكي، وهو مؤلَّفٌ نادرٌ جداً إلى درجةٍ كبيرة بحيث أن وجوده نفسه قد كان موضعَ شكٍّ، خصوصاً، حسب رأي الأستاذ دوربات الذي أشرتُ إليه منذ قليل. ففي مكتبته، كان ثمّة مجموعة قديمة من الأشعار الشعبية (داينوس)، حسب المعلومات التي وردتني، وفيها كذلك أشعارٌ باللغة البروسيّة القديمة. وإذ كتبتُ إلى الكونت شيميوت لأعرض عليه هدف زيارتي، فقد تلقّيت دعوةً محبّبةً جداً كي آتي وأُمضي وقتاً في قصره، قصر ميدينتلتاس، الوقت الذي تتطلّبه أبحاثي بكامله. وقد ختَم رسالته بأن قال لي بألطف صورةٍ ممكنة إنه يفخر بأنه يُحسن الكلام بلغة الجُمود، مثلما يحسنه فلاّحوه تقريباً، وإنه سيكون سعيداً إذا ضمّ جهوده إلى جهودي في مشروعٍ كان يصفُهُ بالعظيم، والمثير للاهتمام، وقد كان، شأنه شأن عددٍ من أغنى ملاّكي ليتوانيا، يعظُ الدين الإنجيليّ الذي أتشرّف بأن أكونَ خادم سرّه. وكانوا قد حذّروني من أن الكونت لايخلو من شيء من الغرابة في طباعه. إلاّ أنه جدُّ مضياف. وهو محبٌّ للعلوم والآداب، ويرحّبُ خصوصاً بأولئك الذين يدرسونها. وهكذا، فقد سافرتُ إلى ميدينتلتاس.

استقبلني عند مدخل القصر مديرُ أعمال الكونت، ورافقني في الحال إلى الشقّة المعدّة لاستقبالي، وقال لي:

إن سيدي الكونت يأسف لعدم تمكّنه من تناول العشاء مع سيدي الأستاذ، فألم الشقيقة يُزعجه. وهو، لسوء الحظّ، يتعرّض في بعض الأحيان لهذا المرض. فإذا كان سيدي الأستاذ لا يرغب في أن يقدَّم له الطعام في غرفته، فيمكنه أن يتناول العشاء مع الدكتور فريير، طبيب سيدتي الكونتيسة. ويقدّم العشاء بعد ساعة. وليست هناك ملابسُ خاصّة. وإذا كان سيدي الأستاذ لديه أوامر يُعطيها، فها هو الجرسُ.

وانسحب، وهو يحيّي بانحناءةٍ كبيرة.

كانت الشقّة واسعة، حسنةَ التأثيث، ومزيّنةً بمرايا ونقوشٍ مذهّبة، وتطلُّ، من إحدى جهاتها، على حديقة. أو على الأصحّ، على بستان القصر. ومن الجهة الأخرى، على قاعة الشرّف الكبرى. وبرغم التّنبيه: «لاملابس خاصّة» فقد ظننت أنه يتوجّب علي أن أَسحبَ من حقيبتي لباسي الأسود. لقد كنت أرتدي أكماماً مستعارة ومنشغلاً بتفريغ أمتعتي القليلة، حين اجتذبني إلى النافذة التي تطلُّ على باحة القصر صوتُ عربة. كانت قد دخلت للتوّ عربةُ خيلٍ جميلة، وكانت تُقلّ سيدة ترتدي الأسود، وسيداً وامرأةً ترتدي لباس الفلاّحات الليتوانيات. غير أنّها كانت طويلة القامة، ومتينة البنيان إلى درجةٍ كبيرة جعلتني أميلُ إلى الظنّ بأنها رجلٌ مقنّع. لقد نزلت أولاً. وكانت هناك امرأتان ليستا أقل منها في قوّة البنية ظاهرياً، وقد وصلتا قبلها إلى درجِ المدخل. فانحنى السيّدُ نحو السيّدة التي ترتدي الأسود، وأمام دهشتي الكبيرة، فكّ إبزيم حزامٍ جلديّ عريضٍ كان يثبتُ المرأة إلى مكانها في العربة. وقد لاحظت أن لتلك السيّدة شعراً طويلاً أبيض ومشعثاً، وأن عينيها المفتوحتين على اتّساعهما كانتا تبدوان فاقدتي الحياة، وكأن وجهها مصنوعٌ من الشمع. وبعد أن فكّ رفيقها رباطها، وجّه إليها الكلام، وهو ينزع قُبعته بكثيرٍ من الاحترام. إنما لم يكن يبدو أنها تعيرُ ذلك أيّ انتباه. حينذاك، التفت إلى الخادمات، وهو يومئ إليهن بإشارة خفيفةٍ من رأسه.

وفي الحال، أمسكت النساء الثلاثة بالسيّدة التي ترتدي الأسَود، وبرغم جهودها التي بذلتها لتتمسك بالعربة، فقد انتزعنها مثل ريشةٍ، وحملنها إلى داخل القصر وكان يحضرُ ذلك المشهد عددٌ من خدم المنزل الذين كانوا لا يرون فيه، كما ظهر، أيّ شيء غير عاديّ.

أما الرّجل الذي كان يديرُ العملية، فقد سَحَب ساعته وسأل إن كان طعام العشاء سيقدّم بعد قليل.

فأجابوه: بعد ربع ساعة، يا سيّدي الدكتور.

لم أجدْ مشقةً في أن أخمن بأن من كنت أراه هو الدكتور فريبر، وأن السيّدة التي ترتدي الأسود هي الكونتيسة. وقد استنتجتُ، بناءً على سنّها، أنها والدةُ الكونت شيميوت. وقد كانت الاحتياطاتُ التي تتّخذُ حيالها تُنبئ على نحوٍ كافٍ بأن عقلَها قد اختلّ.

وبعد بضعِ لحظات، دخل الدكتور نفسه إلى غرفتي، وقال لي:

ـ بما أن سيدي الكونت مريضٌ، فأنا مضطرٌ لتقديم نفسي بنفسي إلى السيّد الأستاذ. أنا الدكتور فريبر، وأقدّم إليك فروض احترامي. وإني سعيدٌ بمعرفة عالمٍ، جدارته معروفة لكلِّ أولئك الذين يقرؤون المجلة العلميّة والأدبية في كينغسبرغ. فهل تحبُّ أن يقدّم الطّعام؟

ورددت على مجاملاته بأفضل ما أمكنني، وقلتُ له إني مستعدّ لأتبعه إذا حان وقتُ تناول الطّعام.

وما إن دخلنا إلى غرفة الطّعام حتى قدّم لنا رئيس الخَدَم، جريًا على عادة أهل الشّمال، صينيةً من الفضّة ملأى بالمشروبات الروحيّة، وبعضَ الأطباقِ المملّحة والمتبّلة بكثرةٍ، والمخصّصة لإثارة الشهية.

وقال لي الدكتور: اسمحْ لي يا سيدي الأستاذ بأن أوصي لك، كوني طبيبًا، بقدحٍ من مشروب الستاركا، وهو مشروب حقيقيّ من ماء الحياة المصنوع في

كونياك[1]، والذي يتعتّق في البراميل منذ أربعين عاماً. إنه أمُّ المشروبات الروحية. وتناولْ أنشوفةً[2] من درونتهايم، فلا شيء يصلحُ أكثر منها لفتح الأنبوب الهضمي وتهيئته. وهو جهازٌ من أكثر الأجهزة أهمية. والآن، إلى المائدة! ولماذا لانتكلّم الألمانية؟ فأنت من كينغسبرغ، وأنا من ميميل، ولكني درستُ في ڤينا. وهكذا نصبح أكثر حريةً، والخدمُ الذين لايعرفون إلا البولونية والروسيّة، لن يفهمونا.

أكلنا في البداية بصمت، ثم سألت الدكتور، بعد أن تناولت القدح الأولّ من نبيذ مادير إن كان يتكرّر انزعاج الكونت من التوعُّك الذي يحرمنا اليوم من حضوره.

فأجاب الدكتور: نعم ولا. يتعلّق ذلك بالنّزهات التي يقومُ بها.

- وكيف ذلك؟

- عندما يذهب على طريق روزييني. مثلاً، يرجع منها مصاباً بالشقيقة، ويصبح مزاجه مخيفاً.

- لقد ذهبت أنا نفسي إلى روزييني، من غير أن يصيبني حادثٌ مماثل.

فأجاب وهو يضحك:

- وذلك يرجعُ إلى أنّك لستَ عاشقاً.

فتنهّدت وأنا أفكّر بالآنسة جيرترودڤيبير.

وقلت: ففي روزييني إذن تقيمُ خطيبة السيّد الكونت؟

- أجل، في المناطق القريبة. أهي خطيبته؟ . . . لا أعرف عن ذلك شيئاً. إنّها مغناجٌ حقيقية، ولسوف تجعله يفقد عقله، كما حدث لوالدته.

- فعلاً، أظن أن السيدة الكونتيسة. . . مريضةٌ؟

(١) كونياك: أكبر مدينة في دائرة شارانت بفرنسا، وتشتهر بالمشروب الرّوحي المعروف باسم كونياك (م: ز. ع)

(٢) الأنشوفة: نوعٌ من السمك الصّغير، من المقبلات. (م: ز. ع).

- إنها مجنونة، يا سيدي العزيز، مجنونة! والمجنون الأكبر هو أنا، لأني أتيتُ إلى هنا!.

- لنأمل أن تعيدَ رعايتك الطيّبة الصّحة لها.

هزّ الدكتور رأسه وهو يعاين باهتمام لونَ قدح نبيذ البوردو الذي يمسكه.

- مثلما تراني، يا سيّدي الأستاذ، كنت جرّاحًا عسكريًا في فيلق كالوغا، وفي سيڤاستوبول، كنا نبتر الأذرع والسّيقان، من الصباح حتى المساء، هذا عدا عن القنابل التي كانت تصلُنا كالذّباب على حصانٍ مسلوخ. وهكذا، فمع أني كنت حينئذٍ أسكن سكنًا سيئًا، وأتناول طعامًا رديئًا؛ فلم يكن يُصيبُني الضجر مثلما يصيبني هنا حيث آكلُ وأشرب أفضلَ طعامٍ وشراب، وأسكن مثل أمير، وتدفَعُ لي أجوري وكأني طبيبٌ في البلاط . . . ولكن الحريّة، يا سيّدي العزيز! . . . تصوّر أن المرء لا يمتلك لحظةً واحدةً لنفسه مع هذه الشيطانة!

- هل عهدوا بها إلى خبرتك منذ زمنٍ طويل؟

- منذ أقلّ من عامين، غير أنها مجنونةٌ منذ سبعة وعشرين عامًا، أي قبل ولادة الكونت، ألم يرووا لك هذا في روزييني، ولا في كوڤنو؟ اصغ إذن؛ فهذه حالةٌ أريد أن أكتب عنها ذات يوم مقالةً في صحيفة سان-بترسبورغ الطبيّة. إنها مجنونةٌ من الخوف . . .

- من الخوف، وكيف يكونُ هذا ممكنًا؟

- من خوفٍ أصابها؛ فهي من عائلةٍ كيستوت. . . أوه! وفي هذه العائلة، لا يعقدون زيجاتٍ غير متكافئة، فنحن من سلالة جيديمان. . . وإذن، يا سيّدي الأستاذ، فبعد مرور ثلاثة أيّام. . . أو يومين، على زواجها الذي تمّ في هذا القصر الذي نتعشّى فيه (في صحتّك). . . فإن الكونت، والد الكونت الحالي هذا، يذهبُ إلى الصيّد، وسيداتُنا الليتوانيّات، كما تعلمُ، فارسات. فتذهب الكونتيسةّ إلى الصيّد أيضًا، وتبقى في المؤخّرة أو تتجاوز حرّاس الصيّد. . . لا أعلم ماذا

. . . حسنًا! وفجأة، يلاحظ الكونت وصول القوقازي الصغير الذي يرافق الكونتيسة، وقد أرخى العنان لجواده. وهذا القوقازي هو صبيٌ في الثانية عشرة أو الرابعة عشرة من عمره، وقد قال:

ياسيّدي، إن دبًا قد اختطف الكونتيسة.

فقال الكونت:

وأين حدث هذا؟

فقال القوقازيُّ الصّغير:

من هذه الناحية.

فسارعت حملةُ الصيّد بكاملها إلى المكان الذي أشار إليه الصبّي، فلم يجدوا الكونتيسة! كان جوادها مخنوقًا في جهة، وعباءتها المبطّنة بالفرو ممزّقة إربًا في الجهة الأخرى. فأخذوا يبحثون، ويجوبون الغابة في كلّ اتجاه. وأخيراً، صاح أحدُ حراس الصيّد: «ها هو الدبُّ!». وفي الواقع كان الدبُّ يهمُّ باجتياز فرجةٍ في الغابة، وهو يسحب الكونتيسة باستمرار، كي يذهب بلاشكّ ويلتهمها على راحته، في أحد الأدغال؛ فهذه الأنواع من الحيوانات تتلذّذ بالطّعام. وهي تحبُّ، كالرّهبان، أن تتناول العشاء بهدوء.

كان الكونت الذي تزوّج منذ يومين، مفعمًا بروح الفروسية، فأراد أن ينقضّ على الدبّ، وسكّين الصيّد بيده. ولكن دبًا من ليتوانيا، يا سيدي العزيز، لايدع أحداً يطعنه، وكأنّه أيّل. ولحسن الحظّ، فقد أطلق حاملُ بندقية الكونت النارَ من بندقيته، على بعدٍ يزيد عن مئة متر، وهو فتى غريب الأطوار، وكان في ذلك اليوم ثملاً بحيث لايميّزُ أرنبًا من يحمور، من غير أن يهتمّ بأن يعرف إن كانت رصاصته ستصيب الحيوان أم المرأة. . .

ـ وقتل الدبَّ؟

ـ سقطَ جثةً هامدةً. فلا أحد يصلح لمثل هذه الإصابات إلاّ السكيرون، كما أنّ هناك طلقاتٍ مرصودةً سلفًا، يا سيّدي الأستاذ، ولدينا ههنا سحرةٌ يبيعون منها

بثمنٍ عدل . . . كانت الكونتيسة مثخنة بالخدوش، وفاقدةً للوعي، هذا من نافل القول، ولديها ساقٌ مكسورةٌ؛ فحملوها، واستعادت وعيها. غير أن عقلها كان قد ذهب، وأخذوها إلى سان-بيترسبورغ، وشكّلوا لها استشارةً طبيّة عالية المستوى، مؤلّفةً من أربعة أطباء يتزيّنون بكافة الألقاب، فقالوا: إن السيّدة الكونتيسة حامل. ومن المحتمل أن يسبّب تخفُّفُها من حملها نوبةً إيجابية. فلتوضع في جوٍ نقيّ، في الريف، ولتعط مصل اللّبن والكوديين . . . ». وقد أُعطي كلُّ واحدٍ من هؤلاء الأطباء مئة روبل. وبعد تسعة أشهر، وضعت الكونتيسة صبيًا جيّد البُنية. أما النّوبة الإيجابية؟ حسنًا! . . . . لقد تضاعف هياجُها. فأراها الكونت ابنها، وذلك أمرٌ لابدّ أن يعطي تأثيره . . . في الرّوايات.

فصرخت: «اقتلوه! اقتلوا الحيوان!»، وكانت على وشك أن تلوي عنقه. ومنذ ذلك الحين، تناوب عليها جنون البلاهة والهوس الهيجانيّ وأصبح لديها ميلٌ شديدٌ إلى الانتحار. وكانوا مضطّرين لربطها كي يجعلوها تتنزّه في الهواء الطّلق. وكان يحتاج الأمر إلى ثلاث خادمات شديدات البأس للإمساك بها. ومع ذلك، فتفضّل، يا سيدي الأستاذ، بتسجيل هذه الواقعة. عندما استنفدت كل وسائلي معها من غير أن أتوصّل إلى جعلها تمتثل لي، استخدمت وسيلةً لتهدئتها، وذلك بأن هدّدتها بقصّ شعرها، فأظنّ أن شعرها كان جميلاً جداً فيما مضى؛ فالتأنق هو الشعور البشريّ الأخير الذي بقي لديها. أليس هذا أمراً مثيراً للغرابة؟ ولو كان بوسعي أن أستخدم معها وسائلي حسب رغبتي، فلربما شفيتها.

- وكيف ذلك؟

- بأن أوسعها ضربًا. فقد شفيت بهذه الطّريقة عشرين فلاّحةً في إحدى القرى التي كان ذلك الجنونُ الرّوسي المثير للاستغراب قد ظهر فيها، وهو: العويل[1]؛ فحين تأخذ امرأة ما بالعويل، تعولُ عرابتها. وبعد مرور ثلاثة أيّام، تعولُ قريةٌ

(١) يطلقون بالروسية، على المرأة المصابة بالاستحواذ: «المعولة» "KLIKOUCHA" وجذر هذه الكلمة هو: "KLIK" : أي ضجيج، وعويل.

بكاملها . وقد تغلّبت على تلك المشكلة لشدّة ماضربتهن (تناول شيئًا من الدّجاج البريّ، فهو طري)، ولكن الكونت لم يوافق قطّ على أن أجرّبَ ذلك .

- كيف! كنت تريدُ أن يوافق على علاجك البغيض؟

- أوه! إنه لم يعرف أمّه إلاّ قليلاً، ثم أن ذلك لمصلحته . ولكن، قلْ لي، يا سيّدي الأستاذ هل كان يمكنُك أن تظنّ يومًا أن الخوف قد يجعل المرءَ يفقد عقله؟

- لقد كان وضعُ الكونتيسة مرعبًا . . . فأن يجد الإنسان نفسه بين مخالب حيوانٍ شرس كذاك الحيوان!

- حسنًا . إن ابنها لايشبهها . فمنذ أقلّ من عام، ألفى نفسه بالضبّط في الموقف نفسه . وبفضل برودة أعصابه، خرج سالمًا بصورةٍ رائعة .

- من مخالب دبّ؟

- دبة . وأكبر دبّة شوهدت منذ زمنٍ طويل . وقد أراد الكونت أن يهاجمها، وحربة الصيد في يده . ولكنها، ويا للعَجب! تبعدُ الحربة بضربةٍ من قفا يدها، وتمسك الكونت، وترميه أرضًا بالسّهولة نفسها التي أقلبُ بها هذه الزّجاجة . أما هو، فيستخدمُ مُكْره، ويتظاهر بالموت . . . وتأخذ الدبّة تشمُّه، وتشتمُّه، ثم تلحسه، بدلاً من أن تمزّقه . ويوحي إليه حضورُ ذهنه بألا يتحرك، فتسير الدبَّة في طريقها .

- ظنت الدبّة أنه ميتٌ . وقد سمعت الناسَ يقولون أن هذه الحيوانات لاتأكل الجثث .

- يجب أن نصدّق ذلك، وأن نحجم عن تجربته شخصيًا . ولكن دعني أقصُّ عليك بصدد الخوف، قصةً من سيڤاستوبول؛ فلقد كنّا خمسة رجالٍ أو ستة نجلس حول جرّةٍ من البيرة، كانوا قد أتوا بها إلينا للتوّ، خلف مستوصف الموقع المحصّن رقم ٥ . فصاح الحارس: «قنبلة!»، فانبطحنا جميعًا على الأرض . لا، ليس كلّنا؛

فكان هناك رجل يُدعى . . . ولكن لافائدة من ذكر اسمه . . . إنه ضابطٌ شابّ كان قد وصل لتوّه إلينا. فمكث واقفًا، وهو يحمل قدَحه الملآن، في اللحظة التي انفجرت فيها القنبلةُ تمامًا، فأطاحت برأس رفيقي المسكين أندريه سبيرانسكي. وهو فتى مقدام، وانكسرت الجرّة. ولحسن الحظّ، فقد كانت فارغةً تقريبًا. وحين نهضنا، بعد الانفجار، رأينا في وسط الدُّخان صديقنا الذي كان يبتلع آخر جرعةٍ من بيرته، وكأن شيئًا لم يحدث. وظنناه بطلاً، وفي اليوم التالي، التقيت النقيب غيديونوف الذي كان خارجًا من المشفى، فقال لي: «إني أتعشّى معكم اليوم، وكي أحتفل برجوعي، سأدفع ثمن الشامبانيا. وجلسنا إلى الطاولة. وكان الضّابطُ الشابّ الذي احتسى البيرة موجودًا، ولم يكن يتوقّع أن تتوفّر الشامبانيا. ونزعت سدادة زجاجةٍ قريبًا منه . . . باف! فانطلقت السّدادة كي تضربه في صدغه، فأطْلق صرخةً، وأُغمي عليه. وصدِّق أن بطلي كان قد أُصيب بخوفٍ رهيبٍ في المرّة الأولى، وإذا ما كان قد شرب بيرته بدلاً من أن يتحاشى الانفجار، فذلك لأنّه كان قد فقد رشده، ولم يتبقّ لديه سوى حركةٍ آليةٍ لم يكن يعيها؛ فالآلة البشرية في الواقع، يا سيّدي الأستاذ . . .

فقال خادمٌ، وهو يدخل الى القاعة:

ياسيدي الدكتور، إن جدانوفا تقول إن السيّدة الكونتيسة لاتريد أن تأكل.

فدمدم الطبيب:

فليأخذها الشيطان. ها أنا ذاهبٌ إليها. وعندما أطعم عفريتتي، ياسيدي الأستاذ، يمكننا أن نلعب مباراةً صغيرةً في بريفيرانس[1] أو في «دوراتشكي»[1]، إذا كنتَ تحبُّ ذلك.

عبّرت له عن أسفي بسبب جهلي باللّعب. وعندما مضى ليرى مريضته، ذهبت إلى غرفتي، وكتبتُ رسالةً إلى الآنسة جيرترود.

(١) اسمان لمكانين للتسلّية واللّهو، ولعب الورق. (م: ز.ع).

كانت الليلة حارةً، وكنتُ قد تركت النافذة المطلّة على البستان مفتوحةً. وبعد أن كتبتُ رسالتي، ولم أجد لديّ بعد رغبةً للنوم، أخذت أراجع الأفعال الليتوانية المخالفة للقاعدة، وأبحث في السّنسكريتية عن الأسباب المختلفة لمخالفتها للقاعدة. وفي خضمّ ذلك العمل الذي كان يستغرقني، تحركت شجرةٌ قريبةٌ إلى حدٍّ كاف من نافذتي حركةً عنيفةً، فسمعت أغصانًا ميتةً تطقطق، وبدا لي أن حيوانًا ثقيلاً جدًّا يحاول أن يتسلّقها. وإذْ كنت لا أزال مشغول الذّهن تمامًا بحكايات الدّببة التي رواها لي الدكتور، فقد وقفتُ، وشيء من الاضطراب يتملكني؛ فلمحت رأسًا بشريًّا، ينيره في وسطه ضوء مصباحي. ولم يدم هذا الظهور إلاّ هنيهة. إلا أن البريق الفريد للعينين اللتين التقتا نظرتي أثّر بي أكثر مما يمكنني أن أعبّر عنه؛ فقد قمت عن غير إرادة مني بحركةٍ من جسمي إلى الخلف، وهُرعت إلى النافذة، وسألت الدّخيل بلهجةٍ حادةٍ عما يريده. ومع ذلك، فقد كان ينزل بكلّ تعجّلٍ، وأمسك غصنًا ضخمًا بين يديه، وترك جسمه يتدلّى، ثم يسقط على الأرض، ويتوارى في الحال.

قرعتُ الجرسَ، فدخل خادمٌ، ورويتُ له ماحدث منذ قليل.

- لابدّ أن سيدي الأستاذ قد أخطأ التقدير من دون ريب.

فكرّرت قولي:

أنا متأكّدٌ مما أقوله، وأخشى أن يكون هناك لصٌّ في البستان.

- غير ممكن، يا سيدي.

- وإذن، فهناك، في هذه الحالة، شخصٌ في المنزل؟

ففتح الخادمُ عينيه على اتّساعهما من دون أن يجيبني. وفي النهاية، سألني عما إذا كانت لديّ طلباتٌ آمره بتنفيذها. فقلت له أن يغلق النّافذة، وأويت إلى السرير. نمتُ نومًا جيدًا من غير أن أحلم بالدّببة، أو باللّصوص. وفي الصّباح، كنت أُنجز اغتسالي، عندما سمعت طرقًا على الباب، ففتحته، ووجدت نفسي قبالة

شـــاب وســيم، وفـارع الطّول، ويرتدي مـبـذلاًبوخـاريًا، ويمسـك غليـونًا تركـيًا، فقال لي:

أتيت لأستميحك عذرًا، يا سيدي الأستاذ، لأني قد أسأت استقبال ضيف مثلك إلى درجة كبيرة، فأنا الكونت شيميوت.

سـارعت إلى أن أردَّ عليـه قـائلاً إنه يتـوجّب علي، على العكس، أن أشكره بتواضعٍ على ضيافته الرّائعة، وسألته عما إذا كان قد تخلّص من صداعه.

فقال:

تقريبًا، حتّى نوبةٍ جديدة.

وأضاف بلهجةٍ حزينة:

- هل أنت في وضع يمكن احتـمـاله هنا. أرجـو أن تتـذكّر أنك هنا في بلاد الهمَج، فلا ينبغي للمرء أن يكون صعبًا إرضاؤه في ساموجيسيا.

طمأنته بأنني أجدُ نفسي في حال ممتازة. ولم يكن بمقدوري، وأنا أكلّمه، أن أمتنع عن تأمّله بفضول كنت أجده شخصيًا فضولاً وقحًا. كان في نظرته شيء غريب يذكّرني رغمًا عني بنظرة رجل اليوم الفائت الذي رأيته يتسلّق الشجرة... غير أني كنتُ أقول في نفسي: أيُّ احتمالٍ هذا أن يتسلّق السيّد شيميوت الأشجار ليلاً؟

كان جبينه عاليًا، ومتبسّطًا، مع أنه ضيّقٌ قليلاً، وقسمات وجهه منتظمةٌ إلى حدٍّ كبير. إلاّ أن عينيه كانتا متقاربتين أكثر من اللازم. وبدا لي أنه لم يكنْ هناك مكانٌ لعينٌ بين غُديدة دمعيةٍ وأخرى، كما تتطلّب قاعدة النّحاتين الإغريق. كانت نظرته ثاقبةً. وقد التقت عيوننا مرات عديدة رغمًا عنا. وكان كلٌّ منا يشيحُ بنظرته عن الآخر، بنوعٍ من الحرج. وفجأة هتف الكونت، وهو ينفجر ضاحكًا:

- لقد تعرّفتني!

- تعرفتك؟

- أجل، لقد فاجأتني بالأمس، وكأني ولدٌ عفريت حقيقي.

- أوه! يا سيّدي الكونت!

- كنت قد أمضيت النهار بطوله، وأنا عرضةٌ للألم الشديد، وحجزت في غرفتي، وفي المساء، وجدت أنّي قد تحسّنت؛ فتنزهت في الحديقة، ورأيت في غرفتك ضوءاً، فسيطر عليّ الفضول . . . وكان يتعيّن علي أن أعلن عن اسمي، وأقدّم نفسي، غير أن الموقف كان مثيراً للضّحك . . . وقد خجلت، وهربت . . . فهل تسامحني على أنني قد أزعجتك وأنت في خضمّ عملك؟

لقد قال كلّ هذه الأشياء بلهجة كان يريد لها أن تكون مازحةً، ولكنه كان يحمرُّ خجلاً وكان متضايقًا بصورةٍ واضحة، وقد قمت بكلّ ما يتعلق بي لإقناعه بأنّي لم أحتفظ بأيّ انطباعٍ يثير الاستياء من ذلك اللقاء الأول. ولكي أحسم ذلك الموضوع، فقد سألته إن كان صحيحًا أنه يمتلك التعليم الدّيني السّاموجيسي، تعليم الأب لاڤيكي؟

- هذا ممكن، ولكني، إذا أردت أن أقول لك الحقيقة، لاأعرف مكتبة والدي جيدًا، فقد كان يحبُّ الكتُب القديمة، والأشياء النادرة. أما أنا، فقلّما أقرأ شيئًا غير الكتب الحديثة.

غير أننا سنبحث، يا سيدي الأستاذ فهل تريدُ إذن أن نقرأ الإنجيل بلغة الجمود؟

- ألا تظنّ، يا سيدي الكونت، بأن ترجمةً للكتابات المقدسة بلغة هذا البلد هي أمرٌ مرغوبٌ فيه إلى حدٍّ كبير؟

- بالتأكيد؛ ومع ذلك، فإذا وافقت على أن تسمح لي بملاحظةٍ صغيرةٍ، فإني أقول لك إنه ليس هناك رجلٌ واحد يُحسن القراءة من بين الناس الذين لايعرفون لغةً أخرى غير الجمود.

- ربّما، ولكنّي أطلب من معاليك[1] الإذن بأن تلفت انتباهها إلى أن أكبر الصّعوبات التي تعيق تعلُّم القراءة إنما هي عدمُ توفّر الكتب، وحين تحصل البلدان السّاموجيسيّة على نصٍّ مكتوبٍ، ترغبُ في قراءته، فتتعلم القراءة . . . وهذا

(١) "Siatelstvo" أي: «بريقك السّاطع»، وهو اللّقب الذي يطلقونه على كونت.

ماحدث من قبل للعديد من المتوحشين . . . وليس هذا لأني أريدُ أن أطبّق هذا الوصف على سكان هذا البلد . . . وأضفت قائلاً: ومن جهةٍ أخرى، أليس من المؤسف أن تختفي لغةٌ ما من غير أن تترك أثراً؟ فلم تعد اللغة البروسية منذ ثلاثين عامًا أكثر من لغةٍ ميتة. والشخص الأخير الذي كان يعرفُ اللغة الكورنيّة[1] قد مات في ذلك اليوم. فقاطعني الكونت قائلاً:

ـ هذا محزنٌ! فقد كان الكسندر دوهيمبو يروي لوالدي أنه كان يعرفُ في أمريكا ببغاء تعرفُ وحدها بضع كلماتٍ من لغةِ قبيلةٍ قضت عليها الجدري بكاملها الآن. أتتفضّل بالسّماح بأن يجلب الشاي إلى هنا؟

وفيما كنا نتناول الشّاي، دار الحديثُ على لغة الجمود. وكان الكونت يلومُ الطريقة التي طبع بها الألمان اللغة الليتوانية، وكان على حقّ في ذلك.

وكان يقول: إن أبجديتكم لا تناسب لغتنا، فليست لديكم جيمنا (ج) ولالامُنا (ل) ولا ياؤها (الياء الاغريقيّة: Y) ولا حرف الـ (E)؛ فلديّ مجموعةٌ من الأشعار (داينوس) التي نُشرت في كينغسبرغ، في السنة الماضية، وقد بذلتُ مجهوداً شاقًّا كي أخمّن كلماتها، لكثرة ما فيها من الاستعارات الغريبة.

ـ إن معاليك تتكلّم عن أشعار ليسنر، بلاشكّ.

ـ أجل، إنها من الشّعر المسطّح فعلاً، أليس كذلك؟

ـ ربّما كان يمكن له أن يجد أحسن منها، وأوافق على أن هذا الدّيوان، حسب وضعه الحالي، ليس سوى قيمةٍ فقهية. ولكني أظنّ أنه إذا ما بحثنا جيّداً، يمكننا التوصّل إلى قطف أزهارٍ أكثر عذوبةٍ بين الأشعار الشّعبية.

ـ إني أشكّ بهذا كثيراً، للأسف، وبرغم روحي الوطنيّة.

ـ منذ بضعة أسابيع، أعطوني في ڤيلنو أسطورة شعريةً جميلةً حقًّا، وهي

(١) نسبة إلى كورنواي، وهي منطقة سلتيّة قديمة، تقعُ في بروتانيا. (م: ز.ع).

أسطورةٌ تاريخية، فضلاً عن ذلك. . . . فهل تسمحُ لي بأن أقرأها لك؟ إنها في محفظة أوراقي.

ـ بكلّ طيبة خاطر.

وغرق في مقعده، بعد أن طلب مني الإذن بالتدخين.

وقال:

أنا لا أفهم الشعر، إلاّ وأنا أدخّن.

ـ إن عنوان الأسطورة هو: أبناء بودري الثلاثة.

فصاح الكونت والدهشة باديةٌ عليه:

أبناء بودري الثلاثة؟

ـ أجل، بودري، إن معاليك تعرفُه أفضل من معرفتي له، فهو شخصيةٌ تاريخية.

كان الكونت يحدّق بي، بنظرته الفريدة، وكان فيها شيء لايمكن تحديده، شيء خجول ومخيف ويحدث انطباعًا ثقيل الوطأة تقريبًا، عندما لانكون معتادين عليه، فسارعت إلى القراءة، كي أهرب من تلك النّظرة.

أبناء بودري الثلاثة

ينادي العجوز بودري، في بلاط قصره، أبناءه الثلاثة. وهم ثلاثة ليتوانيين مثله، ويقول لهم:

ـ أيها الأبناء، اطعموا جيادكم المحاربة، وهيئوا سروجكم، واشحذوا سيوفكم وحرابكم. يُقال إن الحرب قد أُعلِنتْ في ڤيلنو ضدّ جهات العالم الأربع؛ فاولغيرد سيزحف على الرّوس، وسكيرغلّو على جيراننا البولونيين، وكيستوت

سينقض على التيتونيين[1]. إنكم شبّان، وأقوياء، وجسورون، فامضوا للقتال: ولتحكم آلهة ليتوانيا! فهذه السنة، لن أقودُ حملةً. ولكني أريدُ أن أسدي إليكم نصيحةً: أنتم الثلاثة، وثلاثة طرقٍ تنفتح أمامكم، فليرافق واحدٌ منكم أولغيرد في روسيا، على ضفاف بحيرة إيلمن، تحت أسوار نوفجورود. إن جلود القاقم[2]، والأقمشة الموشاة متوفّرة فيها بكثرة، ولدى الباعة كميات من الرّوبلات تعادل قطع الجليد في النهر.

وليتبعْ الثاني منكم كيستوت في حملته على الجياد، وليمزق إربًا الرّعاع حملَةَ الصّليب! فالعنبرُ هناك. إنه وافرٌ لديهم مثلَ رملِ البحر. أما أجواخُهم، بلمعانها، وألوانها، فلا نظير لها، ويضع كهنتُهم أحجار الياقوت في ملابسهم.

أما الثالث منكم، فليقُمْ باجتياز النيمن مع سكيرغلّو؛ فمن الجهة الأخرى، سيجد أدوات حراثة حقيرة، وبالمقابل، سيتمكّنُ من اختيارِ رماحٍ جيدة، ودروعٍ متينة، ولسوف يأتيني بكنّة؛ ففتيات بولونيا، أيّها الأولاد، هنّ أجملُ أسيراتنا. إنهنّ لعوباتٌ كالقطط، وبيضُ البشرة كالزبدة! وتحت حواجبهن السّود، تلتمعُ عيونهنّ مثل نجمتين. وعندما كنتُ شابًا، منذ نصف قرن، أتيتُ من بولونيا بأسيرةٍ حسناء كانت زوجتي. وقد تُوفيت منذ زمنٍ طويل، غير أنه لا يمكنُني أن أنظرَ من جهةِ الموقدِ هذه، من غير أن أفكرَ بها!».

«وأعطى بركتَه الشبانَ الذين كانوا حينذاك قد تدجّجوا بالسّلاح، وامتطوا خيولهم. ها هم قد رحلوا، فأتى الخريفُ، وتلاهُ الشتاءُ... ولم يرجعوا. وهكذا، فقد عدّهم العجوزُ موتى.

حلّت عاصفةٌ ثلجيةٌ، فاقترب خيّالٌ، وكان يغطي حملاً ثقيلاً بمعطف أسود من اللبّد فقال بودري: هذا كيسٌ، وهو مملوءٌ بروبلات آتيةٌ من نوفغورود؟...

---

(١) فرسان النّظام التوتوني (من جرمانيا الشمالية). (م: ز.ع).

(٢) حيوان من الفصيلة السّمورية، يُصطاد لجلده الثمين. (م: ز.ع).

- كلاّ، يا والدي، فلقد أتيتُك بكنّةٍ بولونية.».

«وفي وسط عاصفةٍ ثلجية، يقترب خيالٌ، ومعطفُه اللّبدي ينفتحُ بحملٍ ثقيل:

- ما هذا يا بني؟ عنبرُ ألمانيا الأصفر؟.

- لا، يا والدي، إني أجلبُ لك كنّةً من بولونيا.

«ويتساقطُ الثلجُ على شكلِ زوابع، ويتقدّم خيّالٌ، وهو يخبّئ تحت معطفه اللّبدي حملاً ثميناً... ولكنه دعا أصدقاءه إلى عرسٍ ثالث، قبل أن يُظهرَ غنيمتَه».

هتفَ الكونتُ: مرحى لك! يا سيّدي الأستاذ؛ فأنت تلفُظُ الجمود بصورةٍ رائعةٍ. ولكن، من الذي أوصلَ إليك هذه القصّةَ الشعريّةَ الجميلة؟

- آنسةٌ تشرّفتُ بمعرفتها في ڤيلنو، في منزلِ الأميرة كاتا زيناباس.

- وماذا تدعوها؟

- ألبانا إيڤينسكا.

فصاحَ الكونت: الآنسة يولكا[1]، يا للّصغيرة المجنونة! كان ينبغي لي أن أخمّن ذلك! يا أستاذي العزيز. أنت تعرفُ الجمود. وكافّة اللغات المعقّدة، وقد قرأت الكتب القديمة، ولكنك تركت نفسك عرضةً لتضليل فتاةٍ صغيرةٍ لم تقرأ شيئاً غير الروايات. لقد ترجمت لك، بلغةٍ جمودية صحيحة تقريباً، إحدى أجمل الأساطير الشّعرية الجميلة لميكييڤيتش، والتي لم تقرأها، لأنها لم تَعدْ أكثر قدماً مني. فإذا رغبت، أريتك إياها بالبولونية، أو إذا كنت تفضّل ترجمةً روسيةً ممتازةً لها؛ فإني أعطيك پوشكين.

أعترف بأني ظللت مدهوشاً، فكم سيكون سرورُ الأستاذ دورباث عظيماً، لو أنني نشرت أسطورة أبناء بودري الشّعرية، بكونها طبعةً أصليّةً.

(١) أي: جوليان.

وبدلاً من أن يهزأ الكونت من ارتباكي، فقد سارع إلى تغيير منحى الحديث بكلِّ تأدّبٍ رهيف، وقال:

- وهكذا، فأنت تعرفُ الآنسة يولكا!

- لقد تشرّفت بأن قدّموني إليها.

- وما رأيك بها؟ فلنكن صريحين.

- إنها آنسةٌ شديدة اللّطف.

- يروق لك أن تقول ذلك.

- إنها جميلةٌ جداً.

- هون![1]

- كيف! أليس لها أجمل عينين في العالم؟

- أجل..

- وبشرة ذات بياض يفوقُ المعتاد حقًّا؟... إني أتذكّر قصيدةً غزليةً فارسية، يُمجّدُ فيها عشيقٌ نعومة بشرة عشيقته، فيقول: «إنها حين تشربُ النبيذ الأحمر، نراه وهو يمرّ من عنقها». ولقد جعلتني البانا إيفينسكا أفكّر بتلك الأبيات الفارسيّة.

- ربما تعرض الآنسة يولكا تلك الظاهرة، غير أني لا أعرفُ إن كان لديها دمٌ في عروقها... فليس لها قلبٌ إطلاقًا... فهي شقراء كالثّلج وباردةٌ مثله!...

ووقف، وأخذ يتمشّى لبعض الوقت، في الغرفة، من غير أن يتكلّم كي يُخفي انفعاله، كما كان يبدولي، ثم توقّف فجأة، وقال:

عذراً، كنا نتكلّم، كما أظنّ، عن الأشعار الشّعبية...

- بالفعل، يا سيّدي الكونت.

---

(١) لايريد أن يردّ على السؤال (م: ز.ع).

- لابدّ لنا أن نتفق، بعد كلّ حساب، أنها قد ترجمت ميكيفتش ترجمةً جميلةً جداً. «إنّها لعوبٌ مثل قطة. . . . وبيضاء كالزّبدة. . . وعيناها تلتمعان مثل نجمتين. . . ». هذه هي صورتها، ألا ترى ذلك؟

- تماماً، ياسيدي الكونت.

- أما عن تلك الشيطنة . . . . التي ليست في محلّها، بلاشكّ. . . فلابدّ أن الصبيّة المسكينة تشعرُ بالسأم في منزل عمةٍ عجوزٍ لها. . . إنها تحيا وكأنّها في دير. . .

- كانت تذهب إلى مجتمع النّخبة، في ڤيلنو، وقد رأيتُها في حفلةٍ راقصةٍ نظّمها ضباطُ فوج. . .

- آه، نعم، الضبّاط الشبان، ذلك هو المجتمع الذي يناسبُها! أن تضحك مع هذا، وأن تغتاب الآخرين مع ذاك، وأن تتظارف مع الجميع. . . هل تريدُ أن ترى مكتبة والدي، يا سيدي الأستاذ؟

تبعته حتى الرّواق الكبير الذي كان فيه العديدُ من الكتب المجلّدة تجليداً جيداً، والتي نادراً ما كانت قد فُتحت، كما يمكن أن نحكمَ على ذلك من الغبار الذي كان يغطّي حوافّها. فلتتصوّروا الفَرحَ الذي غمرني عندما ظهر أن أحدَ المجلّدات الأولى التي سحبتها من الخزانة هو التعاليم الدينية السّاموجيتية! لم أستطعْ أن أمنع نفسي من إطلاق صرخةٍ فرحة، فلابدّ أن نوعاً من الجاذبية الخفيّة يمارس تأثيره بلاعلمٍ منا. . . أمسك الكونت الكتاب، وبعد أن تصفّحه بغير اهتمام، كتبَ على صفحة الوقاية: إلى السيّد الأستاذ فيتمباخ، هدية مقدّمةٌ من ميشيل شيميوت. لن أستطيع التعبير هنا عن فورة شعوري بالعرفان، وقد قطعت على نفسي وعداً ذهنياً بأن يزين الكتابُ، بعد موتي، مكتبة الجامعة التي حصلت فيها على درجاتي العلمية.

وقال الكونت لي: أرجو أن تعدّ هذه المكتبة، وكأنها قاعةُ عملك، فلن يُزعجك أحدٌ فيها قطّ.

- ٣ -

في اليوم التالي، اقترح عليّ الكونتُ القيامَ بنزهةٍ بعد الغداء. وكان الأمرُ يتعلّق بزيارة قبّة (Kapas)؛ فهكذا يسمّي الليتوانيون المخروط الجدَثيّ الذي يُطلق عليه الروس اسم كورغان: Kourgane. وهذه القبّة شهيرةٌ جداً في البلاد، لأن الشّعراء والسّحرة قديمًا، والذي كانوا يعدون شيئًا واحدًا، كانوا يجتمعون فيها، في بعض المناسبات الاحتفاليّة.

وقال لي:

لدي جوادٌ وديعٌ جداً أقدّمه إليك، ويؤسفني أنّي لا أتمكن من إيصالك بالعربة، ولكن الطريق التي سنسلكُها ليست، في حقيقة الأمر، صالحةً لسير العربات.

كنت أفضّل البقاء في المكتبة لتسجيل الملاحظات، غير أنّي لم أظن أنه يتعيّنُ عليّ أن أعبّر عن رغبةٍ أخرى غير رغبة مُضيفي الأريحيّ، فقبلتُ. وكانت الخيول تنتظرنا في أسفل درجِ المدخل، في الباحة. وكان أحدُ الخدم يقودُ كلبًا. أما الكونت فقد توقّف لحظةً، واستدار نحوي، وقال:

ياسيدي الأستاذ. هل أنت خبيرٌ في الكلاب؟

- قليلاً جداً، يا صاحب المعالي.

- إن القيّم الأميريّ في زوراني حيث أمتلك أرضًا، قد أرسل لي كلب الصّيد هذا والذي يحكي عنه العجائب. فهل تسمح بأن أراه.

ونادى الخادم الذي أتاه بالكلب. وكان حيوانًا جميلاً جداً، وبما أنّه قد ألف ذلك الرّجل؛ فقد كان يقفزُ مرحًا، ويبدو مفعمًا بالحيوية. ولكنه وضعَ ذيله بين ساقيه، على بُعد بضع خطوات من الكونت، وارتدّ إلى الوراء. وبدا كأنّ رُعبًا مفاجئًا قد أصابه؛ فداعبه الكونت، وهذا ما جعله يعوي على نحوٍ يثير الرأفة. وبعد أن تفحّصه لبعض الوقت بعين العارف، قال:

أظنّ أنه سيكون جيداً، فليعتنِ به.

ثم عاد إلى سرج حصانه، وقال لي، ما إن أصبحنا في طريق القصر المشجّرة:

- ياسيدي الأستاذ، لقد لاحظتَ خوف ذلك الكلب، وأردت أن تكون شاهداًعلى ذلك بنفسك... فبصفتك عالماً، لابدَّ أنك تفسّر الألغاز... فلماذا تخافني الحيوانات؟

- إنك ياسيدي الكونت تشرّفني، في الحقيقة، إذ تعدنّي أوديب[1]، ولست أكثر من أستاذٍ مسكين في علم اللّغة المقارن، وقد يكون من الممكن...

فقاطعني قائلاً:

- لاحظْ أني لا أضربُ الخيول والكلاب قطّ. وقد يكون من المقلق بالنسبة لي أن أضرب بالسّوط حيواناً مسكيناً قام بحماقةٍ ما من غير أن يدري، ومع ذلك، فلا يمكنك أن تتخيل النُّفور الذي أوحي به للخيول والكلاب. وكي أجعلها تعتادُ عليّ، يلزمني عناءٌ يزيد مرتين، ووقتٌ يزيد مرّتين عما يحتاج إليه رجلٌ آخر غيري فخذْ مثلاً الحصانَ الذي تمتطيه لقد استغرق مني وقتاً طويلاً لترويضه، أما الآن، فقد أصبح وديعاً مثل خروف.

- أظنّ يا سيّدي الكونت أن الحيوانات تعرفُ الفراسة، وأنها تكتشف فوراً إن كان الشخص الذي تراه للمرّة الأولى يميلُ إليها أم لا. ولديّ شكٌّ في أنّك لاتحبُّ الحيوانات إلاّ لقاء الخدمات التي تؤدّيها لك. وعلى العكس من ذلك، فبعض الأشخاص لديهم انحيازٌ طبيعي لبعض الحيوانات التي تلاحظ ذلك فوراً. بالنسبة لي، مثلاً، لديّ منذ الطفولة، تفضيلٌ غريزيّ للقطط؛ فنادراً ما تهرب القطط عندما أقترب منها كي أداعبها، ولم يخدشني قطٌّ يوماً.

فقال الكونت: هذا ممكنٌ جداً. وفي الواقع، ليس لديّ ما يسمّونه ميلاً إلى الحيوانات... فهي نادراً ما تفضل البشرَ في نظري. وإني سآخذك، ياسيدي

(١) هو الملكُ الإغريقي الذي حزرَ في الأسطورة الشهيرة اللّغز الذي طرحه عليه أبو الهول. (م: ز. ع)

الأستاذ، إلى غابةٍ توجد فيها، في هذه الساعة، امبراطورية الحيوانات المزدهرة وهي الـ: Matecznik ، المولّدة العظيمة، ومصنع الكائنات العظيم. أجل، لم يسبْر إنسانٌ أعماقها، كما تقول تقاليدنا الوطنية. ولم يستطعْ أحدٌ أن يبلغ مركزَ هذه الغابات، وتلك المستنقعات، عدا، بطبيعة الحال، السّادة الشعراء والسّحرة الذين يتوغّلون في كلّ مكان . . . هناك، تعيشُ الحيوانات في جمهورية . . . أو في ظلٍّ حكومةٍ دستورية، لا يمكنني أن أقول أيّهما. إن السباع، والدّببة، وظباء العلند، والجوبر(١) التي هي أراخصُنا[1]، وكلُّها تعيش في وفاقٍ جيّد جداً. إن الماموث الذي حافَظَ على نفسه هناك، يتمتّع بأهمية كبيرة جداً، وهو، كما أظنّ، مشير المجلس التشريعي. إن لدى هذه الحيوانات شرطةً صارمة جداً، وحين تَجدُ حيوانًا فاسداً فهي تحاكمه، وتنفيه، فيسقط حينذاك من شرٍّ إلى شرّ، ويصبحُ مجبراً على أن يغامر في بلاد البشر، والقلائل هم الذين يفلتون من تلك البلاد مجدّداً[2]. فهتفت: يا لها من أسطورةٍ مثيرةٍ جداً للعجب، ولكنك، ياسيدي الكونت، تتكلمُ على الأرخص، ذلك الحيوان النّبيل الذي وصفه قيصر في «تعليقاته» والذي كان الملوكُ الميروڤنجيون يصطادونه في غابة كومپييني. ألا يزالُ فعلاً موجوداً في ليتوانيا، كما تناهى إلى سمعي؟

- بالتأكيد، فقد قتَل والدي بالذات جوبراً، بعد أن حصل على ترخيصٍ حكومي، بالطبع. وكان بإمكانك أن ترى رأسه في القاعة الكبرى. أمّا أنا، فلم أرَ بعضًا منه قطّ، وأظنّ أنّ حيوانات الجوبر نادرةٌ جداً. وبالمقابل، فلدينا هنا ذئاب ودببةٌ بأعداد وفيرة. ومن أجل ملاقاةٍ محتملة لأحد هؤلاء السّادة، إنّما جلبت هذه الآلة (وكان يُظهر تشيكولاً Tchekhole [3] شركسيًّا يتوشّح به). ويحمل خادمي في قربوس السّرج بندقيةً ذات طلقتين.

---

(١) الأرخص: ثورٌ قديمٌ منقرض. (م: ز. ع)، والجوبر شبيهه على مايبدو. (م: ز. ع)

(٢) انظر: «السيّد تاديه» لميكيڤتش و «بولونيا الأسيرة» للسيد شارل إدمون.

(٣) غلاف بندقية شركسية.

أخذنا ندلفُ إلى الغابة، فاختفى سريعًا المعبرُ الشّديد الضيّق الذي كنّا نسير فيه، وكنّا نضطرّ، في كلّ لحظة، أن ندورَ حول أشجارٍ ضخمة كانت تسدُّ أغصانها المنخفضة المعبَر لنا. أما بعضُها، وقد كان ميتًا من الشّيخوخة، أو مقلوبًا، فقد كان يتبدّى لنا مثل سورٍ يتوّجه خطٌّ من الحواجز الشائكة يتعذّر اختراقه. وفي مكانٍ آخر، كنّا نصادفُ مُستنقعات عميقةً مغطّاةً بالنيلوفر، وعدس الماء، وأبعد من ذلك، كنّا نرى انفراجاتٍ في الغابة يلتمع عشبها كالزمرّد، ولكن الويلُ لمن يغامر فيها؛ فتلك النباتات الكثيفة، والخادعة تخفي عادة لججًا من الطّين يغيب فيها الجوادُ والخيّال إلى الأبد. . . كانت مصاعبُ الطريق قد قطعت حديثنا، وكنت أبذلُ كلَّ عنايتي لمتابعة الكونت، وكنتُ معجبًا بالبصيرة الرّصينة التي يسترشدُ بها من غير بوصلة، ويهتدي دائمًا على الاتّجاه المثالي الذي كان يتعيّن سلوكه للوصول إلى القبّة. وكان من الواضح أنه قد اصطاد زمنًا طويلاً في تلك الغابات الوحشية.

لمحنا أخيراً جثوةً[1] في وسط فرجةٍ عريضة من الغابة. وكانت جدُّ مرتفعة، ومحاطةً بحفرة لايزال يمكنُ تعرُّف معالمها برغم أشواك الغابات والانهيارات. ويبدو كأنّها قد حفُرت من قبل. وفي قمة الجثوة، لاحظت بقايا بناءٍ حجريّ، بعضُ أحجاره قد تكلّست محترقةً. وكانت تُثبت كميةٌ ملحوظة من الرّماد المختلط بالفحم، وكسراتٌ من الخزف غير المتقن الصّنع، والمنثورة هنا وهناك، بأن النّار قد استمرت تشتعلُ في قمة الجثوة لمدّةٍ زمنيةٍ كبيرة، فإذا ما صدّقنا التقاليد العاميّة؛ فإن أضاحي بشريةً كان يجري الاحتفالُ بتقديمها قديمًا على القباب، غير أنّه قلّما نجدُ دينًا بائدًا لايمكن أن نعزو إليه تلك الطّقوس البغيضة، وأشكّ في أنه كان ممكنًا تسويغ رأيٍ كهذا أمام الليتوانيين القدماء، من خلال شهاداتٍ تاريخية.

كنا ننزل من الجثوة، الكونت وأنا، كي نلتقي خيولنا التي تركناها على الجانب الآخر من الحفرة، عندما رأينا امرأة عجوزًا تقترب نحونا، وهي تتكئ على عصا، وتمسكُ سلّةً فقالت لنا وهي تصلُ إلينا:

---

(١) الجثوة: ركمةُ تراب، أو بناء حجري بشكلٍ مخروطيّ فوق قبر. وهي كلمةُ قُبّة "KAPAS" نفسها. (م: ز.ع).

يا سادتي الطيّبين، تكرّموا بأن تقدّموا لي حسنةً، من أجل محبّة الربّ.
أعطوني شيئًا أشتري به قدحًا من ماء الحياة، كي أدفّئ جسدي المسكين.

رمى الكونت إليها قطعةً فضيّة، وسألها عما تفعله في الغابة، بعيدًا عن أيّ مكانٍ آهل، فأرته سلّتها كجوابٍ وحيدٍ على سؤاله. وكانت سلّةً ملأى بالفطر. ومع أن معلوماتي في علم النبات جدُّ محدودة؛ فقد بدا لي أن بعضًا من تلك الفطور تنتمي إلى أنواع سامّة.

فقلت لها:

أيتها المرأةُ الطيّبة، أنت لا تنوين أن تأكلي من هذه الفطور، كما آمل.

فأجابت العجوز بابتسامة حزينة:

ياسيّدي الطيب. إن الناسَ الفقراء يأكلون كلَّ ما يعطيهم الربُّ الرّحيم.

وتابع الكونت قائلاً:

أنت لاتعرف معدَنَا اللّيتوانية؛ فهي مصفّحةٌ بالحديد الأبيض، وفلاحّونا يأكلون كلَّ الفطور التي يجدونها، ولايزيدُهم هذا إلاّ صحةً.

فصحت قائلاً:

امنعْها على الأقل من أن تذوق هذا الفطر المسمّى أغاريكوس نيكاتور (الذي أراه في سلّتها).

ومددت يدي كي آخذ فطرًا من أكثر الفطور سُمِّيَةً، غير أن العجوز سحبت سلّتها بسرعة، وقالت بلهجةٍ مذعورة:

- احترس، إنها محروسة: Pirkuns ! Pirkuns!.

أما كلمة بيركونس: Pirkuns، ولنقلْ ذلك بصورةٍ عابرةٍ فهي الاسم الساموجيسي للآلهة التي يسمّيها الرّوس بيرون، وهي جوبيتر «الرّاعد» عند

السّلافيين، ولئن دهشت لأني سمعتُ العجوز تبتهل إلى إلهٍ من آلهة الوثنيّة، فقد دُهشت أكثر لأني رأيت الفطور تعلو، ويخرج منها الرأس الأسود لثعبانٍ، ويرتفعُ قدمًا على الأقل، خارج السّلة، فقفزت قفزةً إلى الخلف، وبَصَق الكونت من فوق كتفه، حسب عادة السّلافيين المتطيّرة، والتي تؤمن بأنّها تبعد بهذا التصرّف التأثيرات السّحرية الضّارة، جريًا على مثال الرّومان القدماء، ووضعت العجوزُ السّلة على الأرض، وجثت بجانبها، ثم تلفّظت، وهي تمدُّ يدَها نحو الحية، ببضع كلماتٍ غير مفهومة تشبه التعزيم، فبقيت الحيّة بلاحراكٍ لدقيقةٍ من الزّمن، ثم التفّت حول الذراع النّاحلة للعجوز، واختفت في كمّ معطفها المصنوع من فرو الخروف، والذي كان يشكّل، كما أظنّ، بالإضافة إلى قميصٍ رديئة، كلّ ما ترتديه تلك السّاحرة[1] الليتوانية. وكانت العجوز تنظر إلينا وهي تضحك ضحكةَ ظفرٍ ناعمة، مثل مشعوذٍ قد نفّذ لتوّه لعبةً صعبةً. وكان في محياها ذلك المزيج من الحذاقة والغباء الذي لايندر وجوده عند السّحرة المزعومين، والذين هم في معظمهم، مخدوعون وخادعون في آنٍ واحد.

وقال لي الكونت بالألمانية:

هذه هي عيّنةٌ من «اللّون المحلّي»: ساحرةٌ تسحر حيّةً، في أسفل إحدى القباب، وبحضور عالمٍ أستاذ، و «نبيل» ليتوانيّ جاهل. وقد يشكّل هذا موضوعًا جميلاً للوحةٍ في هذا النّوع الفنيّ، بالنسبة لمواطنك كناوس. . . فهل ترغبُ في أن تتنبأ لك هنا بمستقبلك؟ لديك فرصةٌ مؤاتيةٌ لذلك هنا.

فأجبته بأنّي أتحاشى حقًّا تشجيع ممارساتٍ كهذه.

وأضفت:

---

(١) ترجمة لكلمة: «"Circe" وهي بالتحديد ساحرةٌ في ملحمة الأوديسة» وقد حولّت رفاق أوليس إلى خنازير صغيرة، عندما سقتهم شرابًا مسحورًا. (م: ز.ع).

أفضل أن أسألها عما إذا كانت تعرف تفصيلاً ما عن التقليد الغريب الذي حدثتني عنه وقلت للسيدة العجوز :

أيتها السيّدة الطيّبة ، ألم تسمعي أحداً يتحدث عن منطقةٍ من هذه الغابة تعيش فيها حيواناتٌ في جماعةٍ لاتعرفُ امبراطورية الإنسان؟

أشارت العجوزُ إشارةَ تأكيدٍ من رأسها ، وقالت وهي تضحكُ ضحكتَها الخفيفة نصف البلهاء ، ونصف الماكرة :

وقالت :

إني آتيةٌ منها . وقد فقدت الحيوانات ملكها فيها ، فإن نبيل ، السَّبع ، قد مات ؛ ولسوف تنتخب الحيوانات ملكًا آخر . فامض إلى هناك ، فلربّما تصير ملكًا .

فصاح الكونت ، وهو ينفجر ضاحكًا :

ماذا تقولين ، أيّتها الأمّ ، هل تعلمين من تكلّمين؟ ألا تدرين إذن أن السيّد هو . . . (كيف تُقال ، بحقِّ الشيطان ، كلمةُ : أستاذ بلغة الجمّود؟) ، إن السيّد عالمٌ كبيرٌ حكيم و (ڤيدولوت)[1] .

فنظرت العجوزُ إليه باهتمام وقالت :

أنا مخطئة ، فأنت الذي يتعيّن عليه أن يذهب إلى هناك ، ولسوف تكونُ ملكهم ، وليس هو ، فأنت طويلُ القامة ، وأنت قويُّ البنية ، ولك مخالبُ وأسنان . . . فقال لي الكونت :

ما رأيك بهذه السهّام السّاخرة التي ترشقنا بها؟

وسألها : هل تعرفين الطّريق إليها ، أيّتها الأمّ الصّغيرة؟

فأشارت له بيدها على قسمٍ من الغابة .

---

(١) ڤيدولوت : ترجمة رديئة لكلمة أستاذ ، فالڤيدولوت قد كانوا شعراء غنائيين بطوليين .

فتابع الكونت قائلاً :

بكلّ رضى . والمستنقع ، ماذا تفعلين لاجتيازه؟ - سوف تعرفُ ، ياسيدي الأستاذ ، أن هناك مستنقعًا لا يمكن عبوره ، وبحيرةً من الطّين السائل مغطاة بالعشب الأخضر ، في الجهة التي تشير إليها ، وفي السنة الماضية ، رمى نفسه في هذا المستنقع الشيطاني ّأيّلٌ كنتُ قد جرحته ، ورأيته يغرقُ بطيئًا ، بطيئًا . . . وبعد دقيقتين ، لم أعد أرى سوى قرونه ، وبعد قليل ، اختفى كلُّ شيء ، وكلبان من كلابي معه .

فقالت العجوز هازئة : أما أنا ، فلست ثقيلةً .

- أظنّ أنك تعبرين المستنقع من غير جهدٍ على عصا مكنسة .

فالتمعت في عيني العجوز ومضة غضب ، وقالت وهي تستعيد لهجة المتسولّين الفاترة والخَنساء :

ياسيدي الطيّب أليس لديك غليونٌ للتبغ تعطيه لامرأةٍ مسكينة؟

وأضافت وهي تُخفض صوتها :

من الأفضل لك أن تفتش عن ممرٍ في المستنقع من أن تذهب إلى دوغييلّلي .

- دوغييللي ! وماذا تريدين أن تقولي؟

لم يكن بوسعي أن أمنع نفسي من ملاحظة أن تلك الكلمة قد أحدثت على الكونت تأثيراً فريداً . لقد كان محرجًا على نحوٍ واضح ؛ فخفض رأسه ، وكي يخفي اضطرابه ، بذل عناءً كبيراً ليفتح كيس تبغه المعلّق على قبضة سكين الصيّد الذي يمتلكه .

وتابعت العجوز قائلة :

لا ، لا تذهب إلى دوغييلّلي ؛ فاليمامة البيضاء ليست من صنيعك ، أليست محروسة؟

في تلك اللحظة، خرج رأس الحيّة من قبّة المعطف العتيق، وامتدّ حتى إذن صاحبته. كانت الزّاحفة المدرّبة على تلك اللعبة من غير شكّ، تحرك فكّيها، وكأنها تتكلّم.

فأضافت العجوز:

إنها تقولُ إني على حقّ.

وضع الكونت في يدها حفنةً من التبغ وسألها:

هل تعرفينني؟

ـ كلاّ، يا سيّدي الطيّب.

ـ أنا مالك ميدينتيلتاس، تعالي لرؤيتي في أحد الأيام، وسأعطيك تبغًا وشيئًا من ماء الحياة.

قبّلت العجوز يده، وابتعدت بخطًى كبيرة، وغابت عن أنظارنا في لحظةٍ من الزّمن؛ فمكث الكونت يتفكّر في الأمر، وهو يحلُّ ويربط شرائط حقيبته، من غير أن يدري ماذا يفعل. وقال لي بعد صمتٍ طويلٍ إلى حدٍّ كافٍ:

يا سيدي الأستاذ، سوف تسخر مني؛ فهذه العجوز الغريبة الأطوار تعرفني بصورةٍ أفضل مما تدّعي، وتعرفُ الطّريق التي دلّتني عليها منذ قليل... وبعد كلّ حساب، فلاشيء يثيرُ الدّهشة في كلّ هذا؛ فأنا معروفٌ في المنطقة مثل ذئب أبيض، ولقد رأتني الخبيثة أكثر من مرّة على طريق قصر دوغييللي... فهناك آنسةٌ تصلحُ للزّواج، وقد استنتجتُ أنّي مغرمٌ بها... ثم أن فتى وسيمًا لابدّ أنه قد رشاها كي تتنبأ لي بمستقبلٍ مشؤوم... كلُّ هذا جليٌّ واضحٌ، ومع ذلك،... ورغمًا عنّي، فهذه الكلماتُ تؤثّر بي، وقد أرعبتني تقريبًا... إنك تضحكُ، وأنت على حقّ في ذلك... والحقيقة هو أني كنتُ أنتوي الذّهاب إلى قصر دوغييللي، أما الآن، فأنا متردّد... أنا مجنونٌ كبير! حسنًا، يا سيدي الأستاذ، قرّر أنت بنفسك، هل نذهبُ؟

فأجبته ضاحكًا :

إني أتحاشى فعلاً إبداء رأيٍ معيّن ؛ ففي مسألة الزّواج، لا أعطي نصيحةً قط.

كنّا قد أدركنا خيولنا، فقفز الكونت بخفّةٍ إلى السّرج، تاركًا العنان جانبًا، وهتَف :

الحصان سيختارُلنا !

ولم يتردّد الحصانُ؛ فدخل في الحال إلى معبرٍ صغير أدّى إلى طريقٍ محصّبة. بعد بضع لفّات وكانت تلك الطريق تقودُ إلى دوغيبلّلي. وبعد نصفِ ساعة، أصبحنا عند الدّرج الأماميّ للقصر.

ظهرت رأسٌ جميلةٌ شقراء في إحدى النوافذ، من بين السّتائر، على إثر الضّجة التي أحدثتها خيولنا، فتعرّفت فيها مترجمة ميكييڤتش الغادرة.

فقالت :

أهلاً وسهلاً ! أما كان يمكنكم أن تأتوا في وقتٍ مناسبٍ أكثر، أيها الكونت شيميوت؛ فقد وصلني في هذه اللحظة فستانٌ من باريس. ولن تتعرّفوني لشدّة ماسأغدو جميلة.

انسدلت الستائر من جديد، وكان الكونت يقول بصوتٍ خفيض جداً، وهو يصعدُ درجَ المدخل :

بالتأكيد، إنها لا تهدي هذا الفستان لي. . .

وقدّمني إلى السيّدة دوغيبلّلي، عمةِ البانا إيڤينسكا التي استقبلتني استقبالاً جميلاً، وحدّثتني عن مقالاتي الأخيرة في مجلة كينغسبرغ العلمية والأدبية.

وقال الكونت : إن السيّد الأستاذ يأتي كي يشكو إليك الآنسة جوليانا التي لعبت ضدّه لعبةً خبيثةً جداً.

ـ إنها طفلةٌ، يا سيدي الأستاذ، ويجب أن تسامحها. وهي غالبًا ماتدفعني إلى الغضب بحماقاتها؛ فقد كنت، وأنا في السّادسة عشرة من عمري أكثَرَ تعقُّلاً منها وهي في العشرين، غير أنها فتاة طيبة في الجوهر، ولديها كلُّ الأوصاف الرّاسخة؛ فهي موسيقيةٌ جيدة جداً، وترسم الزهور بصورةٍ رائعة، وتتكلّم بصورة جيدةٍ أيضًا الفرنسية والألمانية والإيطالية. إنها تطرِّز. . .

وأضاف الكونت وهو يضحك:

وتكتب أبياتًا من الشعر الجمودي!

فصاحت السيدة دوغيبلو التي كان لابدّ لها من إيضاح عفْرتات ابنة أخيها لها:

إنها غيرُ قادرةٍ على ذلك!

كانت السيّدة دوغيبلّو مثقّفةً، وتعرفُ الآثار القديمة في بلدها. وقد راق لي حديثها بصورةٍ خاصة. كانت تقرأ العديد من مجلاّتنا الألمانية، وتمتلك مفاهيم سليمة جداً في علم اللغة. وأعترف بأني لم ألحظ الوقتَ الذي استغرقته الآنسة ايفينسكا كي ترتدي ملابسها. ولكنه بدا طويلاً للكونت شيميوت الذي كان ينهض، ويجلس مجددًا وينظر إلى النافذة، وينقر بأصابعه على الزّجاج مثل رجلٍ فرغَ صبْره. وأخيراً، وبعد مرور ثلاثة أرباع السّاعة، ظهرت الآنسة جوليانا، تتبعها مربيّتها الفرنسية، وكانت جوليانا ترتدي برشاقةٍ وكبرياء، فستانًا يتطلّب وصفهُ معارف أعلى بكثير من معارفي.

وسألت الكونت، وهي تدورُ ببطءٍ حول نفسها، كي يراها من الجهات كافّة:

ألستُ جميلة؟

ولم تكن تنظر إلى الكونت ولا إليّ، بل تنظر إلى فستانها.

فقالت السيّدة دوغيبلّو:

كيف، يا يولكا، ألا تُلقين تحيةَ الصّباح على السيّد الأستاذ الذي يتشكّى منك؟

فهتفت، وهي تمطُّ شفتيها قليلاً بصورةٍ رائعة:

آه! السيّد الأستاذ! وماذا فعلت إذن؟ وهل ستقاصصُني؟

فأجبتها:

إذا ما حرمنا أنفسنا من حضورك، يا آنستي، فإننا نقاصصُ أنفسنا بأنفسنا. إني أبعدُ ما أكون عن التشكّي. وعلى العكس من ذلك، فأنا أهنّئ نفسي بأني قد عرفتُ بفضلك أن ربّة الفن الليتوانية تُبعثُ بصورةٍ أكثر تألّقًا منها في أيِّ وقتٍ مضى.

خفضت رأسها، وهي تضعُ يديها أمام وجهها، وتعنى بألاّ تُفسد تصفيف شعرها، وقالت بلهجةٍ جديرةٍ بطفلٍ قد سرق للتوّ بعضاً من المربّيات:

- اعذرني، لن أفعل ذلك بعد الآن.

فقلت لها:

لن أسامحك، يا عزيزتي باني، إلاّ عندما تفين بوعدٍ كنت قد وافقت على قطعه لي في ڤيلنوا، في منزل الأميرة كاتازينا باس.

فقالت وهي ترفعُ رأسها ضاحكةً:

أيّ وعد؟

- هل نسيته؟ لقدوعدتني أنه إذا ما لتقينا في ساموجيسيا، فسوف تجعلينني أرى رقصةً معينة من البلاد التي كنت تقولين عنها العجائب.

- أوه! الروسّالكا! إني رائعةٌ في أدائها، وهذا هو الرجل الذي يلزمني.

وهرعت إلى منضدةٍ كانت عليها دفاتر موسيقية، فتصفحّت أحدها على عجل، ووضعته على قمطرٍ بيانو، وتوجّهت إلى مدير أعمالها، وقالت:

هيا، ياروحي العزيزة، اللّحن المتعجل السّريع: Allgro Presto

ودقّت اللازمة بنفسها على البيانو، من غير أن تجلس، كي تدلّ على الحركة.

ـ تقدم إلى هنا، أيها الكونت ميشيل، فأنت ليتواني إلى حدٍّ كبيرٍ بحيث لا يمكن لك إلاّ أن ترقص الرّوسالكا جيداً. . . بل ارقصْ مثل فلاّح، هل تسمع؟

وحاولت السيدة دوغيبلو أن توجّه إليها تحذيراً، ولكن من غير طائل؛ فقد أصررنا على الرقص الكونت وأنا وكانت لديه مبرّراته؛ فدوره في تلك الرّقصة كان من أكثر الأدوار إمتاعًا، كما سنرى بعد قليل. أما مدبّرة المنزل فقد قالت، بعد بعض المحاولات، إنها تظنُّ نفسها قادرةً على عزف ذلك النّوع من القالس، مهما كان غريبًا. وبعد أن نحَّتْ الآنسة إيڤينسكا جانبًا بعضَ الكراسي، ومنضدةً كان يمكن أن تُعيقها، أمسكت مُراقصها من قبّة ردائه، وأتت به إلى وسط قاعة الاستقبال.

ـ ستعرف يا سيّدي الأستاذ أني روسّالكا في خدمتك.

وحيّته بانحناءةٍ كبيرة.

ـ إن الرّوسالكا حوريّةٌ من حوريات الماء، وهناك حوريّة في كلّ المستنقعات الملأى بالمياه السّوداء، والتي تجمّل غاباتنا، فلا تقتربوا منها! فالرّوسالكا تخرجُ، وهي أكثر جمالاً مني. وإذا كان الأمرُ ممكنًا، فهي تحملكم إلى الأعماق، حيث تقضمكم على الأرجح.

فهتفت:

إنها جنّية بحرٍ حقيقية.

وتابعت الآنسة إيڤينسكا، وهي تشيرُ إلى الكونت شيميوت:

ـ أما هو، فصيادٌ شابٌ، شديدُ الحماقة، وهو عرضةٌ لمخالبي، ومن ناحيتي، فلكي أجعلَ المتعة تدوم، سوف أسحره بأن أرقُص قليلاً حوله. . . آه! ولكن كي أصنع ذلك جيداً، قد يلزمني فستانٌ ريفي[1]. يا لها من خسارة! . . . سوف تتفضّلون بأن تعذروني على ارتدائي لهذا الفستان الذي لا طابع له، ولا لونًا محليًّا. . . أوه! ولديّ حذاء! . . . وله كعبان أيضًا!

(١) ترجمة لكلمة: Sarafane: وهو فستان ترتديه الفلاحات، ولا صدار له.

رفعت فستانها، وحركّت بكثيرٍ من الرشاقة قدماً جميلة، تحت خطرِ إظهار ساقها بعض الشيء. وقذفت فردةَ حذائها إلى آخر قاعة الاستقبال، ولحقت الفردة الثانية بالأولى، ومكثت على الأرضية بجواربها الحريرية.

وقالت لمدبّرة منزلها:

كلّ شيء جاهزٌ.

وبدأ الرقصُ.

أخذت الروسّالكا تدورُ، وتدورُ مجدّداً حول مراقصها. وها هو يمدُّ ذراعيه ليمسك بها، فتمرُّ من تحته، وتُفلتُ منه، ويتمُّ ذلك برشاقة كبيرة، فالموسيقى مليئة بالحركة والأصالة. وينتهي المشهد عندما تقومُ الروسّالكا بقفزة، بعد أن ظنّ مراقصها أنه قد أمسك بها كي يعطيها قبلةً، فتضربه على كتفه، ويسقط على قدميها كأنّه ميت . . . ولكن الكونت ارتجل تنويعاً على المشهد وذلك بأن احتضن العفريتة بين ذراعيه، وقبّلها قُبلةً حقيقية، فأطلقت الآنسة إيڤينسكا صرخةً صغيرةً، واحمرّ وجهُها من الخجل كثيراً ومضت لتهوي على أحد المقاعد، والاستياء بادٍ على محيّاها، وأخذت تتشكّى من أنه قد شدّها إليه وكأنه دبّ. ولاحظت أن المقارنة لم ترقْ للكونت؛ فقد كانت تذكّره بمصيبةٍ عائلية فتكدّر وجهه. أما أنا، فقد شكرت الآنسة إيڤينسكا بحرارةٍ، وأثنيت على رقصها الذي بدا لي أنه يتّصف بطابعٍ قديم يذكّر بضروب الرقص المقدّسة لدى الإغريق. وقد قاطعني خادمٌ يعلنُ عن وصول العميد والأميرة ڤيليا مينوف. فقفزت الآنسة إيڤينسكا من المقعد إلى حذائها، وأدخلت فيه على عجلٍ قدميها الصغيرتين، وهُرعت للقاء الأميرة، وحيّتها بانحناءتين كبيرتين متتابعتين، ولاحظت أنّها كانت في كلّ مرةٍ ترفعُ بمهارة جانباً من أعلى حذائها. وكان العميدُ قد جلَبَ معه مرافقين اثنين، وأنّه كان، مثلنا، قد أتى من غير كلفةٍ. وأظنّ أن صاحبة المنزل، في أيّ بلدٍ آخر، كان يمكن أن تشعر بالإحراج إذا ما استقبلت ستةَ ضيوف غير منتظرين، وذوي شهيةٍ جيدة في آنٍ واحد. غير أن وفرة وضيافة المنازل الليتوانية كانت كبيرةً بحيث لم يتأخر العشاء، كما أظنّ، أكثر من نصف ساعة، إلاّ أنه كانت فيه كميةٌ مفرطةٌ من الفطائر السّاخنة والباردة.

- ٤ -

كان العشاء بهيجًا جداً. وقد قدّم لنا العميد تفاصيل مثيرةً جداً للاهتمام عن اللّغات التي تُحكى في القوقاز، والتي بعضها آريّ، وبعضها الآخر طورانيّ، مع أن هناك تطابقًا ملحوظًا في الطّباع والعادات بين تلك الشعوب المختلفة. وقد كنت شخصياً مضطراً للحديث عن أسفاري لأنه قد تعيّن علي، بعد أن هنّأني الكونت شيميوت على الطّريقة التي أمتطي بها الخيل، وقال إنه لم يصادف قط وزيراً ولا أستاذاً يمكنه أن يؤدي مسيراً طويلاً بالخفّة التي أدّينا بها مسيرنا. كان عليّ أن أوضح له أني كنتُ قد أمضيت ثلاثة أعوام ونصف في جمهورية الأورغواي، وأنا على سرج حصاني، على الدّوام تقريباً، أعيش في سهول البامبا[1]، بين الهنود، عندما كلّفتني الجمعية التوراتية بالعمل في مجال لغة الشارويّاس، وهكذا، فقد ساقني الحديثُ إلى أن أروي أن العوزَ قد وصل بي إلى أن أفعل كما يصنع الغوشوس Gauchos الذين كانوا يرافقونني، أي إلى أن أفصد حصاني، وأشرب من دمه، بعد أن تهتُ ثلاثة أيام، في تلك السّهول اللاّمتناهية، من غير قوتٍ ولا ماء.

لقد أطلقت كلُّ النّساء صرخة رعب، وعلّق العميدُ بقوله إن شعب الكالموك[2] كان يستخدمُ مثل تلك الوسيلة في ظروف العوز الشديد. وقد سألني الكونت كيف وجدت ذلك الشراب. فأجبت: نفسيًا، كان يقززني كثيراً، أما جسديًا، فقد كنت أجدُ نفسي بحالةٍ جيدة. وإني أدين لذلك الشّراب بشرف تناول العشاء هنا اليوم. إن العديد من الأوروبيين، أعني البيض الذي عاشوا زمنًا طويلاً مع الهنود يعتادون عليه ويستسيغونه، حتى إن صديقي الممتاز دون فريكتيوزو ريڤيرو، رئيس الجمهورية، نادراً ما يفوّتُ الفرصة لإرواء غليله منه. وأتذكّر أنه كان ذاهبًا، ذاتَ يومٍ إلى مؤتمرٍ وهو يرتدي زيّه الرسميّ الكامل، فمرّ من أمام مزرعةٍ

---

(١) سهول معشوشبة في أمريكا الجنوبية. (م: ز.ع).

(٢) الكالموك: شعب منغولي موطنه بين الدّون والفولغا. (م: ز.ع).

كانوا يفصدون فيها مهراً؛ فتوقّف، ونزل عن جواده كي يطلب مضةً. وبعد ذلك، ألقى خطابًا من أكثر الخطابات بلاغةً.

فصاحت الآنسة إيڤينسكا:

إن رئيسك وحشٌ فظيع.

فقلت لها:

اعذريني، أيتها البانة العزيزة، إنه رجلٌ متميزٌ جداً، وذو عقلٍ متفوق، وهو يتكلم بضع لغات هندية شديدة الصّعوبة على نحوٍ رائع، وخصوصًا لغة الشارويا، بسبب الأشكال التي لاتحصى، والتي يتّخذها الفعل فيها، حسب الحالة المباشرة أو غير المباشرة، أو حتى حسب العلاقات الاجتماعية الموجودة بين الأشخاص الذين يتكلمونها.

كنتُ أهمُّ بأن أعطي بعضَ التفاصيل المثيرة للفضول حول آلية عمل الفعل في لغة الشارويا، غير أن الكونت قاطعني كي يسألني أين كان ينبغي فصد الخيول عندما كانوا يريدون أن يشربوا دمها.

فصاحت الآنسة إيڤينسكا، وقد ظهر عليها الرّعب المضحكُ:

- من أجل محبّة الرب، يا عزيزي الأستاذ، لاتقلْ له شيئًا عن ذلك، فهو رجلٌ يمكن أن يقتل كلَّ ما في اسطبله من خيول، وأن يأكُلنا نحن، عندما لاتعودُ لديه خيول!

عند تلك الفكرّة اللامعة، غادرت النساء المائدة، وهنّ يضحكن، كي يحضّرن الشاي والقهوة فيما ندخّن. وبعد مضيّ ربع ساعةٍ أرسلوا في طلب السيّد العميد في القاعة، وكنا نريدُ أن نتبعه جميعًا، ولكن قيل لنا إن تلك النساء لم يُردْن إلاّ رجلاً واحداً في آنٍ واحد. وبعد قليل، سمعنا في قاعة الاستقبال قهقهاتٍ عريضةً وتصفيقاتٍ بالأيدي.

وقال الكونت:

- إن الآنسة يولكا تقومُ بحماقات.

وأتوا في طلبه شخصياً، فتعالت ضحكاتٌ جديدة، وتصفيقاتٌ جديدة. وجاء دوري بعده، وعندما دخلتُ إلى قاعة الاستقبال، كانت كلُّ الوجوه قد اتّخذت مظهرَ الجديّة التي لم تكن تبشّر كثيراً بفألٍ حسن، فتوقّعت خديعةً ما.

وقال لي العميدُ بلهجته الأكثر رسميّة:

ياسيدي الأستاذ، تزعمُ هؤلاء النّسوة بأننا قد رحّبنا بالشّامبانيا أكثر من اللازم[1]. وهن لايُردن أن يجزن لنا مرافقتهن، إلاّ بعد اختبارٍ معيّن يتمثّل في أن يذهب كلٌّ منا، معصوبَ العينين، من وسط القاعة إلى ذلك الجدار، وأن يلمسه بإصبعه. أنت ترى أن الأمرَ سهلٌ، ويكفي أن يسيرَ المرءُ على خطٍّ مستقيم، فهل أنت في حالةٍ تسمحُ لك بأن تلتزمَ بالسّيرِ على خطٍّ مستقيم.

- أظنُّ ذلك يا سيّدي العميد.

وفي الحال، ألقت الآنسة إيڤينسكا بمنديلٍ على عينيّ، وشدّته بكلّ قوتها من الخلف. وقالت:

أنت في وسطِ القاعة، فابسطْ يديك... حسنًا! وأنا أراهنُ على أنّك لن تلمسَ الجدار.

وقال العميد: إلى الأمام، سرّ.

لم يكن عليّ أن أخطو سوى خمس أو ستّ خطوات؛ فأخذتُ أتقدّمُ ببطءٍ شديد، مقتنعًا بأني سأصطدم بحبلٍ أو بمنضدةٍ خفيضة، موضوعةٍ في طريقي على نحوٍ غادر، كي تجعلني أتعثّر. وكنتُ أسمعُ ضحكاتٍ مخنوقةً تزيدُ من ارتباكي. وأخيرًا، ظننتُ أنّي قريبٌ من الجدار تماماً، عندما دخلت إصبعي التي أمدُّها إلى

(١) أي: أفرطنا في احتسائها. (م ز ع).

الأمام، وعلى نحوٍ مفاجئ في شيءٍ باردٍ ولزج، فتقززتُ، وقفزتُ إلى الوراء، مما جعل كلّ الحاضرين يتفرّقون. فنزعتُ عصابتي، ولمحتُ بقربي الآنسة إيڤينسكا، وهي تمسكُ بوعاء العسل الذي أدخلتُ إصبعي فيه، ظنّاً مني أنّي ألمسُ الجدار، والأمرُ الذي كان مواساةً لي هو أني رأيت المرافقين الاثنين يمران بالامتحان نفسه، ولم يُظهِرا رباطةَ جأش أفضل مما أظهرتُ.

خلال ما تبقّى من السّهرة، لم تكفّ الآنسة إيڤينسكا عن إطلاقِ العنان لمزاجها اللّعوب. وكانت تتّخذُ من هذا تارةً، ومن ذاك، تارةً أخرى، موضوعاً لمزاحاتها، وهي تتابعُ سخريتَها وتصرفاتِها المتشيطنة. وقد لاحظتُ مع ذلك أنها كانت تتوجّهُ في معظم الأحيان إلى الكونت الذي لم يكن يُبدي معاندةً قط، ولابدّ لي من قولِ ذلك. ويبدو حتى أنه كان يستمتعُ بإثاراتها. وعلى العكسِ من ذلك، فحينَ كانت تتوجّهُ إلى أحدِ المرافقين العسكريّين، كان يقطّب جبينه، وكنت أرى عينه تلتمعُ بذلك الشّعاع القاتم الذي كان فيه شيءٌ مرعبٌ، في الواقع. «إنها لعوبٌ مثل قطّة، وبيضاء كالزّبدة». كان يبدو لي أن ميكييڤيتش، حين كتبَ ذلك البيت الشّعري، قد أراد أن يصورّ من خلاله البانا إيڤينسكا.

- ٥ -

انسحب الجميعُ من السّهرة في وقت متأخّرٍ حقًّا. وفي العديدِ من المنازلِ الليتوانية، يرى المرءُ فضيّاتٍ رائعة، وأثاثًا جميلاً، وسجاجيدَ فارسيّة ثمينة، ولا يرى، كما في بلدنا العزيز ألمانيا، أسرّةً جيدةً من الرّيش تقدّم للضّيف المتعب. فسواء كان السّلافيّ غنيًّا أم فقيرًا، نبيلاً أم فلاحًا، فهو يعرفُ جيدًا كيف ينامُ على لوحٍ من الخشب. ولم يكن قصرُ دوغيبلّي يشكّلُ استثناءً إطلاقًا لتلك القاعدة العامة. وفي الغرفةِ التي اقتادونا إليها، الكونت وأنا، لم يكن هناك سوى مقعدين مغطّيين بجلدِ الماعزِ المدبوغ. وقلّما أحبطني ذلك، ففي أسفاري، غالبًا ما كنتُ أنام على الأرضِ العارية. وقد هزئتُ بعضَ الشّيء من صرخاتِ التعجّب التي كان يطلقُها الكونتُ عن نقصِ التحضّرِ لدى مواطنيه. وأتى خادمٌ لينزعَ جزماتنا من أرجلنا، وأعطانا مباذل وأخفافًا. أما الكونتُ فقد تمشّى لبعضِ الوقت بصمتٍ، بعد أن خلع ملابسه، ثم توقّف أمام المقعد الذي كنتُ مستلقيًا عليه، وقال لي:

ما رأيُك بيولكا؟

- أجدُها جذّابةً.

- أجل، ولكنها كثيرةُ الغنج!.. هل تظنُّ أنها تميلُ فعلاً لذلك النقيب القصير الأشقر؟

- المرافق؟... وكيف يمكنُني أن أعرفَ ذلك؟

- إنه مغرور... وإنه لا بدّ أن يروقَ للنساء.

- إني أرفضُ استنتاجك، يا سيّدي الكونت، وهل تريدُ أن أقولَ لك الحقيقة؟ إن الآنسة إيفينسكا ترجو أن تروقَ للكونت شيميوت أكثر بكثير مما ترجو أن تروق لكلّ المرافقين العسكريين في الجيش.

احمرّ وجههُ خجلاً، من غير أن يردَّ عليّ. ولكن بدا لي أن كلماتي قد أشعرتهُ بسرور ملحوظ، وتمشّى أيضًا لبعض الوقت، من غير أن يكلّمني، ثم نظر إلى ساعته وقال:

إننا نحسنُ صنعًا في الحقيقة، إذا نمنا، لأنّ الوقتَ قد تأخّر.

وأمسك بندقيّته، وسكينَ الصيّد اللذين وُضعا من قبل في غرفتنا، ووضعهما في خزانة سَحَبَ مفتاحها منها. وقال لي وهو يسلّمني المفتاحَ في الوقتِ الذي اعترتني فيه دهشةٌ كبيرة.

هل تريدُ أن تحتفظ لي به؛ فمن الممكن أن أنساه، ومن المؤكّد أن لديكَ ذاكرةً أقوى من ذاكرتي.

فقلت له:

إن أفضلَ وسيلة كي لا تنسى أسلحتَك قد تكون في أن تضعها على هذه المنضدة قريبًا من أريكتكَ.

- كلاّ... لاحظْ، إذا أردتَ الصّراحة، فأنا لا أحبُّ أن تكون عندي أسلحةٌ قريبة مني، عندما أنام... وإليك السبّب في ذلك. عندما كنتُ في سلاحِ خيّالة غرودنو، كنت أنامُ ذاتَ يومٍ في غرفةٍ مع رفيقي، وكانت مسدّساتي موضوعةً على كرسي، قريبًا مني. وفي الليل، أيقظني صوت انفجار، وكان المسدّس في يدي، فأطلقتُ النّار، ومرّت الرّصاصةُ على بُعدِ بوصتين من رأسِ رفيقي... ولم أتذكّرْ قط ما الذي حلمت به آنذاك.

أشعرتني تلك الحكايةُ ببعض الاضطرابِ، وكنتُ متأكّدًا حقًّا بأني لن أتلقّى رصاصةً في رأسي، غير أني عندما أخذتُ أتأمّلُ القامةَ العالية، والبنّيةَ المربّعة الهرقلية لمرافقي، وذراعيه المليئتين بالعروق، والمغطّاتين بوبرٍ أسود، لم يكن بوسعي أن أتجنّب الإقرارَ بأنّه سيكون مستعدًا تمامًا ليخنقني بيديه، إذا ما رأى حلمًا مزعجًا.

ومع ذلك، فقد احترستُ من أن أُظهِر له أدنى قلق. غير أنّي وضعتُ ضوءًا على كرسي، بقرب أريكتي، وأخذت أقرأ: مبادئ لاڤيكي الدّينية والذي كنت قد

جلبته معي، وتمنّى الكونت لي مساءً طيبًا، واستلقى على أريكته، وتقلّب عليها، خمس أو ست مرات، وأخيرًا، بدا أنه يغفو، مع أنه كان يتجمّع حول نفسه، مثل العشيق، عند هوراس[1]، والذي، بعـــد «أن حُبس في صندوق، يلمسُ رأسَه بركبتيه المثنيّتين»:

TURPI CLASUS IN ARCA

CONTRACTUM GENTIBUS TANGAS CAPUT..

ومن حينٍ لآخر، كان يتنهّدُ بقوة، أو يطلق نوعًا من الحشرجة العصبية التي كنتُ أعزوها للوضعية الغريبة التي اتّخذها لكي ينام. وربّما مرّت ساعةٌ على ذلك النحو، فأخذتُ أغفو، أنا أيضًا، فأغلقت كتابي، ورتّبتُ اضطجاعي على مرقدي بأفضل ما أمكنني، عندما جعلني أرتعش صوتٌ هازئٌ غريبٌ، صادرٌ عن جاري. فنظرتُ إلى الكونت، فوجدتُ أن عينيه مغمضتان، وأن جسدَه يرتعش بكلّيته، وتخرجُ من شفتيه نصف المفتوحتين بعضُ الكلمات التي كان ينطقُها بصعوبة:

- نضرة جداً!.. وشديدة البياض... الأستاذُ لايعرفُ ماذا يقول... إن الحصان لايساوي شيئًا... يا لها من قطعةٍ شهيّة!..

ثم بدأ يعضّ بكلّ أسنانه الوسادة التي كان يضعُ رأسه عليها، وأطلقَ في الوقت نفسه نوعًا من الزئير القويّ إلى درجةٍ كبيرةٍ بحيث استيقظ.

أما أنا، فقد بقيتُ على أريكتي بلا حراك، وتظاهرت بالنّوم، ومع ذلك، فقد كنتُ أراقبه. لقد جلس، وفرَكَ عينيه، وتنهّد بحزن، ومكَثَ ما يقربُ من السّاعة، ومن دون أن يغيّر وضعيّته، غارقًا في أفكاره، كما كان يبدو. ومع ذلك، فقد كنتُ متضايقًا إلى حدٍّ كبيرٍ. وقد قطعتُ وعداً على نفسي ضمنيًا بألا أنامَ قطّ بجانب السيّد الكونت، ومع ذلك، فقد سيطرَ التّعبُ على القلق، مع طولِ الوقت، وعندما دخَلَ أناسُ الفندق صباحًا إلى غرفتنا، كنّا كلانا نائمًا نومًا عميقًا.

---

[1] - هوراس: شاعر لاتينيّ ولد عام ٦٥ ق.م. كتبَ مؤلّفات عائلية ووطنية ودينية متكاملة، وألهم عصرَ النهضة بدعوته إلى التوازن في الحياة وإلى الفضائل التقليدية والاعتدال. (م: ز.ع).

بعد الغداء، رجعنا إلى ميدنتيلتاس، وهناك، التقيتُ الدكتورَ فريبر وحده، وقلتُ له إني أظنّ الكونت مريضًا، وأن أحلامًا مرعبةً تتراءى له، وربّما يكونُ مصابًا بالنُّوام، وإنه يمكنُ أن يكون خطرًا في مثل هذه الحالة.

وقال لي الطبيبُ:

لقد لاحظتُ كلّ ذلك؛ فبرغم بُنيته الرياضية، فهو عصبيُّ المزاج مثل امرأةٍ جميلة. وربما يكون قد أخذَ هذا عن والدته... فقد كانت مؤذيةً للغاية في هذا الصّباح. إني لا أؤمنُ كثيرًا بحكايات مخاوف النساء الحوامل، وألوانِ الوحام لديهن، بيد أن الأمر المؤكّد هو أن الكَونتيسةَ مهووسةٌ، والهوسُ ينتقَلُ من خلال الدّم...

فاستأنفتُ قائلاً:

ولكن الكونت عاقلٌ تمامًا، وهو صحيحُ الفكرِ، ومثقفٌ أكثر مما كنتُ أظنّ، وإني أعترفُ لك بذلك، وهو يحبُّ القراءة...

- حسنًا، حسنًا، يا سيّدي العزيز، ولكنه غريبُ الأطوار غالبًا، وهو ينزوي أحيانًا، لبضعة أيام. وغالبًا مايتجولّ في الليل، ويقرأ كتبًا عجيبة... في الميتافيزيقا الألمانية، وفي الفيزيولوجيا، ولا أدري ماذا؟ وبالأمس، وصله أيضًا طردٌ من لايبزغ. وهل ينبغي أن نتكلّمَ بوضوح؟ إن هرقل يحتاجُ إلى هيبيه[1]، وثمة فلاحات جميلات جدًا هنا... ومساء السبت، يظنُّ المرء أنّهن أميرات، بعد الاستحمام... وما من واحدةٍ منهن لاتفخرُ بتسليةِ السيّد- فأنا، حين كنتُ في مثل سنّه، فليأخذني الشيطان!... كلاّ ليس لديه عشيقة، وهو لايسعى إلى الزّواج، وإنه مخطئٌ في ذلك!... فلابدّ له من شيء يلْهيه.

وإذْ صدمتني نزعةُ الدكتور الماديّة الفظّة إلى أبعد حدّ، فقد أنهيتُ الحديثَ معه فجأة بأن قلتُ له إني أدعو الله أن يجدَ الكونت شيميونَ زوجةً تليقُ به. وإني أقرّ

١- هيبيه: إلهة الشباب في الميثولوجيا اليونانية، وهي ابنة زوس وهيرا. (م: ز.ع).

بأني قد علمت من الدكتور، وليس من غير دهشة، بأن الكونت يميل إلى الدّراسات الفلسفية. إن ذلك الضّابط في سلاح الفرسان، وذلك الصّياد الشغوف بالصّيد، والذي يقرأ الميتافيزيقا الألمانية، ويهتم بالفيزيولوجيا، قلَب أفكاري رأساً على عقب. ومع ذلك، فما قاله الدكتور كان صحيحًا وقد أتاني البرهان على هذا، في ذلك اليوم نفسه.

وقد قال لي فجأة، قبيل انتهاء العشاء:

كيف تفسرّ ياسيدي الأستاذ هذه الثنائية، وهذا الازدواج في طبيعته؟ ربما أنه قد لاحظ أني لم أكن أفهمه تمام الفهم، فقد أردف قائلاً:

ألم تجد نفسك يومًا في أعلى برج، أو على حافة هوّة، وقد أغرتك في آنٍ واحد فكرة إلقاء نفسك في الفراغ، وشعورٌ بالرّعب يُعاكسُها معاكسةً تامّة؟..

وقال الدكتور:

إن ذلك يمكن تفسيرُه من خلال أسباب جسدية بحتة فأولاً: هناك التعب الذي يشعر به المرء بعد مسيرٍ صاعدٍ والذي يسبّبُ ورودَ الدم إلى الدّماغ الذي...

وصاح الكونت بفراغ صبر:

لندعْ الدّم، يا دكتور، ولنأخذْ مثلاً آخر، أنت تمسك سلاحًا ناريًا ملقّمًا، وأفضل صديقٍ لك موجود، وتخالجُك فكرةُ إطلاق رصاصةٍ على رأسه، وتحسُّ بأكبر فظاعةٍ ممكنة، فظاعة جريمة قتل. ومع ذلك، فقد أتتك فكرتُها. أنا أظنّ، أيها السّادة أنه إذا ما كتبنا كلّ الأفكار التي ترد إلى ذهننا في غضون ساعة.. أظنّ أنه إذا ما كتبتَ ياسيدي الأستاذ كلّ أفكارك، مع أني أعدُّك حكيمًا، لشكّلت مجلّداً من القطع العريض ربّما، وما من محامٍ لا يرافع بنجاحٍ عن منعها بناءً على ما فيها، ومامن قاضٍ لا يسجنُك بسببها أو يضعُك في منزل المجانين.

- وهذا القاضي، يا سيدي الكونت لن يحكمَ عليّ بالتأكيد لأني بحثتُ هذا الصبّاح، طيلة ساعةٍ، عن القانون الخفيّ الذي تتخذُ الأفعال السّلافيّة بناءً عليه

معنًى مستقبليًا، إذا ما توافقَت مع حرف جرّ، ولكن إذا ماخطرت لي بالمصادفة فكرةٌ أخرى، فأيّ دليلٍ يمكنُه أن يستنتجه ضدي. أنا لم أعدْ أتحكّم بأفكاري أكثر مما أتحكّم بالحوادث الخارجية التي توحي إلي بها، ولا يمكن أن أستدلّ على بداية تنفيذ فكرة ما. إذا ما انبثقت مني، ولا حتى على قرارٍ بالتنفيذ؛ فلم تخطرْ لي قطّ فكرةُ قتلِ أحد. ولكن إذا ما خالجتني فكرةُ ارتكابِ القتل، ألا يكون عقلي موجوداً كي يستبعدَها؟

- أنت تتكلّم على العقل بارتياحٍ تام. ولكن هل هو حاضرٌ دائمًا، كما تقول، كي يوجّهنا؟ كي يتكلّم العقلُ، ويجعلنا نمتثلُ له، لابدّ من التفكير، أي لابدّ من الوقت، ومن برودة الأعصاب؟ فهل نمتلكُ دومًا الأولَ منهما أو الثاني؟ ففي معركةٍ ما، ألاحظُ قذيفةً تصل إليّ وتنبو، فأستديرُ، وأكتشفُ صديقي الذي كان يمكن لي أن أفديه بحياتي، لو كان لديّ الوقتُ للتفكير.

حاولتُ أن أحدّثه عن واجباتنا كبشر، وكمسيحيّين، وعن الضّرورة التي نجدُ فيها أنفسنا لمحاكاة المحاربِ من أجل الكتابة المقدّسة، والمستعدّ دومًا للحرب. وبيّنت له أننا نحصلُ على قوى جديدة، حين نكافحُ أهواءنَا كي نضعفها، ونُسيطر عليها. وأخشى ألا أكون قد نجحت إلاّ بأن أجعله يصمتُ؛ فهو لم يكن مقتنعًا.

مكثتُ عشرة أيّام أيضًا في القصر، وقمتُ بزيارةٍ أخرى إلى دوغيـيلّي، ولكننا لم نمضِ الليل فيه، وبدت الآنسة إيڤينسكا، كالمرّة الأولى، فارهةً، وصبيّةً مدلّلة، وأخذت تمارسُ على الكونت نوعًا من السّحر. ولم أشكّ بأنه قد أُغرمَ بها كثيراً. ومع ذلك، فقد كان يعرفُ جيداً معايبها، ولم يكن يبني أوهامًا عنها في نفسه. فقد كان يعرفها ميّالة إلى الغنج، وطائشةً، وغير مكترثةٍ بكلّ ما ليس تسليةً بالنسبة إليها. وكنت غالبًا ألاحظُ أنه يتألّم في داخله لأنه يعرفُها قليلةَ التعقّل إلى درجةٍ كبيرة. غير أنّه كان ينسى كلّ شيء، ما إن تتصنّع بعضَ الرّقة معه، كان وجهُه يستضيء، ويشعُّ بالفرح. وقد أرادَ مرّةً أخيرةً أن يأخذني إلى دوغيـيلّي، عشيّة رحيلي، وربما لأنني قد مكثتُ هناك لأتحدّثَ مع العمّة فيما كان يذهبُ كي يتنزّه في

الحديقة مع ابنة أخيها، إلاّ أنّه كان يتوجّب عليَّ أن أشتغل كثيراً وكان لابدّ لي من الاعتذار، مهما كان إصرارهُ. ورجع لتناول العشاء، مع أنه كان قد قال لنا ألا ننتظره. وجلس إلى المائدة. ولم يستطعْ أن يأكل. كان حاجباه يتقاربان، وتتّخذُ عيناه تعبيراً محزنًا. وعندما خرج الدكتورُ كي يذهبَ إلى الكونتيسة، لحق بي الكونت إلى غرفتي، وقال لي كلَّ ما كان في قلبه، وهتف:

- إني نادمٌ حقًا على تركي إياك كي أذهبَ وأرى تلك الصغيرة المجنونةَ التي تهزأ بي والتي لاتحبُّ إلاّ الوجوهَ الجديدة. ولكن كل شيء قد انتهى بيننا لحسن الحظّ، ولقد أصابني منها اشمئزاز عميق، ولن أعودَ لرؤيتها قط.

وتمشّى بعضَ الوقت جيئةً وذهابًا، حسب عادته، ثم استأنف قائلاً:

- ربما تكون قد ظننتَ أني كنتُ مغرمًا بها؟ وهذا ما يعتقدهُ ذلك الدكتور الأحمق. كلاّ. أنا لم أحبّها قطّ، بل كان وجهُها الضّاحك يسلّيني. وكانت تروقُ لي رؤيةُ بشرتها البيضاء... هذا هو أجودُ ما لديها... بشرتُها خصوصًا، أما عن دماغها فلا شيء. لم أرَ قط في شخصها غيرَ لعبةٍ جميلة تسرُّ النّظر عندما يضجرُ المرءُ وحين لا يكون لديه كتابٌ جديد... لا شكّ أنه يمكن القولُ إنها حسناء... فبشرتُها رائعة!... فيا سيّدي الأستاذ، إن الدّم الذي يجري تحت هذه البشرة يجب أن يكون أفضلَ من دم حصان؟... ما رأيُك بذلك؟

وأخذ يقهقه، إلاّ أن سماعَ ضحكه كان مؤلمًا.

استأذنتُه بالانصراف، في اليوم التالي، كي أتابع استقصاءاتي في شمال بالاتينا.

دامت استقصاءاتي حوالي شهرين، ويمكنني القولُ إنه قلّما كانت هناك قريةٌ في ساموجيسيا لم أتوقّف فيها، ولم أجمع بعضَ الوثائق. فليُسمحْ لي بأن أنتهزَ هذه الفرصة لأشكُرَ سكانَ تلك المنطقة، وخصوصاً السّادة كهنةَ الكنيسة على العونِ الذي بادروا إلى تقديمه لأبحاثي، وعلى الإسهامات الممتازة التي أغنوا بها معجمي.

وبعد أن أقمتُ أسبوعاً في شاوليه، نويتُ أن أذهبَ للإبحار إلى كلابيديا (وهي مرفأ نسمّيه ميميل)، كي أرجع إلى دياري، عندما تلقّيتُ من الكونت شيميوت الرسالةَ التالية التي حملها إليّ أحدُ قنّاصيه:

سيدي الأستاذ،

«اسمحْ لي أن أكتبَ إليك بالألمانية؛ فقد أخطئ في النّحو أكثر أيضاً، إذا ماكتبتُ لك بلغة الجمود، وأفقدُ كلَّ تقدير لي. ولا أدري إن كان قد بقي لديك نحوي الآن بعض من ذلك التقدير، والخبرُ الذي أريد أن أنقله إليك، لن يزيدَه ربّما شيئاً.

ومن دون مقدّماتٍ إضافيّة، فأنا قد قرّرتُ الزّواج، وستخمّنُ فعلاً ممن، فإن «جوبيتر يسخَرُ من أيمان العشاق»، فهكذا يصنعُ إلهُ القدر الذي هو جوبيتر السّاموجيسي. إن الآنسةَ جوليانا إيڤينسكا هي إذن التي سأتزوّجُها في الثامن من الشهرِ المقبل. ولسوف تكونُ أكثر الناس تلطّفًا إذا ما أتيت لحضورِ الحفلة. إن كلَّ فلاحي ميدينتلتاس، والمناطقَ المجاورةَ المحيطةَ سوف يأتون إلى منزلي ليأكلوا بعض الأبقار، وعدداً لايُحصى من الخنازير، وعندما يصبحون ثملين، سيرقصون في ذلك المرج، على يمينِ الجادّة التي تعرفُها. سوف ترى ملابسَ وعاداتٍ جديرة بملاحظتك. ولسوف تسرّني أكبر السّرور، أنا وجوليانا أيضاً. وأُضيفُ أن رفضك سوف يرمي بنا في أكثرِ الإرباكات تعاسة. فأنت تعلمُ أني أنتمي إلى جماعة الإنجيليين، وكذلك الأمر بالنسبة لخطيبتي. وهكذا، فإنّ رئيسنا الدّينيّ الذي يقطنُ

على مسافة ثلاثين فرسخًا هنا مقعدٌ بسببِ النّقرس، وقد تجرأتُ على الأملِ بأن توافق على إقامة القدّاسِ الاحتفالي مكانه. وثق، يا سيدي الأستاذ، أني المخلص جداً.

ميشيل شيميوت

وفي أسفل الصفحة، وعلى شكلِ حاشية، أضافت يدٌ نسائيةٌ جميلة بما فيه الكفاية وباللغة الجمّودية.

أنا، ربّة فن ّليتوانيا، أكتُب بلغة الجمود، إن ميشيل وقحٌ إذ شكّ بموافقتك، فما من واحدة غيري أنا على درجة كافية من الجنون بحيث تقبل بُصبيّ مثله. ولسوف ترى، ياسيدي الأستاذ، في الثامن من الشّهر المقبل، عروسًا أنيقة[1] بعضَ الشيء، وهذا ليس بلغة الجمود، بل بالفرنسية، ألن تتسلّى على الأقل، أثناء الحفلة!.

لم ترقْ لي الرسالةُ ولا «الحاشية»، ووجدتُ أن الخطيبين يُبديان خفّةً لاتُغتَفر، في مناسبة احتفالية كتلك المناسبة. ومع ذلك، فما السّبيلُ إلى رفض الذّهاب إليها؟ سأعترفُ أيضاً أن الاستعراضَ الذي يُعلنان عنه قد أغراني رغم كلّ شيء. ومن المرجّح أنّه لن يفوتني، من خلال العدد الكبير من النّبلاء الذين يجتمعون في قصرِ ميدنتلتاس، أن أجد أشخاصًا مثقّفين يزوّدونني بمعلومات مفيدة. لقد كان معجمي بلغة الجمود غنيًا جداً، غير أن معنى عدد من كلماتها التي أُخذَتْ من فم فلاحين غير متعلّمين قد ظلّ بالنسبة لي محاطًا بغموضٍ نسبيّ. لقد كان لكلّ تلك الاهتمامات مجتمعةً قدرٌ من القوّة يجبرني على الموافقة على طلب الكونت، وقد أجبتُه بأنّي سأكونُ في ميدنتلتاس، صبيحة الثامن من الشهر.

ولكم ندمتُ على ذلك!

---

١ - «Chic» كلمة واردة بالفرنسية في رسالة الآنسة إيفينسكا. (م: ز.ع).

حين دخلتُ عبر ممرّ القصرِ المشجّر، لمحتُ عدداً كبيراً من السّيدات والسّادة الذين يرتدون ملابس الصباح، ويتجمّعون على درجِ المدخل، أو يتجولون في ممرّاتِ البستان، كانت باحةُ القصرِ ملأى بالفلاحين المهندمين. وكان القصرُ يبدو كأنه في عيد؛ فالزّهورُ والأكاليلُ والأعلام، وحبالُ الأزهارِ في كلّ مكان. واقتادني مديرُ القصرِ إلى الغرفة التي أُعِدّت لي في الطّابق الأرضي، وهو يعتذر مني لأنه لم يقدّم لي غرفةً أجمل؛ فقد كان هناك كثيرٌ من الناس في القصرِ بحيث كان متعذّراً بالنسبة إليّ أن احتَفِظَ بالشقّة التي كنتُ أشغلها أثناء إقامتي الأولى، وهي الشقّة التي خُصّصتْ لزوجةِ مارشال من النبلاء، ومن ناحيةٍ أخرى؛ فقد كانت غرفتي مناسبةً جداً، لأنها تُطِلُّ على البستان، هي تحت شقّة الكونت، لبستُ على عجلٍ من أجل الاحتفال، فارتديتُ الثوبَ الدّيني، إلا أنّه لم يظهر الكونتُ ولا خطيبتهُ، فقد كان الكونتُ قد ذهب ليأتي بها من دوغييلّي. وكان من المفروض أن يصلا منذ زمنٍ طويل. بيد أن زينةَ العروس ليست بالأمرِ السهل، وقد أعلم الدكتور المدعوين بأن الغداء لن يقدَّمَ إلا بعد القدّاس الاحتفاليّ. أما أصحاب الشهيةِ الشّديدة والتلهُّف على الطّعام فيحسُن بهم أن يأخذوا ما يحتاجونه من مقصفٍ فيه حلويات، وكلُّ أصنافِ المشروبات الرّوحية. وقد لاحظتُ في تلك المناسبةِ كم يثيرُ الانتظارُ الاغتيابَ؛ فقد كان لآنستين جميلتين مدعوتّين إلى الحفلة والدتان لم تنفكّا عن كيلِ السُّخريات ضد العروس.

كان الوقتُ قد تجاوزَ الظهيرة، عندما أعلنت رشقةٌ من زجاجات النّبيذ. وطلقاتِ البنادق وصولَها. وبعد ذلك، دخلت عربةٌ احتفاليةٌ عبر ممرّ القصرِ المشجّرِ، تجرُّها أربعةُ جيادٍ رائعة، ومن خلال الزّبد الذي كان يغطّي لبانها[1]، كان من السّهلِ أن نرى أن التأخيرَ لم يكن بسببها، فلم يكنْ في العربةِ غيرُ العروس،

١- اللّبان: هو صدرُ الحصان. (م: ز. ع).

والسّيدة دوغيـيلّلو، والكونت. فنَزل، وقدَّمَ يده للسيدة دوغيـيلّلو. أما الآنسةُ إيڤينسكا فـقـد تظاهرَت بأنها تريدُ الاختبـاءَ خلف شالها كي تهرب من النظرات الفضوليّةَ التي تُحيطُ بها من كلّ الجهات؛ وذلك بأن قامت بحركةٍ مفعمةٍ بالرّشاقة، والدّلال الطّفولي. ومع ذلك، فقد وقفت في العربة، وكانت تهمُّ بالإمساك بيد الكونت، عندما كبت جيادُ مَحمِل العربة وهي تحمحمُ، وقد أفزعتها الزّهورُ التي كان الفلاحون يُمطرون العروسَ بها ربّما، ولربّما أيضًا بسبب ذلك الذُّعرِ الغريب الذي كان الكونت شيميوت يوحي به للحيوانات، فاصطدم أحد الدواليب بالحافّة الموجودة في أسفلِ مدخل الدّرج، وظنّ النّاسُ للحظةٍ من الزمن أن حادثًا سيحدثُ، فصدرت عن الآنسة إيڤينسكا صرخةٌ صغيرة... وسادَ الاطمئنانُ في الحال. أما الكونتُ، الذي أمسك بها بين ذراعيه، فقد حملها حتى أعلى درجِ المدخل بسهولة، وكأنه لايحملُ سوى يمامة، وأخذنا نصفّق جميعًا لمهارته، ولطافتَه الفروسيّة. وكان الفلاحون يطلقون هتافات «عاش» هائلة. أما العروس التي احمرَّ وجهُها تمامًا، فقد كانت تضحك وترتجف في آنٍ واحد. أما الكونت الذي لم يكن متعجّلاً إطلاقًا للتخلّص من حِمْله السّاحر، فبدا ظافرًا، وهو يُري ذلك الحمْلَ للجمهورِ الذي كان يحيطُ به..

فجأةً، ظهرت امرأةٌ طويلةُ القامة، شاحبةٌ ونحيلة، وملابسُها غير مرتّبة، وشعرُها مشعَّثٌ، وكلُّ قسمات وجهها متقلّصةٌ بسبب الذّعر، ظهرت في أعلى دَرَجِ المدخل، بدون أن يتمكّن أحدٌ من أين يعرفَ من أين أتت.

كانت تصرخ بصوتٍ حاد:

- إلى الدبّ! إلى الدبّ! إلى البنادق.. إنّه يحملُ امرأة! اقتلوه! نار! نار!

كانت تلك هي الكونتيسّة. وكان وصولُ العروس قد اجتذبَ كلّ النّاس إلى درجِ المدخل، في باحةِ القصر، أو إلى نوافذ القصر. وكانت النساءُ اللواتي يرعين المجنونَةَ المسكينةَ قد نسين تعليماتهن هنّ أيضًا، فأفلتت منهنّ، ووصلت إلى وسطنا من غير أن يلاحظها أحدٌ. فكان ذلك مشهدًا شديد الوطأة، وكان لابدَّ من

حملها، برغم صرخاتها ومقاومتها فالعَديد من المدعوّين لم يكونوا يعرفون مرضها. وكان ينبغي تقديمُ الإيضاحاتِ لهم. وقد سادَ الهمسُ بصوتٍ خفيضٍ مدةً طويلة. وكانت كلُّ الوجوه قد اغتمّت، وكان بعضُ الأشخاص المتطيِّرين يقولون: «إنه فألٌ سيئ!» وعددُهم كبير في ليتوانيا.

ومع ذلك، فقد طلبت الآنسة إيفينسكا خمسَ دقائق كي تُصلحَ من زينتها، وتلبسَ خمار العروس، وتلك عمليةٌ قد دامت ما يُقاربُ الساّعة. وكانت أكثر مما يلزم كي يعرفَ الأشخاصُ الذين كانوا يجهلون مرضَ الكونتيسّة سببَه وتفاصيلَه.

ظهرت العروسُ مجددًا متزيّنةً على نحوٍ رائعٍ، ومغطّاة بالماس، وقدَّمتْها عمتُها إلى كلّ المدعوّين. وعندما حانت ساعةُ الانتقال إلى المصلّى، وجّهت السيّدة دوغيبلّلي إلى ابنة أخيها صفعةً على خدِّها بحضورِ الجماعة كلِّها، مما أثارَ الدّهشةَ لديّ، وكانت الصفّعة من القوة بحيث جعلت كلَّ أولئك الذين كانوا غافلين بعض الشيء يستديرون؛ فتلقّت العروس الصفّعة بامتثالٍ تامّ، ولم يبدُ أن أحدًا قد دُهشَ لذلك، باستثناء أن رجلاً يرتدي الأسود قد كتبَ شيئًا على ورقة كان قد جلبها معه. وأن بعض الحاضرين قد وضعوا عليها تواقيعهم بغير اكتراث. ولم أصل إلى حلِّ اللُّغز إلا في نهاية الحفلة، ولو كان مهيئًا لي أن أحزرَه، لما فاتني أن أحتجَّ بكلِّ ماأوتيت من قوةِ كهنوتي المقدّس ضدَّ تلك الممارسةِ البغيضة التي تَهدفُ إلى إثباتِ حالةِ طلاق، من خلال اصطناعٍ أن الزّواج لم يحدثْ إلا على أثرِ عنُفٍ ماديّ قد مورسَ ضدَّ أحد الطّرفين المتعاقدين.

بعد القدّاس الاحتفالي، ظننت أن من واجبي توجيه بعضِ الكلمات إلى الزّوجين الشابين، وذلك بأن أركزّ على أن أوضح لهما خطورةَ الارتباط الذي جمع بينهما منذ قليل وقدسيّته. وبما أنَ حاشية الآنسة إيفينسكا التي كانت في غير محلّها، كانت لاتزال تضايقُني، فقد ذكَّرتُها بأنها قد دخلت إلى حياةٍ جديدة لم تعدْ تواكبُها

تسليات المسرّات الشّبابية، بل حياة مفعمة بالواجبات الجدّية، والامتحانات الخطيرة. وبدا لي أن ذلك الجزء من كلمتي قد ترك أثراً كبيراً لدى العروس، شأنها شأن كلّ الأشخاص الذين يفهمون الألمانية.

واستقبلت الموكب لدى خروجه من المصلّى رشقاتٌ من الأسلحة النّارية وهتافات الفرح. ثم انتقلنا إلى قاعة الطعام، فكانت المأدبة فخمةً، وشهيّة الحاضرين إلى الطّعام قد ازدادت كثيراً. وفي البداية، لم يُسمعْ أيُّ صوتٍ آخر غير صوت السكاكين والشُّوك. ولكنّ الحاضرين، بفضل نبيذ شامبانيا وهنغاريا، بدؤوا، بعد قليل، يتحدّثون ويضحكون، وحتى يصرخون، وقد شربوا نخبَ صحّة العروس بحماس، وما إن عادوا إلى الجلوس، حتى نهض بانٌ[1] عجوز ذو شاربين أبيضين، وقال بصوت مخيف:

أرى بألمٍ أن عاداتنا القديمة قد ضاعت، فما كان لآبائنا قطّ أن يرفعوا أنخاباً بأقداحِ الكريستال، فقد كنّا نشرب بحذاء العروس، وحتى بجزمتها المصنوعةِ من السُّختيان[2] الأحمر. فلنُبين، أيها الأصدقاء، أننا لانزالُ ليتوانيين حقيقيين، وأنتِ، يا سيدتي تفضّلي بإعطائي حذائك.

فأجابته العروس وهي تحمرّ خجلاً، وبضحكةٍ صغيرة مكبوتة:

- تعال، وخذه، ياسيّدي. ولكن لن أقبل أن أشرب من جزمتك.

ولم يتلكأ البانُ لحظة واحدة، وجثا على ركبتيه بصورةٍ ظريفة، وخلع فردة حذاء صغيرة من السّاتان الأبيض ذي الكعب الأحمر، وملأه بنبيذ الشّامبانيا، وشربَ بسرعةٍ كبيرة وبمهارةٍ كبيرة بحيث لم يَسِلْ على ملابسه أكثر من النّصف. وانتقلت فردة الحذاء من يدٍ إلى أخرى، فشرب فيها كلُّ الرّجال، ولكن ببعضِ العناء، وطالبَ العجوزُ بالحذاء بعدّة ذخيرةً ثمينةً، فعملت السّيدةُ دوغييلّلي على إخبار إحدى مدبّراتِ المنزل كي تأتي وتُصلح من شأنِ الخلل الذي طرأ على زينةِ العروس.

١- سيّد، رجل. (م: ز. ع).

٢- السّختيان: هو جلد الماعز. (م: ز. ع).

وتبع ذلك النخبَ أنخابٌ عديدة أخرى. وأصبح المدعوون سريعًا كثيري الضجّة بحيث لم يعد يبدو لي من المناسب أن أظلّ بينهم؛ فهربتُ من المائدة، من غير أن ينتبه أحدٌ لي، وذهبتُ لأستنشقَ الهواء خارج القصر، ولكني وجدت هناك أيضًا مشهدًا غير تربويّ؛ فالخدمُ والفلاحون الذين كانت عندهم كمية من البيرة ومشروب ماء الحياة حسب طلبهم، كانوا ثملين في معظمهم. وكانت هناك مشاحناتٌ ورؤوسٌ قد شُجَّت. وكان السكّيرون، في هذا المكان أو ذاك، يتمرّغون على المرج، وقد فقدوا الحسّ. وكان المنظر العامّ للاحتفال يشبهُ كثيرًا ساحةَ معركة، وكان من الممكن أن يدفعني الفضولُ إلى مشاهدة الرّقصات الشّعبية عن كثب، غير أن معظمها كانت تقومُ به غجريات متهتّكات. ولم أظنّ أنّه كان من المناسب أن أغامر بنفسي في ذلك الشّجار المضطرب. فرجعتُ، والحالة هذه إلى غرفتي، وقرأت لبعض الوقت، ثم خلعتُ ملابسي، ونمتُ حالاً.

عندما استيقظتُ، كانت ساعةُ القصرِ تدقُّ ثلاث دقّات. وكان الليلُ صافيًا. مع أن الضبّابَ الخفيفَ كان يحجبُ القمر قليلاً. وحاولتُ أن أنام مجددًا. ولم أتمكّن من ذلك. وحسب عادتي في مناسبةٍ كهذه، أردتُ أن آخذ كتابًا وأن أدرسَ، ولم أستطعْ أن أعثرَ على أعوادِ ثقابٍ في متناولي، فنهضتُ وذهبتُ متلمّسًا طريقي إلى غرفتي، فإذا بجسمٍ غيرِ شفّاف وضخمٍ جدًا يمرُّ من أمام نافذتي، ويسقطُ بصوتٍ مكتومٍ في الحديقة، وكان انطباعي الأولّ أنه رجلٌ، وظننتُ أن أحَدَ سكيّرينا قد سقط من النّافذة، ففتحتُ نافذتي، ونظرتُ فلم أرَ شيئًا، فأشعلتُ أخيرًا شمعةً، وما إن أويتَ إلى سريري، حتى أخذتُ أُراجعُ معجمي حتى اللّحظة التي جلبوا لي فيها الشاي.

وحوالي الساعة الحادية عشرة، مضيتُ إلى قاعةِ الاستقبال حيث وجدتُ العديدَ من العيونِ المتعبة، والوجوهَ الشاحبة. وقد عرفتُ بالفعل أن القومَ قد غادروا المائدةَ في وقتٍ جدّ متأخرّ. ولم يكن الكونت، ولا الكونتيسة الشابّة قد ظهرا بعد.

وفي السّاعة الحادية عشرة والنصف، وبعد العديد من المزاحات الخبيثة، بُدئ بالهمس، بصوتٍ خفيضٍ أولاً، ولكنّه سرعان ماغدا عاليًا بما فيه الكفاية، وأخذ الدكتور ُعلى عاتقه مهمةً إرسال خادم غرفة الكونت ليدقّ على باب سيّده. وبعد ربع ساعةٍ، نزل ذلك الرجل مجدّدًا. وقد بدا عليه بعض ُالتأثُّر، ونقل إلى الدكتور فريبر أنّه قد دقّ أكثرَ من اثنتي عشرة مرّة على الباب، من غير أن يحصلَ على ردّ، فصعدنا، السّيدةُ دوغيبيلّلو والدكتور وأنا، وقد سيطر علي القلقُ الذي أصابَ خادمَ الغرفة. وصعدنا ثلاثتُنا معه، وأمام الباب، وجدنا وصيفةَ الكونتيسة الشابة مذعورةً تمامًا، وهي تؤكّدُ أنه لابدّ أن مصيبةً ماقد حدثت. لأن نافذةَ السّيدة كانت مفتوحةً على مصراعيها. وتذكّرتُ برعب الجسمَ الثّقيل الذي سقَطَ أمام نافذتي، وأخذنا نطرقُ البابَ بضرباتٍ عنيفة. ولاأحَدَ يجيبُ. وأخيراً، أتى خادمُ الغرفة، وجلَب قضيبًا من الحديد، فكسرنا الباب... كلا! إن الشّجاعة تخونُني لأصفَ المشهدَ الذي تبدّى أمام عينّي. كانت الكونتيسةُ الشّابةُ ممدّدةً على سريرها ميتةً. ووجهُها ممزّق تمزيقًا فظيعًا، وحنجرتها مفتوحة، وغارقةً بالدّم. أما الكونت فكان قد اختفى ولم يسمعْ أحدٌ عن أخباره من بعد.

تأمل الدكتور جرحَ المرأةِ الشابةِ الفظيع.

وصرخ:

ليست شفرةً فولاذية هي التي أحدثت هذا الجرحَ... بل هي عضّة!... أغلق الأستاذ كتابه، ونظر إلى النار بهيئةٍ متفكّرة.

وسألتْ أديلا ييد:

وانتهت القصةُ.

فأجاب الدكتور بصوتٍ فاجع:

- انتهت!

ولكنها استأنفت قائلةً:

ولكن لماذا وضعت لها عنوانًا هو «لوكيس»، فما من واحدٍ من الشّخصيّات تُدعى هكذا، فقال الأستاذ:

ليس هذا العنوانُ هو اسم إنسان- حسنًا، ياتيودور، هل تفهمُ مايعني اسمُ لوكيس.

- على الإطلاق.

- لو كنت متشبّعًا جيدًا بقانون تطوّر السّنسكريتية إلى اللّيتوانية، لتعرّفت في كلمة «لوكيس» الكلمةَ السنسكريتيّة أرشا أو ريكشا، ونسمي ّلوكيس باالليتوانية الحيوان الذي أسماه اليونانيون: ἄρκτος[1] واللاتين: URSUS، والألمان bär.

وأنت تفهم الآن العبارة التي استهللتُ بها قصتي:

MIRSZKA ZU LOKIU

ABU DU TOKIU[1]

أنتم تعلمون أنّ الدبَّ، في حكاية الثعلب، يسمّى: دامب البّني. وعند السلافيين يسمونه ميشيل، وميرشكا باللّيتوانية. وهذا اللّقب يحلُّ تقريبًا دائمًا محلّ الاسم النوعي لوكيس. وعلى هذا النّحو. نسي الفرنسيون كلمتهم اللاتينية الجديدة: goupil أو gorpil كي يحلّوا محلّها Renard (أي الثعلب) ولسوف أذكر لك أمثلةً أخرى عديدة...

غير أن أديلايد قد لاحظت أن الوقتَ قد تأخّر، فافترقا.

(١) أرختوس (أو أرخوص) (م: ز.ع).

(٢) حرفيًا: ميشون (أوميشيل) مع لوكيس، كلاهما واحد.

وقد أوردناها في أولِ ترجمتنا للقصّة (م: ز.ع)

- ٧ -

فيديريغو[1]

(١) إن هذه الحكاية حكايةٌ شعبية في مملكة نابولي، ونلاحظ فيها، كما في العديد من القصص التي تعودُ أصلها إلى المنطقة نفسها، مزيجاً غريباً من الأساطير اليونانية، ومعتقدات المسيحية، ويبدو أنها قد أُلّفتْ عند نهاية العصر الوسيط.

في يوم من الأيام، كان هناك سيدٌ إقطاعيّ شاب اسمه فيديريغو، وكان جميلاً، وحسنَ المظهر، لبقًا، وسمحَ الطّباع، غير أن له عادات منحلّة؛ فقد كان يحبُّ بإفراط القمارَ، والخمرةَ، والنساءَ، وخصوصًا القمار. ولم يكن يذهب قطّ ليعترفَ. ولا يتردّدُ على الكنائس إلا ليبحث فيها عن فرص للخطيئة. وهكذا، فقد حدث أن فيديريغو، بعد أن دفع إلى الإفلاس اثني عشر ابنًا لعائلة (والذين تحوّلوا إلى لصوص فيما بعد، وقضوا من غير اعتراف في قتال شرس ضدّ جنود الملك المأجورين)، قد خسر، هو الآخر، وفي وقت جدّ قصير، كلّ ماكان قد كسبه، وكلّ ميراثه، إضافةً إلى ذلك، باستثناء، قُصير ريفيّ صغير ذهب كي يخبّئ بؤسَهُ فيها، خلْف هضاب كاڤا.

كانت ثلاثةُ أيام قد انقضت منذ أن أخذ يعيشُ في العزلة؛ فيمضي إلى الصيّد نهاراً، ويلعبُ مباراةً في الهُمبرة الإسبانية مع المُزارع مساءً. وذات يوم، وهو راجعٌ إلى مسكنه، بعد أن قام بأكثر رحلات الصيّد توفيقًا في حياته، أتى يسوعُ المسيحُ يتبعهُ الرُّسل القديّسون، ليدقّ على بابه، ويسأله الضّيافةَ؛ فابتهجَ فيديريغو الذي كان كريمَ النّفس، إذ رأى أن زوّاراً قد وصلوا إلى منزله في يوم كان يمتلكُ فيه بوفرة ما يطعمهُم إياه. فأدخل، والحالة هذه، الحجّاجَ إلى منزله، وقدّم إليهم المائدةَ وما عليها، بأفضل ما يمكن من الأناقة، ورجاهم أن يلتمسوا له العذْرَ، إن كان لايُقريهم مثلما يستحقّون، ولأنّه قد بوغتَ بحضورهم. أما ربُّنا الذي كان يعلمُ الأساسَ التي تُبنى عليه مناسبةُ زيارتَه، فقد غفَر لفيديريغو تلك الإشارةَ الصغيرة التي تنمّ عن غرور لديه، بسبب استعداداته لكرم الضيافة. وقال له: سنكتفي بما لديك، ولكن اعملْ على تحضير عشائك في أسرع وقت ممكن، لأن الوقتَ قد تأخّر، وأضاف وهو يشير إلى القديّس بطرس: ولأنّ هذا قد جاع جوعًا شديداً.

ولم يتوانَ فيديريغو عن ذلك، وأرادَ أن يُقدّم لضيوفه شيئًا آخر يُضافُ إلى حصيلة صيده. فأمر المزارعَ بالانقضاض على جديْه الأخير الذي تمّ شيُّهُ في الحال.

وعندما أصبح العشاءُ جاهزاً، والجماعةُ جالسة إلى المائدة، لم يكن فيديريغو يأسفُ إلا لشيءٍ واحد، وهو أن نبيذَه لم يكن هو الأفضل، فقال ليسوع المسيح:

يا سيّدي...

يا سيدي، وددتُ لو كان نبيذي أفضل.

ومع ذلك، فأنا أقدِّمهُ من كلّ قلبي، على حاله

حينذاك، وبعد أن تذوّقَ ربُّنا النبيذَ، قال لفيديريغو:

ممَّ تشكو؟ إن نبيذك لاغبارَ عليه، وإني استمزجُ في ذلك هذا الرّجل.

وأشارَ بإصبعه إلى بطرس الرّسول.

وما إن تذوّقه القديس بطرس، حتى أعلن أنّه ممتاز[1] Proprio STupendo

أما فيديريغو الذي كان يعدّ كلَّ ذلك تأدّبًا؛ فقد أقرَّ الرسولَ الرأيَ مع ذلك ولكن كم كانت دهشتُهُ كبيرةً عندما وجد ذلك النبيذَ أطيبَ مذاقًا من أيٍّ نبيذٍ ذاقه يومًا، في أكثر مدّة حالفه فيها الحظّ. وإذ تعرّفَ في تلك المعجزة حضورَ المخلّص؛ فقد نَهَضَ حالاً، بعدّه ليس جديراً بأن يأكلَ مع جماعةٍ على تلك الدّرجة من القداسة. ولكن ربَّنا أمره بأن يعودَ إلى الجلوس؛ وهذا ما فَعلَه فيديريغو من غيرِ تكلُّفٍ كبير. وبعدَ العشاء الذي قدّم إليهم على يدِ المزارع وزوجته، رجعَ يسوعُ المسيح إلى الشقّة التي كانت معدّةً لهم. أما فيديريغو الذي ظلَّ بمفرده مع المزارع، فقد لعب وإياه مباراةً بلعبة الأومبره كالمعتاد، وهما يشربان ما تبقّى من النّبيذ العجائبيّ.

وفي اليومِ التالي، وما إن اجتمع المسافرون القدّيسون في القاعةِ المنخفضة مع صاحب المنزل، حتى قال يسوعُ المسيح لفيديريغو:

(١) إنه فاخر حقًا. (بالإيطالية في النص)

نحن مسرورون جداً من الاستقبال الذي حظينا به عندك، ونريدُ أن نكافئَكَ عليه. فاطلبْ ثلاثَ أُمنياتٍ تختارُها، ولسوف تُمنَح لك، لأنّ القدرةَ الكليةَ قد أُعطيتْ لنا في السّماء، وعلى الأرض، وفي الجحيم.

حينذاك، سحب فيديريغو من جيبه ورق اللّعب الذي كان يحملُه معه دائماً، وقال:

أيّها المعلّم، اجعلْني أكسبُ في كلّ مرةٍ ألعبُ فيها بالورق، من غيرِ خطأ.

فقال يسوعُ المسيح:

ليكن الأمرُ كذلك. (نوافق لك على هذا[1]). (Ti Sia Concesso).

إلا أن القديس بطرس، الذي كان بقربِ فيديريغو، قال له بصوتٍ خفيض:

بماذا تفكّرُ أيها الخاطىءُ التّعس؟ ينبغي أن تسألَ المعلمَ خلاصَ روحِك.

فأجاب فيديريغو:

إن ذلك قلّما يُقلقُني.

وقال يسوعُ المسيح:

لديك أمنيتان أيضاً يمكنُك أن تحصلَ عليهما.

فتابع المضيفُ:

أيها المعلّم، بما أن طيبتكَ عظيمةٌ، فاجعلْ، إذا تفضّلت كلَّ من يصعدُ إلى شجرة البرتقال التي تظلّلُ بابي، غير قادرٍ على النزول منها من غير إذني.

فقال يسوعُ المسيح:

فليكنْ كذلك.

---

(١) بالإسبانية في النص. (م: ز.ع).

عند تلك الكلمات، وجَّه القديس بُطرس ضربةً قويةً من مرفقه إلى جارِه، وقال له:

أيها الخاطئُ التَّعس، ألا تخشى الجحيمَ المعدَّ لأفعالكَ السَّيئة، فلتطلبْ من المعلّم مكانًا في الفردوسِ المقدّس؛ فلا يزالُ هناك وقتٌ لذَلك ...

فأجاب فيديريغو بسرعةٍ، وهو يبتعدُ عن الرّسول:

لاشيءَ يدعو إلى العجلة.

وبعد أن قال ربُّنا:

وماذا تتمنى كأمنيةٍ ثالثة؟

أجاب فيديريغو:

أتمنى ألا يتمكّن كلٌّ من يجلسُ على هذه المنضدةِ الصغيرة، بقرب موقدي، أن ينهض عنها من غير استئذانٍ مني.

وبعد أن حقّق ربُّنا تلك الأمنيةَ كما حقّق الأمنيتين الأوليّتين، مضى مع تلاميذه.

وما كاد يصبحَ أخرُ الرُّسلِ خارج المنزل، حتى نادى فيديريغو مزارعه، راغبًا في اختبار قوّة ورقه، فلعبَ معه مباراةً، من غير أن ينظُرَ إلى أوراقه، فربح المباراةَ فوراً، وكذلك الثانيةَ والثالثةَ. وحين أصبحَ واثقًا من الحدَث الذي وقع له، مضى إلى المدينة، ونزل في أفضلِ فندق، واستأجر فيه أجملَ شقّة، وما إن انتشرت شائعة وصولِه، حتى أتى رفاقُه القدامى في الفسادِ سريعًا ليزوروه أفواجًا.

وهتف دون جيوسيب قائلاً:

- كنّا نظن أنك قد ضعت إلى الأبدْ، وكان الناسُ يؤكّدون أنك قد أصبحتَ ناسكًا، وأجاب فيديريغو:

وكانوا على حقٍّ في ذلك.

وسأله الآخرون جميعًا في آنٍ واحد:

كيف، بحقّ الشيطان، قضيت وقتك، منذ الأعوام الثلاثة التي لم نعدْ نراك فيها؟

فأجاب فيديريغو بسرعةٍ، وبلهجةٍ ورعة:

في الصّلوات، يا إخوتي الأعزّاء جداً.

وأضاف قائلاً، وهو يخرجُ من جيبه علبةَ الورقِ التي كان يحتفظُ بها بعناية:

وهذه هي ساعاتُ تقواي.

فأثار ذلك الردُّ ضحكًا عامًا، وظلّ كلٌّ واحدٍ مقتنعًا بأن فيديريغو قد استعاد ثروته، في البلدان الأجنبيةِ على حساب مقامرين أقلّ مهارةً من أولئك الذين كان يجدُ نفسه بينهم حينذاك، والذين كانوا يتحرّقون إلى دفعه إلى الإفلاس مرةً ثانية. وكان بعضُهم يريدُ، من غير أن ينتظر أكثر، أن يجرّه إلى طاولة القمار. ولكن فيديريغو جعَلَ الجماعةَ تمرُّ في قاعةٍ أُعدّت فيها، بناءً على أمرٍ منه، مأدبةٌ شهيةٌ، فلقيت ترحيبًا كاملاً، وذلك بعد أنْ رجاهم فيديريغو أن يؤجّلوا المباراة حتى المساء كان ذلك العشاءُ أكثرَ مرحًا من عشاءِ الرُّسُل. صحيحٌ أنهم لم يشربوا فيها إلاّ نبيذَ المالڤوازي[1]، واللاكريما[2]. إلا أن المدعوين، باستثناء واحد منهم، لم يكونوا يعرفون نبيذاً أفضل.

كان فيديريغو قد جهّز نفسه، قبل وصول ضيوفه، بورقٍ للعب يشبهُ تمامًا الورَقَ الأولَ، كي يتمكّن عند الحاجة، من أن يحلّ محلّ الورقِ الآخر، وكي يُبعدَ كلَّ شكّ عن ذهن خصومه، عن طريقِ خسارةِ مباراةٍ من أصل ثلاث أو أربع مباريات، وكان قد وضَعَ أحد ورقيّ اللّعب على يمينه، والآخر على يساره.

---

(١) نبيذ يوناني عذب من مقاطعة مالڤوازي (م: ز.ع).

(٢) أي: الدّمعة، وهو نبيذ يُصنع في جنوب إيطاليا (م: ز.ع).

ما إن جرى تناولُ العشاء، وجلست الجماعةُ النبيلةُ حول بساطٍ أخضر، حتى وضع فيديريغو على الطّاولة ورقَ اللّعب الدّنيوي، وجدّد الرّهاناتِ بمبلغٍ معقول لوقت جلسة اللّعب بكاملها. وبما أنه أراد حينذاك أن يُفيدَ من ورق اللّعب، وأن يعرفَ حدودَ قوتّه فقد لعب باذلاً أقصى جهدٍ في المباراتين الأوليّين؛ فخسر الأولى منهما والثانية، ولكن ليس من غير حنقٍ خفيٍّ، ثم طلب أن يؤتى بالنبيذ. وأفاد من اللّحظة التي كان الرابحون يشربون فيها نخبَ انتصاراتهم الماضيّة والآتية، كي يسترجعَ الورقَ الدّنيويّ، بإحدى يديه، ويستبدلُ به الورقَ الآخر المبارك.

عندما بدأت المباراةُ الثالثةُ، لم يعدْ فيديريغو يعيرُ لعبه أيَّ انتباه، بل أخذ يصرفُ وقتَه في ملاحظة لعبِ الآخرين؛ فوجده مخادعًا، وقد سرّه هذا الاكتشافُ كثيرًا. وصار بإمكانه منذَ ذلك الحين أن ينتزع نقودَ خصومه براحةِ ضمير؛ فقد كان إفلاسهُ من صنيع غشّهم، وليس بسببِ إتقانهم اللّعب، أو حظّهم الجيد، وأصبح بإمكانه، والحالة هذه، أن يكوّن رأيًا أفضلَ عن قوتّه النسبيّة، وهو رأيٌ تسوّغه انتصاراتُه السابقة. إن تقدير الذات (فهو لصيقٌ بكلّ شيء) والتيقّن من الثأر، والتيقّن من الربح تلك هي المشاعرُ العزيزةُ جداً على قلبِ الإنسان، لقد أحسَّ بها فيديريغو جميعًا في آنٍ واحد.

ولكنه، حين فكّر في حظّه الماضي، تذكّر أبناءَ العائلات الاثني عشر الذين اغتنى على حسابهم. واقتنع بأن هؤلاء الشّبان كانوا المقامرين الوحيدين النزيهين الذين تعاملَ معهم يومًا، فندمَ للمرّة الأولى على انتصاراته التي أحرزَها عليهم، وأعقبت التماعاتُ الفرحِ التي كانتَ باديةً على وجهه سحابةٌ داكنةٌ، فأطلق زفرةً عميقةً، وهو يكسبُ المباراة الثالثة.

وتبع تلك المباراة، عدةُ مباريات رتّب فيديريغو أمورَه فيها بحيث كسب أكبر عددٍ منها، وجمع في تلك السّهرةِ الأولى ما يكفي ليدفعَ تكاليفَ عشائه، وأجرةَ شهرٍ للشقة التي استأجرها. وكانَ هذا كلّ ما كان يريدهُ في ذلك اليوم. أما رفاقهُ الخائبون، فقد وعدوا، وهم يتركونه، بأن يرجعوا في اليوم التّالي.

وفي اليوم التالي، والأيام اللاحقة، أحسَن فيديريغو الربحَ والخسارةَ في الوقت المناسب، بحيث كسب في وقتٍ قصير ثروةً ضخمةً، من غير أن يرتاب أحدٌ بمنشئها الحقيقيّ. حينذاك، غادرَ فندقه ليذهبَ ويسكنَ في قصرٍ كبير، كان يُقيمُ فيه احتفالاتٍ رائعة، من وقتٍ لآخر، وكانت أجملُ النّساء يختصمن فيما بينهن لقاءَ نظرةٍ واحدة من نظراته. وكانت ألذُّ الخمور تغطّي مائدتَه، في كلّ يوم، وأصبح قصرُ فيديريغو مشهوراً بكونه مركزَ الملذّات.

وبعد عامٍ من لعبِ القمار الحذرِ، عزم فيديريغو على أن يجعلَ ثأره كاملاً، فيؤدّي بسادةِ المنطقة الإقطاعيين الرئيسيّين إلى الإفلاس؛ ولهذا الغرض، فقد دعاهم، قبل ثمانية أيام إلى احتفالٍ غير عاديّ، بعد أن حوّل إلى حجارةٍ كريمة القسم الأعظم من ذهبه، ودعا إلى ذلك الاحتفال أفضلَ الموسيقيّين الراقصين إلخ... وكان من المقرر أن يُختتمَ الاحتفال بلعبةٍ هي من أكثر الألعاب تمويلاً. أما أولئك الذين كانت النقودُ تعوزُهم، فقد سلبوها من اليهود. وجلَب الآخرون ماكانوا يملكونه، وقد جرّدهم فيديريغو من كلّ شيء، ومضى في اللّيل مع ذهبه وماسه.

منذ تلك اللحظة، اتخذ لنفسه قاعدةً مفادها ألا يلعبَ حتماً إلا مع اللاعبين السّيئي النوايا؛ فقد ألفى نفسه قويًا إلى حدٍّ كافٍ بحيث يتدبّر أموره مع الآخرين، وهكذا، فقد جاب مُدُنَ الأرضِ، ولعبَ في كلّ مكان، وقد ربح دائماً. واستهلك في كلّ مكانٍ أجودَ ما كان ينتجهُ البلد.

ومع ذلك، فقد كانت تخطرُ على ذهنه باستمرار ذكرى ضحاياه الاثنتي عشرة، وتُسممُ كلَّ أفراحه. وأخيراً، قرّر ذاتَ يوم أن يُخلّصها أو أن يهلكَ وإياها.

ما إن اتّخذ ذلك القرار، حتى انطلق إلى الجحيم، حاملاً عصاه بيده، وحقيبتَه على ظهره، ولا يرافقهُ أحدٌ غير كلبته السّلوقية المفضّلة لديه، والتي كان اسمها مارشيسلا وعندما وصل إلى صقلية، تسلّق مرتفع جيبيل، ثم نزل إلى

البركان، تحت سفح الجبل، بقدر ما يرتفعُ الجبلُ نفسه فوق بيامونتي. ومن هناك، لابدّ من اجتياز الباحة التي يحرسُها سيربير[1]، كي يذهبَ إلى عند بلوتون[2]. فاجتازَ الباحة، من غيرِ صعوبةٍ، فيما كان سيربير يحتفي بالكلبةِ السّلوقية، وأتى ليدقّ على بابِ بلوتون. وعندما قادوه إلى حضرته، سأله ملك الهُوَّة:

من أنت؟

- أنا المقامرُ فيديريغو.

- وماذا أتيت لتفعل هنا، بحقّ الشيطان؟

فأجاب فيديريغو:

يابلوتون، إذا كنت تقدّر أن أولَ مقامرٍ على الأرض جديرٌ بأن يلعب معك مباراةً في الأومبرة، فهذا ما أقترحهُ عليك: سنلعبُ العَدَدَ الذي ترغبُ فيه من المباريات، وإذا ما خسرتُ واحدةً منها فقط، تصبحُ روحي مُلكًا لك شرعًا، بالإضافة إلى كافة الأرواح التي تسكُن في دويلاتك، وإذا ما ربحتُ، يصبحُ لي الحقُّ في أن أختار نفسًا من بين النفوسِ الخاضعةِ لك، مقابل كلّ مباراةٍ أكسبها، وفي أن آخذها معي.

فقال بلوتون:

فليكنْ.

وطلب علبة ورقٍ للّعب:

فقال فيديريغو في الحال، وهو يسحبُ من جيبه الورقَ العجائبي:

هذه علبةُ ورق.

وبدأا يلعبان.

---

(١) سيربير: هو كلبُ حراسةٍ يحرسُ الجحيم، في الأساطير الإغريقية القديمة (م:ز.ع)

(٢) بلوتون: إله الجحيم والموتى في الأساطير الإغريقية، ويرمز إلى باطن الأرض المشتعل أيضًا. (م:ز.ع)

كسب فيديريغو المباراةَ الأولى، فطلبَ من بلوتون روحَ ستيفانو باغاني، أحد الرجال الاثني عشر الذين كان يريدُ أن يخلّصَهم؛ فسلِّمت إليه فوراً. وبعد أن استلمها، وضعها في حقيبته، وربحَ أيضاً مباراةً ثانيةً، ثم ثالثةً، حتى اثنتي عشرة. وكان في كلِّ مرةٍ يطلبُ أن تُسلَّم إليه روحٌ من الأرواحِ التي كانت تُهمه، ويضعها في حقيبته. وعندما أكمل الاثنتي عشرة روحاً، عَرَض على بلوتون المتابعة.

فقال بلوتون:

بطيبة خاطر (وكان مع ذلك منزعجاً من الخسارة)، ولكن فلنخرجْ لحظةً من الزمن؛ فلا أدري أيةَ رائحةٍ كريهةٍ قد انتشرت هنا.

وهكذا، فقد كان يفتشُ عن ذريعة ليتخلَّصَ بها من فيديريغو؛ فما كاد هذا الأخيرُ يصبحُ في الخارج، مع حقيبته وأرواحه، حتى صرَخ بلوتون بكلِّ قوّته كي يجري إغلاقُ الباب على فيديريغو:

أما فيديريغو الذي كان قد اجتاز قاعة الجحيم مجدداً، من غير أن ينتبه إليه سيربير، لشدّة ما كان مفتوناً بكلبته السّلوقية، فقد وصل بعناءٍ إلى قمةِ مرتفعِ جيبيل. حينذاك نادى مارشيسلاّ التي لم تلبثْ أن لحقت به، ونزل إلى ميسّينا، وهو فرحٌ بانتصاره الرّوحي أكثرَ مما كان عليه قطّ، في أيّ انتصارٍ دنيويّ. وحين وصل إلى ميسّينا أبحر منها ليعودَ إلى اليابسةِ، وينُهي مسيرةَ حياته، في قُصيرهِ الرّيفيّ القديم.

بعد بضعة أشهرٍ من ذلك الوقت، وضعت مارشيسلا حملاً من المسوخِ الصّغيرة، وكان لبَعض منها حتى ثلاثة رؤوس، فأُلقيَ بهم جميعاً في الماء).

وبعد ثلاثين عاماً (وكان فيديريغو قد بلغ السّبعين من عمره)، دخل الموتُ إلى منزله، ونبهّه ليرتّب أمورَه الضّميرية. لأن ساعتهَ قد أتت.

فقال المحتضرُ:

أنا مستعدٌّ، ولكن، قبل أن تختطفَني، أيّها الموتُ، أرجوك أن تعطيني ثمرةً من الشّجـرة التي تُظلِّلُ بابَ منزلي. فـإني إذا مـا حـصلتُ أيضاً على هذه اللذّةِ الصّغيرة أموتُ مرتاحاً.

فقال الموتُ:

إذا لم يكن يلزمُك إلاّ هذا، فأنا موافقٌ على تلبيته لك.

وصَعِد الموتُ إلى شجرةِ البرتقال، ليقطفَ برتقالةً، ولكنه لم يستطعْ أن ينزل منها عندما أراد ذلك؛ فقد كان فيديريغو يتصدَّى له.

وهتَفَ الموتُ:

آه، يافيديريغو، لقد خدعتني، وأنا الآن تحت سلطانِك، ولكن أعدْ إليَّ حريّتي، وأَعِدك بعشرةِ أعوامٍ من العيش.

فقال فيديريغو:

عشرة أعوام! يا له من شيءٍ كثير! إذا أردتَ أن تَنزِلَ ياصديقي، فلابّد أن تكون أكثر أريحيّةً.

- أعطيك عشرين عاماً.

- أنت تسخر!

- أعطيك ثلاثين.

- لم تصل بعد إلى الثلث.

- أنت تريد إذن أن تعيش قرنًا؟

- هذا القدر تمامًا، ياعزيزي.

- يا فيديريغو، أنت لست منصفًا.

- ماذا تنتظر! إني أحبُّ أن أعيش.

فقال الموتُ:

هيا، فلتأخذْ مئةَ عام ولابدّ حقًّا من المرور من تلك الطريق.

وفي الحال، تمكن من النزول.

وما إن مضى الموت، حتى نَهَض فيديريغو في حالةٍ من الصّحةِ التامة، وبدأ حياةً جديدة بقوةِ فتًى وخبرةِ شيخ. وكلُّ مانعرفُه عن حياته الجديدة، هو أنه قد استمرَّ يلبي بشكلٍ مثير للتساؤل كلَّ أهوائه، وخصوصاً شهواته الجسدية. وأنه كان يعملُ القليل من الخير عندما تتوفّر الفرصةُ لذلك. إنما من غير أن يفكّر بخلاصه الذي كان يفكّر به في حياته الأولى.

انقضت الأعوامُ المئةُ، وأتى الموتُ مجدّدًا ليقرعَ بابه، فوجده في سريره، فقال له: هل أنت مستعدٌّ؟

فأجاب فيديريغو:

لقد أرسلتُ في طلبِ معرِّفي، فاجلسْ بقربِ النّار حتى يأتي، فأنا لاأنتظرُ إلاّ غفرانَ خطاياي، كي أنطلقَ معك إلى الأبديّة.

ذهبَ الموتُ الذي كان شخصًا طيبًا إلى المرقاة[1] ليجلسَ، وانتظر ساعةً كاملة من غير أن يلاحظَ وصولَ الكاهن؛ فبدأ يُحسُّ بالضجر، وقال لمضيفه:

أيها الشيخُ، ألم يتوفّر لك الوقتُ، للمرّةِ الثانية، كي ترتبَ أمورَكَ، وها قد مرَّ قرنٌ من الزّمان منذ أن التقينا؟

فقال الشيخُ بابتسامةٍ ساخرة:

كان لديّ، في الحقيقة، شيء آخر فعلاً أقومُ به.

فأجاب الموتُ فورًا، وقد أغضبه كفرُ فيديريغو:

- حسنًا، لم يعدْ لديك دقيقةٌ واحدة تعيشُها.

فقال فيديريغو، فيما كان الموتُ يسعى إلى النّهوض من غير طائل:

(١) المرقاة: Escabeau: كرسي دائرية لامساند لها (م: ز. ع)

ياه! أعلم بتجربتي أنك متساهلٌ إلى حدٍّ كبير بحيث لايمكن ألا تمنحني أيضًا مهلة بضعِ سنوات.

- أية سنوات! أيها البائس! (وكان يقوم بجهود لاطائل منها ليخرج من الموقد).

- أجل، من غير شك، ولكني، هذه المرة، لن أكون متطلّبًا، وبما أني لم أعدْ متمسكًا بالشيخوخة، فإني سأكتفي بأربعين عامًا لشوطي الثالث.

لاحظ الموتُ جيدًا أنه محتجزٌ على المرقاة، كما كان محتجزًا على شجرةِ البرتقال قديمًا، بتأثيرِ قوةٍ خارقةٍ للطّبيعة، ولكنه لم يكن يريدُ أن يمنَحَ شيئًا، بسبب غضبه الشّديد فقال فيديريغو:

أعرفُ طريقةً تجعلك متعقلاً.

وأمر بإلقاء ثلاثة أعواد من الحطَب في النّار، فملأت النارُ الموقد، خلال لحظة، بحيث أصبح الموتُ رازحًا تحت التعذيب.

فصاحَ وهو يشعرُ باحتراق عظامه الشائخة:

العفو! العفو! إني أعدك بأربعين عامًا من الصحة.

عند تلك الكلمات، فكّ فيديريغو السّحر، وهرب الموتُ، نصف مشويّ. وعند انقضاء المهلة، رجع الموتُ ليُطالب برجله الذي كان ينتظرهُ، ثابتَ القدم، وحقيبتُه على ظهره.

قال له الموتُ، وهو يدخلُ بصورةٍ مفاجئة:

هذه المرّة، حانت ساعتُك. لم يعدْ هناك مجالٌ للتّراجع، ولكن ماذا تريدُ أن تصنع بهذه الحقيبة؟

- إنها تحتوي أرواحَ المقامرين الإثني عشر من أصدقائي، والذين خلصتُهم جميعًا من الجحيم.

فقال الموتُ:

فليدخلوا إليه معك مجددًا.

وما إن أمسك بفيديريغو من شعره، حتى انطلقَ في الفضاء، وطار إلى الجنوب، وغاصَ مع فريسته في مهاوي مرتفعِ جيبيل، وما إن وصلَ إلى أبوابِ الجحيم حتى دقَّ ثلاث دقَات فقال بلوتون:

من هناك؟

فأجابَ الموتُ:

فيديريغو المقامر. فصاح بلوتون الذي تذكّر في الحال الاثنتي عشرة مباراة التي خسرها.

- لاتفتحوا، فقد يُخلي هذا النّذل امبراطوريتي من ساكنيها.

عندما رفض بلوتون أن يفتَحَ الجحيمَ، نقل الموتُ أسيره إلى أبوابِ المطهر، غير أن الملاك الحارس منعه من دخوله، لأنّه قد ثبت لديه أن فيديريغو واقعٌ في حالةِ خطيئةٍ مميتة، فكان لابًد والحالةُ هذه، وبكلٍّ الوسائل، وعلى مضضٍ شديدٍ من جانبِ الموت الذي كان غاضبًا على فيديريغو، كان لابدًّ أن يتوجّه الموكبُ نحو المناطق السّماوية.

وقال القديس بُطرس لفيديريغو، عندما وضعه الموتُ على مدخلِ الفردوس:

من أنت؟

فأجاب فيديريغو:

مضيفك القديم الذي أولَمَ لك قديمًا بنتاجِ صيده- فصاح القديسُ بطرس:

- وهل تجرؤُ حقًا على الحضور إلى هنا، وأنت في الحالِ التي أراكَ فيها؟ ألا تعلمُ أنّ السّماءَ مغلقةٌ في وجهِ أمثالك؟ ماذا! حتى أنّك لست جديراً بالمطهر، وتريدُ مكانًا لك في الفردوس!

فقال فيديريغو :

أيها القديس بطرس، هل استقبلتُك على هذا النّحو عندما أتيتَ مع معلّمك الإلهي، منذ مايقربُ من مئةٍ وثمانين عامًا، كي تطلبَ ضيافتي؟

فردّ القديس بُطرس بسرعةٍ، بلهجة موبِّخةٍ، مع أنّها مفعمةٌ بالحنان :

كلّ هذا جميلٌ وحسنٌ، ولكني لا أستطيع أن أتحملَّ مسؤوليةَ السّماح لك بالدخول، سوف أُعلِم يسوعَ المسيح بوصولك، وسنرى ماذا سيقولُ.

أتى ربُّنا إلى باب الفردوس، بعد أن أُحيط علمًا بالأمر، فوجد فيديريغو هناك، جاثيًا عند العتبة، مع أرواحه الاثنتي عشرة، وهنّ ستٌّ من كلٍّ جانب. حينذاك، مال قلبُه إلى الرّحمةِ، وقال لفيديريغو :

ادخلْ أنت، أما هذه الأرواح الاثنتي عشرة التي يطالبُ بها الجحيمُ، فلايمكنني ضميريًا أن أدعها تدخل.

فقال فيديريغو :

ماذا! أيها السّيد! عندما تشرفتُ باستقبالكم في منزلي، ألم يكن يرافقكُم اثنا عشر مسافرًا استقبلتُهم، كما استقبلتكُم، على أحسنِ وجهٍ قدرتُ عليه.

فقال يسوعُ المسيح :

لا سبيلَ إلى مقاومةِ هذا الرّجل، فلتدخلْ إذن، بما أنك قد أتيت، ولكن لاتفاخرْ بالنعمةِ التي أسبغتُها عليك، فقد تكونُ مثلاً سيئًا.

/١٨٢٩/

-٨-

دجــومــانــا

في الحادي والعشرين من أيار لعام ١٨٠٠ , ١٨٠٠ ، كنا راجعين إلى تلمسان، وكانت حملتنا موفقةً فقد جلبنا معنا الثيرانَ، والخرافَ، والجمال، والأسرى، والرّهائن.

بعد سبعة وثلاثين عاماً من الغزو، أو على الأصحّ، من المطاردة المستمرّة، صارت خيولنا نحيلةً وضامرةً، ولكنّ نظرتَها كانت لاتزالُ حادّةً، ومفعمةً بالحماسة، ولم يكن جوادٌ واحدٌ منها مكشوطَ الجلْد من تحت السّرج. أما رجالُنا الذي سفعتهم الشمسُ، وطالت شعورُهم، واتّسخت حمالاتُ أسلحتهم، وبليت ستُراتُهم، فقد كانوا يبُدون ذلك المظهرَ الذي يدلُّ على عدم الاكتراث بالخطر، وبالشقاءِ الذي يميزُ الجنديَّ الحقيقيّ.

ما من عميدٍ لايفضّل قنّاصتَنا على جنودِ السرايا اللّطفاء الذين يرتدون البزاتِ الجديدة، حين يريدُ أن ينفذّ هجوماً رائعاً.

كنتُ، منذ الصباح أفكر بكلِّ المسرّاتِ التي تنتظرني: كيف سأذهبُ للنوم في سريري الحديديّ، بعد أن نمتُ سبعاً وثلاثين ليلةً في مستطيلٍ من القنّبِ المشمَّع! وأتناولُ العشاء جالساً على كرسي، وأحصلُ على الخبزِ الطّري والملحِ حسب طلبي! ثم أخذتُ أتساءَلُ إن كانت الآنسة كونشا ستحصل على زهرةِ رمّان أو ياسمين لتَضَعها في شعرِها، وإن كانت ستحافظُ على القَسَم الذي قطعته لي عند رحيلي. ولكن سواء كانت وفيةً أم متقلّبةً، كنت أشعرُ أنها يمكنُها أن تعتمد على الأساسِ الكبير من الحنان الذي نجلبُه معنا من الصّحراء. فما من شخصٍ في سريتنا لم يكن يحملُ مشاريعَ من أجل السّهرة.

استقبلنا العقيدُ استقبالاً جدّ أبوي، وحتى أنه قال لنا إنه مسرور منّا، ثم انحنى جانباً بمقدَّمنا، وكلَّمهُ، لخمسِ دقائق، وبصوتٍ خفيضٍ، كلاماً قلّما يَسرُّ السامعَ بالقدرِ الذي كان بإمكاننا أن نحكُمَ عليه من خلالِ تعبير وجهيهما.

كنا نلاحظُ حركةَ شاربي العقيد اللذين كانا يرتفعان إلى مستوى حاجبيه، فيما كان شاربا المقدّم ينزلان حتى صدره، وقد زال فتلهُما بصورةٍ تدعو إلى

الرّثاء. وقد زعم قنّاصٌ شابٌ تظاهرتُ بأنّي لا أسمعه، بأن أنفَ المقدّم كان يستطيلُ أمام النّاظر، غير أن أنوفنا نحن قد استطالت سريعًا أيضًا، عندما رجع المقدمُ ليقول لنا: «فلتُطعم الخيول، وليجرِ الاستعداد للرحيل، عند مغيبِ الشمس! إن الضبّاط يتناولون العشاءَ في منزل العقيد، في الساعة الخامسة، وليرتدوا زيَّ الميدان. ولسوف نمتطي الجيادَ بعدَ تناولُ القهوة... فهل يتفقُ ألا تكونوا مسرورين، أيها السّادة؟

ولم يكن ذلك يوافقُنا؛ فحيّيناه بصمتٍ، ونحن نرفضُ في دخيلتنا كلَّ ماقاله، هو والعقيد.

ولم يكن لدينا غير وقتٍ قليل كي نعدَّ أشياءَنا الصّغيرة، وأسرعتُ في تغييرِ ملابسي، وبعد أن اغتسلتُ، وحرصتُ برصانةٍ على ألا أجلسَ في مقعدي الوثير، خوفًا من أن أغفو فيه.

دخلت إلى منزل العقيد، عند السّاعة الخامسة، وكان يسكن في بيتٍ كبير بربريّ، وجدت فناءَه مكتظًّا بالنّاس، فرنسيين أو سكانًا أصليّين، وكانوا يحتشدون حول ثلّةٍ من الحجاج، والمهرّجين الواصلين من الجنوب.

وكان يديرُ العرضَ عجوزٌ، قبيح كالقرد، نصف عارٍ، تحت برنُسِه المثقّب، وذو بشرةٍ بلون الشوكولاته المذابةِ بالماء، وهو موشومٌ على كلّ ندوبِ وجهه، وله شعرٌ قصيرٌ جعدٌ كثيف بحيث يظن المرءُ من بعيد أنه يعتمرُ قلبقًا على رأسه، وله لحيةٌ بيضاء منتصبةُ الشَّعر.

وكان، كما يقولون، قدّيسًا كبيراً، وساحراً كبيراً.

وأمامه، كانت فرقةُ موسيقية مكونةٌ من عازفي ناي اثنين، ومن ثلاثة قارعي طبلٍ، تُحدثُ ضجيجًا جهنّميًا جديراً بالتمثيلية التي سيجري تقديمُها. وكان يقولُ إنه قد تلقى من أحد النسّاك ذائعي الصّيت سلطةً تامةً على الشّياطين، والحيواناتِ المفترسة. وبعد أن وجّه كلمةَ مجاملةٍ إلى العقيد، وإلى الجمهورِ المحترم، أخذ

يؤدّي نوعًا من الصَّلاة والتعزيم، بالاستناد إلى موسيقى فرقته، فيما كان الممثلون يقفزون ويرقصون، ويدوسون على قدمٍ واحدة، ويقرعون صدورهم بضرباتٍ قويّة من قبضاتهم، وذلك امتثالاً لإيعازاته.

ومع ذلك، فقد كان قارعو الطّبول، وعازفو الناي يزيدون باستمرار من تَسارعِ إيقاعاتهم. وعندما جعل التعبُ والدُّوارُ هؤلاء الناس يفقدون كلّ مالديهم من دماغٍ قليل، سحب السّاحرُ الرئيسُ من بعض السّلال الموضوعة حوله عقاربَ وحيّات، وبعد أن بيّن أنها نابضةٌ بالحياة، قَذَفَ بها إلى مهرّجيه الذين كانوا يسقطونَ فوقها، وكأنهم كلابٌ تنقضُّ على عظمةٍ، ومزّقوها بأسنانهم، إذا شئتم.

كنّا ننظرُ من رواقٍ عالٍ إلى المشهد الفريد الذي كان العقيدُ يقدّمه لنا، كي يهيئنَا بلا شكّ كي نتعشّى جيداً. أما أنا، فقد أَشحتُ بعينيّ عن هؤلاء الأنذالِ الذين كانوا يشعرونني بالتَّقَزُّزِ، وأخذت أتلهَّى بالنّظرِ إلى فتاة صغيرةٍ حلوة، في الثالثة عشرة، أو الرابعة عشرة من عمرها، وقد كانت تندسُّ، شاقةً طريقها بين الجمهور لتقتربَ من العرض. كانت لها أجملُ عينين في العالم، وكان شعرُها ينسدلُ على كتفيها بضفائر رقيقة تنتهي بقطع فضيّةٍ صغيرة تجعلُها ترنُّ وهي تحرك رأسَها برشاقة. وكانت ترتدي ملابسَ منتقاة أكثر من مُعظَم فتياتِ المنطقة؛ فتضعُ على رأسها منديلاً حريرياً وذهبياً، وترتدي سترةً من المخمل المطرّز، وسروالاً قصيراً من السّاتان الأزرق الذي يشفُّ عن ساقيها العاريتين المحاطتين بحلقاتٍ فضيّة. ولا تضعُ خماراً على وجهها. فهل كانت يهوديةً، أم وثنيةً؟ أم أنها كانت تنتمي إلى تلك الجماعاتِ المترحّلة المجهولةِ الأصول، والتي لم تكن الأحكامُ الدينيةُ المتشدّدةُ تشغلُ ذهنها؟

وفيما كنتُ أتبعُ كلّ حركاتها باهتمام لاأدري ما هو، كانت قد وصلت إلى الصفِّ الأولّ من الحلقة التي كان ينفّذ فيها هؤلاء المسعورون تمريناتهم.

ولما أرادت أن تقترب أكثر أيضًا، أوقعت سلةً طويلة ذات قاعدة ضيّقة ولم تكن تلك السلّةُ قد فُتحت بعد. وفي الوقتِ نفسه تقريبًا، صدرت عن الساحرِ

والطّفل صرخةٌ رهيبةٌ، وحدثت حركةٌ كبيرة في الحلقة، فتراجع كلُّ شخص فيها مذعوراً.

كانت حيّة ضخمةٌ جداً قد هربت من السّلة، وكانت الفتاةُ الصّغيرةُ قد داست عليها بقدمها، وبلحظةٍ من الزمن، التفّت الزّاحفةُ حول ساقها، ورأيت بضعَ قطراتٍ من الدّم تسيل تحت الحلقة التي كانت تضعها في عرقوبها؛ فسقطت على قفاها، وهي تبكي، وتصكّ على أسنانها، وغطّى زبدٌ أبيض شفتيها فيما كانت تتدحرج في الغبار، فصحت بجرّاحنا الرائد:

اركض، أيها الدكتور العزيز - وأنقذ هذه الصبّية المسكينةَ، من أجل محبّةِ الله. فأجابَ الرائدُ وهو يهزّ كتفيه:

أيها البريء، ألا ترى أن هذا جزءٌ من برنامجِ الاستعراض؟ ومن ناحيةٍ أخرى، فإن مهنتي هي أن أقطع أيديكم وأرجلكم، أما زميلي هناك، فمهمتُه أن يشفي الفتيات اللواتي تلدغهن الحيّات.

ومع ذلك، فقد هُرع السّاحرُ العجوزُ، وكان أوّلُ أمرٍ اهتمَّ به هو أن يقبضَ على الحيّة وكان يقول لها بلهجةٍ وديةٍ:

دجومانا! دجومانا!

ففكت الحيّةُ التفافها، وتركت فريستها، وأخذت تزحَفُ، وكان السّاحرُ رشيقًا في القبض عليها، من طرفِ ذيلها، وأمسكَ بها وهو يمدُّ ذراعه على طولها، وقام بدورةٍ من أمام الحلقة، وهو يعرُضُ الزّاحفة التي كانت تتلوّى، وتصفرُ من غيرِ أن تقوى على الانتصاب.

أنتم لا تجهلون أن حيةً تُمسَكُ من ذيلها تصبُح محدودةَ الحركة إلى درجةٍ كبيرة؛ فهي لاتقوى على تحريكِ أكثر من ربعِ طولها على الأكثر، ونتيجةً لذلك، لاتستطيع أن تلدغَ اليد التي أمسكت بها.

وبعد دقيقة، أُعيدت الحيةُ إلى سلّتها، وأُحكِمَ الغطاءُ فوقها جيداً، وانشغل السّاحرُ بالفتاة الصّغيرة التي كانت تصرخُ وترتعش باستمرار؛ فوضع على جرحها قبضةً من مسحوقٍ أبيض، أخرجه من حزامه، ثم همس في أذن الصّبية تعزيماً لم يلبثْ أن ظَهَر أثرُه، فتوقّفت التشنُّجاتُ، ومسحت الفتاةُ الصّغيرةُ فمها، والتقطت منديلها الحريريّ، ونَفَضَت عنه الغبار، وأعادت وضعه على رأسها، ونهضت، ورآها الناسُ تخرجُ من هناك سريعاً.

وبعدَ لحظةٍ من ذلك، صعدت إلى رواقنا كي تجمعَ مانتبرع به لها، وكنا نلصقُ على جبينها وعلى كتفيها الكثير من القطع النقدية من ذات الخمسين سنتيماً.

وكان ذلك هو ختامُ العرض؛ فذهبنا لتناول العشاء.

كانت رغبتي في الطّعام جيّدة، وكنت أتهيّأ بشهية لأتناول سمكة أنقليس على الطّريقة التترية[1]، عندما قال لي طبيبي الذي كنتُ جالساً إلى جانبه إنه يتعرّفُ فيها الحيَّة التي رأيناها منذ قليل، فتعذّر علي أن أتناولَ لقمةً واحدة.

أما الطبيبُ، فبعد أن سخر من أحكامي المسبقة، فقد طالب بحصتي من الانقليسة، وأكدّ لي أن للحيّة طعماً لذيذاً.

وقال لي: إن هؤلاء الأنذال الذين رأيتهم للتو مطلعون على الأمور؛ فهم يعيشون في مغائر، مثل سكان الكهوف مع حيّاتهم، ولديهم فتياتٌ جميلات، والفتاةُ ذات السروال الأزرق شاهدة على ذلك، ولا أحد يعرف بأي دين يدينون، إنهم ماكرون، وأريد أن أتعرّفَ زعيمهم.

أثناء العشاء، عرفنا السبب الذي من أجله كنا نستأنفُ حملتَنا، فإن سيدي-لالا الذي كان يلاحقُه العقيدُ ر*** ملاحقةً ساخنةً، كان يسعى للوصول إلى جبال المغرب.

كانت هناك طريقان يمكن الاختيارُ بينهما، إحداهما في جنوب تلمسان، مروراً بمجازة لامولايا، من النقطةِ الوحيدة التي لاتجعلُها التعرجاتُ غير قابلةٍ

---

[1] أي مع صلصةٍ خاصة كالمايونيز وغيره. (م: . ز. ع)

للعبور، والطريقُ الأخرى، عبر السّهل، شمالي معسكرنا، وهناك، كان من المفروض أن يلاقي سيدي- لالا عقيدنا، والقسمَ الأكبر من فوجنا.

كانت سريّتنا مكلّفةً بإيقافه عند عبوره الوادي، إذا ما أمسكت به، ولكن ذلك كان قليل الاحتمال.

أنتم تعلمون أن وادي لامولايا يسيلُ بين جدارين من الصخور، وليس هناك إلاّ نقطة واحدة يمكن للخيول أن تمرّ منها، وهي أشبهُ ما تكون بثغرةٍ ضيقة إلى حدٍّ كاف، وكان الموضعُ معروفًا بالنسبة لي جيداً، ولا أفهمُ لماذا لم يقيموا فيه بعد معقلاً محصّنًا، طالما هناك، أو كانت هناك، بالنسبة للعقيد، كلُّ الفرصِ الممكنة لملاقاة العدو- وطالما كانت هناك، بالنسبة إلينا، مطاردةٌ لا فائدة منها.

وقبل نهايةِ العشاء، كان عددٌ من خيالةُ الماغزين قد أتوا برسائل رسميّة إلى العقيد ر***، فكَان العدوّ قد تمركز، ويبُدي مثلنا رغبةً فِي القتال، وكان قد خسر وقتًا، فخيّالةُ العقيد ر*** كانت على وشك أن تصل لتدحرَه.

ولكن من أين يمكنه الهروب؟ لم نكن نعرفُ عن ذلك شيئًا، وكان لابّد أن نسبقه على الطّريقين، وأنا أتكلّم على آخرِ قرار كان يمكنه اتخاذه، أي أن يرمي بنفسه إلى الصّحراء. فلو فعل ذلك لماتت قطعانه وعشيرته فيها سريعًا من الجوع والعطش. وقد اتفقنا على بعضِ الإشارات كي ينبّه بعضُنا البعضَ الآخر عن تحركات العدو.

إن ثلاثَ طلقات مدفعيةٍ تُطلقُ في تلمسان تُخطرِنا بأن سيدي - لا لا- يظهر في السهل، كنا نحمل أسهمًا نارية كي نُخبِرَ بأننا نحتاج إلى الدَّعم، فحسب كلِّ احتمال، لن يتمكّن العدوّ من الظُّهور، قبل بزوغِ الفجر، وكان رتلانا متقدّمين عليه بمسيرةٍ بضع ساعات.

كان الليلُ قد حلَّ عندما امتطينا جيادنا، وكنتُ أقود فصيلةَ الطّليعة، وأشعرُ أني متعب، كنت أُحسُّ بالبردِ، فارتديتُ معطفي، ورفعت قبّته، واحتذيت

مهمازيّ، ومضيتُ بهدوءٍ حسب خطوة مُهرتي السريعة، وأصغيتُ إلى رقيبي ڤاغنر الذي يرافقُني وأنا شارد، وكان يقصُّ علي حكايةَ غرامياته التي كانت تنتهي لسوء الحظّ بهربِ الخائنة التي سلبته بالإضافة إلى قلبه ساعةً فضيةً، وزوجًا من الأحذية جديدًا. كنت أعرفُ تلك القصةَ من قبل، فبدت لي أطولَ أيضًا مما كانت عليه عادةً.

كان القمرُ يرتفعُ، عندما انطلقنا في طريقنا، وكانت السماءُ صافيةً، غير أن ضبابًا أبيضَ خفيفًا كان يتصاعدُ من التُّربة، فيلامسُ الأرضَ التي كانت تبدو مغطّاةً بمندوفات قطنية، وعلى تلك الأرضية البيضاء، كان القمرُ يلقي بظلالٍ طويلة، وكانت كلُّ الأشياء تتخذُ مظهرًا خرُافيًا؛ فأحيانًا، كنتُ أظنُّ أني أرى بعضَ الخيّالة يقومون بالحراسة، وحين اقتربتُ، كنتُ أجدَ شجيرات الطّرفاء المزهرة، وأحيانًا، كنت أتوقّفُ، ظانًّا أني أسمعُ طلقات إشارة المدفعية. وكان ڤاغنر يقول لي إن ذلك هو صوتُ جوادٍ يعدو.

وصلنا إلى المجازة، فاتخذ المقدّم التدابير اللازمة.

كان المكان رائعًا للدفاع، وكان يمكن لسريّتنا أن تكون كافيةً لتوقف هناك تقدُّمَ فيلق كبير العدد، أما في الجانب الآخر من الوادي، فقد كان المكانُ موحشًا بصورة تامة.

وبعد انتظارٍ طويل إلى حدٍّ كاف سمعنا صوتَ عدوِ حصان، وفي الحال، ظَهَرَ فارس يمتطي جوادًا رائعًا يتجه نحونا. ومن خلال قبّعة القشّ التي يعتمرُها والتي يعلوها ريشُ النّعام، وسرجه المطرز الذي كان يتدلى منه سيفٌ ضخم، مزينٌ بالمرجان والزهور المذهبة، كان المرءُ يتعرّف زعيمًا: وقال لي مرشدي إن ذلك الفارسَ هو سيدي- لالا بذاته. وكان شابًا وسيمًا، مشيقَ القامة جيدًا، ويقودُ جوادهَ بصورةٍ رائعة؛ فكان يجعلُه يعدو، ويقذفُ بندقيتَه في الفضاء، ثم يستعيدُها، وهو يصرخُ بنا، مطلقًا نحونا كلمات تحدٍّ لا أدري ما هي.

لقد انقضت عهودُ الفروسية، فطلب ڤاغنر بندقيةً كي يُنْزِل المرابطُ عن سرجه، كما كان يقول، غير أني تصديتُ له، وكي لا يُقالَ إن الفرنسيين قد رفضوا القتال في مبارزةٍ مع مرابط، فقد طلبت إلى المقدم أن يسمح لي باجتياز المفازة، وبقتال سيدي- لالا بالسّيف. وقد مُنح لي الإذن بذلك، وفي الحال، اجتزت الوادي، فيما كان الزعيم الخصمُ يبتعد بالعَدْو البطيء كي يكسب مجالاً.

وما إن رآني على الضفة الأخرى حتى هجم نحوي راكضاً، وبندقيّته في كتفه.

فصاح بي ڤاغنر:

- احذرْ!

قلما أخشى الطلقات التي يطلقها خيّالٌ من بندقيته، وبعد الاستعراضِ الفروسي الذي نفذه سيدي- لالا للتوّ، لم يكن من المفروض أن تكون بندقيتُه في حالٍ تسمحُ لها بإطلاق النار. وفي الواقع، فقد ضغطَ على الزّناد، على بُعد ثلاث خطواتٍ مني، ولكن البندقية لم تطلق النار كما كنت أتوقّع. وفي الحال، أدار خصمي جواده من رأسه إلى ذيله بسرعةٍ بحيث لم أصبْ إلا برنُسَه الذي كان يرفرفُ في الهواء، بدلاً من أن أغرز سيفي في صدره.

ولكني أخذت أتعقبُه عن كثب، فجعلتُه على يميني باستمرار، ودفعته طوعاً أو كرهاً نحو المنحدرات الوعرة التي تحاذي الوادي. وحاولَ عبثاً أن يقوم بعطفاتٍ سريعة: فقد كنتُ أُضيّق المسافةَ بيني وبينه أكثر فأكثر.

وبعد بضع دقائق من المطاردة المهووسة، رأيتُ حصانه يكبو فجأة، أما هو، فقد كان يشدُّ المقود بيديه الاثنتين. ومن غير أن أتساءل عن السبب الذي كان يدعوه للقيام بتلك الحركةِ الغريبة، انقضضتُ عليه كالقذيفة، وغرستُ سيفَ الخيّالة في منتصف ظهره، في الوقت نفسه الذي كان حافرُ مهرتي يضرب فخذه اليسرى، فاختفى الرَّجلُ والجواد، أما مهرتي وأنا فقد سقطنا خلفهما.

ومن غير أن ننتبَّه، كنّا قد وصلنا إلى حافّة هوّة، وكنّا مندفعين إليها بقوة... وفيما كنت لاأزالُ في الفضاء- والفكرُ يعملُ بسرعة!- قلت في نفسي إن جسمَ الفارس سيُخفِّفُ من شدّة سقطتي. ورأيتُ تحتي بوضوح برنساً أبيضَ عليه بقعةٌ كبيرة حمراء؛ فهناك سقطتُ ولاأدري كيف، على وجهي أو على ظهري.

لم تكن القفزةُ جدّ مخيفةً، مثلما كنتُ أظنُّ، بفضلِ ارتفاعِ الماء الذي وصل إلى مافوق أذنيّ، فتخبّطتُ لحظةً من الزمن، وأنا مذهولٌ تماماً، ولا أدري الآن لماذا وجدتُ نفسي في وسطِ أعواد القصب الطّويلة، على ضفّة الوادي.

أما ما حدث لسيدي -لالا وللخيول، فلا أعرفُ عنه شيئًا؛ فقد كنت مبلّلاً، ومرتجفًا من البرد، في وسطِ الطّين، وبين جدارين من الصّخور، وخطوتُ بضعَ خطوات آملاً أن أجدَ مكانًا تكون فيه المنحدراتُ أقلَّ وعورةً، وكلّما كنت أتقدّمُ، كلما كانت تبدو لي شديدةَ الانحدار، ولا يمكنُ تسلُّقُها.

وفجأةً، سمعت فوق رأسي وقعَ أقدامِ خيول، وقعقعةَ أغمدةِ سيوفٍ تصطدمُ بالرُّكَب والمهامز. وكانت تلك بالطّبع هي سريتَنا. أردتُ أن أصرخ، غير أنه لم يخرجْ من حنجرتي أيُّ صوت، فكنتُ قد حطّمتُ صدري، أثناء سقوطي، من غير شكّ.

تصوروا موقفي! كنت أسمعُ أصوات رجالنا، وأتعرّفهم، ولم أكن أقوى على مناداتهم لمساعدتي، وكان ڤاغنز العجوز يقول:

- لو أنه تركني أقوم بالعمل، لعاش، وأصبح عقيداً.

ثم تضاءل الصوتُ، وضعُف، ولم أعدْ أسمعُ شيئًا.

وفوق رأسي، كان جذرٌ ثخينٌ متدلّيًا، وكنت آملُ أن أرفعَ نفسي إلى حافةِ الوادي، إذا ما أمسكتُ به. فاندفعتُ بجهدٍ يائس و... س س س! ... لقد انفتَلَ الجذرُ، وأفلت من يدي بضفيرٍ مرعب... لقد كان ذلك الجذرُ ثعبانًا هائلاً...

وسقطت ثانيةً في الماء، أما الثعبانُ الذي انسلَّ من بين ساقيّ، فقد ألقى بنفسه في الوادي الذي بدا لي أنه قد ترك فيه مايشبه ذيلاً من النّار...

وبعد ذلك بدقيقة، كنتُ قد استعدتُ برودة أعصابي. أمّا ذلك الضوء المرتعشُ على الماء فلم يختف. وكان ذلك، كما تبيّنتُ، انعكاساً لمشعل؛ فعلى بعد عشرين خطوة مني، كانتَ هناك امرأةٌ تملأ جرّةً بإحدى يديها من الوادي، وتمسكُ بالأخرى قطعةً من الخشب الصّمغي الذي يشتعلُ. ولم تكن ترتابُ بوجودي، فوضعتَ جرّتها على رأسها بهدوء، ومشعلُها بيدها، وتوارت بين القصب؛ فتبعتُها، ووجدتُ نفسي في مدخل إحدى المغائر.

كانت المرأةُ تتقدّم بهدوء كبير، وتصعدُ منعطفًا على درجة كافية من الانحدار، وهو ضربٌ من درَجٍ منحوت قبالة جدار قاعة شديدة الاتساع، وعلى ضوء المشعل، كنت أرى أرضيةَ تلك القاعة التي ما كانتْ تتجاوزُ مستوى الوادي إلاّ قليلاً، غير أني لم أستطعْ أن أكتشف مدى اتّساعها. ومن غير أن أعرفَ ماذا أفعل، اندفعتُ على المنحدر، خلف المرأة التي كانت تحملُ المشعل، وتبعتُها عن بعد. ومن وقتٍ لآخر، كان ضوؤها يختفي خلف تعوّجٍ صخريّ، ثم ما ألبثُ أن أعثر عليه.

ظننت أني لاأزال ألمح الفتحة المعتمة لأروقة كبيرة متصلّة مع قاعة رئيسة، حتى لكأن المرء يعتقدُ أنّها مدينة تحت الأرض بشوارعها ومفترقاتها، وتوقفتُ، ظنًّا مني أنه من الخطورة بمكان أن أغامر وحدي في تلك المتاهة الهائلة.

فجأةً أضيءَ أحدُ الأروقة التي كانت تحتي بضوءٍ ساطع، فرأيتُ عدداً كبيراً من المشاعل التي بدا لي أنها تخرجُ من جنبات الصخر لتشكل مايشبهُ موكباً كبيراً وفي الوقت نفسه، كان يرتفع غناءٌ رتيبٌ يذكّر بالأنغام الدينيّة عند العرب القدامى الذين يتلون صلواتهم.

وما لبثتُ أن ميّزتُ حشداً كبيراً كان يتقدم ببطء، وكان رجلٌ أسودُ البشرة يسير في المقدمة، شبه عار، ورأسه مغطّاة بكتلة ضخمة من الشّعر المنتفش. أما لحيتُه البيضاء المنسدلة على صدره فقد كانت تتباينُ مع اللّون البنّي لصدره المجرّح بوشومٍ مائلة إلى الزّرقة. فتعرفّتُ فيه حالاً السّاحرَ الذي رأيتُه في اليوم السّابق،

وبعد ذلك بقليل، تعرّفتُ بجانبه الفتاة الصغيرة التي كانت قد لعبت دور أوريديس، بعينيها الجميلتين، وسروالها الحريري، ومنديلها المطرز على رأسها.

وكان يتبعهم نساء وأطفال، ورجالٌ من كافة الأعمار، حاملين المشاعل، وجميعهم يرتدون بدلات غريبةً ذات ألوان فاقعة، وفساتين منسحبة، وقبعات عالية، بعضُها من المعدن، وتعكسُ من كافة الجهات ضوءَ المشاعل.

توقف الساحر العجوز تحتي تماماً، وتوقفَ الموكبُ بأكمله معه، وسادَ صمتٌ عميق وألفيتُ نفسي على بعد عشرين قدماً فوقه، وتحميني حجارةٌ ضخمةٌ كنت آمل أن أرى من ورائها كلَّ شيء من غير أن يلحظني أحد. وعند قدميّ الشيخ، لمحتُ بلاطةً عريضةً مستديرة تقريباً، وفي منتصفها حلقةٌ حديدية.

لفظ بضع كلمات بلغة أجهلُها، ولم تكن اللُّغَة العربيةَ ولا القبائلية، وأظنّ أني واثقٌ من ذلك. وسَقَط حبْلٌ مع بكراته، ومعلَّقٌ لا أدري أين، عند قدميه. فأدخله بعضُ الحاضرين في الحلقة، وعند إشارة معينة، قامت عشرون ساعداً قوياً بمجهودٍ مشترك فارتفع الحجر الذي كان يبدو ثقيلاً جداً، فأزاحوه جانباً.

لحظتُ حينذاك مايشبهُ فتحةَ بئر ماؤها على مسافة هي أقلُّ من متر بدءاً من حافتها. أما الماءُ، وهل قلتُ ذلك؟ قد كان سائلاً مرعباً لا أدري ماهو، ومغطًى بقشرة ذات ألوان قزحيّة، ومكسّرة في بعض الأماكن حيث يُرى طينٌ أسودٌ كريه. أما السّاحر الذي كان واقفاً فوق حَجر البئر؛ فقد كان يضعُ يده اليسرى على الفتاة الصّغيرة، ويقومُ بحركاتٍ غريبة، باليد اليمنى، أثناء تلفُّظه بنوعٍ من التعزيم، وسط خشوعٍ تام.

ومن وقتٍ لآخر، كان يرتفعُ صوتُ السّاحر، وكأنّه ينادي شخصاً ما، وكان يصيحُ: «دجومانا! دجومانا!» إلاّ أن أحداً لم يكن يأتي. ومع ذلك؛ فقد كان يجولُ بنظره، ويصرُّ على أسنانه، ويُخرجُ أصواتاً مبحوحةً لم يكن يبدو أنها تخرجُ من صدرٍ بشري. وكانت تلك الحركاتُ المتكلّفةُ الصّادرةُ عن ذلك النّذل العجوز تزعجُني، وتثيرُ غضبي، وكان هناك ما يغريني بأن ألقي على رأسه أحَد تلك

الأحجار التي كانت تحت يدي، وللمرّة الثلاثين ربّما، كان قد جأرَ بذلك الاسم: اسم دجومانا، عندما رأيتُ القشرةَ القزحيةَ الألوان للبئر ترتعشُ؛ فارتدَّ الحشدُ بكامله إلى الوراء، عند تلك الإشارة وبقي العجوزُ والفتاةُ الصغيرة وحدهما على حافّة تلك الحفرة.

فجأة ارتفعت من البئر فقاعةٌ عظيمة مائلة إلى الزُّرقة، وخرج من ذلك الطيّن الرأسُ الهائلُ لأفعى ذات لونٍ رماديّ داكن، وعينين وامضتين ...

ومن غير إرادة مني، اندفعت إلى الخلف، وسمعت صرخة صغيرة، وصوتَ جسمٍ ثقيل يسقطُ في الماء...

عندما رجعت بناظري إلى الأسفل، وبعد ذلك بعشْرِ ثانيةٍ ربما، رأيت السّاحر بمفرده على حافة البئر التي كان الماء لايزال يغلي فيها. وفي وسطِ قطَعِ القشرة القزحية، كان يطفو المنديل الذي يغطي شعْرَ الفتاة الصغيرة.

وكان الحجرُ قبل ذلك بقليل يتحركُ، ويعودُ إلى السقوط على فتحة الهوّة الرّهيبة حينذاك، انطفأت كلُّ المشاعل في آن واحد، وبقيت في الظلمة، وسَطَ صمتٍ عميق جداً بحيث كنت أسمعُ بوضوح دقات قلبي...

وما إن أفقت قليلاً من ذلك المشهد المرعب، حتى أردتُ أن أخرج من المغارة، وأنا أقسمُ بأني سأرجع للقضاء على ساكني تلك الأماكن البغيضين، بشراً، وأفاعي، إذا ما توصلتُ إلى الالتحاق برفاقي.

أصبحت المسألةُ في أن أهتدي إلى طريقي؛ فكنتُ قد خطوتُ، كما أظنّ، مئة خطوةٍ داخل المغارة، والجدارُ الصخريُّ على يميني.

عدتُ على أعقابي، غير أني لم ألحظْ أيَّ ضوء يُشيرَ إلى فتحة الدّهليز، ولكنّه لم يكن يمتدُ على خطٍّ مستقيم. فضلاً عن ذلك، فقد كان صعودي باستمرار انطلاقاً من ضفّة الوادي. وأخذتُ أتحسّس الصّخور، بيدي اليسرى، وأمسك سيفي باليمنى، وبدأت أسبرُ الأرضية، وأنا أتقدَّم ببطءٍ وحذر؛ فسرتُ خلالَ ربُعِ ساعة، أو عشرين دقيقة ... أو نصف ساعة ربّما، من غيرِ أن أجدَ المدخلَ.

استبدَّ بي القلق، فهل أكونُ قد توغّلتُ، من غير أن أدري، في ممرٍّ جانبي، بدلاً من أن أرجعَ من الطريق التي سلكتُها في البداية؟ ...

كنت أتقدَّم باستمرار، متلمّسًا الصُّخور، عندما أحسستَ بدلاً من برودة الحجر، جداراً موشى ينسحب من تحت يدي، تاركًا شعاعًا من الضّوء ينطلقُ منه؛ فضاعفتُ الحذرَ، وأبعدتُ بلا صوت الجدار الموشى، فألفيت نفسي في ممرٍّ صغير يطلُّ على غرفةٍ شديدةِ الإضاءة، وكان بابُها مفتوحًا، ورأيتُ أن تلك الغرفة مفروشةٌ بقماشٍ بزهورٍ حريرية وذهبية وقد أمكنني تمييز سجّادةٍ تركية، وطرف ديوانٍ من المخمل. وعلى السجادة، كان ثمة نرجيلة من الفضةَ، ومجامر عطور. باختصار، كانت شقةً مؤثثةً بصورةٍ باذخةٍ على طريقة الذوق العربي.

اقتربت بلاضجة حتى الباب، وكانت هناك امرأةٌ شابّةٌ جاثيةٌ على ذلك الديّوان الذي كانت توضعُ منضدةُ صغيرةٌ منخفضةٌ من الخشب المرصّع بجانبه، وعليها صينيّةٌ كبيرةٌ من الفضّةِ المذهّبةِ مجملةٌ بطاساتٍ وقوارير، وباقاتِ زهور.

حين دخلتُ إلى ذلك الصّالون الصّغير تحت الأرض، شعرت بأني سكران بعطرٍ لذيذٍ لا أدري ماهو.

كان كلُّ شيء ينشق لذّةَ ذلك المكان الضّيق، وكنتُ أرى في كلّ مكان ذهبًا يلمعُ، وأقمشةً فاخرةً، وزهوراً نادرةً، وألوانًا متنوعة، وفي البداية، لم تلاحظْني المرأةُ الشابّةُ، وكانت تحني رأسها، وتمررُ بين أصابعها، متفكّرةً، الحبّات العنبريّة الصفراء لسبحة طويلة ولقد كانت حسناء حقيقية، وتشبهُ قسماتُ وجهها قسمات الصبّية التّعسة التي رأيتُها منذ قليل، ولكنها قسماتٌ أكثر نضوجًا، وأكثر انتظامًا، وأكثر إثارةً للذّة. أما شعرها الذي كان مثلَ جناحِ الغراب، وطويلاً مثل معطف الملك، فكان ينسدلُ على كتفيها، وعلى الأريكة، وصولاً إلى السّجادة عند قدميها، وكان ثمة قميص من الحرير الشفّاف، له خطوطٌ عريضةٌ، يجعلُ المرءَ يستشفُّ ذراعيها، وجيدَها التي تثيرُ الإعجابَ. وكانت سترةٌ من المخملِ

مزيّنة بشريطٍ ذهبيّ مضفورٍ تشدُّ قامتها. ومن سروالها القصير المصنوع من السّاتان الأزرق تخرجُ قدمٌ صغيرةٌ بصورةٍ رائعةٍ، ويعلق بها خفٌّ مذهّبٌ كانت تجعله يتراقصُ بحركةٍ كيفيةٍ ومفعمةٍ بالرشاقة.

وأحدثت جزمتي طقطقةً، فرفعت رأسها ورأتني.

ومن غير أن تُبدي اضطرابًا، ومن غير أن تُظهِرَ أدنى دهشة لأنها رأت رجلاً غريبًا يدخلُ إلى منزلها، والسّيفُ بيده، فقد صفقت مرةً أخرى بفرحٍ وأشارت لي بأن أقترب، فحييتُها، وأنا أرفعُ يدي إلى قلبي، وإلى رأسي، لأبيّن لها بأنّي مطّلعٌ على أصول اللياقة؛ فابتسمت لي، وأبعدت بكلتا يديها شعرها الذي كان يغطي الأريكة. وكان ذلك يعني أن أجلس بجانبها. وخيّل إليّ أن كلّ عطور الجزيرة العربية كانت تفوحُ من ذلك الشّعر الجميل.

جلستُ على حافة الأريكة بتواضع، وأنا أنتوي حقًّا الاقترابَ أكثر بعد قليل، فأخذت فنجانًا من الصّينية، وأمسكت به من صحنه المزخرف بالفتائل الذهبية، وسكبت فيه رغوة القهوة، وبعد أن مسّتهُ بشفتيها، وقدّمته إليّ، قالت:

- آه! رومي، رومي[1]! ... ألا تشربُ قليلاً من الخمرة، يا سيدي الملازم الأول؟ ...

عند هذه الكلمات، فتحت عيني مثل بوابة العربات؛ فقد كان لتلك المرأة الشابة شاربان هائلان، وكانت هي الصّورة الحقيقية لڤاغنر، رقيب الخيالة ... وفي الواقع، كان ڤاغنر واقفًا أمامي، وهو يقدّم إليّ فنجانًا من القهوة، وفيما كنتُ راقدًا على عنق جوادي، كنت أنظر إليه، وقد أخذته دهشةٌ كبيرة.

- يبدو أننا قد غفونا مع ذلك، ياسيدي الملازم الأول، هانحن في المجازة، والقهوة ساخنة تغلي.

---

(١) أي: من أصلٍ روميّ، وهي التسميةُ التي كانت تُطلَق على المسيحيين فيما مضى (م: ز.غ).

-٩-

رسائل من إسبانيا

إلى مدير مجلة باريس

-١-

جولات مصارعة الثيران

مدريد، في ٢٥ تشرين الأول ١٨٥٠

سيدي:

لا تزالُ مصارعات الثيران شديدةَ الانتشار في إسبانيا، ولكن قلّةً بين إسبان الطّبقة الراقية هم الذين لايشعرون بنوعٍ من الخَجل، إذا ما أقرّوا بميلهم لهذا الضربَ القاسي جداً من الاستعراض بلا شك. وهكذا، فهم يبحثون عن بعض المبرّرات الجديّة كي يسوّغوا ذلك الميل؛ فيقولون أولاً إنه تسليةٌ وطنية، ولربما تكفي كلمةُ «وطنية» هذه وحدها؛ فالرّوحُ الوطنيةُ عند المتنفّذين قويةٌ في إسبانيا كما هي في فرنسا ويقولون أيضاً إن الروّمان قد كانوا أكثر همجيةً منا، إذ كانوا يجعلون الرّجالَ يصارعون الرّجال. ويضيفُ الاقتصاديون أخيراً أن الزّراعةَ تُفيدُ من ذلك التقليد؛ فسعرُ ثيران المصارعة المرتفع يحثُّ الملاك الزراعيين على تربية قطعان عديدة، ولابد أن نعلمَ أن الثيرانَ ليست كلّها مؤهلةَ للهجوم على الرّجال، وعلى الخيول. وأننا لانكادُ نجدُ ثوراً واحداً من أصلِ عشرين يستطيعُ بإقدامه أن يظهر في حلبة الصّراع. أما التسعة عشر الآخرون فيُستخدمون في الزراعة. أما الذّريعةُ التي لايجرؤون على تقديمها، والتي قد تكون مع ذلك ذريعة لاتحتمل الردَّ فهي أن ذلك الاستعراض، سواء كان قاسياً أم لا، والذي يسترعي الاهتمام إلى درجةٍ كبيرة، ويجتذب المرء كثيراً، ويُحدثُ لديه انفعالات شديدة القوة بحيث لايستطيع أن يتخلّى عنه بعد أن يصمُد لتأثيرَ الجولة الأولى. أما الأجانب الذين لايدخلون إلى حلبة الصّراع للمرّة الأولى إلاّ وهم عرضةٌ لرعبٍ ما، وكي يريحوا ضمائرهم تجاه واجبات المسافر، أقول إن هؤلاء الأجانب سرعانَ مايشغفون بسباقات الثيران بقدرِ الإسبان أنفسهم، ولابدّ لنا من الاعتراف، وهذا أمرٌ مخزٍ لبني البشرَ، أن الحربَ التي ترتكبُ الفظاعات لها ضروبٌ من السحر تفوق المعتاد، وخصوصاً في نظر أولئك الذين يتأمّلونها، وهم في منجًى منها.

ويروي القديس أوغسطين أنه كان إبّان فتوتّه ينفرُ نفوراً شديداً من معارك المجالدين، والتي لم يكن قد رآها قط. وحين أجبره أحدُ أصدقائه على مرافقته إلى

إحدى تلك المذابح الباذخة، كان قد أقسم بينه وبين نفسه على أن يغلق عينيه، خلال مدّة العرض بكاملها. وفي البداية، حافَظَ على وعده بصورة حسنة، وبذل جهده للتفكير بأمرٍ آخر، ولكنه فتح عينيه لدى صرخة أطلقها الشعب كُلُّه عندما رأى مجالداً شهيراً يسقط. فتحهما ولم يقوَ على إغلاقهما مجدّداً. ومنذ ذلك الحين، وحتى اهتدائه، أصبح أحدَ الهواة الشّديدي الشغف بألعاب الحلبة.

إني أخجلُ من أن أذكُرَ نفسي، بعد قدّيسٍ عظيم كهذا القدّيس؛ ومع ذلك، فأنتم تعلمون أنه ليس لي ميولُ آكلٍ للحوم البشر. والمرّةُ الأولى التي دخلت فيها إلى حلبة مدريد، خشيت ألا أستطيع تحمّل منظر الدّم الذي يهرقونه فيها بغزارة. ولكني كنت أخشى خصوصاً أن تجعلني حساسيتي التي كنت أحترسُ منها موضعَ سخريةَ أمام الهواة المتمرّسين الذي كانوا قد أعطوني مكاناً في شرفتهم. ولكن شيئاً من هذا لم يحدثْ؛ فقد قُتل الثورُ الأولُ الذي ظهر، ولم أعُد أفكرُ بالخروج. وانقضت ساعتان من دون أيِّ فاصلٍ زمنيّ، ولم أكن قد تعبتُ بعد. ولم تُثر اهتمامي إلى تلك الدّرجة أيّةُ مأساة في العالم. وأثناء إقامتي في إسبانيا، لم تفتْني معركةُ مصارعةٍ واحدة. وأعترفُ بخجلٍ بأني أفضّل المصارعات التي تستمر حتى الموت على المصارعات التي يكتفون فيها بإنهاك الثّيران التي تحمل كُرات على طرف قرونها، وهي تختلف فيما بينها مثلما تختلفُ معاركُ الإبادة عن معاركِ الحرابِ المغمّمة. ومع ذلك، فهذان النّوعان من النّزال يتشابهان كثيراً، باستثناء أن الخَطَرَ بالنسبة للرّجال معدومٌ تقريباً، في النّوع الثاني.

إن اليومَ الذي يسبقُ نزالاً يكون عيداً، وكي يتمّ تحاشي الحوادث، لا تُساق الثيران إلى إسطبل الحلبة (Encierro) إلاّ أثناء الليل، وعشيّةَ اليوم المحدّد للنّزال، ترعى في مرعًى يقعُ على مسافة صغيرةٍ من مدريد (El Arroyo)، والذّهابُ لرؤية تلك الثيران التي غالباً ماتكون آتيةً من بعيد هو غرضٌ من أغراض النزهة. إن عدداً كبيراً من العربات، ومن الخيّالة، والمشاة يأتون إلى المرعى. والعديدُ من الشّبّان يرتدون في تلك المناسبة بذلة من المايو[1] الأندلسي، ويظهرون بهاءً وترفاً لا تُتيحه بساطةُ ملابسنا الاعتيادية. وفضلاً عن ذلك، فتلك النزهة لاتكون بعيدةً عن

١ - المايو : Mayo : بذلة تتأنّق بها الطّبقات الشعبية.

المخاطر؛ فالثيرانُ حرةُ الحركة، وهي لاتمتثل بسهولةٍ لمن يقودونها، ويرجعُ الأمر إلى هؤلاء الفضوليين كي يتحاشوا نطحاتها.

ثمة حلبات (بلازاس) في كافة المدن الكبيرة تقريباً في إسبانيا، وهذه المنشآت مبنيةٌ بطريقة بسيطة جداً، هذا إذا لم نرد القول بطريقة عديمة الإتقان إلى حدّ كبير وهي لاتتعدّى أن تكون عموماً بيوتاً حقيرةً واسعةً، مبنيّةً من الألواح الخشبية، ويوردون مدرج روندا وكأنّه رائعةٌ في البناء لأنه مبنيٌّ بكامله من الحجر، وهو أجمل مدرّج في إسبانيا، كما كان قصرُ توندر-تن-ترونك في ألمانيا هو أجملَ قصرٍ في ويستفاليا، لأنّه كان يحتوي باباً ونوافذ. ولكن ما أهميةُ زخرفاتِ المسرح، إذا كان المشاهدُ ممتازاً؟

إن ميدانَ ألعاب مدريد يمكن أن يتّسع لما يقاربُ سبعةَ آلاف مشاهد، يدخلون ويخرجون بلا فوضى من عدد كبير من الأبواب. إنهم يجلسون على مقاعد من الخشب أو الحجر[1]، وتحتوي بعضُ الشرفات على كراسي، وشرفةُ صاحب الجلالة الكاثوليكية هي الشُّرفةُ الوحيدةُ المزخرفةُ بصورة أنيقة.

إن الحلبةَ محاطةٌ بسياجٍ محبوك جيداً، ويبلغ ارتفاعه ما يقربُ من خمسة أقدام ونصف وعلى ارتفاع قدمين من الأرض يقوم بروزٌ خشبيٌ على استدارة السّياج بكاملها، وعلى جانبيه، وهو نوعٌ من مرقاة، أو ركاب يستخدمهُ مصارعُ الثّيران للملاحق للانتقال بصورة أسهل إلى ما وراء الحاجز. وهناك ممرٌ ضيّق يفصلُ الحاجزَ عن درجات المشاهدين التي ترتفعُ كما الحاجز، ويضمنُ حمايتها فضلاً عن ذلك حبلٌ مضاعفٌ تثبتُه أوتادٌ قوية. وهذا احتياطُ لايرجعُ إلاّ إلى بضع سنوات؛ فقد استطاعَ أحدُ الثيران أن يقفز ليس فوق الحاجز فحسب، بل اندفع أيضاً حتى درجات المدرج حيث قتَل أو شوّه عدداً من الفضوليّين. ومن المفروض أن يكون الحبلُ المشدود كافياً لاتّقاء حصول حادث مماثلٍ من جديد.

هناك أربعةُ أبواب تؤدّي إلى الحلبة، فيتّصل أحدُها بإسطبل الثيّران (Toril) ويصلُ الآخرُ إلى المسلخ (Matadero) حيث تُسلَخُ الثيرانُ، وتُشرَّحُ. أما البابان الآخران فيستخدمُهما الممثلون البشريّون لتلك المأساة. يجتمعُ مصارعو الثّيران

(١) أصبحت درجاتُ المدرج من الحجر منذ بضع سنوات، في عام: ١٨٤٠ .

في قاعة مجاورة للمدرج، قبل الجولة بقليل، وإلى جانبها تماماً تقع اسطبلات الخيول. ونجد مستوصفاً في مكان أبعد. وهناك جراحٌ وكاهنٌ يمكثان في مقرّهما، في الجوار، وهما مستعدّان لتقديم عونهما للجرحى.

أما القاعةُ التي تُستَخدَم كمقرّ، فمزيّنةٌ بصورةٍ ملونّةٍ للعذراء، وتشتعلُ أمامها بضعُ شمعات، وتحتها ترى منضدةٌ مع سخّانة صغيرة تحتوي فحمات مشتعلة. وحين يدخلُ أيُّ مصارعِ ثيران، ينزعُ قبّعته أولاً أمام الصّورة، ويتمتمُ على عجلٍ بشيء من الصّلاة، ثمّ يسحبُ سيكاراً من جيبه، ويُشعلُه من السّخانة، ويدخّنُ وهو يتحدّثُ مع رفاقه، ومع هواة المصارعة الذين يأتون ليتحدّثوا معهم عن مزايا الثيران التي سيصارعونها.

ومع ذلك، فالخيّالةُ الذين ينبغي لهم، في قاعة داخلية، أن يصارعوا على جيادهم، يتهيئون للمعركة، وذلك بتجريب خيولهم، ولهذا الغرض، فهم يدفعونها إلى العدو، باتجاه جدارٍ يصدمونه بعصى طويلة هي بمثابة حربة. ومن غير أن يتركوا نقطةَ الاستناد هذه، يمرّنون مطاياهم على الدّوران سريعاً حول الجدار، وعلى أقرب مسافة ممكنة منه.

ولسوف ترى بعد قليل أن هذا التمرينَ ليس عديم الفائدة: فالخيولُ التي يستخدمونها هي أفراس بليدةٌ يعاد تأهيلُها، وتُشترى بأثمان منخفضة، وهم يعصبون عيونها، ويحشون آذانها بمشاقات القطن المبلّلة، قبل أن تدخلَ إلى الحلبة، خوفاً من أن ترعبها صرخاتُ الجمهور، ومرأى الثيران.

يصبحَ مظهرُ ميدان اللّعب شديدَ الحيوية، أما الحلبةُ فتمتلئُ بالناس، من قبل أن تبدأ المصارعة. وتقدّمُ درجات المدرجِ والشّرفات منظراً لكتلة فوضوية من الرؤوس؛ فهناك نوعان من المقاعد؛ فمن جهة الظلّ، تقعُ المقاعدُ الأغلى ثمناً، والأكثر توفيراً للراحة. أما جهةُ الشّمس، فيشغلها دوماً هواة المصارعة غير الهيابين. ويشاهد المرء عدداً من النساء أقل بكثير مما يشاهدُ من الرّجال، ومعظمهنّ من فئة المانولاس (الفتيات المرحات). وفي الشرفات، يلاحظُ المرءُ مع ذلك بعضَ التسريحات الأنيقة، ولكن عدد النّساء الشابات قليل بينهن[1]. لقد

(١) وهذا يخالفُ ماهو صحيحٌ في أيامنا، أي في عام: ١٨٦٠.

أفسدت الروايات الفرنسية والإنكليزية الإسبان منذ بعض الوقت، وانتزعت منهم احترامهم لتقاليدهم القديمة، فأنا لا أظن أنه محظور على رجال الدين أن يحضروا هذه العروض. ومع ذلك، فأنا لم أر سوى واحد منهم بزيّه الدّيني (في إشبيليا). وقد قيل لي أن عدداً منهم يذهبون إلى العروض متخفّين.

وعند إشارة أعطاها رئيس الجولة، عمل مفوض شرطة قائد، يرافقه مفوضان بلباس خادم الملهاة. وجميعهم يمتطون الجياد، عمل على إخلاء الحلبة والممرّ الضيّق الذي يفصلها عن الدّرجات. وعندما انسحبوا مع من يتبعهم، أتى المؤذنُ بالمصارعة، يتبعه كاتب عدل، ومفوّضو شرطة آخرون مشاة، أتى ليقرأ في وسط السّاحة بياناً يمنع من إلقاء أيّ شيء في الحلبة، ومن إزعاج المصارعين بصرخات أو بإشارات إلخ..

وما إن ظهر، وبرغم الصّيغة الجديرة بالاحترام: باسم الملك، سيّدنا، والذي ندعو أن يحفظه الله طويلاً... تعالت صيحات السّخرية والصّفير من كل ناحية، واستمرت المدة نفسها التي استغرقتها قراءة الحظر الذي لم يراعه أحدٌ قط. من ناحية أخرى؛ ففي ميدان اللعب، وفيه فقط، يحكم الشعب كسيّدٍ مُطْلَق، ويمكنُه أنْ يقولَ وأن يفعلَ ما يريدُ[1].

هناك فئتان رئيستان من مصارعي الثيران الـ(Picadors) (البيكادور) وهم الذين يصارعون من فوق الحصان، وسلاحهم الرمح و الـ(Chulos) الراجلون الذين يضايقون الثور، وهم يلوّحون بقطعٍ من الجوخ، لامعة الألوان. وتميز بين الأخيرين منهم:

الـ: "Banderellos"[2] والـ: "Matadors"[2] الذين سأحدّثكم عنهم بعد قليل. إن الجميعَ يرتدون الزّيّ الأندلسي. وهو تقريباً زيّ فيغارو، في مسرحية «حلاّق إشبيليا»[3]. ولكن، بدلاً من السّروال والجوارب الحريرية، يرتدي

---

(١) لم يعدْ يُقرأ بيانُ الملك، مولانا، بدءاً من عام ١٨٤٢، أي منذ الإصلاح الدستوري.

(٢) على التوالي: المصارعون النخّاسون، ومصارعو المساندة. (م: ز.ع).

(٣) مسرحية معروفة لبومارشيه. (م: ز.ع).

المصارعون الرّماحون سراويلَ من الجلد السّميك، مدعّمةً بالخشب والحديد كي يحموا سيقانهم وأفخاذهم من نطحات الثيران. إنهم يسيرون راجلين وهم يحملقون بعيونهم كالفرجارات. وإذا ما قلبتْهم الثيرانُ، فهم قلّما يستطيعون النهوضَ مجدّداً إلاّ بمساعدة قَتَلَة الثيران. إن أسرجتَهم عالية جداً، ولها شكلٌ تركيّ، وركُبُهم حديديةٌ تشبهُ القَباقيب، وتغطي القدَمَ بصورةٍ تامّة. وكي يجعلوا أفراسَهم البليدةَ تنقادُ لهم، لديهم مهامزُ مجهزةٌ برؤوسٍ دقيقةٍ طولها بوصتان. أما رمحُهم فضخمٌ وقويٌّ جداً، وينتهي برأسٍ حادّةٍ جداً من الحديد. وبما أنّه ينبغي جعلُ المتعة تدومُ وقتاً أطول؛ فقد جُهزت تلك الرأس بوسادةٍ من نسيجٍ متلاحمٍ لايدعُ سوى بوصة من الحديد تقريباً تدخلُ في جسم الثّور.

ويتلقى أحدُ مفوضي الشّرطة الخيالة في قبعته مفتاحاً يُلقي به إليه رئيس الألعاب. إن هذا المفتاحَ لا يفتحُ شيئاً، غير أنه يحملهُ مع ذلك إلى الرّجل المكلّف بفتحِ زريبةِ الثيران، ويفرُّ في الحال، وجوادهُ يعدو به سريعاً، مصحوباً بصيحات الهزءِ المنطلقةِ من الجمهور الذي يصرخ به قائلاً إن الثورً قد أصبح خارج الزّريبة، وهو يلاحقه. وتتكرّر هذه المزاحةُ في كلّ الجولات.

ومع ذلك، فقد أخذ الرّماحون أماكنهم. وفي العادةِ يكونُ في الحلبة اثنان منهم على الجياد، ويمكثُ اثنان أو ثلاثةٌ آخرون خارجاً، وهم على أهبة الاستعداد ليحلّوا محلّهم في حالة الحوادث، كحوادث الموت، والكسورِ الخطيرة إلخ... ويتوزَّعُ اثنا عشر مصارعاً لقتلِ الثيران. وهم راجلون، على السّاحة، وعلى مسافةٍ متقاربةٍ، بحيث يتمكّن كلٌّ منهم أن يمدَّ يدَ العون إلى الآخر بصورةٍ متبادلة.

أما الثورّ الذي أثيرُ منذ البدّاية عمداً، وهو في قفصه، فيخرجُ هائجاً، وهو يصلُ عادة إلى وسط السّاحة باندفاعٍ قويّ؛ وهناك يتوقّفُ دفعةً واحدةً، وقد أدهَشه الضّجيجُ الذي يسمعهُ، والمشهدُ الذي يحيطُ به. إنه يحملُ على رقبته عقدةً من الشّرائط المثبتّة بكلاّبٍ صغيرةٍ يدخلُ في الجلد. ويدلُّ لونُ شرائطهِ على القطيع

الذي يأتي منه (Vacado)؛ غير أنّ هاوياً متمرّساً يعرفُ، بمجرّد رؤية الحيوان، أن الثورّ ينتمي إلى أية مقاطعة، وإلى أية سُلالة. ويقترب مُصارعو المساندة، ويهزّون دثارات الكتفين الفاقعة الألوان، ويحاولون أن يجذبوا الثورَ نحو أحد الرّماحين. فإذا كان الحيوانُ مقداماً؛ فهو يهاجمُ من غير تردُّد. أما الرمّاحُ الذي كان قد جعَل حصانه يتصبّرَ جيداً، فقد وضعَ نفسه، ورمحه تحت ذراعه في مواجهة الثّور بالضّبط، وانتهز اللحظة التي خفض الثور فيها رأسه متهيّئاً لضربه بقرنيه، ليوجّه إليه ضربةَ رمحٍ على رقبته، وليس «في مكانٍ آخر»[1]. وشدّدَ الضّربة بكل قوة جسمه. وفي الوقت نفسه، جعَل الحصانَ ينطلقُ إلى اليسار بحيث يدعُ الثورَ على اليمين. وإذا ما نُفّذت هذه الحركاتُ كلُّها بصورة جيدة، وإذا كان الرمّاحُ قوياً، وكان جوادُه طيّعَ القياد، فإن الثّورَ الذي يقعُ تحت تأثيرِ اندفاعته الذاتية يتجاوزه من غير أن يلمسه حينذاك، يصيرُ واجبُ مصارعي المساندة هو الاهتمامُ بالثّور، بحيث يتركون للرماح الوقتَ للابتعاد. ولكن الحيوانَ غالبًا ما يتعرّفُ بصورةٍ جيدة جداً ذلك الذي جرَحه، فيستدير فُجأة، ويلحقُ بالحصان، ويغرزُ قرنيه في بطنه، ويقلبهُ مع خيّاله. ويقوم مصارعو المساندة بنجدته في الحال؛ فبعضُهم يرفعهُ، والبعضُ الآخر يحوّلُ انتباهَ الثّور بأن يجتذبوه باتجاههم، وذلك بأن يُلقوا بدثاراتهم على رأس الثور، ويهربون منه بأن يسرعوا راكضين إلى الحاجز الذي يتسلّقونه بخفة رأساً. إن الثّيرانَ الإسبانية تعدو سريعًا مثل جواد، وإذا ماكان مصارعُ المساندة شديد البُعد عن الحاجز، يصبحُ من الصّعوبة بمكانٍ أن يهرب، كما أنه يندر أن يخاطر الخيالة الذين تتعلق حياتهم دوماً بمهارة مصارع المساندة، أن يخاطروا بالوصول إلى وسط السّاحة، وحين يفعلون هذا، يكونُ ذلك عملاً جريئًا يفوق المعتاد.

وما إن يقفَ الرّماحُ ثانية على قدميه، حتى يمتطي جواده من جديد، إن كان بوسعه أن يجعلَه ينهضُ أيضاً. وليس أمراً مهماً أن يكون الحيوان المسكينُ قد خسِر

---

١ - رأيتُ ذاتَ يومٍ رمّاحاً قد انقلبَ عن جواده وكاد أن يُقتلَ لولا رفيقهُ الذي خلّصه، وجعل الثورَ يتراجعُ، وهو يطعنه بضربة رمحٍ في أنفه، وكان الظرف يقدّم له العذرَ عن ذلك. ومع هذا، فقد سمعتُ هواةً مسنّين يصيحون. هذا عار! ضربة رمحٍ على الأنف! ينبغي أن يُطرد هذا الرّجلُ من السّاحة».

دفقات من الدّم، وأن تتجرجر أحشاؤه على الأرض، وتتلوّى بين ساقيه، فطالما كان الحصانُ قادراً على السّير، فعليه أن يَعرضَ للثور. وإذا ما بقي خائر العزم، فإن الرّماح يخرجُ من السّاحة، ويعودُ إليها ثانيةً من فوره، وهو يمتطي جواداً جديداً.

قلتُ إن طعنات الرّمح لا يمكنها أن تحدث لدى الثور سوى جرحٍ خفيف، وما من تأثيرٍ لها غير أنها تهيّجه. ومع ذلك، فإن اصطدامه بالحصان والخيال، والحركة التي يقوم بها ذاتياً، وخصوصاً الارتكاسات التي يتلقاها حين يتوقّفُ فجأة على عرقوبه، تتعبهُ سريعاً. وغالباً ما يثبطُ عزيمتَه ألمُ ضربات الرمّح. حينذاك لايصبحُ قادراً على مهاجمة الخيول، وإذا ما تكلّمنا بلغة مصارعة الثيران، فهو يرفضُ «الدّخول»، ومع ذلك، فإذا كان شديدَ البأس، يكونَ قد قتَل أربعةَ خيولٍ أو خمسة، ويستريحُ الرمّاحون حينذاك، وتُعطى إشارة غرْز المناخس.

والمناخسُ عبارةٌ عن عصيّ طولُها قدمان ونصفُ القدم، يُغلفها ورقٌ مسنّن الأطراف، وينتهي برأسٍ حادّة، وشائكةٍ كي تبقى داخلَ الجرح. إن مصارعي المساندة يمسكون بواحدةٍ من هذه الحربات في كل يدّ. والطريقةُ الأكثر أماناً لاستخدامها هي في التقدُّم بهدوءٍ خلف الثورّ، ثم بإثارته فجأةً، وذلك بضرب كلّ واحدٍ من المناخس بالآخر بصوتٍ قويّ؛ فيستديرُ الثورُ الذي دُهش، وينتفضُ على عدوهٍ من غيرِ تردُّد. وفي اللحظة التي يلمسهُ فيها تقريباً حين يُخفضُ رأسَه كي يضرب، يغرز له مصارعُ المساندة المنخاسين في آنٍ واحد، وعلى كلّ من جانبي رقبته. وهذا ما لا يستطيعُ عمله، إلاّ إذا وقف للحظةٍ من الزّمن قريباً جداً من الثور، وفي مواجهته، وكأنه تقريباً بين قرنيه، ثم يتنحّى، ويدعهُ يمرّ، ويتوجّه إلى الحاجز كي يكونَ في مأمن. إن شروداً ما، وحركةَ تردُّدٍ ورعبٍ تكفيان لهلاكه. وينظرُ الخبيرون مع ذلك إلى وظيفة النخّاس على أنها أقلّ الوظائف كلّها خطورةً. فإذا ماسَقَط نخاسٌ، لسوء الحظّ، وهو يغرزُ المناخسَ، فلا ينبغي له أن يحاول النهوض مجدّداً، بل يمكثُ بلا حراكٍ في السّاحة التي سقط فيها؛ فالثّورُ لا يضربُ باتجاهِ

الأرض إلاّ نادراً، ليس بسبب أريحيّته، وإنّما لأنّه يُغلقُ عينيه، ويمرُّ من فوق الرجل، دون أن يلمحه، حين يحملُ عليه.

ومع ذلك، فهو يتوقّفُ أحيانًا، ويشتمُّ وكأنه يتأكّدُ من أنّه قد مات حقًّا، ثم يتراجعُ بضعَ خطوات، ويخفضُ رأسَهُ ليرفعه على قرنيه، إلاّ أن رفاقَ النخاس يحيطون بالثّور حينذاك، ويشغلونه بحيث يغدو مجبراً على التّخلي عن الجثّةِ المزعومّة.

وعندما يبُدي الثورُ تخاذلاً، أي عندما لا يكون قد تلقى ببسالةٍ أربع ضرباتٍ بالرّمح، وهذا هو العددُ الذي لا بدّ منه؛ فإن المشاهدين، هؤلاء الحكّامُ المطلقين، يحكمون عليه بهتافاتهم طالبين له نوعًا من التنكيل هو في آنٍ واحد قصاصٌ ووسيلة لإثارة غضبه. وتتعالى من كلّ الجهات صرخة: !Fuego!. Fuego (أي: النّار! النّار!)، فيجري حينئذٍ توزيعُ مناخس قبضتُها محاطةٌ بقطعٍ حرّاقة. إن رأسَها مجهزٌ بقطعةٍ من الصّوفان المشتعل، فما إن تدخل الرأسُ إلى الجلد، حتى يرتدّ الصّوفان إلى ذُبالة الأسهم النّارية فتشتعلُ. أما اللّهبُ الذي يتوجّه نحو الثور، فيحرقُهُ حتى اللحم الحيّ، ويجعلهُ يقوم بقفزاتٍ ووثبات تسلّي الجمهور إلى أقصى حدّ. إنه لعرضٌ يثيرُ الإعجابَ بالفعل أن ترى ذلك الحيوان الضخم الذي يُرغي ويزُبد من الغيظ، فيهزُّ المناخسَ المستعرة، ويتحركُ باضطرابٍ في وسط النّار والدّخان.

وبرغم السّادة الشعراء، لا بدّ لي من القول: إنه من بين كلّ الحيوانات التي راقبت، ما من حيوان يغيّر تعبيره أقلّ منه: فتعبيرهُ هو، على الدّوام، تعبيرُ الغباء الفظّ والمخيف، ونادراً ما يعبّر عن ألمه بالأنين. إن الجروحَ تثيرهُ أو ترعبهُ، ولكنه، ساعدنْي على بيان ذلك، لا يبدو عليه أنه يفكّر في مصيره؛ ولا يبكي أبداً مثلما يبكي أيّلٌ. وهكذا، فهو لا يوحي بالرأفة، إلاّ عندما يتميّز بشجاعته[1].

---

١ - أحيانًا، وفي مناسبات احتفالية، تغلّف عصا المنخاس بشبكةٍ طويلة ورقيقة من الحرير، وتحبسُ فيها عصافيرُ صغيرةٌ حيّة. وحين تنغرزُ رأسُ المنخاس في رقبة الثور، تقطعُ العقدة التي تغلق الشبكة، فتفلت العصافيرُ، بعد أن كانت قد تخبّطت طويلاً عند أذني الحيوان.

حينما يحمل الثور في رقبته ثلاثة أو أربعة أزواج من المناخس، يكون قد حان وقت إنهائه، فيسمع قرع طبول، ويخرج في الحال مصارع المساندة الذي حُدِّد مسبقًا، وهو الـ Matador (مصارع القتل أو الإجهاز) يخرج من مجموعة رفاقه. إنه يرتدي ملابس باذخة مغطّاة بالذهب والحرير، ويمسك سيفًا طويلاً، ومعطفًا قرمزيًا مربوطًا بعصا كي يكون بإمكانه التحكّم بسهولة، وهذا مايسمّونه لاموليتا[1]. فيتقدّم تحت شرفة الرئيس ويطلب إليه باحترام كبير الإذن بقتل الثّور. وهذا إجراء شكلي لايجري في معظم الأحيان إلاّ مرةً واحدة في الجولة بكاملها. أما الرئيس فيردّ بالإيجاب، بطبيعة الحال، وذلك بإشارة من رأسه. حينذاك، يطلق المصارع هتاف: يعيش! ويقوم باستدارة، ويلقي بقبعته إلى الأرض، ويسير لملاقاة الثّور.

ثمة قوانين ناظمة لتلك الجولات كما للمبارزة، وخرقها يعدّ أمرًا شائنًا مثل قتل الخصم غدرًا؛ فلا يجوز لمصارع الإجهاز أن يضرب الثور إلاّ في مكان التقاء الرّقبة بالظهر، وهذا ما يسميه الإسبان: الصّليب. ويجب أن تنفّذ الضّربة من أعلى إلى أسفل وكما يقولون: «في ثانية»، ولا تكون من الأسفل فقط. ومن الأفضل للمرء أن يخسر حياته ألف مرّة من أن يضرب ثورًا من الأسفل، أو جانبيًا، أو من الخلف. إن السيفَ الذي يستخدمه المجهزون على الثيران طويل وقويّ وقاطع من جانبيه، وقبضته الشديدة القصر تنتهي بكرة تسندها على راحة اليد، ولابد من اعتياد كبير، ومن مهارة، خاصّة لاستخدام ذلك السّلاح.

كي نقتل ثورًا، يجب أن نعرف طبعه بعمق، ولا يرتبط بهذه المعرفة المجد فحسب، بل حياة المصارع المجهز. ونحن نُدرك أن هناك ضروبًا مختلفة من الطباع بين الثيران بقدر ما هنالك بين بني البشر. ومع ذلك؛ فهي تتمايز فيما بينها إلى قسمين بيّنين تمامًا وهما: الطّباع الواضحة المبهمة. وأنا أتكلّم هنا بلغة ميدان الألعاب. إن واضحي الطباع يهاجمون مباشرةً. أما مبهمو الطباع، فعلى العكس من

---

١ - قطعة قماش يستخدمها المصارع لإرهاق الثّور قبل قتله. (م: ز.ع).

ذلك، هم ماكرون، ويسعون إلى الانقضاض على خصمهم غدراً. وهؤلاءُ الأخيرون شديدو الخطر إلى أقصى حدّ. وقبل أن يحاولَ المجهزُ أخذ الثّور بالسّيف، فهو يقدّمُ إليه رداء التّحريض، ويثيره، ويلاحظُ بانتباه إن كان يسارعُ إليه مباشرةً حالما يلمحه، أو يقتربُ منه بهدوءٍ كي يتقدّم، فلا ينقضّ على خصمه إلاّ في اللّحظة التي يبدو فيها شديد القرب منه كي يتحاشى الصَّدمةَ. وغالبًا مانرى ثوراً يهزُّ رأسه بهيئةٍ متوعّدة، ويحكُّ الأرضَ بقدمه من غير قصد للتقدّم، أو حتى للتقهقر بخطواتٍ بطيئةٍ، محاولاً أن يجذبَ الرّجل إلى وسط السّاحة التي لن يقدر على أن يفلت منه فيها. وثمة ثيرانٌ أخرى تقترب بمشيةٍ مائلة وبطيئة متظاهرةً بالتّعب، بدلاً من أن تُهاجِمَ على خطٍّ مستقيم، ولكنها تنطلقُ كالسّهم، ما إنْ تقدّر المسافة تقديراً جيداً للهجوم.

بالنسبة لشخصٍ يفهم مصارعة الثيران فهمًا قليلاً، يعدُّ مشهداقتراب المصارعِ المجهز والثور مثيراً للاهتمام. إنهما أشبه مايكونان بجنرالين[1] ماهرين، وكلٌّ منهما يتكهن بمقاصد الآخر، ويبدلُ مناوراته في كلّ لحظةٍ. إن حركةً من رأس الحيوان، ونظرةً جانبيةً، وأذنًا تنخفضُ، هي في نظر المصارعِ المتمرّس، إشاراتٌ غير مبهمة لمشاريع عدوّه. وأخيراً، فالثورُ الذي يفقد صبره يندفع باتجاه العلم الأحمر الذي يغطي المصارعُ به نفسه عمداً، وتصبحُ قوته هائلةً بحيث يصيرُ قادراً على هدم جدارٍ إذا مانطحه بقرنيه، غير أن الرّجل يتحاشاه بحركةٍ خفيفةٍ من جسمه، ويختفي وكأنّما بفعلِ السّحر، ولايتركُ للثّور سوى قطعة قماشٍ خفيفة يرفعها فوق قرنيه، متحدّيًا بذلك هيجانه الغاضب. أما اندفاعةُ الثور فتجعله يتجاوز خصمه كثيراً؛ فيتوقفُ حينئذ فجأة وهو يُصلّبُ قوائمه، وتتعبه هذه الارتكاسات المفاجئة والعنيفة إلى حدٍّ كبير. وإذا ماطال أمد المناورة، فسيكون ذلك وحده كافيًا لقتله، وهكذا، فإن روميرو، الأستاذ الكبير، يقول إنّ مصارعًا جيداً ينبغي أن يقتل ثمانيةَ ثيران بسبع ضربات سيف، فهناك ثورٌ من أصل الثّمانية يموتُ من التّعب والغضب. وبعد أن يمرّ الثور عدّةَ مرات، يقتنعُ المصارع جيداً بأنه قد عرف

١ - الجنرل: كلمة تدلّ على رتبة عسكرية معروفة، وهي تحديداً تبدأ من رتبة «عميد». (م: ز.ع).

خصمه، فيستعدُّ لتوجيه الضّربة الأخيرة إليه، فيثبتُ على ساقيه، ويقفُ تماماً في مواجهته، وينتظره، من غير حراك، وعلى مسافة مناسبة، ويده اليمنى التي تحملُ السّيف مثنيّةُ على مستوى رأسه، واليُسرى ممدودةٌ إلى الأمام وتمسكُ برداء الإثارة الذي يكادُ يلامس الأرض. ويدفع الثّور إلى خفض رأسه. وفي تلك اللحظة، إنما يوجّهُ إليه المصارع ضربةً قاتلةً، بكلّ مافي ساعده من قوّة، ويزيدُها ثقلُ جسمه، واندفاعةُ الثور نفسها قوةً. أما السّيفُ الذي يبلغُ طولُه ثلاثة أقدام، فغالباً ما يدخلُ حتى القبضة. وإذا كانت الضَّربةُ موجّهةً جيّداً، لايعودُ على الرّجل أن يخشى شيئاً؛ فالثور يُتوقَّفُ دفعةً واحدة، ويسيلُ الدّمُ قليلاً، فيرفعُ الثورُ رأسه، وترتجفُ قوائمه، ويسقط فجأة مثل كتلة ثقيلة، وتنطلق من كلّ درجات المدرّج هتافات: «يعيش» فتصمُّ الآذان، ويلوّح بالمناديل، وتطيرُ قبعات مدَّعي الشجاعة نحو الحلبة، ويرسل البطلُ المنتصرُ بتواضع قبلات الأيادي إلى كلّ الجهات.

يقال إن المصارعَ قديماً لم يكن يكلّفُ نفسه بأكثر من طعنة قاضية واحدة، بيد أن كلّ شيء ينحطّ، ومن النّادر أن يسقط ثورٌ من الطّعنة الأولى. ومع ذلك، فإن ظهر أنّه قد جرح جرحاً مميتاً، فإن المصارع لايكرِّر الضَّربة، بل يحاصره ضمن دائرة، بمساعدة مصارعي المساندة، ويثيره بالمعاطف بحيث يخبله في وقت قصير. وما إن يسقط حتى يجهز عليه أحدُ المساندين بطعنة خنجر يكيلها له في قفاه، فيقضي الحيوان للحظته.

لاحظنا أن لكلّ الثّيران تقريباً مكاناً في ميدان الألعاب، يعودون إليه دائماً، ويسمّونه: الملجأ[1]، وهو الباب الذي دخلوا منه إلى الحلبة.

غالباً ما يرى الثور الذي يحمل في رقبته السّيف القاتل الذي تخرج قبضته وحدها من كتفه، وهو يجتازُ السّاحة بخطى وئيدة، محتقراً المساندين ومعاطفهم التي يلاحقونه بها. ولايفكرُ بعد ذلك إلاّ بالموت بارتياح، ويبحث عن المكان الذي يؤثره، ويجثو، ويرقد، ويمدُّ رأسه ويموت بهدوء، إذا لم تأتِ طعنة خنجرٍ لتعجّل في نهايته.

---

١ - "Querencia" بالإسبانية في النّص. (م: ز.ع)

وإذا ما رفض الثورُ الهجومَ، فإن المصارع يهرع إليه، ويطعنه بسيفه دائمًا في اللّحظة التي يخفض الحيوان فيها رأسه (بطعنة جانبيّة)[1]، ولكنّه إذا لم يخفض رأسه، أو إذا ما هرب باستمرار، فلابدّ لقتله، من استخدام وسيلة قاسية فعلاً. فيقطع رجلٌ مسلّحٌ بعصا طويلة تنتهي بحديدة قاطعة على شكل هلال (نصف القمر)[2]، يقطعُ عرقوبيه من الخلف غدراً، وما إن يخور عزمُهُ، حتى يجهزَ عليه بطعنة خنجر. وهذا هو الفصلُ الوحيدُ الذي ينفرُ منه كلُّ الناس؛ فهو ضربٌ من عملية اغتيال، ويندر، لسوء الحظّ، أن يكون اللجوء إلى ذلك ضروريًا لقتل الثور.

وتعلنُ الأبواق موته. وفي الحال، تدخلُ إلى ميدان الألعاب ثلاثةُ بغال تخبُّ خببًا سريعًا، وتثبت عقدة حبلٍ بين قرني الثّور، ويمرّ فيها خطّافٌ، فتجرُّهُ البغال خببًا. وبعد دقيقتين، تختفي جثث الخيول وجثّةُ الثور من الحلبة.

تستمرُّ كلُّ معركةٍ عشرين دقيقةً تقريبًا. وفي العادة، يُقتل ثمانية ثيران في مدّة مابعد الظهيرة، وإذا كانت التسلية غير ممتعة كفاية، فإن رئيس الألعاب يمنحُ الجمهور بناءً على طلبه، معركةً أو اثنتين إضافيتين.

أنتم تلاحظون أن مهنة مصارع الثيّران خطرةٌ إلى حدٍّ كاف، ويموت بسببها وسطيًا مصارعان أو ثلاثة سنويًا، في إسبانيا كلّها، والقليلون منهم هم الذين يصلون إلى سنٍّ متقدّمة. فإذا لم يموتوا في ميدان الألعاب، فلسوف يضطرّون إلى التخلي عن المصارعة، مبكراً، من جراء جروحهم. وقد أصيب بيبي إيلو الشّهير بست وعشرين نطحة قرن في حياته، وقتلته النطحةُ الأخيرةُ منها. والأجرُ المرتفعُ إلى حدٍّ كاف لهؤلاء الناس ليس الدافع الوحيد الذي يجعلهم ينخرطون في مهنتهم الخطرة؛ فالمجد، والتّصفيق، تجعلهم يجابهون الموت، والمرء يستعذب كثيراً الانتصار أمام خمسة أو ستّة آلاف شخص! وليس من النادر أيضًا أن نرى هواةً للمصارعة من منبتٍ متميّز يشاطرون المصارعين المحترفين مخاطر مهنتهم

١ - (Estocada De Volapié) أي الضربة القاضية بالمرور من جانب الثور. (م: ز.ع)

٢-(Media Luna) (نصف القمر) : (م: ز.ع)

ومجدها. وقد رأيتُ في إشبيليا مركيزاً وكونتاً يشغلان مهمّةَ رمّاح في إحدى المصارعات العامّة.

وإنه لأمرٌ صحيح فعلاً أن الجمهور قلّما يبدو متسامحًا تجاه مصارعي الثيران، وهو يعاقبُ أقلّ علامةٍ من علائم الوجل بصرخات الاستنكار والصّفير، ويمطره بالشتائم الأكثر فظاعةً من كلّ جهة. وبناءً على أمرِ الجمهور أحيانًا، وهذه هي أفظعُ دلالةٍ على غضبه، يقترب مفوّضُ الشّرطة من مصارع الثيران، ويفرض عليه أن يهاجم الثور بأسرع وقت، وإلاّ تعرّض لعقوبة السّجن.

وذات يوم، استشاط الممثلُ مايكيز غضبًا لأنه رأى مصارعًا يتردّدُ أمام ثورٍ هو أكثر الثيران اتصافًا بطبع مبهم، فأخذ الممثّل يقذفه بالشتائم. فقال له المصارع: «ياسيدي مايكيز، ألا ترى أن الأمر هنا ليس مثل تلك الأكاذيب التي نراها على خشبة مسرحك».

إن التّصفيقَ، ورغبةَ المصارعين في أن يصنعوا لأنفسهم شهرةً، أو في أن يحافظوا على الشهرة التي اكتسبوها تجبرهم على المزايدة في الأخطار التي يتعرّضون إليها طبعًا؛ فقد كان بيبي إيلّو، وروميرو بعده، يعرضان للثور، والأغلال في أرجلهما. إن برودة أعصاب هؤلاء الرجال في أوقات الخطر الأشد إلحاحًا، يتضمن شيئًا خارقًا. ومؤخرًا، قلب ثورٌ أندلسيٌ رمّاحًا، اسمه فرنسيسكو سيڤيلا، وبعج حصانه بقوّةٍ وخفةٍ هائلتين، وبدلاً من أن يترك هذا الثورُ انتباهه يتشتّت على يد مصارعي المساندة؛ فقد هجم بضراوةٍ على الرّجل، ووطئه بقوائمه، ووجّه إليه عددًا كبيراً من النّطحات في ساقيه، ولكنّه حين لاحظ أن سروال المصارع الجلديّ، المدعّم بالحديد يدفع عنه الضّربات جيداً، استدار، وخفض رأسه كي يغرز قرنَه في صدره. حينذاك نهض سيڤيلا، وهو يبذلُ جهداً نهائيًا، وأمسك الثور من أذنه بيد، وغرز أصابعه في منخري الثور باليد الأخرى، فيما كان يبقي رأسه ملتصقًا برأس ذلك الحيوان الغاضب. وأخذ الثورُ يهزّه، ويدوسهُ بقدميه، ويصدمه بالأرض من غير طائلٍ؛ فهو لم يستطع قط أن يجعله يفلته. وكنا ننظر إلى ذلك

الصّراع غير المتكافئ، وقلبنا منقبضٌ؛ فقد كان ذلك هو احتضارُ الشجاع. وكنا نشعر بالأسف تقريبًا من أنه قد طال أمدُهُ. فلم يكن أحدٌ يقوى على الصّراخ، أو التنفّس، أو إزاحة عينيه عن ذلك المشهد المروّع. وقد دام ما يقرب من دقيقتين. وأخيراً، فإن الثّورَ الذي قهره الرجلُ في معركة المجابهة تلك، تركه ليلاحقَ مصارعي المساندة، وكان كلُّ الناسِ يتوقّعون أن يروا سيڤيلا محمولاً على السّواعد خارج الحلبة، ورفعوه، وما إن أصبحَ واقفًا على قدميه حتى أمسكَ دثارَ المصارعة، وأراد أن يجتذبَ الثورَ إليه، برغم إصاباته المتورّمة، وواقيتيّ ساقَيه غير المريحتين، وكان لابدّ من انتزاعِ دثارِ المصارعة منه، وإلاّ لتسبّبَ في قتلِ نفسه في تلك المرّة. وأتوه بحصانٍ، فوثَب فوقه، وهو يفورُ غضبًا. وهاجمَ الثور في وسط الساحة، وكان اصطدامُ هذين الخصمين الباسلين مرعبًا جداً سقَطَ الحصانُ والثورُ جاثيين: أوه! لو سمعت الهتافات، ولو رأيت الفرح الجنوني- وذلك النّوعَ من النّشـوة اللذين أصابا الجمهور، حين رأى ذلك القدْرَ من الشجاعة، وذلك القدْر من السعادة، لغبطت سيڤيلا على قَدَره! إن ذلك الرّجل قد أصبح خالداً في مدريد.

حزيران، ١٨٤٢

حاشية. واأسفاه! ماذا أعلموني منذ قليل! إن فرانسيسكو سيڤيلا قد مات في السنة الماضية. إنه لم يمتْ في ميدان الألعاب الذي كان ينبغي أن ينتهي فيه، ولكن مرضًا في الكبد قد قضى عليه. وفي كارانڤاشيل، وقريبًا من الأشجار الجميلة التي أحبَّها كثيراً، إنما قد مات، بعيداً عن جمهورٍ طالما خاطر بحياته من أجله.

لقد رأيتُه ثانية، في عام ١٨٤٠، في مدريد، وكان يتحلّى بالإقدامِ نفسه، وبالجسارة نفسها التي كان يتحلّى بها في تلك المدّة التي كتبت فيها الرّسالة التي قرأتموها منذ قليل. وقد رأيتُه بعد ذلك أيضًا. لأكثر من عشرين مرة وهو يتدحرجُ في الغبار، تحت حصانه المبقور البطن، ورأيت رماحًا عديدة له تنكسرُ، ورأيت هجماته التي يقتحمُ بها ثيرانَ غاڤيرا المخيفين. وكان الناسُ يقولون في ميدان الألعابَ: لو كان لفرنسيسكو سيڤيلا قرون، لما كان هناك مصارعُ ثيران يجرؤ

على أن يقفَ أمامه». لقد كان اعتيادُه على الانتصار يلهمُه إقداماً خارقاً. وكان، حين يقفُ أمام ثور، يستشيطُ غضباً من أن الثورّ لَم يكن يخافه. وكان يصيحُ به بهياج: «أنت لا تعرفُني إذن؟»، وكان بالتأكيد يبيّن لتلك الثران سريعاً مع من تتعامل.

ووفّر لي أصدقائي فرصةً ممتعةً لتناول العشاء مع سيڤيلا، وقد كان يأكلُ ويشرب مثل بطلٍ من أبطال هوميروس كما كان أكثر الرفاق الذين يمكن التقاؤهم مرحاً، وكان في مسلكه الأندلسي، ومزاجه المرح، ولهجته المحليّة الملأى بالعبارات المجازيّة الرائعة الصوّر شيءٌ يبعثُ على بهجة خاصةً في شخصِ ذلك الجبّار الذي كان يبدو أن الطّبيعةَ قد خلقته ليقضي على كلِّ شيء.

وكانت سيّدةٌ إسبانية ذاهبةً إلى برشلونة، هرباً من مدريد التي فتكت الكوليرا بالناس فيها فتكاً ذريعاً في ذلك الوقت. وقد سافرت في العربة نفسها التي كان سيڤيلا موجوداً فيها. وكان ذاهباً إلى المدينة لإقامة جولة مصارعة تم الإعلانُ عنها مسبقاً. وأثناء الطريق، لم يفت سيڤيلا لحظةً واحدة أن يتصرفَ بلباقة وملاطفة، وأن يحيطَ السيّدة برعايته. وحين وصلا إلى برشلونة، أعلن المجلسُ الصحيّ، الغبيّ شأنه شأن كلّ المجالس، أعلن للمسافرين بأنّهم سينفّذون حجْراً صحياً لمدّة عشرة أيام، باستثناء سيڤيلا الذي كان وجودُه مرغوباً فيه بحيث لا يمكن أن تطبّق عليه القوانينُ الصّحيّةُ. غير أن المصارع الشّهم رفَضَ ذلك الاستثناء المتميز رفضاً قاطعاً، وقال بحزم: إذا لم يكن للسّيدة ولمرافقيّ حرية التصرّف، فإني لن أصارع!».

ولم يكن التردّدُ ممكناً بين الخشية من العدوى، وخشية إضاعة جولة مصارعة جميلة، فتراجع المجلسُ عن قراره، وقد أحسَنَ صنُعاً بذلك! فلوَ أنه قد تمسّكَ برأيه، لأحرق الجمهورُ المحجرَ الصحّي، والقائمين على الحجر.

وبعد أن أدّيتُ ما يتوجّبُ عليّ من ثناء، ومن أسفٍ تجاه روحِ سيڤيلا، ينبغي لي أن أتكلّم على شهرةٍ أخرى تهيمنُ الآن بلا منازعٍ في ميدان الألعاب؛ فمعرفتُنا في فرنسا بما يجري في إسبانيا سيئةٌ إلى الدّرجةِ التي قد نجدُ فيها أناساً، فيما قبل البيرينيه، لايزالون يجهلون اسم مونتيس.

إن كلّ ما نشره الصّيتُ الحسنُ من صحيحٍ وخاطئ حول المصارعين التقليديّن، من مثل بيبو إيلّو، وبابلو روميرو، يُرينا إياه مونتيس كلّ نهارِ اثنين في ميدان الألعاب الوطني، كما نقول اليوم؛ فالشجاعةُ، والظّرفُ، وبرودةُ الأعصاب، والمهارةُ العجيبةُ تجتمعُ كلُّها لديه. إن حضورَه في ميدان الألعاب يُذكي الحياة في اللاّعبين والمتفرّجين ويحمّسهم. فلا يعودُ هناك ثيران رديئة، ولامصارعو مساندة وجلون، وكلٌّ منهم يتفوّق على ذاته. إن المصارعين الذين يمتلكون شجاعة غير مؤكّدة يغدون أبطالاً عندما يقودُهم مونتيس؛ فهم يعلمون أنه لايتعرّضُ أحدٌ لخطرٍ معه. إن حركةً منه تكفي ليبدّل اتجاهَه الثورُ الأكثر هياجًا في اللحظة التي يهمّ فيها بطعن رمّاحٍ منقلب، لم نرَ قط هلالاً « Media Luna » في السّاحة التي صارع فيها مونتيس. إن كلّ الثيران سواء كانت واضحة الطّباع أم مبهمة، جيدةٌ للمصارعة. إنه يسحرُها، ويحولُها، ويقتلُها عندما يشاء، وكيفما يشاء. إنه المصارعُ الأول الذي رأيته: Gallear El Toro: أي الذي يعرِضُ ظهره للحيوان الهائج كي يجعله يمرّ تحت ذراعه. وهو يتنازلُ بصعوبةٍ ليدير رأسه حين ينقضُّ عليه الثّورُ. وأحيانًا، يجتاز ميدان الألعاب، وهو يُلقي معطفه على كتفيه، والثّور يتبعه، فيصابُ الحيوانُ بغضب مسعور، فيلاحقه من غير أن يستطيع الوصول إليه. ومع ذلك، يكون قريبًا جداً من مونتيس بحيث ترفع كلّ نطحةٍ منه طرفَ المعطف. تلك هي الثّقةُ التي يوحي بها مونتيس، بحيث زالت من أذهان المشاهدين فكرةُ الخطر، ولم يعودوا يحسّون إلا بشعورٍ واحدٍ هو الإعجاب.

ويُعرف عن مونتيس أن له أفكاراً قليلاً ما تُؤيّد النّظامَ القائم. ويُقال إنه قد كان متطوّعًا ملكيًا وإنه: سرطان البحر[١]، أي معتدل. ولئن كان الوطنيّون يأسفون لذلك، فلايمكنُهم أن يعزلوا أنفسهم عن الحماسةِ العامّة، وقد رأيتُ لامتسرولين[٢] يُلقون إليه بقبعاتهم بحماسةٍ ويرجونه أن يعتمرها للحظةٍ من الزمن.

---

(١) بالفرنسية والإسبانية على التّوالي في النص: « Ecrevisse, Cangregio » (م: ز. ع).

(٢) ثوريون فرنسيون إبان الثورة الفرنسية ١٧٨٩. (م: ز. ع).

تلك هي عادات القرن السادس عشر - فيقول برانتوم في أحد المواضع: «عرفت عدداً كبيراً من النبلاء الذين، قبل أن يلبسوا جواربهم الحريرية، كانوا يرجون سيّداتهم أو عشيقاتهم أن يجرّبنها، ويلبسنها أمامهم ثمانية أو عشرة أيام تزيد أو تنقص، ثم كانوا يلبسونها بتوقير كبير جداً، وبرضى روحي وجسدي».

إن لمونتيس طريقة حياة رجل لائق، فهو يعيش بنبل، ويكرّس نفسه لأسرته التي أمّن لها مستقبلَها بموهبته. أما تصرّفاته الأرستقراطية فهي لاتروق لبعض المصارعين الذين يحسدونها، وأتذكّر أنه قد رفض أن يتناول العشاء معنا عندما تعاقدنا مع سيڤيلا. وفي تلك المناسبة، أعطانا سيڤيلا رأيه بمونتيس، بصراحته المعتادة:

MONTES NO FUE RE AIISTA, ES BUEN COMPAÑERO, LUCIENTE MATADOR, ATIENDE ALOS PICADORES, PERO ES UN P...[1]

وهذا معناه أنه يرتدي لباساً رسمياً أسود، خارج ميدان الألعاب، ولايذهب قطّ إلى الملهى، وأن لديه تصرّفات جيدة إلى حدٍّ فائق.

إن سيڤيلا هو ماريوس[2] مصارعة الثيران، ومونتيس هو قيصرها.

---

(١) «لم يكن مونتيس ملكي النزعة، بل رفيقاً طيباً، ومصارعاً لامعاً، وعطوفاً على المصارعين الرماحين، ولكنه كان بعض الشيء...»

(٢) جنرال (عميد) روماني عظيم، شعبي النزعة، وله انتصارات هائلة (م: ز. ع)

-٢-

تنفيذ الإعدام

ڤالنسيا، ١٥ تشرين الثاني، ١٨٣٠.

سيدي،

بعد أن وصفتُ معارك مصارعة الثيران، لم يعدْ عليّ، تبعًا لقاعدة مسرح الدّمى والتي هي على الدّوام تقديمُ ما هو أقوى فأقوى تأثيراً، لم يعدْ عليّ إلاّ أن أحدّثك عن عملية إعدام: فقد رأيت تنفيذَ إحداها منذ قليل، ولسوف أعرضُها عليك، إن كنت تمتلكُ الشجاعةَ لتقرأ ما أكتبُ إليك.

قبل كلّ شيء، يجبُ أن أوضح لك لماذا حضرتُ عملية إعدام. إن المرءَ، في بلدٍ أجنبي، مجبرٌ على أن يرى كلّ شيء، فأنت تخشى دومًا أن تجعلك لحظةُ كسلٍ أو اشمئزاز تضيعُ سمةً من سماتِ العادات المثيرة للغرابة، زدْ على ذلك أن قصّةَ التّعس الذي شُنق قد استرعت اهتمامي. وكنت أريدُ رؤيةَ سحنته. وأخيراً، فقد كنتُ مرتاحًا حقًّا لأنّي أقومُ بتجربةٍ على أعصابي.

وإليك قصةَ رجلي الذي شُنق (وقد نسيت أن أستعلمَ عن اسمه)؛ فقد كان فلاحًا من المناطق المحيطة بڤالنسيا، يحظى بالتقدير والمهابة بفضلِ طبعه الجريء، وجسارته مع النساء. لقد كان ديك قريته؛ فلم يكن أحدٌ يرقصُ أفضلَ منه، ويرمي العارضة إلى أبعد منه، ويعرف أغانيَ عاطفية قديمة أكثر منه. إنه لم يكن محبًا للخصام. ولكن كان من المعروف أنه يلزمُه القليلُ كي يثورَ غضبُه. وإذا ما كان يرافقَ مسافرين، وبندقيتُه المنفرجةُ على كتفه، لم يكن لصٌ يجرؤ على إيقافهم، حتى لو كانت حقائبهم ملأى بالدّنانير الإسبانية الذّهبية. كما كان من المبهج أن ترى ذلك الفتى وهو يتبختر في الطّرق، ويتمايلُ بهيئةٍ متكبّرة. لقد

كان، بكلمة واحدة، متظرفًا « Mago »[1]، بكلّ ما في هذا التعبير من قوة؛ فالمتظرّفُ هو في آن واحد متأنّقٌ من الطّبقة الدنيا، رجلٌ ذو حساسية مفرطة في مسألة الشرف.

وهناك قول مأثورٌ يقولُه القشتاليون بحقّ الڤالنسيين، وهو قولٌ زائفٌ تماماً في رأيي، وها هو: إن اللّحم في ڤالنسيا يأتي من العشب، والعشب من الماء، والرجالُ نساء، والنساءُ لا شيء». وإني أُؤكّد أنّ مطبخَ ڤالنسيا ممتازٌ، وأن النساء فيها جميلاتٌ إلى أقصى حدّ، وأنهنّ أكثر بياضًا مما هنّ في أيةِ مملكة من ممالك إسبانيا. ولسوف ترى أيّ رجال في تلك البلاد.

كانت تجري مصارعةُ ثيران، وكان المتظرفُ يريدُ أن يراها، غير أنّه لم يكن يمتلك ريالاً واحداً في حزامِ نقوده. وكان يعتمدُ على أنّ متطوّعًا ملكيًا صديقًا له، ويقوم بالحراسة في ذلك اليوم، سوف يدعهُ يدخل. ولكن، لا؛ فقد كان ذلك المتطوّع متشدّدًا فيما يخصُّ التعليمات المعطاة له: فألحّ المتظرّفُ عليه، وظلَّ المتطوعُ على تصلّبه؛ فتبادلا الشتائمَ من هذا الجانبِ أو ذاك. باختصار، دفعه المتطوّع بقسوةٍ بضربةٍ من أخمصِ بندقية في بطنه، فتقهقرَ المتبجّحُ، غير أن أولئك الذين لاحظوا الشحّوبَ الذي أصاب سحنته، والذين رأوا قبضتيه المضمومتين بعنف، ومنخريه المنتفخين، وتعبيرَ عينيه هؤلاء الناس قد تصوّروا أنه سيحدث بعد قليل مكروهٌ ما.

وبعد مرورِ خمسة عشر يومًا على ذلك، أُرسِلَ المتطوّعُ مع مفرزةٍ من العسكر لملاحقة بعض المهرّبين. فنام في نزل منعزل (Venta)، وفي اللّيل، سُمِع صوتٌ ينادي المتطوّع: «افتح، نحن من قِبَل امرأتك». فنزل المتطوّعُ، وقد ارتدى جزءاً من ثيابه. وما إن فتحَ البابَ، حتى ألهبت رشقةُ بندقيةٍ منفرجةٍ قميصَه، وأطلقت على صدره اثنتي عشرة رصاصة. وتوارى القاتل. فمن الذي نَفّذ تلك الضّربةَ؟ لم يستطعْ أحدٌ أن يخمّن ذلك. ومن المؤكدّ أن من قتله لم يكن المتظرّفَ. فقد كان هناك اثنتا عشرة امرأةً تقيةً ذوات نزعةٍ ملكيةٍ قوية يمكنهنّ أن

(١) بالإسبانية Mago تعني المتأنقّ الذي يدّعي أيضاً الإقدام والمروءة وما سيلي هذه الكلمة قد يسوغ لنا استخدام كلمة: متظرّف» (م: ز.ع)

يقسمن باسم شفيعهن القديس، مع تقبيل الإبهام، بأنهنّ قد رأين الرَّجلَ المعنَّي أعلاه، وكلّ منهن قد رأته في قريتها، وذلك بالضبّط في السّاعةِ وفي الدقيقةِ التي ارتُكِبت فيها الجريمةُ.

وأخذَ المتطرّفُ يظهرُ علنًا بجبينٍ مرفوع، ووجهٍ مطمئنٍ لرجلٍ قد تخلّص من همٍّ مزعج، وعلى هذه الصّورة، إنماً يظهرُ، في مقهى تورتوني في باريس، المبارزُ الذي فرغ بشجاعةٍ من تحطيمِ ساعدِ رجلٍ سفيه، وذلك في المساء الذي يعقبُ تلك المبارزة.

لاحظوا ملاحظةً عابرة أن القتل هنا ينتجُ عن تلك المبارزة التي تجري بين الناس الفقراء، وهي مبارزةٌ جدّيةٌ على نحوٍ مختلفٍ فعلاً عن مبارزتنا، إذ يعقبُها قتيلان فيما يخدشُ أناسُ الصُّحبةِ الراقيةِ بعضُهم بعضاً في الغالب أكثر مما يقتتلون.

سار كلُّ شيء على ما يُرام إلى أن تبيّنَ أحدُ مفوّضي الشرطة، وقد أخذته الحماسةُ المفرطةُ أن لديه رغبةً في اعتقال ذلك الرّجل المحبوب (لأنه، كما يقولُ البعض، جديدٌ في مهمّاته، ولأنه، كما يقول آخرون، كان مغرماً بامرأةٍ كانت تفضّلُ المتطرّفَ عليه).

وكان خصمُهُ يضحكُ من الأمر فحسب، طالما كان يقفُ عند حدود التّهديد، ولكنه عندما أراد أخيراً أن يوقفَه، فقد جعَلَه يبتلعُ «لسانَ ثور». وهذه عبارةٌ من المنطقة تعني: «طعنة سكين». وهكذا، فقد أتاحَ الدفاعُ المشروعُ عن النفس جعلَ مركز مفوّض الشّرطة شاغراً.

إن مفوّضي الشرطة يتمتّعون باحترامٍ كبيرٍ في إسبانيا، وشأنُهم شأنُ ضباط الشرطة تقريباً في إنكلترا، وإساءةُ معاملةِ أحدهم تعدُّ حالةً تستحقُّ الشَّنق، وهكذا، فقد قُبِضَ على المتطرّف، وأُودعَ السّجنَ، وحوكم، وحكم عليه، بعد دعوى جدّ طويلة، فالشكلياتُ القضائيّةُ هنا أبطأُ أيضاً مما هي عندنا.

سوف توافقون معي، إذا ما توفّر لديكم شيءٌ من حُسْنِ النيّة، على أن ذلك الرّجل لم يكن يستحقُّ مصيرَه، وأنه كان ضحيّةَ قدرٍ تعس، وأنه كان بوسعِ القُضاة

أن يعيدوه إلى المجتمع الذي كان من المفروض أن يصبح زينته (حسبما يقول المحامون)، من غير أن يُهظوا ضمائرهم أكثر مما ينبغي. غير أنه قلّما يأخذُ المحامون بمثل تلك الاهتمامات الشاعريّة والسّامية. لقد حكموا عليه بالإعدام وبالإجماع.

وذات مساء. كنتُ ماراً بالمصادفة من ساحة السوق، عندما رأيتُ عمّالاً ينصبون حتى المصابيح عوارض خشبية، ويُحكمون ترتيبها على نحو غير مألوف، فتشكّل على وجه التقريب حرف «π»[1]. وكان هناك جنودٌ من حولهم يبعدون الفضوليّين. وإليكم سبب ذلك. إن المشنقة (فقد كانوا يعدّون مشنقة) يجري نصبُها بالسّخرة، والعمالُ المستدعون لذلك العمل لايمكنهم أن يرفضوا تلك الخدمة، من غير أن يتّهموا بالتمرّد. وقد عُنيت السُّلطةُ، كنوعٍ من التعويض، بأن يؤدّوا مهمتهم التي يعدّها الجمهورُ معيبةً إلى حدٍّ ما، أن يؤدّوها بالسرّ تقريباً. ولذلك، يحيطونهم بالجنود الذين يُبعدون الجمهور، والعمال لا يشتغلون إلاّ ليلاً؛ بحيث يصبحُ من غير الممكن تعرّفُهم، ولايجازفون في اليوم التالي بأن يُطلقَ عليهم الناسُ لقبَ نجّاري المشنقة.

إن السّجن، في ڤالنسيا، عبارةٌ عن برجٍ قديم، قوطيّ الطّراز، والفنّ المعماريّ فيه لاينقصُه الجمالُ، وخصوصاً في واجهته التي تطلّ على النّهر. إنه يقع في أحد طرفي المدينة. وهو أحدُ أبوابها الرئيسيّة، ويسمونّه La puerta De-Los Serranos[2] ومن أعلى سطحه، يكتشفُ المرءُ مجرى نهر غوادالاڤيار، والجسورَ السّبعة التي تخترقُه، ومنتزهات ڤالنسيا، والرّيفَ الزّاهي الذي يحيطُ به. وإنه لسرورٌ كئيب أن يرى المرءُ الحقولَ، حينما يكون حبيسَ أربعة جدران. ولكنّه، في نهاية الأمر، شيءٌ مسرٌّ، ويجب أن نكونَ ممتنّين للسّجان الذي يسمحُ للمعتقلين أن يَصعدوا إلى ذلك السّطح، فأصغرُ متعةٍ لها قيمتُها في نظرَ السُّجناء.

ومن ذلك السجن، إنما كان يتعيّن على المحكوم أن يخرج كي يذهبَ إلى ساحة السّوق، عبر الشوّارع الأكثر اكتظاظًا في المدينة، وهو يركبُ حماراً، وكي

---

(١) حرف: «p» «پ» باليونانية: (م: ز. ع)

(٢) أي: باب الجبليين. (م: ز. ع).

يغادرَ هذا العالم. ألفيتُ نفسي في ساعةٍ مبكرةٍ أمام باب الجبليين مع أحدِ أصدقائي الإسبان، والذي تلطّفَ بمرافقتي. وكنتُ أتوقّعُ أن أجدَ جمهورًا كبيرًا متجمعًا منذ الصّباح، غير أني أخطأتُ التّقديرَ، فقد كان الحرفيونّ يشتغلون بهدوء في دكاكينهم. وكان الفلاحون يخرجون من المدينة، بعد أن باعوا خضارهم. فلم يكن هناك شيءٌ يُنذرُ بأن أمرًا مخالفًا للمعتاد سيحدثُ، اللّهم إلاّ وجود اثني عشر جنديًا من الخيالة الذين كانوا يصطفّون بقرب باب السّجن. ولاينبغي أن يُعزى ذلك القدْرُ القليلُ من تَلهُّف الڤالنسيّين لرؤية عملية إعدام إلى فرط حساسيتهم، كما أعتقد. ولا أدري أيضًا إن كان عليّ أن أرى، كما يرى مرشدي، أنهم قد سئموا ذلك المشهدَ إلى درجةٍ لم يعدْ فيه ما يجذبهُم إليه. ولربّما يرجعُ عدمُ الاكتراث هذا إلى عادات العملِ لدى شعبِ ڤالنسيا؛ فإن حبَّ العملِ والربحِ لايجعلهُ يتميّزُ فحسب عن شعوبِ إسبانيا، وإنّما عن شعوبِ أوروبا أيضًا.

انفتح بابُ السّجن، في السّاعة الحادية عشرة، فأخذ في الحال يمرُّ موكبٌ ذو عددٍ كافٍ من الرّهبان الفرنسيسكانيين. وكان يسبقهُ مصلوبٌ كبيرٌ يحملهُ أخٌ راهبٌ يتبعه معاونان، وبيد كلٍّ منهما مصباحٌ معلّقٌ بطرفِ عصا كبيرة. أما تمثالَ المصلوب الذي كان بالحجم الطّبيعي، فقد كان مصنوعًا من الورقِ المقوّى الملوّن بموهبةٍ فيها تقليدٌ يفوقُ المعتاد. إن الإسبانَ الذين يسعون لإبرازِ طابعِ الرّهبة في الدّين، يُبدعون في تصوير الجراح، والكدمات، وآثار التعذيب التي كابدها شهداؤهم. فعلى ذلك المصلوب الذي كان من المفروض أن يَمثُلَ في عمليةِ الإعدام، لم يجر استبعادُ تصوير الدّم، والصّديد، والأورام الكامدة. لقد كان أكثرَ القطعِ التشريحية التي يمكنُ للمرء أن يراها مثيرةً للتقزّز. وقد توقّفَ حاملُ تلك الصّورة المرعبة أمام الباب. وكان الجنودُ قد اقتربوا قليلاً، وكان حوالي مئة فضوليّ قد تجمّعوا خلفهم، وعلى مقربةٍ منهم بحيث لا يفوتُهم شيءٌ مما سيجري، وممّا سيقالُ، عندما ظهر المحكومُ يرافقهُ كاهنُ اعترافه.

لن أنسى قطّ صورةَ ذلك الرّجل؛ فقد كان طويلَ القامة كثيراً، وشديدَ النّحول، ويبدو كأنّه في الثلاثين من عمره. كان جبينُه مرفوعًا، وشعرُه كثيفًا وأسودَ كالسَّبج[1] ومنتصبًا مثل شعر فرشاة. وكانت عيناه الكبيرتان، وإنما الغائرتان في رأسه، تبدوان متوهّجتينَ. كان حافي القدمين، يرتدي ثوبًا طويلاً أسود، وقد خاطوا عليه صليبًا أزرقَ وأحمرَ، في موضع القلب. إنها شارةُ المحتضرين. وكانت ياقةُ قميصه المجعّدة مثل حبّة فريز تسقطُ على كتفيه وعلى صدره. وكان هناك حبلٌ رفيعٌ، مائلٌ إلى الأبيض يبرزُ بشكلٍ واضح على النسيج الأسود لردائه، يلتفُّ عدةَ دورات حول جسمه، ويوثق ذراعيه ويديه بعقد معقدّة، ويجعلُها في الوضعية التي يتخذُها المرءُ أثناء الصّلاة. كان يمسكُ بين يديه مصلوبًا صغيراً، وصورةً للعذراء. وكان كاهنُ اعترافه ضخمُ الجثة، قصيرَ القامة، وبدينًا، نَضِرَ الوجه، ويظهر كأنّه إنسانٌ طيّب. ولكنه إنسانٌ يقوم بتلك المهنة منذ زمنٍ طويل، ولطالما شَهِد عمليات إعدامٍ أخرى كثيرة.

خلفَ المحكوم، كان يقفُ رجلٌ شاحبُ الوجه، ضعيف ونحيف، وتظهرُ على سحنته الرّقةُ والخجل. كان يرتدي سترةً بنيّةً معَ سروالٍ وجوارب سوداء، وكان يمكنُ أن أظنّه كاتبَ عدل أو مفوّض شرطة مبتذلاً في لباسه، لو لم يعتمر قبعة رمادية، ذات حواف كبيرة، مثل تلك التي يعتمرُها المصارعون الرّماحون في معاركِ صراعِ الثّيران. وعندما رأى المصلوبَ، نَزَعَ تلك القبّعةَ باحترام، ولاحظتَ حينذاك سلّمًا صغيراً من العاج مثبتًا على زيّهِ وكأنّه شعارٌ: إنّه الجلاد.

أما المحكوم، الذي وضعَ رأسَه خارجَ الباب، وكان مضطرّاً للانحناء كي يمرَّ من تحت فتحته، فقد استقامَ بكلّ طولِ قامته، وفتحَ عينيه اللّتين اتّسعتا بلا حدود، بسَطَ على الجمهور نظرةً سريعة، وتنفّس بعمق. وكان يبدو لي أنّه يستنشقُ الهواء بلذّة مثل من كان لزمنٍ طويل في زنزانةٍ ضيّقة وخانقة. كان تعبيرُ وجهه غريبًا، فهو لم يكن تعبيرَ خوف، بل تعبيرَ قَلَق. كان يبدو ممتلاً لمصيره؛

---

(١) مادة قيرية سوداء تشتعل كالفحم. (م: ز. ع)

فما من عجرفةٍ لديه ولا تظاهرُ بالشجاعة. وقلت في نفسي إني أودُّ، في مناسبةٍ مشابهة لتلك المناسبة، أن أُبدي رباطةَ جأشٍ، مثله أيضاً.

قال له كاهنُ اعترافه بأن يجثو أمام المصلوب، فامتثل، وقبّل قدمي تلك الصّورة الفظيعة. وفي تلك اللحظة، كان جميعُ الحاضرين متأثّرين، وهم يحافظون على صمتٍ عميق.. وحين لاحظ كاهنُ الاعتراف ذلك، رفع يديه ليخرجهما من كُمّيه الطويلين اللذين كان يمكن أن يعيقاه، في حركاته الخطابيّة، وبدأ يُلقي خطاباً كان قد استخدمه ربما غير مرّة، بصوتٍ قويّ، ومتزايد الشدّة. ولكنه، مع ذلك صوتٌ رتيبٌ، بسبب التكرار الدوري للنّغميّات نفسها. كان يلفظُ كلّ كلمةٍ بوضوح، وكانت نبرتُه صافيةً، ويُعبّر بلغةٍ قشتالية جيدة، وربما لم يكن المحكومُ يعرفها إلاّ معرفة غير كافية إلى حدٍّ كبير. وكان يبدأ كلّ جملةٍ بصوتٍ ذي نبرةٍ ثاقبة، ثم يعلو إلى النّشاز، ولكنه ينتهي إلى نبرةٍ خفيضةٍ وواطئة.

لقد كان يقولُ للمحكوم، في جوهرِ كلامه، وداعياً إياه بأخيه: «لقد استحققتَ الموتَ فعلاً، وحتى أنهّم كانوا متسامحين معك، عندما لم يحكموا عليك بغيرِ المشنقة، فجرائمُك هائلة.» وهنا، قال كلمةً في الجرائمِ التي ارتكبها المحكومُ، ولكنه أخذ يتوسّعُ بإسهابٍ في موضوع عدمِ التديُّن الذي كان المحكومُ (التائبُ) قد أمضى مرحلةَ شبابه فيه، والذي دفعه وحده إلى هلاكه. ثم أخَذَ يتحمّسُ تدريجيّاً ويقول: «ولكن ماذا تُعدّ العقوبةُ التي سوف تحتملُها باستحقاق تماماً إذا ما قيست بالعذاباتِ الخارقة التي قاساها مخلّصُك الإلهيّ لأجلك؟ انظرْ إلى هذا الدّم، وإلى هذه الجراح، إلخ»، إنها تفاصيلُ جدُّ طويلة عن كلّ الأوجاعِ التي تشكلُّ آلامَ المسيح، وقد أخَذَ يصفُها مستخدماً كلّ المبالغةِ التي تحتويها اللُّغةُ الإسبانيةُ، ويعلّقُ عليها بواسطة التّمثال الشنيع الذي حدثتكُم عنه. وكانت الخاتمةُ أقوى من فاتحة الخطاب. وكانَ يقولُ فيها، وبطريقةٍ بالغةِ الإطالة، إن رحمةَ الربّ غير متناهية، وإنَ توبةً حقيقيةً يمكنُها أن تهدّئ غضبَه.

نهضَ المحكومُ، ونظر إلى الكاهن نظرةً مرعبةً بعضَ الشيء، وقال له: «ياأبتِ، كان يكفي أن تقولَ لي إني ذاهبٌ إلى المجد، فلنسرْ!».

رجع كاهنُ الاعتراف إلى السّجن، وهو جدٌّ مسرورٍ من خطابه، فأخذ راهبان فرنسيسكانيّان مكانه بقرب المحكوم. ولم يُقيّض لهما أن يتركاه إلاّ في اللحظة الأخيرة.

مدّوه في البداية على حصيرٍ سحبه الجلادُ نحوه قليلاً، ولكن من غير عنف، وكأنّ ذلك باتّفاقٍ ضمنيّ بين المحكوم والجلاد كي يبدو الأمرُ تنفيذًا حرفيًّا لما وردَ في نصِّ الحكم الذي يقولُ إنّه «يُشنَق بعد أن يُجرَّ على الحصير».

بعد أن تمَّ ذلك، رُفعَ التّعِسُ على حمار كان الجلادُ يقودهُ من رسنه، وكان الراهبان الفرنسيسكانيان يسيران إلى جانبيه، يسبقهما صفّان طويلان من رهبان هذه الرّهبانية، ومن العلمانيين الذين ينتمون إلى أخوية: «Desemparados»[1]. ولم تنكس الراياتُ والصّلبان، وكان يأتي خلفَ الحمار كاتبُ عدل، ومفوّضان للشرطة، يرتديان ملابسَ سوداء على الطّريقة الفرنسيّة، وهي سروالٌ وجواربُ حريرية، ويحملان على جنبيهما سيفين، ويمتطيان كديشين رديئين ومُسْرجين على نحوٍ سيئ جداً. وكانت هناك مفرزةٌ طوارئ من الخيّالة تُنهي المسير، وفيما كان الموكبُ يتقدّمُ ببطء شديد، كان الرُّهبانُ ينشدون صلوات ابتهالٍ بصوتٍ مكتوم، ورجالٌ يرتدون المعاطفَ يجولون حول الموكب، ويمدّون نحو المشاهدين صحونًا فضيّةً، ويطلبون الصَّدقة للفقير التعس «Por El Pobre»، وهذه النقودُ سوف تُستخدمُ لإقامة قداديس من أجلِ راحة نفسه؛ فبالنسبة لكاثوليكيٍّ مؤمنٍ سوف يُشنَقُ، لا بدّ أن رؤيةَ الصُّحون تمتلئُ بالقطع النقدية الكبيرة سريعًا ستكون مواساةً له. إن الجميع يدفعون ومع أني لستُ مؤمنًا، فقد قدّمتُ عطائي مدفوعًا بشعورٍ من الاحترام.

إني أحبُّ هذه الطقوس الاحتفالية الكاثوليكية، في الحقيقة، وأودُّ أن أؤمن بها. ففي تلك المناسبة، توفّر لها أن تؤثّر في الجمهور تأثيراً كبيراً للغاية، وأكثر مما تؤثّر فيه عربتُنا هذه وشرطتُنا، وذلك الموكب الحقير والبشع الذي يرافق

---

(١) المنبوذون. (م: ز. ع).

عمليات الإعدام في فرنسا. ثم أنه لابدّ لهذه الصلبان والمواكب أن تسهم بقوة في تلطيف اللحظات الأخيرة للمحكوم، ولذلك خصوصًا، فأنا أحبّها. إن تلك الأبّهة المفجعةَ تداعبُ أولاً غروره، والغرورُ هو آخرُ المشاعر التي تموتُ فينا. ثم أن هؤلاء الرّهبان الذين يجلّهم منذ طفولته والذين يصلّون من أجله، والأناشيدَ، وأصوات الناس الذين يجمعون التبرّعات كي تُقام لأجله القداديسُ، إن كلَّ ذلك لابدّ أن يشغل ذهنه، ويلْهيه، ويمنعُه من أن يفكّر بالمصير الذي ينتظرُه، وإذا ماأدارَ رأسه إلى اليمين، يسمعُ الراهبَ الفرنسيسكاني يكلّمهُ من تلك الجهة عن مغفرةِ الربّ اللامتناهية. وعلى يساره، هناك فرنسيسكانيٌّ آخر مستعدٌّ تمامًا ليمجّد أمامه الشفاعةَ المقتدرة، شفاعة سيّدنا القدّيس فرانسوا. إنه يسيرُ إلى عقابه مثل مجنّدٍ بين ضابطين يراقبانه، ويُسديان له النّصح، ولسوف يصبحُ الفيلسوف قائلاً: ليس لديه لحظةٌ واحدة يستريحُ فيها. هذا أفضل؛ فإن الاضطرابَ المستمر الذي يضعونه فيه يمنعُه من أن يستسلم لأفكاره التي قد تعذّبه أكثر أيضًا.

أدركتُ حينذاك لماذا يمارسُ الرّهبان- وخصوصًا رهبانُ جماعاتِ الصَّدقة، تأثيراً كبيراً على عامّة الشعب. ومهما كان رأيُ الليبراليين المتشدّدين؛ فهؤلاء الرّهبان هم في الواقع سندُ التعّساء وعزاؤهم منذ ولادتهم حتى مماتهم. فأيةُ سخرةٍ رهيبة هي هذه السّخرة على سبيل المثال: أن تجري العنايةُ على مدى ثلاثة أيام برجلٍ سيتم شنقهُ! أظنّ أنه لوساقني حظّي التّعس إلى الشنّق، لما استأتُ من وجودِ فرنسيسكانيين بجانبي يتحدّثان معي.

كانت الطّريقُ التي يتبعهُا الموكبُ شديدةَ التعرج، كي تمرَّ بأكثر الشوارع اتساعًا وقد سلكتُ مع دليلي طريقًا أكثر مباشرة كي أجدَ نفسي مرّةً أخرى أيضًا، على دربِ عبور المحكوم. ولاحظتُ، أثناء المدّة الزّمنية التي انقضت بين خروجه من السّجن، ووصوله إلى الشّارع الذي رأيته مجددًا فيه، لاحظت أن قامته قد انحنت بشكلٍ ملحوظ؛ فقد كان ينهارُ قليلاً قليلاً، وكانت رأسُه تسقطُ

على صدره، وكأنها لم تكنْ مستندةً إلاّ على جلْدِ رقبته. ومع ذلك، فقد أخذتُ ألاحظُ تعبير الخوف على قسمات وجهه. لقد كان يحدِّقُ بالصّورة التي كان يحملُها بين يديه، وإن كان يديرُ عينيه، فإنّما كي يرجعها إلى الفرنسيسكانيين اللّذين كان يبدو أنه يصغي إليهما باهتمام.

كان من المفروض بي أن أبتعدَ حينذاك، ولكن القوم ألحوا عليّ بأن أذهبَ إلى السّاحة الكبيرة، وأن أصعد إلى منزل أحد التّجار حيث يكونُ لديّ ملءَ الحرية في أن أشاهد تنفيذَ الإعدام من أعلى إحدى الشُّرفات، أو أن أنسحبَ من ذلك المشهد بالرّجوعِ إلى داخل الشقة، فذهبتُ إذن إلى هناك.

كان ينقصُ السّاحةَ العديدُ من الناس كي تمتلئ. ولم تكنْ بائعاتُ الفواكه والأعشاب قد تركن أماكنهن، بل كان النّاسُ يتجولون بسهولةٍ في كلّ مكان. أمّا المشنقةُ التي كانت تعلوها شعارات أراغون، فقد كانت منصوبةً قبالةَ بنايةٍ أنيقةٍ مغاربيّة الطّراز، هي بورصةُ الحرير[1]. إن ساحة السّوق طويلةٌ. والمنازلُ التي تحيطُ بها صغيرةٌ، مع أنها مبْهَظَةٌ بالطوابق، ولكلّ صفّ من النوافذ شرفةٌ حديدية. وقد يظنُّها المرءُ أقفاصاً كبيرةً، من بعيد. وكان هناك عددٌ لا بأسَ به من هذه الشرفات غير ممتلئ بالمشاهدين ووجدتُ على الشرفة التي قيّض لي أن آخذ مكانًا فيها، وجدتُ آنستين شابتين عمرُهما يتراوح بين ستة عشر وثمانية عشر عاماً، وهما جالستان بارتياحٍ على كرسيّين وتتروّحان بأكثر ما يمكن من التطلّق. وكانتا كلتاهما على حظٍّ جيّد من الحُسن. وقد استنتجتُ أنه لابدّ أن تكونا ابنتي رجلٍ بورجوازيّ ميسورٍ، انطلاقًا من فستانيهما الحريريين الأسودين الشديديّ النّظافة، ومن حذائيهما المصنوعين من السّاتان، ومن خماريهما المزينين بالتّخاريم. وقد تأكدّ لي رأيي هذا لأنهما كانتا تفهمان، وتتكلّمان الإسبانية بشكلٍ صحيح، مع أنهما كانت تستخدمان فيما بينهما اللّهجة الفالنسيّة المحليّة.

(١) «Longa De Seda» بالإسبانية ومعناها: سوق الحرير التجارية (بورصته) (م: ز.ع)

وفي إحدى زوايا السّاحة، كان قد أقيم مُصلّى صغير، وكان ذلك المصلّى والمشنقةُ التي لم تكن تبعدُ عنه كثيراً محصورين داخل مربّعٍ مكوَّنٍ من متطوّعين ملكيين، ومن عددٍ من جنودِ الجيش المقاتل.

وما إن فتح الجنودُ صفوفَهم لاستقبال الموكب، حتى نزل المحكوم عن حماره، واقتيد إلى المذبح الذي حدثتكم عنه منذ قليل. وكان الرُّهبانُ يحيطون به؛ فكان جاثيًا، وغالبًا ما يقبّل درجاتِ المذبح. إني أجهلُ ما كانوا يقولون له. ومع ذلك، فقد كان الجلاّدُ يتفحّصُ حبلهُ، وسلّمه. وبعد أن قامَ بهذا الفحص، اقترب من المحكوم الذي كان جاثيًا باستمرار، ووضع يده على كتفه. وقال له حسب العادة: «يا أخي، لقد حان الوقت.» كان كلُّ الرُّهبان قد تركوه، باستثناء راهب واحد، وكان الجلاّد، كما يبدو، قد أصبح ممتلكًا لضحيّته. وحين اقتاده إلى السلّم (أو، على الأصحّ، إلى درجِ الألواح الخشبية)، كان قد عُني بأن يحجبَ عنه رؤيةَ المشنقة، مستخدمًا لذلك قبعتَه الكبيرة التي كان يضعُها أمامَ عينيه. غير أن المحكومَ كان يبدو وكأنّه يسعى لإبعاد القبعة بضرباتٍ من رأسه، هادفًا من ذلك أن يُظهِرَ أن لديه حقًّا الشجاعة لمواجهة أداة عقابه.

دقت الساعةُ الثانية عشرة ظهراً، عندما أخذ الجلاّدُ يصعدُ الدّرجَ القاتلَ، وهو يسحبُ وراءه المحكومَ الذي كان يصعدُ بصعوبة لأنه كان يسيرُ القهقرى. إن الدّرجَ عريضٌ وليس له حاجزٌ إلاّ من جهةٍ واحدة. وكان الراهبُ من جهة الحاجز. أما الجلاّدُ والمحكوم فقد كانا يصعدان من الجهة الأخرى. وكان الراهبُ يتكلّمُ باستمرار، وهو يقومُ بالكثير من الحركات. وحين وصلوا إلى أعلى الدرج في الوقت نفسه الذي كان الجلاّدُ يمرّر فيه الحبلَ حول عنقِ المحكوم بعجلةٍ غير اعتيادية، قيل لي إن الرّاهبَ قد كان يجعله يتلو: أؤمن[1]. ثم صاح رافعًا صوته: «يا إخوتي، ضمّوا صلواتكم إلى صلوات الخاطئ المسكين»، فسمعتُ صوتًا ناعمًا يلفظ إلى جانبي بتأثُّر: آمين! فأدرتُ رأسي، ورأيت إحدى تلك الحسناوات الڤالنسيات، وقد احمرّت وجنتاها أكثر من المعتاد بقليل، وكانت تحرّكُ مروحتها

(١) Credo أو: أؤمن: هي صلاة مسيحية تعدّ دستور الإيمان. (م: ز.ع)

تحريكًا سريعًا. لقد كانت تنظرُ باهتمامٍ كبير إلى جهة المشنقة. وكنتُ أديرُ عيني إلى تلك الجهة. وأخذ الراهبُ ينزلُ الدرَج. وكان المحكومُ معلقًا في الهواء، والجلاّد على كتفيه. أما خادمُه فكان يشدُّه من قدميه.

حاشية: - لا أدري إن كانت روحُك الوطنية ستغفر لي تحيُّزي لإسبانيا. وطالما وصلنا إلى الحديث في موضوع العقوبات، ولو أني أؤثر أساليبَ تنفيذ الإعدام الإسبانية على أساليبنا، فإني أقول لك إني أفضّل سجونَ الأشغال الشاقة لديهم على تلك التي نرسلُ إليها كلَ سنة ألف ومئتي نذل. ولاحظْ أني لا أتكلّم على سجون الأشغال الشاقة في أفريقيا التي لم أرها؛ ففي طليطلة، وإشبيليا، وغرناطة وقادش، رأيت عدداً كبيراً من سجناء الأشغال الشاقّة الذين لم يظهروا لي شديدي التعاسة. إنهم يشتغلون في شقّ الطّرق، أو في ترميمها. وقد كانوا يرتدون ملابس سيئة. ولكن قسمات وجوههم لم تكن تعبّر عن ذلك اليأسِ الكئيب الذي لاحظته لدى سجنائنا. لقد كانوا يأكلون في قدور كبيرة سلاقة[1] تشبه تلك التي يتناولها الجنود الذين يحرسونهم. وكانوا يدخنون لفافات السيكار في الظلّ. غير أن الشيءَ الذي سرّني هو أن الشّعبَ هنا لا ينبذُهم كما يفعلُ في فرنسا، والسّبب في ذلك بسيطٌ جداً؛ ففي فرنسا، كلُّ رجلٍ قد خرجَ من سجنِ الأشغال الشاقّة، كان قد سرَقَ أو صنَع ما هو أسوأ من ذلك، أما في إسبانيا، فعلى العكس من ذلك، لأن أناسًا شرفاءَ جداً، في مختلف العهود، قد حكُم عليهم بقضاء حياتهم فيه، لأن آراءَهم لم تكن مُطابقّة لآراء حكاّمهم. ومع أن عددَ هؤلاء الضّحايا السّياسيين قد كان قليلاً للغاية، فإن هذا يكفي لتغييرِ الرأي تجاه كلِّ المحكومين بالشُّغل؛ فمن الأفضلِ أن نُحسن معاملةَ نذلِ شرير من أن نُسيء مكانة رجلٍ مهذّب. وهكذا، فهم يُعطونهم ناراً ليُشعلوا لفافاتهم ويخاطبونهم بـ «يا صديقي» ويا رفيقي. أما حرّاسُهم فلا يجعلونهم يشعرون بأنهم أناسٌ من نوعٍ آخر.

وإذا لم تبدُ لك هذه الرّسالةُ طويلةً إلى حدٍّ هائل، فإني سأقصُّ عليك لقاءً قمتُ به منذُ وقتٍ قريب، وسوف يُبيِّنُ لك كيف يتصرّفُ الشّعبُ تجاه المحكومين بالشّغل.

---

١ - Puchero : هي وجبةُ طعام مؤلّفة من لحمٍ مسلوق، وخضار عند الإسبان(م: ز.ع)

حين غادرتُ غرناطةَ لأذهبَ إلى بايلن، صادفتُ في طريقي رجلاً طويلَ القامة ينتعلُ حذاءً قماشيًا، ويَسيرُ بخطوةٍ عسكرية منتظمة، وكان يتبعهُ كلبٌ صغير، مجعّدُ الشّعر. كانت ملابسه ذات شكلٍ فريد، وهي مختلفةٌ عن ملابسِ الفلاحين الذين كنت أُصادفُهم. ومع أن حصاني كان يسيرُ خبباً؛ فقد كان يتبعُني من غيرِ عناء. وقد عقَدَ الحديثَ معي، فغدونا صديقين جيّدين سريعًا. وكان دليلي يقولُ له: «ياسيّدي» و«أيّها الفاضلُ». وكانا يتحدّثان فيما بينهما عن سيّدٍ معيّن في غرناطة، وهو سيّدٌ يديرُ سجنًا للشّغل. وكان كلاهما يعرفُه. وحانت ساعةُ الغداء؛ فتوقفنا أمام منزلٍ وجدنا فيه نبيذاً؛ فأخرجَ الرجلُ صاحبُ الكلب من حقيبته قطعةً من سمك الغادس المملّح، وقدَّمها لي، فقلتُ له أن يَضُمَّ غداءه إلى غدائي، فأكلنا ثلاثتُنا بشهيةٍ جيّدة. ولا بدَّ لي من الاعتراف لك بأنّنا كنّا نشربُ من الزّجاجة نفسها، وذلك لأنّه لم تكن هناك أقداحٌ زجاجيةٌ في جوارِ ذلك المكان، وعلى بُعدِ فرسخٍ منه. وسألته لماذا أربكَ نفسه باصطحاب ذلك الكلبَ الذي لايزالُ صغير السّن في رحلته. فأجابني بأنه يسافرُ من أجل ذلك الكلب فقط، وأن قائده[1] يرسلُه إلى جايين ليسلّمه إلى أحدِ أصدقائه، فقلتُ له حين رأيتُه لايرتدي الزيَّ العسكريَّ، وسمعته يتحدَّثُ عن قائده: «أنتَ من حرسِ المناطق[2] إذن؟

ـ كلاّ، أنا من حرّاسِ السّجن»، ففوجئتُ قليلاً. وقد سألني دليلي قائلاً: «كيف لم تعرفْ ذلك من ملابسه؟».

مع ذلك، لم تتغيّرْ تصرفاتُ ذلك الرجل الذي كان بغّالاً نزيهًا في كلّ شيء. وكان يعطينا الزُّجاجةَ أولاً بصفتي فارسًا، ثم كان يقدِّمُها إلى سجينِ الأشغالِ الشاقّة، ثم يشربُ بعده. وأخيراً، فقد كان يعاملُه بكلِّ التّهذيب الذي يتعاملُ به عامةُ الشّعب فيما بينهم في إسبانيا. وسألتُ رفيق سفري:

١ - أي: مدير السجن الذي ورد ذكرُه أعلاه وهو برتبة مقدّم. (م: ز.ع).
٢ - Miquelets: هم جنودُ حرسِ المقاطعات في إسبانيا قديماً. (م: ز.ع)

ولماذا إذن كنت في سجن الأشغال الشاقة؟

- آه، ياسيّدي، بسبب سوء الحظّ؛ فقد وجدتُ نفسي إلى جانبِ عددٍ من الموتى.

- يا للشّيطان، كيف كان ذلك؟

- إليك، كيف حدثَ ذلك الأمرُ. لقد كنتُ حارساً منطقيًا. وكنتُ أرافق دفعةً من سجناء الأشغال الشاقة إلى فالنسيا، مع عشرين من رفاقي. وعلى الطّريق، أراد أصدقاءُ السّجناء أن يحرّروهم. وقد تمرّدَ سجناؤنا في الوقت نفسه، فارتبك قائدُنا النقيبُ فعلاً؛ فلو أفلتَ هؤلاء السّجناء من بين أيدينا، لأصبحَ مسؤولاً عن كلّ الأفعال المخالفة للنظام التي يمكنُ أن يرتكبوها. فاتّخذَ قراراً وصاحَ بنا: «اطلقوا النار على السّجناء!»؛ فأطلقنا النار، وقتلنا منهم خمسةَ عشر سجيناً، وبعد ذلك، قمنا بصدٍّ رفاقهم. وكان هذا يجري في عهدِ ذلك الدّستور الشّهير. وعندما رجعُ الفرنسيون، وألغوه، أقيمت علينا الدّعوى، نحن الحراسَ المنطقيين، لأنّه كان هناك بين سجناء الأشغال الشاقة الموتى بعضُ السّادة (الفرسان) الملكيين الذين كان الدستوريون قد سجنوهم.

لقد مات قائدنا النقيب، فوقعت المسؤوليةُ علينا. إن وقتَ سجني سوف ينتهي بعد قليل. وبما أن قائدي يثق بي، لأن سلوكي جيّد؛ فقد أرسلني إلى جايين كي أسلّم هذه الرّسالةَ وهذا الكلبَ إلى مدير سجن الأشغال الشاقة.

كان دليلي ملكيَّ النزعة، وكان واضحًا أن سجينَ الأشغال الشاقة دستوري. ومع ذلك، فقد ظلاّ متفاهمين على أفضلِ وجه. وعندما استأنفنا مسيرنا، كان الكلبُ الأجعدُ متعبًا جداً بحيث اضطر سجينُ الأشغال الشاقة إلى حمله على ظهره، بعد أن لفَّه بسترته. كان حديثُ ذلك الرّجل يسلّيني للغاية، ومن جهته، كانت اللفائفُ التي أعطيه إياها، والغداءُ الذي يشاركني فيه قد جعلته يتعلّق بي كثيراً بحيث أراد أن يتبعني حتى بيلن.

وكان يقول لي: إن الطّريقَ ليست مأمونةً، ولسوف أجدُ بندقيةً في جايين، في منزلِ أحد أصدقائي؛ فإن نصادف نصف دزينةٍ من قطاعِ الطرق، فلن يكون بإمكانهم أن يأخذوا منك منديلاً.

فقلت له: ولكن إذا لم ترجعْ إلى سجنِ الأشغال الشاقّة، تُخاطرْ بأن يزيدوا مدّة سجنك سنةً ربّما.

- وليكنْ! ما أهميةُ ذلك؟ ثم إنك ستعطيني شهادةً تؤكّدُ أني قد رافقتك، فضلاً عن ذلك. فأنا لن أكون مطمئناً، إذا ما تركتُك تذهب وحدك في هذه الطّريق...

كان يمكنُ أن أوافقَ على أن يرافقني، لو لم يتشاجرْ مع دليلي. وهاكم المناسبة التي حدث فيها ذلك؛ فبعد أن تبع خيولنا لمسافة تقاربُ ثمانية فراسخ إسبانية، وكانت تسيرُ خبباً في كلِّ مرّة تتيح فيها الطريق ذلك، ارتأى أن يقول إنه سيتبعُها حتى لو انتقلت إلى السير عدواً؛ فسخر دليلي منه، وجيادُنا لم تكنْ خيولاً بليدةً تماماً، وكان أمامنا ربع فرسخ سهليّ. وكان سجينُ الأشغالِ الشاقّة يحملُ كلبَه على ظهره. فوجد نفسه أمام تَحدٍّ، وانطلقنا، غير أن ذلك الرّجل الشيطان كانت لديه فعلاً سيقانُ حارسٍ منطقي، ولم تتمكّن خيولُنا من تجاوزه. فلم يكن بوسعِ كبرياء صاحبها أن يغفر قطّ لسجينِ الأشغال الشاقّة العارَ الذي ألحقه به. فتوقف عن الكلام معه. وحين وصلنا إلى كامبيّودي أرانا وكان تصرّفُه حسناً بحيث فَهِم سجين الأشغال الشاقة بفطنته التي تميّز الرجل الإسباني أن وجوده قد أصبح مزعجاً، فمضى.

- ٣ -

اللّصوص

مدريد، تشرين الثاني ١٨٣٠،

سيدي،

ها أنا قد رجعتُ إلى مدريد، بعد أن جبتُ الأندلسَ في كلّ اتّجاه، ولبضعة أشهر. والأندلسُ هي أرضُ اللصوصِ التّقليدية. غير أني لم ألتقِ أحداً منهم. وينتابني الخجل إلى حد ما بسبب ذلك. وكنتُ قد اتّخذتُ استعداداتي لمواجهة هجوم اللصّوص، ليس لكي أدافع عن نفسي، بل لأتحدثَ معهم، وأطرحَ بعضَ الأسئلة عليهم بتهذيبٍ حول أسلوب حياتهم. وإذْ أنظر إلى ردائي المهترئ من المرفقين، وحوائجي البسيطة، أشعرُ بالأسف على أن لقاءَ هؤلاء السّادة قد فاتني. أما متعةُ رؤيتهم فلم يدفع ثمنها غاليًا جداً بفقدان مشجبٍ خفيف.

ولكني، إذ لم أرَ لصوصًا، فأنا، بالمقابل، لم أسمع الناسَ يتحدّثون عن شيءٍ آخر فالحوذيون، وأصحابُ النُّزُل يروون لك قصصًا تثيرُ الشفقةَ عن مسافرين تمّ اغتيالُهم، وعن نساءٍ اختُطفن، عند كلّ توقّفٍ يجري لتبديلِ البغال، والحادثةُ التي تُروى تكونُ قد جرت في اليوم السّابقِ دائماً، وعلى ذلك القسمِ من الطّريق الذي ستجتازهُ. إن المسافرَ الذي لم يعرفْ بعد إسبانيا، والذي لم يتوفّر الوقتُ لاكتساب عدم الاكترات القشتالي العالي الشأن: La Flema Castellana، ومهما يكنْ شكاكًا، من جهة أخرى، لايمكن له في نهاية المطاف إلاّ أن يتكوّن لديه انطباعٌ ما من كلِّ هذه القصص.

إن النهارَ يميلُ بسرعة أكبر مما هي في مناخاتنا الشّمالية؛ فالشّفقُ لايدومُ هنا إلاّ لحظةً، وتهبُّ حينذاك، وخصوصًا في الجبالِ المجاورة، ريحٌ تُعدّ بلا شكّ حارةً في باريس، ولكنّها بالمقارنة التي يجريها الناس مع حرارة النّهار المحرقة،

تبدو لكم باردة، وغير مقبولة. وفيما تلتفّون في معطفكم، وتُسدلون على عيونكم قبعة السفَر، تلاحظون أن الرّجال الذين يرافقونكم (Escope Teros) يلْقون بطعم بنادقهم من غير أن يجدّدوه. وإذ تدهشكم هذه العملية الغريبة، تسألون عن مبرّرِ ذلك، ويجيبكُم الشجعانُ الذين يرافقونكم، من أعلى العربةِ الملكية التي يجثمون فوقها، أن لديهم حقًّا كلَّ الشّجاعة الممكنة. ولكن ليس بمقدورهم أن يقاوموا بمفردهم عصابةً من اللّصوص. «فإذَا ماهوجمنا، لن يكونَ هناك مايشفعُ لنا إلاّ إذا أثبتنا أنه لم تكن لدينا قطّ نيّةٌ للدّفاع عن أنفسنا.».

- فلماذا إذن يربكُ المرءُ نفسه بهؤلاء الرّجال وبنادقهم التي لافائدة منها؟

- أوه! إنهم ممتازون في التصدّي للشُّطّار[1]. أي لقطّاع الطّرق الهواة الذين يسلبون المسافرين، عندما تتوفّرُ لهم الفرصةُ لذلك، ولايصادفون قطّ إلاّ اثنين أو ثلاثة.

إن المسافر يندمُ حينذاك لأنّه قد حَمَل الكثيرَ من المال معه، فينظرُ إلى الوقتِ في ساعته التي تحملُ علامةَ بريغيه[2]، والتي يظُنُّ أنه يرجع إليها للمرّة الأخيرة ولسوف يكون سعيدًا إذ يعرفُ أنّها ستُعلّق بهدوء على موقدِه، في باريس، فيسأل السائقَ إن كان اللّصوصُ يأخذون ملابس المسافرين.

- أحيانًا، يا سيدي، ففي الشهرّ الماضي، أوقفت عربةُ إشبيليا قريبًا من كارلوتا، ودخل كلُّ المسافرين إلى إيسيجا مثل صغار الملائكة[3].

- كملائكة صغار! ماذا تريد أن تقول؟

- أريد أن أقول إن قّطاعَ الطّرق كانوا قد أخذوا كلَّ ملابسهم، وحتى لم يتركوا لهم القميصَ.

١- ترجمة مقترحة لكلمة: Rateros. (م: ز.ع).
٢- بريغيه: مصمّم ساعات، سويسري الأصل. (م: ز.ع).
٣- أي: عراة.

فصاح المسافرُ، وهو يزررُ معطفه:

يا للشيّطان!

ولكنه يطمئنّ قليلاً، وحتى أنه يبتسم، حين يلاحظُ أندلسيةً شابّة، رفيقته في السفر، وهي تقبّلُ بورعٍ إبهامها، وتطلقُ تنهدًا وتقولُ: يا يسوع!

يا يسوع! (نحن نعلم أن أولئك الذين يقبّلون إبهامَهم، بعد أن يرسموا إشارة الصّليب، لا بدّ أن تسير أمورهم على ما يُرام).

حلّ الليلُ تمامًا. ولكن القمرَ يرتفعُ لحسنِ الحظّ في سماءٍ لاغيومَ فيها. ويبدأ المرءُ بأن يكتشفَ من بعيدٍ مدخلَ مضيقٍ صخري مرعبٍ لا يقلُّ طولُه عن نصفِ فرسخ.

- أيها السّائق، أهذا هو المكانُ الذي سبقَ أن أوقفوا فيه العربة؟

- أجل، يا سيّدي، وقد قتلوا أحد المسافرين.

وتابعَ السائقُ قائلاً:

أيها الحوذيّ، لا تفرقعْ بسوطك لئلا تنبّههم.

فسأل المسافرُ:

من؟

فأجاب السّائق:

المسافرون.

فصاح المسافر:

يا للشيطان!

- يا سيـــدي، فلتنظر إلى هناك إذن، عند انعطافِ الطّريق... أليس هؤلاء رجال؟ إنهم يختبئون في ظلّ تلك الصّخرةِ الكبيرة.

- أجل، يا سيدتي، واحد، اثنان، ثلاثة، ستة رجال على خيولهم!

- آه! يا يسوع! يا يسوع! . . . (إشارة الصّليب وتقبيل الإبهام)

- أيها السّائق. هل ترى هناك؟

- أجل.

- هذا واحدٌ منهم يحمل عصا كبيرة، ولربّما بندقية.

- إنها بندقية.

فسألت الشابة الأندلسيّة بقلق:

هل تظنّ أنهم رجالٌ صالحون؟

فأجاب السائق وهو يهزّ كتفيه، ويخفض زاوية فمه:

- من يدري؟

- وإذن، فيلغفرْ الربّ لنا جميعًا!

وخبأت وجهها في صدرية المسافر الذي تضاعفَ انفعالُه.

انطلقت العربةُ كالرّيح، وأخذت ثماني بغلات شديدات العزم تخبُّ خببًا سريعًا. وتوقَّفَ الخيالةُ؛ وأخذوا يتشكلّون على نسق - وذلك ليسدّوا طريق العبور - كلاّ، إنهم يفتحون النَّسَقَ، وثلاثةٌ منهم على يسار الطّريق، وثلاثة على يمينه، وذلك لأنّهم يريدون أن يحيطوا بالعربة من كلّ الجهات.

- أيها الحوذيّ، أوقفْ بغلاتك، إذا ما أمركَ هؤلاء الرّجال بذلك، ولا تتسبّب لنا برشقة من طلقات البنادق!

- كنْ مطمئنًا، يا سيدي، فأنا مهتمٌ بذلك أكثر منك.

وأخيرًا، أصبحنا قريبين منهم بحيث أخذنا نميّزُ القبعات الكبيرة، والسّروج التركية، وواقيات السّاق الجلدية البيضاء للخيالة السّتّة. ولو كان بإمكاننا رؤية قسمات وجوههم، لرأينا أيّةَ عيون، وأيّة لحى! وأية ندوب كنّا سنلمح! لم يعدْ هناك شكّ. إنهم لصوصٌ؛ فلديهم جميعًا بنادق.

وهكذا، فإن اللّص الأول يلمس حافة قبعته الواسعة، ويقول بنبرة صوت رزين ولطيف: «Vayan Vds Con Dios» (امضوا برعاية الرب) وهذه هي التحيّة التي يتبادلها المسافرون على الطريق، فقال الخيالة الآخرون: . . . . . Vayan، وهم يبتعدون بتهذيب كي تمرّ العربة؛ فهم مزارعون شرفاء قد رجعوا متأخرّين من سوق إيسيجا، وهم يعودون إلى قريتهم، ويسافرون جماعات حاملين أسلحتهم على أثر المشكلة الكبرى التي شغلت بالهم، مشكلة اللّصوص الذين تحدثت عنهم قبلاً.

وبعد بضعة لقاءات من ذلك النوع، يصلون سريعًا إلى عدم تصديق وجود اللّصوص إطلاقًا، فيعتادون على سحنة الفلاحين الوحشيّة إلى حدّ ما بحيث لايبدو لهم قطّاع الطّرق الحقيقيون أكثر من مزارعين شرفاء لم يحلقوا ذقونهم منذ زمن طويل؛ فلقد تعرّفت في غرناطة شابًا إنكليزيًا كان قد اجتاز لأوقات طويلة أسوأ الطّرق في إسبانيا، من غير حوادث، وقد وصل به الأمر أن ينكر بعناد وجود اللّصوص. وذات يوم، يوقفه رجلان لهما سحنة متعبة، وهما مسلّحان بالبنادق؛ فتصوّر في الحال أنهما فلاّحان مرحان يريدان أن يلهوا ويخيفانه. وكان يردّ ضاحكًا على كلّ أوامرهما التي تقتضي منه أن يعطيهما نقودًا، ويقول لهما إنّه لن يُخدَع بهما. وكان لا بدَّ من أجل أن يرجعَ عن خطئه، من أن يوجّه إليه أحد اللّصوص الحقيقيّين ضربةً من أخمص بندقيته على رأسه، ولاتزال ندبتُها ظاهرةً بعد مضيّ ثلاثة أشهر.

لم يكن قطّاع الطّرق الإسبان يسيئون قطّ معاملة المسافرين، باستثناء بعض الحالات الشديدة الندرة. وغالبًا ماكانوا يكتفون بأن يسلبوهم المال الذي يحملونه، من غير أن يفتحوا حقائبهم، وحتى من غير أن يفتّشوها. ومع ذلك، فلا ينبغي للمرء أن يعتمد على ذلك. وقد كان شاب أنيق من مدريد ذاهبًا إلى قادش، وهو يحمل دزّينتين من القمصان الجميلة كان قد أوصى عليهما من لندن، فأوقفه قطّاع الطّرق قريبًا من كارولينا. وبعد أن أخذوا منه كلّ القطع الذّهبية التي كان

يحملها في كيس نقوده، هذا عدا الخواتم والسلاسل، وذكريات الحبّ التي لايمكن أن يفوت رجلاً مخالطاً كذلك الشاب أن يحصل عليها. ولفت زعيم اللصوص انتباهه بتهذيب إلى أنّ بياضات عصابته التي كانت مضطرة لتجنّب المناطق المأهولة، بحاجة كبيرة إلى التنظيف وجرى فكّ طيّات القمصان، وأبدي بها الإعجاب، ووضع الزعيم عدداً منها في خرجه، وهو يقول مثلما يقول هالي عن الصقلّي: «إن حريّة تصرف كهذه تعدّ مسموحةً، بين الخيّالة»، ثم نزع الأسمال السّوداء التي كان يرتديها منذ ستة أسابيع على الأقل. واكتسى بأجمل باتيستا من عند أسيره والفرح يغمره، وصنع مثله كلّ لص بحيث ألفي المسافر التّعس نفسه في لحظة من الزّمن مجرّداً من كل خزانة ملابسه، ومالكاً لكومة من الخرق التي لم يكن بإمكانه أن يجرؤ على لمسها بطرف عصاه. كما كان عليه أن يحتمل مزاحات قطّاع الطرق؛ فقد قال له زعيمهم، بتلك اللّهجة الجدّية الهازئة التي يتظاهر بها الأندلسيون على نحو جيّد، وهو يخلي سبيله، قال له إنه لن ينسى قط الخدمة التي تلقّاها منه، وإنه سيسارع إلى إعادة القمصان التي تفضّل بإعارته إياها، وإنه سيستعيد قمصانه حالما يتشرّف برؤيته ثانية.

وأضاف قائلاً:

لا تنس خصوصاً أن تعمل على تنظيف قمصان هؤلاء السّادة، فلسوف نسترجعها عند عودتك إلى مدريد.

لقد اعترف الشاب الذي روى لي حادثة السّلب التي كان ضحيّة لها أنه قد غفر للصوص نهبهم لقمصانه أكثر مما غفر لهم مزاحاتهم الخبيثة.

اهتمت الحكومة الإسبانية جديّاً، وفي عهود مختلفة، بتطهير الطّرق العامة من اللصوص الذين يملكون التنقّل عليها، منذ زمن لا يعيه أحد. ولم تؤدّ جهودها قط إلى نتائج حاسمة؛ فما إن يجري القضاء على عصابة ما حتى تتشكّل عصابة أخرى سريعاً. فإذا ما توصّل قائد عام بفعل اهتمامه إلى طرد كلّ اللّصوص من منطقة حكمه فإن المقاطعات المجاورة الأخرى حينذاك تصبح زاخرة بهم.

إن طبيعةَ البلاد التي تنتصب ُفيها الجبال، والتي ليس فيها طرق ُمشقوقة، تجعل ُالقضاء التام على قطّاع الطرق أمراً صعباً فعلاً؛ ففي إسبانيا، كما في الڤاندية[1]، هناك عددٌ كبير من الإكارات المنعزلة Aldeas والبعيدة بضعة أميال عن أيٍّ مكان مأهول. وقد يُجبَر اللّصوص ُسريعاً على تسليم أنفسهم إلى العدالة، بسبب خطر الموت جوعاً، إذا ما وُضعت حامياتٌ عسكرية في كلّ تلك الإكارات، وكلّ الضِّيع الصّغيرة، إنما أين نجدُ ما يكفي من المال، وما يكفي من الجنود؟

إن المرء يلمس ُأن ملاكَ الإكارات معنيون بالمحافظة على علاقات طيّبة بقطّاع الطرق الذين ينتقمون انتقاماً رهيباً. ومن جهة أخرى، فإن هؤلاء اللّصوص الذين يعتمدون عليهم في معيشتهم، يراعونهم، ويدفعون إليهم بصورة جيّدة ثمن الأشياء التي يحتاجون إليها. وحتى أنهم يشركونهم في اقتسام غنائمهم. ولا بّد أن نضيف كذلك أن مهنةَ اللّص لا يُنظر إليها عموماً بكونها مهنة معيبة. إن السّلبَ على الطّرق العامة في نظر العديد من الناس، هو اتّخاذُ موقف معارض، وهو الاحتجاجُ على القوانين الاستبدادية. وهكذا، فالرّجل، الذي لايمتلكُ شيئاً سوى بندقيته، يشعر ُبأن لديه من الجرأة ما يكفي كي يتحدّى حكومة ما. إنه بطلٌ يحترمهُ الناسُ، وتُعجَب ُبه النساءُ. إنه مكلّلٌ بالمجد حتماً، لأنه قد تمكن من أن يهتفَ، كما في القصيدة الإسبانية القديمة:

بما أني، في كلّ مواجهات التحدّي،
لا أخاف أحداً[2].

إن السّارق يبدأ مهرّباً بصورة عامة، ولكن موظّفي الجمارك يعكّرون صفوَ تجارته، وإنه لتعسّفٌ صارخٌ، بالنسبة لتسعة أعشار السّكّان، أن يجري إزعاجُ رجلٍ مهذّب يبيع ُبسعر جيد لفافات تبغ هي أفضلُ من لفافات الملك، ويجلب إلى النساء حريريات، وبضائع إنكليزية، وكلّ الثرثرات التي تنتشر ُعلى بعد عشرة فراسخ، في الاتجاهات كافة. وما إن يصل ُرجلُ الجمارك إلى قتل حصان المهرّب، أو انتزاعه

١ - منطقة في فرنسا، كانت مقراً للتمردّ الملكي إبان الثورة الفرنسية وبعدها. (م: ز.ع)
٢- بالإسبانية في النص: Atodos Los Desafio Pues à Nadie Tengo Miedo!

منه، حتى يصابَ هذا المهربَ بالإفلاس، ولابد له من ناحيةٍ ثانيةٍ أن يثأر لنفسه؛ فيتحولّ إلى لص" - ويتساءلُ النّاسُ عما آل إليه شابٌ جميلٌ لاحظناه قبلَ بضعةِ أشهر، وقد كان يسير مختالاً في قريته، فتجيبُ إحدى النساءُ قائلةً:

للأسف! لقد أجبروه على أن يرمي بنفسه إلى الجبل، وليست هذه غلطته، هو الفتى المسكين! لقد كان شديدَ الرقّة! وليحرسْه الربُّ!

إن النفوسَ الطيّبة تحمّلُ الحكومة مسؤولية كلِّ أعمال الإخلال بالأمن، والتي يرتكبُها اللّصوصُ. فيقولون إنّها هي التي تدفعُ النّاسَ الفقراءَ إلى فقدان صبرهم، وهم الذين لايطلبون أكثر من أن يجدوا الطمأنينة، وأن يعيشوا من مهنتهم.

إن نموذجَ قاطع الطّريق الإسباني"، والمثَلَ الأصلي" للبطل الذي يعترضُ الطّرق، أي روبن هود أوروك غينار عصرنا هو جوزيه ماريا الشهير، والملقّب بـ "El Tempranito" (الأسبق) و بـ الصبّاحي. إنه أكثر رجلٍ يجري الحديثُ عنه في مدريد، وفي إشبيليا، وفي مالاغا. إنه وسيمٌ وشجاعٌ، وأنيسٌ بقدر ما يمكن للص" أن يكون. ذلك هو جوزيه ماريا. فإذا ما أوقفَ عربة، أعطى السيّدات يده كي ينزلن. ويُعنى بأن يكنّ جالسات في الظل" بارتياح. فأثناء النهار إنما تجري معظمُ مآثره. فلا تصدرُ عنه شتيمةٌ قط، ولا كلمةٌ فظّة. بل على العكس، علاماتُ مراعاةٍ تصلُ تقريبًا إلى الاحترام، وتأدُّبٌ طبيعي" لم يخل" به قط". وإذا ما نَزَع خاتمًا من يدِ امرأة، قال لها: آه! يا سيدتي. إن يداً جميلة كهذه لا تحتاجُ إلى زينةٍ تزينها». وفي الوقت الذي يجعلُ فيه الخاتمُ ينزلقُ خارج الإصبع، يقبّل يدَ السّيدة بهيئةٍ تبعث على الاعتقاد بأن قيمةَ القبلة بالنسبة إليه كانت أكبر من قيمة الخاتم، حسب تعبير إحدى السّيدات الإسبانيّات. أَما الخاتمُ فقد كان يأخذه وكأنه شاردٌ فيما كان، على عكس ذلك، يجعل أَمَدَ القبلة يطولُ. وقد أكّدوا لي أنه يتركُ للمسافرين دومًا ما يكفيهم من المال كي يصلوا إلى المدينة الأقرب. وأنه لم يرفضْ لأي" شخصٍ بأن يحتفظَ بحليةٍ كانت بعضُ الذكريات تجعلها غاليةً على ذلك الشخص.

لقد وصفوا لي أن جوزيه ماريا شابٌ طويلُ القامة، في الخامسة والعشرين من عمره، حسنُ المنظر، ذا محيّاً بشوشٍ وضاحك، وأسنان بيضاء كاللآلئ، وعينين معبّرتين بشكلٍ ملحوظ. إنه يرتدي عادةً بذلةَ رجلٍ أنيق، غاليةَ الثّمن جداً. أن قمصانَه ناصعةُ البياضِ دوماً، أما يداه فقد يفاخر بهما رجلُ أنيقٌ من باريس أو لندن.

إنه لا يقطعُ طرقَ السّفر منذ أكثر من خمسة أو ستة أعوام. وقد كان أهلُه يهيئانه للكنيسة، وكان يدرسُ اللاّهوت في جامعة غرناطة؛ غير أن إرشادَه الرّباني لم يكن عظيماً، كما سنرى؛ فقد كان يتسلّلُ ليلاً إلى منزل آنسةٍ من عائلة محترمة... والحبُّ، كما يُقال، يغفرُ الكثير من الأمور... غير أن هناكَ من يتحدّثُ عن أعمال عنف، وعن خادمٍ جريح... ولم يكن بإمكاني قطّ أن أستوضحَ عن تلك القصّة؛ فقد أثار الأب ضجّةً كبيرةً، وبُدئ بإقامة دعوى جنائية. وأُجبر جوزيه ماريا على الهرب، وعلى نفي نفسه إلى جبل طارق. وهناك، وبسبب افتقاره إلى النّقود، عقد صفقةً مع تاجرٍ انكليزي كي يدخُل صفقةً كبيرةً من البضائعَ المحظورة، عن طريق التهريب. وقد خانه رجلٌ كان قد أسرَّ إليه بمشروعه، فعرف الجمركيون الطّريقَ التي كان لابدّ له أن يسلكها، وكمنوا له على درب مروره. ولقد صادروا كلَّ البغال. غير أنه لم يتخلّ عنها إلاّ بعدَ معركة ضارية قتلَ فيها أو جرح عدداً من الجمركيين. ومنذ تلك اللحظة، لم يعدْ لديه موردٌ آخر غير ابتزاز المسافرين.

وكان الحظُّ الجيّدُ الذي يفوق المعتاد قد رافقه باستمرار حتى ذلك اليوم. وقد حُدِّدت مكافأةٌ ثمناً لرأسه، وأُلصقتْ أوصافُه على أبواب المدن كلّها، مع وعد بمبلغٍ ثمانية آلاف ريال لذلك الّذي يسلّمه ميتاً أو حيّاً![1]، حتى لو كان أحدَ شركائه.

ومع ذلك، فقد تابع جوزيه ماريا مهنته الخطرة بلا عقاب، وأصبحت أعمالُه القرصنية تمتد من حدود البرتغال حتى مملكة مورسيا. إن عصابته ليست كبيرة العدد، ولكنّها تتألفُ من رجالٍ قد امتُحنَ إخلاصُهم وعزيمتُهم منذ زمنٍ طويل.

---

١ - لمّا كنتُ في إشبيليا، وجدتُ، ذاتَ صباح، على باب تريانا، وتحت أوصافِ جوزيه ماريا، هذه الكلمات المكتوبة بقلم الرصاص: توقيع الآنف الذكر: جوزيه ماريا.

وذات يوم، باغت، في «نزل غازين»، وهو على رأس اثني عشر رجلاً من خيرة رجاله، باغت سبعين متطوعًا مُرسَلين لملاحقته، وجرّدهم جميعًا من أسلحتهم. وقد شوهدَ بعد ذلك، وهو يرجعُ إلى الجبال بخطا وئيدة، ويدفعُ أمامه بغلين محمّلين بسبعين بندقية منفرجة. وكان قد أتى بها، وكأنّما ليصنعَ منها تذكاراً لنصره.

تروى الأعاجيبُ عن مهارته في إطلاقِ الرصاصِ من فوق جواده الذي يعدو؛ فهو يصيبُ جذعَ شجرةٍ على بُعد مئةٍ وخمسين خطوة. والمأثرةُ التّالية سوف تعرّفنا على مهارته، وأريحيّته في آنٍ معًا.

علمَ النقيبُ دو كاسترو، وهو ضابطٌ مفعمٌ بالشجاعةِ والنشاط، ويلاحقُ، كما يقال، اللصّوصَ كي يُشبعَ انتقامًا شخصيًا لديه بقدر ما يفعلُ ذلك ليؤدّي واجبَه العسكريّ، علم، عن طريقِ أحد جواسيسه، أن جوزيه ماريا، سيكونُ موجوداً، في يوم كذا، في إكارةٍ منعزلةٍ تسكنُ فيها عشيقته، ويمتطي كاسترو جواده في اليومِ المحدّد، وكي لا يثيرَ الشكّوكَ باصطحابِ العديد من الرّجال في حملته، لا يأخذُ معه إلاّ أربعةَ رماة. ومهما كانت الاحتياطاتُ التي اتّخذها للتكتّم على تحرّكه، فهو لم يحسن جيداً تنفيذَ ذلك بحيث لايعلم جوزيه ماريا بالأمر. وفي اللحظة التي كان كاسترو يدخل فيها إلى الوادي الذي كانت تقعُ فيه إكارةُ عشيقة عدوّه، بعد أن عبر مضيقًا صخريًا عميقًا، ظهر فجأةً اثنا عشر خيّالاً يمتطون خيولاً جيدة، على جناحه، وهم أقربُ منه بكثيرٍ عن المضيق الصّخري الذي كان بإمكانه أن ينسحبَ منه فقط. وظنّ الرُّماةُ أنهم قد هلكوا، فانفصلَ رجلٌ يرتدي جواداً كميتًا عن جماعةِ اللصوص وهو يخبّ خببًا، وأوقف جواده إيقافًا تامًا على مسافة مئة خطوةٍ من كاسترو.

وصاح: لايمكن مباغتة جوزية ماريا؛ فماذا صنعت لك، أيها النقيب كاسترو حتى ترغبَ في تسليمي إلى العدالة؟ يمكنني أن أقتلك، غير أن الرّجالَ المقدامين قد أصبحوا نادرين. وإني أعفو عن حياتك. وإليك ذكرى تُعلمك كيف تتحاشاني، فإلى سدارتك!

صوب إلى النقيب، وهو يتكلّمُ على ذلك النحو، واخترق برصاصةٍ أعلى سدارته، وأدار مقود جواده في الحال، وتوارى مع رجاله.

وإليكم مثالاً آخر على لباقته:

كان يجري الاحتفالُ بعرسٍ في إحدى الإكارات المجاورة لأندوجار. وكان العروسان قد تلقّيا تهاني أصدقائهما. والقومُ على وشكِ الجلوس إلى المائدة تحت شجرة تينٍ أمام باب المنزل. وكان الكلُّ مهيئًا كي يُحسن التصرّف، وكانت تمتزج الرّوائحُ التي تضوعُ من ورودِ الياسمين، وأشجارِ البرتقال المزهرة، تمتزجُ، على نحوٍ مُستساغٍ بالروائح العطرةِ الأكثر إشباعًا، والتي تفوحُ من بضعة أطباقٍ كانت تجعلُ المائدة تنوء تحت ثقلها. وفجأةً ظهر رجلٌ على جواده، وقد خرج من أجمةٍ صغيرةٍ على مرمى طلقة مسدّس من المنزل. وقفز الغريب بخفةٍ إلى الأرض، وحيّا المدعوين بيده، واقتاد جواده إلى الإسطبل. ولم يكن أهلُ العروس ينتظرون أحدًا. ولكن كلَّ عابرِ سبيل، في إسبانيا، هو موضعُ ترحيب، إذا أراد المشاركةَ في وليمة احتفالية. إضافةً إلى أن ذلك الغريبَ كان يبدو من خلال ملابسه، رجلاً ذا أهميّةٍ، فانفصلَ العريسُ عن جماعته في الحال، وأتى إليه ليدعوه إلى العشاء.

وفيما كان الناسُ يتساءلون بصوتٍ خفيضٍ عن ذلك الغريب، أصبح وجهُ كاتب العدل في أندوجار، والذي كان يحضرُ العرسَ، أصبح شاحبًا كالميت. وكان يحاولُ أن يقفَ عن الكرسي التي كان يجلسُ عليها إلى جانب العروس، غير أن ركبتيه أخذتا تنثنيان تحته ولم تعدْ ساقاه قادرتين على حمله. واقترب أحدُ المدعوّين، وهو مشبوهٌ منذ زمنٍ طويلَ بالعمل في التهريب، اقترب من العروس، وقال لها:

إنه جوزيه ماريا، فإما أن أكونَ مخطئًا، أو أنّه قد أتى إلى هنا ليحدث مصيبةً. (Para Hacer Una Muerte). إنه غاضبٌ من كاتب العدل. ولكن ما العمل؟ هل نجعلهُ يهربُ؟ - غير ممكن، فإن جوزيه ماريا سيلحقُ به سريعًا ـ أن نوقف قاطع

الطّريق؟ ولكن عصابته في الجوار، بلاشكّ. زدْ على ذلك أنه يحمل مسدسات في حزامه، وخنجرهُ لايتركهُ قطّ.

– ولكن، يا سيدي كاتب العدل. ماذا فعلتَ له إذن؟

– للأسف لاشيء، لاشيء إطلاقًا!

وهمس أحدهُم بصوتٍ خفيضٍ بأن كاتبَ العدل كان قد قال لمزارعه، قبل شهرين، إنه، إذا ماأتى جوزيه ماريا ليطلبَ منه شرابًا، فينبغي أن يضعَ له كميةً كبيرةً من الزرنيخ في نبيذه.

كان الحضور لايزالون يتشاورون، من غير أن يمسّوا الطّعام، عندما ظهر الغريب ثانية، والعريس يتبعه. لم يعد هناك شكّ؛ فقد كان هو جوزيه ماريا.

وقد قذفَ كاتبَ العدل أثناء مروره بنظرةٍ غاضبةٍ كنظرة النّمر، فأخذ كاتبُ العدل يرتجفُ، وكأنّه مصابٌ برعشات الحمى، ثم حيّا العروس بلطافةٍ، وسألها الإذنَ له بأن يرقُصَ في عرسها، فلم تقوَ على الرّفض، أو على العبوسِ في وجهه؛ فأخذَ جوزيه ماريا في الحال مقعدًا لا مساند له من الفلّين، وقرّبه من منضدة المائدة، وجلَس من غير تكلُّفٍ إلى جانب العروس، بينها وبين كاتبِ العدل، والذي كان يبدو، وفي كلّ لحظةٍ أنّه على وشكِ الإغماء.

بدأ القومُ يأكلون. وكان جوزيه ماريا شديد الاهتمام بجارته، ويحيطها برعايته. وعندما قُدِّمَ نبيذٌ ممتاز، أخذت العروسُ قدحًا من المونتيلاّ (الذي هو أفضلُ من نبيذِ الكزيريس، حسب رأيي)، ولمسته بشفتيها، وقدّمته بعد ذلك إلى قاطعِ الطّريق. وتلك مجاملةٌ يجري توجيهُها على المائدة للأشخاص الذين نقدّرُهُم، وهذا يسمّى Una Flneza [1]. ولسوء الحظّ، فإن هذه العادةَ المتّبعةَ أخذت تَضمحلُّ في المجتمع الراقي الذي يبدو مبادراً هنا، كما في أيّ مكانٍ آخر، للانسلاخ عن التقاليدِ الوطنية.

١– أي تلطف «م: زع»

أخذ جوزيه ماريا القَدَح، وشكر العروسَ بحرارةٍ، وأعلن لها أنه يرجوها أن تعدّه خادمَها، وأنه سيقومُ بسرورٍ بكلّ ما تودّ أن تأمُرَه به.

حينذاك، انحنت العروسُ بخجلٍ على أذنِ جارِها المخيف، وهي ترتجفُ، وقالت:

- امنحني فضلاً.

فصاح جوزيه ماريا:

- ألفًا!

- أرجوك أن تنسى المقاصدَ السّيئةَ التي ربّما أتيتَ إلى هنا بها، وعدْني بأنك ستعفو من أجلي، عن أعدائك، وأنه لن تكون هناك فضيحةٌ في عرسي. فقال جوزيه ماريا، وهو يستدير نحوَ رجل القانون الذي يرتجف: يا كاتبَ العدل، اشكر السّيدة، فلولاها، لكنت قتلتك قبل أن تهضُمَ عشاءك. لاتخفْ بعد الآن، فلن أصيبَك بأيّ أذى.

وأضافَ وهو يسكبُ له قدحًا من النبيذِ، وبابتسامةٍ خبيثة قليلاً:

«هيا، يا كاتبَ العدلِ، في صحّتي! فهذا نبيذٌ جيّد، وليس مسمومًا.»

وظنّ كاتبُ العدلِ المسكين أنه يبتلعُ مئةَ دبّوس. وهتفَ اللصُّ:

هيّا، أيها الفتيان! امرحوا، عاشت العروس: (Vaya De Broma). ونهضَ بحيوية، وسارع إلى البحثِ عن قيثارة، وأخذ يرتجلُ مقطعًا على شرفِ الزّوجين الجديدين.

باختصار، وأثناء ما تبقّى من العشاء، والحفلةِ الراقصة التي تلته، جعلَ جوزيه ماريا من نفسه شخصًا محبّبًا إلى حدّ كبيرٍ بحيث اغرورقت عيونُ السّيدات بالدّموع، وهنّ يفكرن بأن فتًى ساحراً مثل ذلك الفتى قد ينتهي يومًا ما على حبلِ المشنقة.

لقد رقص، وغنّى، وصنع كلّ شيء أمام الجميع. وحوالي منتصف الليل، اقتربت من جوزيه ماريا فتاةٌ صغيرةٌ، في الثّانية عشرة من عمرها، وترتدي أسمالاً

رديئةً تكسو جسمها جزئيًا، وقالت له بضع كلمات بلغة الغجر المحليّة. فارتعش جوزيه ماريا، وهرع إلى الإسطبل، وعاد منه سريعًا، وهو يقودُ جوادَه الجيّد، ثم اقتربَ من العروس وهو يمرّ ذراعه في مقودِ الحصان، وقال لها:

- وداعًا يا ابنة روحي، (Hiji Demi Alma) لن أنسى قطّ اللّحظات التي أمضيتُها في منزلكم. إنها أسعدُ اللحظات التي رأيتُها منذ سنين عديدة، فتلطّفي بما يكفي لتقبلي هذه الهديّة التافهة من هذا الرّجلِ المسكين الذي يودُّ أن يكون لديه منجمٌ لتقديمه إليك. وكان يقدّم لها في الوقت نفسه خاتمًا جميلاً.

فهتفت العروس:

يا جوزيه ماريا، طالما هناك رغيفٌ واحدٌ في هذا المنزل، فإن نصفَه لك.

صافح اللص كلّ المدعوين، وحتى كاتبَ العدل، وقبّل كلَّ النساء، ثم قفز بخفة على السّرج، ورجع إلى جباله. حينذاك فقط، تنفّس كاتبُ العدل بحريّة، وبعد نصف ساعة، وصلت مفرزةٌ من حرسِ الرّيف، ولكن أحدًا لم يقلْ إنه قد رأى الرّجل الذي يبحثون عنه.

إن الشّعبَ الإسبانيّ الذي يحفظُ عن ظهرِ قلبِ القصائدَ الإسبانيةَ العاطفيّة، قصائدَ النّبلاء الاثني عشر، والتي تنشدُ مآثرَ رونو دو مونتوبان، لابدَّ حتمًا أن يهتمَّ إلى حدّ كبير بالرّجلِ الوحيد الذي يبعثُ الفضائلَ الفروسيّةَ، وفضائلَ الشجعان القدامى، في عصرٍ عديمِ السّموّ كعصرنا. وثمة دافعٌ آخر يُسهِمُ أيضًا في زيادة شعبيّةِ جوزيه ماريا، وهو أنّه كريمٌ للغاية، فقلّما يكلّفه كسبُ المال شيئًا يُذكَرُ. وهو يُنفقُه بسهولةٍ مع التُّعساء. ويقال إنه لم يتوجّهْ إليه فقير قطّ من غير أن يتلقّى منه صدقةً جزيلة.

روى لي بغّال بأنه قد أصبح على وشك أن يرمي نفسه، ورأسُه أمامه في نهر غواديلكيڤير[1]. بعد أن فَقَد بغله الذي كان يشكّل كلَّ ثروته، عندما سلّمَ رجلٌ

١- كلمة مأخوذة على الأرجح من العربية: «الوادي الكبير». (م: ز.ع).

مجهولٌ امرأتَه علبةً تحتوي ستّ عشرةَ أونصةٍ من الذّهب. ولم يكن لديه شكٌّ في أن تلك العلبةَ هي هديةٌ من جوزيه ماريا الذي كان قد دلَّه البغّالُ على مجازةٍ في اليوم الذي كان يلاحقُه فيه عن قرب عددٌ من حرس الأرياف.

سوف أنهي هذه الرّسالةَ الطّويلة بمأثرةٍ من مآثر الإحسان التي قام بها بطلي. كان أحدُ الباعة الجوّالين الفقراء من المناطق المجاورة لكامبودي أريناس ينقلُ إلى المدينة حمولةً من الخلّ. وكان ذلك الخلُّ معبّأً في قِرَب، حسب عادةِ البلاد المتّبعةِ ويحملُها حمارٌ أعجف، منتوفُ الوبر تماماً، وهو نصفُ ميتٍ من الجوع. فالتقى رجلٌ غريبٌ يمكنُ للمرء أن يظنّه صيّاداً بالنّظرِ إلى بذلته، التقى، عبرَ معبرٍ ضيّق، بائع الخلّ. وما إن رأى الحمار أولاً، حتى انفجر ضاحكاً، وصاح:

أيّ فرسٍ نحيلٍ هذا الذي تقوده، يارفيقي! هل نحنُ في عيدِ المساخر حتى تتجولَ به على هذا النّحو.

ولم يكفّ عن الضّحك.

فأجاب الحمّار الذي ثار سخطهُ بحزن:

يا سيّدي، مهما تكن راحلتي قبيحةً، فهي لا تزالُ تجعلني أكسبُ خبزي. فأنا رجلٌ بائس، ولا أملكُ المالَ لشراء راحلةٍ أخرى.

فصاح الضّاحكُ:

كيف! أهذه الأتانُ المقزّزةُ هي التي تمنعك من الموت جوعًا؟ ولكنها ستنفقُ قبل مضيّ أسبوع.

وتابعَ وهو يقدّم إليه صرةً ثقيلةً إلى حدّ كافٍ:

خذ، إن لدى العجوز هيريرا بغلاً جميلاً للبيع، ويريدُ ألفًا وخمسمئةِ ريالٍ ثمنًا له، فهاهي. اشترِ هذا البغلَ اليوم، وليس بعد ذلك، ولاتساومْ. فإذا التقيتك غدًا مع هذه الدابة المرعبة على الدروب، ومثلما هو صحيحٌ أني أُدعى جوزيه ماريا، فلسوف أرميكما كليكما في أحد الجروف.

أما الحمّار الذي بقي بمفرده، وصرّتُه بيده، فكان يظنُّ أنه يحلمُ. وكانت الألفُ وخمسمئة ريال معدودةً جيداً. وكان يعلمُ ماذا يساوي القسمُ الذي يحلفه جوزيه ماريا؛ فمضى في الحال إلى منزل هيريرا. حيث سارع إلى مقايضة البغل الجميل بريالاته.

وفي الليلة التالية، استيقظ هيريرا منتفضاً، وكان ثمّة رجلان يبرزان خنجراً ومصباحًا لاصوتَ له أمام وجهه.

- هيا، بسرعةٍ، نقودك!

- للأسف! أيّها السّادة الطيّبون، ليس لديّ فلسٌ واحدٌ في منزلي.

- أنت تكذب، فقد بعتَ بالأمس بغلاً بألف وخمسمئة ريال، وقد دفعها لك فلان من كامبيو.

كان لديهما من الحجج التي لا تقاوَمُ الكثير، بحيث أعطِيت لهما الرّيالاتُ سريعًا، أو إذا شئنا، أعيدت إليهما.

حاشية:

لقد مات جوزيه ماريا منذ بضع سنوات؛ ففي عام ١٨٣٣، وبمناسبة قسم اليمين الذي أدتّه الملكة إيزابيلاّ، منَح الملكُ فردينان عفواً عاماً أراد قاطعُ الطريق

الشّهير أن يفيدُ منه حقًا. وقد منحته الحكومةُ حتى مصروفًا قدره ريالان في اليوم كي يبقى هادئًا. وبما أن ذلك المبلغ لم يكن كافيًا لسدّ حاجات رجلٍ لديه الكثير من الرذائل الأنيقة؛ فقد كان مجبراً على قبولِ عملٍ عرضته عليه مصلحةُ إدارةِ العربات. فأصبح رامياً بالبندقية، وأخذ على عاتقه حمايةَ العربات التي غالبًا جداً ماكان يسلبُها. وسار كلُّ شيء على مايرام خلال مدّةٍ معينةٍ من الزّمن. وكان رفاقُه القدامى يخشونه أو يراعون جانبه. غير أن عدداً من قطّاع الطّرق الأشدّ عزمًا، أوقفوا ذات يوم عربة إشبيليا، مع أنّها كانت تنقلُ جوزيه ماريا على متنها. ولقد خاطبهم، من فوق الطّبقة العليا للعربة فالتأثيرُ الذي كان له على شركائه السّابقين وصل إلى الحدّ الذي بدوا فيه مستعدّين للانسحاب بلا عنف، عندما أطلقَ عليه زعيمُ اللّصوص المعروف باسم الغجري والذي كان فيما سبق نائبًا لجوزيه ماريا، أطلق عليه عياراً نارياً من بندقيته عن كثب، فقتله في مكانه.

١٨٤٢

- ٤ -

الساحرات الإسبانيّات

فالنسيا، ١٨٣٠

إن آثارَ القدماء، وخصوصاً الآثارُ الرومانية القديمة، قلّما تهمّني. ولا أدري كيف تركتُ نفسي أقتنع بالذّهاب إلى مورفييدرو، كي أرى ماتبقّى من ساغونتا. لقدأصابني الكثيرُ من التعَب بسبب ذلك، وتناولتُ وجباتِ عشاء رديئة. ولم أشاهدْ شيئًا على الإطلاق. في الأسفار، تُعذّب المرءَ باستمرار خشيتُه من ألاّ يتمكّن من الردّ بنعم على ذلك السؤال الذي لامجالَ لتفاديه عند رجوعه وهو: «لقد شاهدت بلا شكّ...؟»، فلماذا أكونُ مضطرّاً لأن أرى ما شاهده الآخرون؟ إنّي لاأسافرُ بهدفٍ محدّد، ولستُ هاوياً للتُّحف القديمة. وقد أصبحَت أعصابي منيعةً على الأحاسيس العاطفيّة. ولا أدري إن كنتُ أتذكَّر شجرةَ سروِ الزغريسيين في قصرِ ملوكِ الحمراء بمتعةٍ أكبر مما أتذكَّرُ الرُّمانَ والعنبَ الممتازَ الذي ليس فيه بذور، والذي أكلتُه تحت تلك الشّجرة الموقّرة.

ومع ذلك، فلم تضجرْني رحلتي إلى مورفييدرو؛ فقد استأجرتُ حصانًا وفلاحًا فالنسياً كي يرافقني ماشياً، وقد وجدتَه (أيْ الفالنسي) ثرثاراً كبيراً، ومحتالاً إلى حدٍّ كاف، ولكنه إجمالاً رفيقٌ جيّدٌ وممتعٌ إلى حدٍّ ما، وكان يستخدمُ بلاغته، ودهاءَه بإسراف كي يسحبَ مني ريالاً إضافياً زيادةً على السّعرِ المتّفقِ عليه فيما بيننا مقابل أجرة الحصان، وكان في الوقت نفسه يدافعُ عن مصالحي في النّزل بكثير من الحماسة والحرارة بحيث يُخيّلُ إلى المرء أنه يدفعُ المصاريفَ من ماله الخاصّ. وكانت لائحةُ الحسابِ التي يقدّمُها كلَّ صباحٍ تتضمنُ سلسلةً مرعبةً من البنودِ الإضافيّة لقاءَ إصلاحِ أربطةِ الحصان، وتبديلِ مساميره، وفركهِ بالنبيذ الذي كان

يشربُه بلاشكّ. بالإضافة إلى ذلك. فلم أكنْ أدفعُ قطّ تكاليفَ أقلّ؛ فقد كان لديه فنٌّ يدفعني بواسطته لأشتري في كلّ مكان نمرُّ فيه الكثيرَ من الأشياءِ التافهةِ غير المفيدة، وخصوصاً سكاكين من صنْع المنطقة. وكان يعلّمني كيف ينبغي أن أضعَ الإبهامَ على النّصل، من غير أن أجرَحَ أصابعي، ثم أن تلك السكاكين الشّيطانية كانت تبدو لي ثقيلةً جداً؛ فقد كانت تتصادمُ في جيوبي، وتخبطُ ساقي، وهي باختصار، تزعجني كثيراً بحيث لم أجدْ وسيلةً أخرى كي أتخلّصَ منها غير أن أقدّمها هديةً لفيسانتي. وكان القولُ الذي يكرّرُه دائماً هو:

«كم سيكونُ أصدقاءُ سيادتك مسرورين، عندما يرون كلَّ الأشياءِ الجميلة التي ستجلبُها إليهم من إسبانيا!». ولن أنسى قطّ صرّةً من البلّوطِ الحلوِ المذاق الذي اشترته سيادتي كي تحمله إلى أصدقائي، والتي أكلَتْها سيادتي بكاملها بمساعدة دليلي المخلص، قبل أن تصل إلى مورفييدرو.

ومع أن فيسانتي كان يطوّفُ في أرجاء البلاد، ويبيعُ شرابَ اللّوز في مدريد؛ فقد كان يحمل في ذهنه قسطًا كبيراً من معتقداتِ مواطنيه الباطلة؛ فكان شديد التديُّن، وأثناء الأيامِ الثلاثة التي أمضيناها معًا، توفّرت لي الفرصةُ لأرى أيّ دينٍ مضحك كان دينه؛ فقلما كان الربُّ الرحيمُ يشغلُ ذهنَه. ولم يكن يتكلّم عنه إلاّ بعدمِ اكتراث، أما القدّيسون، وخصوصاً العذراء، فقد كانوا جميعاً موضعَ ولائه، وكان يجعلُني أفكّر بأولئك الملتمسين القدماء الحاذقين في مهنتهم والذين كانوا يردّدون قولاً مأثوراً مفاده أنه من الأفضل أن يكونَ للمرء أصدقاء في المكاتب من أن يتمتّع بحمايةِ الوزير نفسه.

وحتّى نفهمَ إخلاصَه للعذراء الطيّبة، يجب أن نعلمَ أن هناك ألف عذراء وعذراء في إسبانيا، ولكلّ مدينةٍ عذراؤها الخاصّة، وهي ستهزأ بعذراء جيرانها. أما عذراء بينيسكولا، وهي مدينةٌ صغيرةٌ كان فيسانتي المحترم قد ولُد فيها، فقد كانت تَفضُل، حسب رأيه، كلّ العذارى الأخريات مجتمعات.

وقلتُ له ذاتَ يوم:

وإذن فهناك عددٌ من السّيدات العذراوات؟

- بلا شكّ، فلكلّ مقاطعةٍ عذراؤها.

- وفي السّماء، كم عددُهن؟

أربكه السّؤالَ بصورةٍ جلية، غير أن مبادئ الدّيانة أسعفته، فأجاب بتردّدِ إنسانٍ يكرّرُ جملةً لا يفهمُها:

ليس هناك إلاّ عذراء واحدة.

فاستأنفت قائلاً:

- حسنًا! إذا كسرتَ ساقَك، فإلى أيةِ عذراء تتوجّه؟ إلى عذراءِ السّماء، أم إلى عذراء غيرها؟

- إلى العذراء القديسة جداً، سيدة بينسكولا، كما يظهر (Por Supuesto).

- ولكن لماذا لا تتوجّهُ إلى عذراء بيلييه، في سرقسطة، والتي تصنعُ الكثيرَ من العجائب؟

- عجبًا! إنها جيدة بالنسبة للأرغونيين.

وأردتُ أن أؤثّرَ به من ناحيتهِ الضعيفة، وهي نزعتُه الوطنية المحلية، فقلت له:

إذا كانت عذراءُ بينسكولا أكثر اقتداراً من عذراء بيلييه، فسيُثبتُ ذلك أن الفالنسيين أكثر نذالةً بكثير من الأرغونيين، إذ يلزمهم شفيعة تحظى برضى الربّ كي تُغفر لهم خطاياهمُ.

- آه يا سيـدي، إن الأرغونيين ليسـوا أفضل من غيرهم، إلاّ أننا، نحن الفالنسيين، نعرف سُلْطةَ سيّدتنا، سيدة بينيسكولا، ونُفرطُ في الاتّكال عليها أحيانًا.

- قل لي، يا فيسّانتي، ألا تظنّ أن سيدتنا، سيدة بينسكولا تتكلّم مع الربّ باللّغة الفالنسيّة، عندما تصلّي لجلالته لكيلا يهلككم بسبب أعمالكم الشرّيرة؟

فردّ فيّسانتي بشدة:

- الفالنسية، لا، يا سيّدي، إن سيادتكَ تعلمُ جيدًا أيةَ لُغةٍ تتكلّم العذراءُ.

- كلاّ، في الحقيقة.

- اللاتينية، كما يظهر!

. . . إن جبال مملكة فالنسيا القليلةَ الارتفاع غالبًا ماتكون مكلّلةً بقصورٍ مهدّمة فارتأيتُ ذات يوم، أثناء مروري بجانب إحدى تلك المساكن المتداعية أن أسأل فيّسانتي إن كان فيها أشباح؛ فأخذ يتسمُ، وأجابني أنه ليس في المنطقة أشباح. ثم أضافَ، وهو يغمزُ بعينه، وكأنّه إنسانٌ يردُّ على مُزاحةٍ: «لا شكّ أنّ سيادتك قد رأتْ أشباحًا في بلدها؟».

في اللغة الإسبانية، ليس هناك كلمة تُرجِم بدقّةٍ كلمةَ: شبح. أما كلمة Duende التي تجدونها في معجم، فهي تتوافقُ على الأصحّ مع كلمةِ: عفريت، وتنطبقُ، كما في الفرنسية، على الطّفلِ المتشيطن. أما كلمةُ «Duendecito» (أي عفريت صغير)، فتقالُ بصورةٍ جدّ مناسبة عن فتًى يختبيءُ وراءَ ستارة، في غرفة فتاةٍ كي يخيفها، أو بقصدٍ آخر. أما عن تلك الأشباح الشّاحبة الملفوفة بكفن والتي تجرُّ الأصفادَ وراءَها، فلا ترى في إسبانيا، ولا أحد يتكلّم عليها. ولايزال هناك بربرٌ مسحورون تُحكى عنهم شعوذاتٌ سحريةٌ في المناطق المجاورة لغرناطة، إلاّ أنهم

عـمـومًا أشبـاحٌ حسنةُ التـأثيـر، وتظهـرُ عـادةً في وضح النّهار كي تطلبَ بكل تواضعٍ المعمودية التي لم تتوفّر لهم الفرصةُ للحصول عليها. فإذا ما مُنحوا تلك النّعمةَ، فهم يدلّونك لقاءَ جهدك، على كنزٍ جميل. أضف إلى ذلك نوعًا من ساحرٍ ذئبيّ مغطّى بالوبر تمامًا ويسمونه: Velludo، وهو مرسومٌ في قصر الحمراء، وكذلك حصانٌ بلا رأس[1]. ومع ذلك، فهو يعدو بسرعة جيدة في وسط الحجارة التي تزحمُ الوادي بين الحمراء وقصر الملوك. ولسوف تحصل على قائمةٍ كاملة تقريبًا لكلّ الأشباح التي نخيفُ الأطفالَ ونسلّيهم بها.

ولحسنِ الحظّ، فلا زال الناس يُؤمنون بالسَّحرة، وبالساحرات خصوصًا؛ فعلى بُعدِ فرسخٍ من مورفيبدرو، ثمّة مشربٌ صغير منعزل. وكنت شديدَ الظّمأ، فتوقّفتُ عند بابه، فجلبت لي فتاةٌ جميلةٌ جدًا، وليست مفرطة السُّمرة، جلبت لي إناءً مصنوعًا من ذلك التّراب المساميّ الذي يبرّد الماء. أما فيسانتي الذي لا يمرُّ قطّ من أمام مشرب، من غير أن يكون ظمآن، وأن يقدّم لي مبرّرًا جيدًا للدّخول، فلم يكن يبدو أن لديه رغبةً في التوقّف عند ذلك المكان. وكان يقولُ: إن الوقتَ قد تأخرّ، وإن علينا أن نقطعَ طريقًا طويلةً، وإن هناك نزلاً أفضل بكثير على بُعد فرسخٍ، ويمكنُنا أن نجد فيه أشهرَ نبيذٍ في المملكة، باستثناء نبيذ بينيسكولا، ولكني كنتُ متشبّثًا برأيي، وشربتُ الماءَ الذي قُدم لي، وأكلتُ حساء الغازباشو[2] الذي أعدَّتهُ يدا الآنسة كارمنسيتا، وحتى أنني رسمت صورتها على دفتري المخصّصَ للرسّوم الأوليّة. ومع ذلك، فقد كان فيسّانتي يفركُ جوادهَ أمام الباب، ويصفر لحنًا ينمُ عن فراغِ الصّبر، ويبدو كأنه يحسّ بالاشمئزازِ من الدّخول إلى المنزل.

(١) بالإسبانية في النص: El Caballo Descabezado.

(٢) هو حساءٌ باردٌ، يضافُ إليه الخلُّ والثّوم والزّيت. (م: ز.ع)

استأنفنا سيرنا، وكنت غالبًا ما أتحدَّثُ عن كارمنسيتا، وكان فيسّانتي يهزّ رأسه، ويقول: «بيتٌ سيئ».

- سيئ! لماذا؟ لقد كان حساءُ الغازباشو ممتازاً.

- هذا ليس أمراً غير اعتيادي، فلربما يكون الشيطانُ هو الذي أعدَّه.

- الشيطان! هل تقول هذا لأنّها لا تقتصدُ في الفليفلة؟ أو لأن الشيطانَ قد يكون طبّاخ هذه المرأة النبيلة؟

- من يدري؟

- وعلى هذا الأساس. . . فهل هي ساحرة؟

وأدار فيسانتي رأسه بحركةٍ تنمُّ عن القلق كي يرى أن أحدًا لا يراقبه، وحثّ خطى الحصان بضربةٍ من عصاه اللّدنة، وأخذ يهزُّ رأسه هزاً خفيفًا، وهو يركضُ إلى جانبي، ويفتحُ فمه، ويرفعُ عينيه إلى الفضاء، وتلك علامةُ تأكيد معهودةٌ لدى الناس الذين نميلُ إلى الظنّ بأنهم يصمتون عندما يشعرون أنه من الصعب أن يقدّموا جوابًا على سؤالٍ دقيق. وأخذ فضولي يتزايدُ، ولاحظتُ بسرورٍ شديد أن دليلي لم يكن كما خشيت، ذا عقلٍ متشكّك.

فقلتُ، وأنا أعيدُ حصاني إلى السّير بالخطوة:

وهكذا، فهي ساحرةٌ، والفتاةُ ما تكون؟

إن سيادتك تعرفُ المثَلَ القائل: في البداية، عاهرة، ثم قوّادة، ثم ساحرة[1].

فما إن تبدأ الفتاةُ حتى تكونَ الأمُّ قد حققت غايتها.

- كيف تعرفُ أنها ساحرة؟ ما الذي فعلته حتى أثبتت لك ذلك؟

---

١ - بالإسبانية في النص. (م: ز.ع).

- مايفعلنه جميعًا. إنها تسبّبُ مرض العيون[1] الذي يصيبُ الأطفال بالنُّحول. إنها تُحرق أشجارَ الزيتون، وتُميت البغلات، وتصنع العديد من أعمال الشرِّ الأخرى.

- ولكن هل تعرفُ أحدًا كان ضحيّةً لتلك التأثيرات السّيئة؟

- هل أعرف عددًا منهم؟ هناك ابن عمي، مثلاً، وقد لعبتْ عليه لعبةً سحريةً كبرى.

- ارو ذلك، أرجوك.

- إن ابن عمي لايحبُّ كثيراً أن تروى تلك القصّة. ولكنّه الآن في قادش، وآملُ ألاّ يحدثَ له مكروهٌ، إذا ما قلت لك...

هدأت وساوس فيسانتي بأن أهديته سيكاراً، فوجد الحجّة لاتقاوَمُ، وبدأ يتحدثُ على النحو التالي:

«أنت تعلم، يا سيّدي، أن ابن عمي يدعى هنريكه، وأنه قد وُلد في غراو دو ڤالانس أمّا مهنته فبحّارٌ وصيادُ سمك؛ إنه رجلٌ شريف، وربُّ عائلة، ومسيحيٌّ، مثلُ كلِّ بني سلالته ويمكنني أن أفخرَ بأن أكون كذلك، مهما كنتُ فقيراً، طالما هناك العديدُ من الناس الأكثر مني غنًى. ولكنهم قذرون كالخنازير. كان ابن عمي إذن صيّاد سمك في ضيعة صغيرة، قريبًا من بينسكولا، لأن أسرته كانت تسكن في بينسكولا، مع أنه قد ولد في غراو. كان قد ولد في قارب والده. وهكذا، فقد وُلِدَ في البحر؛ فلا ينبغي أن تُدهشَ من كونه بحاراً ماهراً، كان قد سافر إلى الهند، والبرتغال، وإلى كلِّ مكان. وعندما كان لايبحرُ على متن مركب ضخمة،

---

(١) مرض العيون: «Mal Deojos» هوليس المرض الذي تصابُ به العيونُ، بل الشرّ الذي تصنعهُ، إنه سحرُ العين الشريرة فغالبًا ما يربطون بمعصم الأطفال، في مملكة ڤالنسيا سواراً صغيراً من القماش كي يقيهم من العين الشرير.

كان يمتلك قاربه الخاصّ، وينطلق ُفيه للصيّد. وعند عودته، كان يربطُ قاربه بقلسٍ شديد المتانة إلى وتد ضخم، ثم كان يذهب للنوّم مطمئنًا. وها هو ذات صباح يمضي ليفكَّ عقدة القلس، كي ينطلق إلى الصيّد، فماذا يرى؟ . . . بدلاً من العقد التي كان قد أحكمها، مثل تلك التي يمكن أن يعقدها بحّارٌ ماهر، إنه يرى عقدة مثل تلك التي تصنعها امرأة عجوزٌ كي تربط دابتها. ففكر قائلاً: «إنه لا بد للصبيان الصغار أن يكونوا قد لهوا في قاربي بالأمس مساء، ولسوف ألقنهم درسًا قاسيًا، إذا ما أمسكتُ بهم»، وأبحر، واصطاد، ثم رجعَ، وربطَ قاربه. وصنع عقدةً مضاعفةً في تلك المرّة تحسبًّا للأمور. حسنًا! وفي اليوم التالي، حلّت العقدةُ، فاستبدَّ الغيظ بابن عمي. ولكن خمِّنْ من الذي قام بتلك الفعلة؟ ومع ذلك، فها هو يأخذُ حبلاً جديدًا، ومن غير أن تَخمدَ هَمتُه، يعودُ إلى ربط مركبه متينًا بالقلس. فواعجباه! إن الحبل الجديد لم يعد موجودًا في اليوم التالي. وعوضًا عنه كان ثمّة قطعة رديئة من خيط هو من بقايا حبل متعفن تمامًا. بالإضافة إلى ذلك؛ فقد كان شراعُ المركب ممزقًا. وهذا دليلٌ على أنه كان قد نُشِرَ أثناء الليل. فقال ابنُ عمَي في نفسه:

«ليس الأولادُ العفاريتُ هم الذين يذهبون ليلاً إلى قاربي. ولا يمكنُ أن يتجرّؤوا على نشرِ الشراع خوفًا من أن ينقلبوا عن المركب. ومن المؤكد أن من فعل ذلك لصّ.» فماذا فعل؟ إنه يذهب مساءً ليختبئ في قاربه، وينام في الموضع الذي يحشر فيه الخبز والرزّ عندما يبحر لبضعة أيام. إنه يُلقي على نفسه عباءةً رديئةً، كي يخفي نفسه على نحو أفضل، ويمكث هناك مطمئنًا. وفي منتصف الليل، لاحظ التوقيت جيدًا، ها هو يسمع ُفجأةً أصواتًا كأنّها أصواتُ عددٍ كبيرٍ من الأشخاص، يأتون راكضين على شاطئ البحر. فرفع طرفَ أنفه قليلاً ورأى. . ليس لصوصًا، يا يسوع! بل اثنتي عشرة امرأةً عجوزًا، حافيات القدمين، وشعورهن تتطاير مع الريح. ولكن ابن عمي رجلٌ شديد العزم، ولديه سكين جيّدةٌ، قد أحسن شحذها، وقد وضعها في حزامه، كي يستخدمها ضدّ اللصوص ولكن عزيمته خارت، حين رأى أن الساحرات هنّ اللواتي سيواجهنه. ووضع العباءة على

رأسه، وتوسل إلى سيدتنا، سيدة بينسكولا كي تمنع أولئك النسوة الشريرات من رؤيته.

«وإذن فقد كان متجمعًا تماماً، ومتكوراً في زاويته، وشديد القلق على نفسه فها هن الساحرات اللواتي يفككن الحبل، ويرخين القلس، ويلقين بأنفسهن إلى البحر. فلو كان القارب حصانًا، لكان بإمكاننا القول إنه قد غضب[1]. والأمر المؤكّد هو أنه كان يبدو وكأنه يطير فوق البحر. كان ينطلق، وينطلق بسرعة كبيرة بحيث أصبح صفير الماء يشق الآذان، والقار ينصهر من جراء ذلك[2] وليس في هذا الأمر ما يبعث على الدّهشة: فالساحرات يحصلن على الريح متى أردن، إذ أن الشيطان هو الذي ينفخه، ومع ذلك، فقد كان ابن عمي يسمعهن، وهن يتحدثن، ويضحكن، ويتحركن، ويفاخرن بكل الأذى الذي سببنه. وكان البعض منهن معروفًا لديه. وثمة أخريات قد أتين، كما يظهر، من بعيد، ولم يكن قد رآهن قط. أمّا لافيرير، تلك السّاحرة العجوز التي توقفت عندها طويلاً، فقد كانت تمسكُ بدفة المركب. وأخيراً، وبعد مرور بعض الوقت، توقفت المركب، ووصلت إلى اليابسة. فقفزت الساحرات خارج القارب، وربطنه بحجر ضخم عند الشاطئ. ولما كفّ ابن عمي هنريكه عن سماع أصواتهن، خاطر بالخروج من جحره. ولم تكن تلك الليلة شديدة الصفاء، بيد أنه قد رأى بوضوح، وعلى مرمى حجر من الشاطئ، أعواد قصب طويلة كانت الريح تهزها، وناراً كبيرة في مكان أبعد، وكنْ على ثقةٍ من أن احتفالاً شيطانياً سبتياً كان يعقد هناك، وتجرأ هنريكه على القفز إلى الأرض، وقطع بعضاً من أعواد القصب تلك، ثم رجع إلى مخبئه مع أعواد القصب التي أخذها، وانتظر بهدوء عودة الساحرات. وبعد مرور ما يقارب الساعة على

---

١ - حرفيًا: «فرّ غاضبًا واللجام بين أسنانه» (م: ز. ع).

٢ - لم أجرؤ على مقاطعة مرشدي لكي أحصل على تفسير لتلك الظاهرة؛ فهل يكون السبب في ذلك أن سرعة الحركة قد أحدثت ما يكفي من الحرارة لصهر القار؟ إننا نلاحظ أن صديقي فيّساتي الذي لم يكن قطّ بحاراً، لم يكن يستخدم الطابع المحلي بمهارة جيدة.

ذلك، عادت السّاحرات، وأبحرن من جديد، وأدرن القارب، واندفعن في البحر بمثل السّرعة التي اندفعن بها في المرةّ الأولى، وكان ابن عمي يقول في نفسه: بالسّرعة التي نسير بها، سنصبح في بينسكولا بعد قليل».

كان كلُّ شيء يجري على ما يرام، عندما أخذت إحدى تلك النساء تقول فجأة: «يا أخواتي، ها هي السّاعةُ تدقُّ ثلاث دقات». وما إن قالت ذلك، حتى توارين جميعهن، واختفين. ولتعلم أن لديهن القدرة على التّجوال، في المنطقة، حتى تلك الساعة وحسب. ولم يعد القارب يتقدّم. وصار ابن عمي مضطراً للتجذيف. والله يعلم كم من الوقت قد مكث في البحر، قبل أن يتمكن من الرجوع إلى بينسكولا. لقد مكث أكثر من يومين. ووصل مرهقًا. وما إن أكل قطعة من الخبز، وشرب قدحًا من خمرة ماء الحياة، حتى مضى إلى صيدليّ بينسكولا، والذي هو رجل واسع العلم، ويعرف كل سريعي التصديق، فأراه أعواد القصب التي جلبها معه. وسأل الصيدلي: ما هو مصدرها؟ فأجابه الصيّدلي ـ من أمريكا، فلا ينبت مثلها إلاّ في أمريكا. ومهما تبذر بذورها هنا، فلن ينتج من ذلك شيء.». أما ابن عمي، فمن غير أن يقول كلمة أكثر من ذلك للصيدلي، مضى إلى منزل لافيرّير، وقال لها وهو يدخل: «أنت ساحرة» فصاحت الأخرى محتجة، وقالت: «يا يسوع! يا يسوع!». والدليل على أنك ساحرة، هو أنك تذهبين إلى أمريكا، وأنك تعودين منها في ليلة واحدة. وقد ذهبت إليها معك، في تلك الليلة. وهذا هو الدليل على ذلك. انظري. هذه هي أعواد قصب قطعتها من هناك».

إن فيسانتي، الذي روى لي كل ما سبق بصوت ينم عن التأثُّر، وبكثير من الحرارة، مدّ يده نحوي حينذاك، مرافقًا قصتّه بحركات إيمائية مناسبة، وقدّم إليّ قبضة من العشب كان قد اقتلعها؛ فلم أستطع أن أمنع نفسي عن القيام بحركة ما، ظنًا مني أني أرى أعواد قصب أمريكا. واستأنف فيسانتي قائلاً:

قالت الساحرة «لا تحدث ضجةً، وهاك كيساً من الأرز . . . خذه واتركني بسلام». فقال هنريكه: «كلا، لن أتركك بسلامٍ، إلاّ إذا أعطيتني سحراً أتصرّفُ فيه حسب رغبتي بريح مثل تلك التي حملتنا إلى أمريكا». حينذاك، أعطته الساحرة رقّاً موضوعاً في إناء من الكرنيب[1]، وهو يحمله معه دوماً حين يكون في البحر، ولكني لو كنت مكانه، لرميتُ إلى النار الرقَّ وكلَّ شيء منذ زمنٍ طويل. أولكنتُ أعطيتُه لكاهن، لأنّ من يتعامل مع الشّيطان هو تاجر سيّئ دوماً.

شكرت فيسّانتي على قصتّه، وأضفتُ، كي أدفع له من العملة نفسها، إن السّاحرات في بلادي يستغنين عن المراكب، وأن وسيلة النقل الأكثر اعتيادية لديهن هي المكنسة التي يركبن عليها مفرشخات.

ـ فردّ ڤيسّانتي ببرود:

سيادتك تعلم أن ذلك غير ممكن.

أدهشني عدم تصديقه؛ فقد كان ذلك عدم احترام لي، أنا الذي لم أبدِ أدنى شك بصحةّ قصته: أعواد القصب. وقد عبّرت له عن غضبي كلّه، وقلت له بلهجة قاسية ألا يتَدخل في الكلام على أشياء لايمكنه فهمها، وقد أضفت أنه لو كنا في فرنسا، لوجدت له الكثير من الشهود على هذه الواقعة بقدر مايشاء. فأجاب ڤيسانتي:

لو رأيتهُ سيادتك، لكان ذلك صحيحاً إذن. ولكن إذا لم تره، فإني سأقول دوماً إنه من غير الممكن أن تركب الساحرات على مكنسة مفرشخات؛ فمن غير الممكن ألاّ يكون هناك، في أية مكنسة بعض القشّات المتصلبات، حينذاك، يكون قد تشكَّل صليب، وإذن فكيف تريد أن تتمكّنَ الساحرات من استخدامها.

كانت الحجة لا تحتمل رداً، وقد تخلصت من المأزق بأن قلت إن هناك مكانس ومكانس. فأن تكون ساحرة قد امتطت مكنسةً من البتولا هو أمرٌ تستحيل الموافقة عليه. أما مكنسةٌ من الوزال ذات قشٍ مستقيم ومتيبس، أو مكنسةٌ من

١ـ نباتٌ معترشٌ من الفصيلة القرعية، وثمره يصلح للتزيين، ويستعمل كالقناني والأواني. (م: ز.ع).

الوبر القاسي، فلا شيء أسهل من ذلك. إن كل الناس يدركون بلا مشقة أنه يمكن الذهاب إلى آخر العالم على مقبض مكنسة من هذا النوع.

فقال فيسانتي:

لقد سمعت دائماً يا سيدي أن هناك الكثير من السحرة والساحرات في بلادكم.

- إن ذلك يرجع يا صديقي إلى أنه ليس لدينا أعمال تفتيش.

- إذن، فلا بد أن سيادتك قد شاهدت عدداً من هؤلاء الناس الذين يبيعون، لكل أمرٍ من الأمور على اختلافها، أعمال سحر معينة، وقد رأيت تأثيراتها. أنا من أكلمك.

فقلت له:

- افرضْ بأني لا أعرف تلك القصص، وسوف أقول لك فيما بعد إن كانت صحيحة.

- حسنًا! يا سيدي، قيل لي إن في بلادك أناسًا يبيعون أعمالاً سحرية للناس الذين يشترونها. وعندما يتقاضون كيسًا كبيراً من النقود، يبيعونك قطعة من عود قصب له عقدة في أحد طرفيه، وسدادة جيدة في الطرف الثاني، وفي تلك القصبة ثمة حيوانات صغيرة: (Anamilitos) يحصل المرء بواسطتها على كلّ ما يطلبه. ولكنك تعلم أفضل مني كيف تتم تغذيته.. من لحم الأطفال غير المعمدين، ياسيدي.. وعندما لايمكن لصاحب القصبة أن يحصل على ذلك يصبح مضطراً لأن يقطع من لحمه نفسه... (وكان شعرُ فيسانتي يتنصب على رأسه) فينبغي تقديمُ الطّعام لتلك القصبة مرةً كلّ أربع وعشرين ساعة، ياسيدي.

- وهل رأيت إحدى القصبات المعينة؟

- كلا، يا سيدي، كي لا أقول كذبًا. ولكني عرفت خير المعرفة رجلاً يدعى روميرو وقد احتسيت الشراب معه مئة مرة (عندما كنت لا أعرفه، كما كان،

مثلما أعرفه اليوم) وهذا الرّجل روميرو قد كان حوذياً[1]. . من حيث مهنته. وقد أصيب بمرضٍ، وخسر على إثره ريحه، بحيث لم يعدْ باستطاعته أن يركض، وكانوا يقولون له أن يذهب للحج، كي يحصل على الشفاء. أما هو فكان يقول: «فيما أكون في الحجّ من ذا الذي سيكسب المال ليقدم الحساء للأطفال؟». بحيث أنّه عندما لم يهتد إلى طريقة، اندس بين السحرة والسّوقَة الآخرين المماثلين له والذين باعوه واحدةً من قطع أعواد القصب التي تحدثت عنها إلى سيادتك - ومنذ ذلك الحين، ياسيّدي، أصبح روميرو قادراً على اللّحاق بأرنب بري ركضاً. ولم يعد هناك حوذي سائر يمكنه أن يقارن به. وأنت تعلم أية مهنةٍ هي مهنته، وكم هي خطرة ومتعبة، وهو اليوم يركض أمام البغلات من غير أن يخسر نفثةً من سيكاره. ويمكنه أن يركض من فالنسيا إلى مورسي من غير توقف، وبلا انقطاع. إنما لابد من رؤيته كي يحكم المرء على ما يكلفه ذلك. إنه شديد الهزال. وإذا ما استمرت عيناه تغوران كما تفعلان، فلسوف يصبح بعد قليل قادراً على أن يرى خلف رأسه. أن تلك الحيوانات تأكله.

ومن تلك الأعمال السحرية، ثمة ما يصلح لشيء آخر غير الركض. . . إنها أعمال سحرية تقيك من الرصاص، ومن الفولاذ، وتجعلك صلباً، كما يقال. وكان لدى نابليون عملٌ منها. وهذا هو السبب الذي لم يتمكنوا من أجله أن يقتلوه في إسبانيا. غير أنه كانت هناك، مع ذلك، وسيلة شديدة السهولة. .

فقاطعته قائلاً، وأنا أتذكّر الرّصاصةَ التي ثقب بها هويغي[2] جسور ترقوةَ كلاڤيرهاوس:

١- ترجمة لكلمة: Zagakl التي معناها نوع من حوذي يسير على قدميه، فهو يتقدم بغلتين مقرونتين، ويمسك مقودهما، ويوجه سيرهما ركضاً عندما تنطلقان عدواً. وإذا ماتوقف تمرُّ العربة فوق جسده. وفي العربات الجديدة، يسمى Zagal خطأً ذلك الرّجل الذي يربط حوافر الخيل ويساعد على تحميل العربة. وهو ما يسمونه الـ Cad في العربات الإنكليزية.

٢- عضو في حزب الأحرار قديماً في إنكلترا (م: ز.ع)

ـ وهي أن تصهر رصاصة من الفضة.

فاستأنف فيسانتي قائلاً:

يمكن لرصاصة من الفضة أن تكون جيدة، إذا كانت مصهورة مع قطع من النقود عليها صورة الصليب، كما على قطعة نقود قديمة. غير أن الأفضل أيضاً هو في أن تأخذ بكل بساطة شمعةً كانت على المذبح أثناء إقامة القدّاس. وتقوم بصهر تلك الشمعة المقدّسة في قالب لصناعة الرّصاص. وكن على ثقة من أنّه ليس في الأمر سحرٌ ولا عملٌ شيطانيّ، ولادرعٌ يمكنه أن يحمي الساحر من رصاصة كهذه. إن جوان كول الذي أثار الكثير من الضّجة في الماضي، في المناطق المجاورة لتورتوز قد قُتِل برصاصةٍ من الشمع أطلقها عليه حارس منطقيٌّ جسور. وعندما مات، وقام الحارس بتفتيشه وجد صدره مغطى بصور وعلامات أحدثها بارود مدافع، ورقوقٌ معلقة برقبته، وعددٌ لا أدري ما هو من الترّهات الأخرى. إن جوزيه ماريا الذي يجعل الناس الآن يتحدثون عنه كثيراً في الأندلس، يمتلك سحراً ضدّ الرصاص. ولكن الويل له إذا ما أطلقت عليه رصاصات من الشمع. وأنت تعلم كيف يسيء معاملة الكهنة والرّهبان الذين يقعون بين يديه؛ وذلك لأنه يعلم أن كاهناً ينبغي أن يبارك الشمع الذي يقتله. وكان فيسّانتي يمكن أن يقول أكثر من ذلك في الموضوع، لو أن قصر مور فييدرو الذي لمحناه في تلك اللحظة، عند منعطف الطريق. لو أنه لم يعط حديثنا وجهةً أخرى.

- ٥ -

قصة روندينو

كان يدعى روندينو، وقد أصبح يتيمًا منذ الطفولة، فعهد الاهتمام به إلى عمّه الذي كان مشرفًا ملكيًا على قريته. كما كان رجلاً بخيلاً، ويعامله معاملة جدُّ سيئة. وعندما أصبح في السّن التي يسحب فيها القرعة للذهاب إلى الجيش، كان المشرف الملكيّ عنه يقول علنًا:

- آمل أن يصبح روندينو جنديًا، وأن تتخلّص المنطقة منه؛ فهذا الصبي لايمكن أن يتحول إلى الخير. وعاجلاً أو آجلاً، سيغدو عاراً على عائلته، وسينتهي بالتأكيد إلى المشنقة.

يزعم أن لكراهية هذا الرّجل نحو روندينو سببًا مخجلاً؛ فقد كان لابن أخيه ميراث صغير كان المشرف الملكي يديره. ولم يكن متعجلاً ليؤدي الحساب عن ذلك الميراث، ومهما يكن من أمر، فقد اختارت القرعة روندينو ليكون مجنداً؛ فغادر قريته، وهو على قناعةٍ من أن عمّه قد رتّب أثناء السحب عملية غش كان هو ضحية لها.

وما إن وصل إلى فوجه العسكري، حتى أخذ يتخلّفُ غالبًا عن التفقد، ويبدي الكثير من عدم الطاعة بحيث أرسلوه إلى كتيبة تأديبية. وبدا أنه قد تأثر بتلك العقوبات تأثرًا بالغًا، وأقسم أن يغيّر سلوكه، ووفى بوعده؛ فبعد مضيٍّ بضعة أشهر، استدعي ثانية إلى فوجه. ومنذ ذلك الحين. أخذ يقوم بواجباته العسكرية بانضباط. وبذل كل اهتمامٍ كي يتميّز لدى رؤسائه. كان يعرفُ القراءة والكتابة، وعلى حظٍّ وافرٍ من الذّكاء. وفي مدّةٍ قصيرةٍ رفع إلى رتبة عريف، ثم رقيب؛ وقال له قائده العقيد ذات يوم:

- يا روندينو إن مدّة خدمتك ستنتهي، ولكني أحسب أنّك ستبقى معنا؟

- كلا، يا سيّدي العقيد، أرغب في العودة إلى بلدي.

- سوف تخطئ؛ فأنت في وضع جيد هنا، وضبّاطك ورفاقك يقدرونك، وها قد أصبحت رقيباً، وإذا مااستمريت في سلوكك الحسن، تصبح سريعاً رقيباً أولاً. وإذا ما بقيت في الفيلق، فإن مستقبلك جاهز، بدلاً من أن تموت جوعاً، أو تصبح عالة على أهلك، إذا مارجعت إلى قريتك.

- يا سيدي العقيد، عندي قليل من الأملاك في بلدي.

- أنت مخطئ، فقد كتب لي عمك أنه قد صرف على تربيتك تكاليف لن يكون بوسعك تسديده إياها قطّ. ومن جهة أخرى، فلو كنت تعلم ماهو رأيه بك، لما كنت متعجلاً للرّجوع إليه. إنه يكتب لي أن أحتفظ بك بكل الوسائل الممكنة، ويقول إنّك تافهٌ، وإن كل الناس يمقتونك، وإنه ما من مزارعٍ في المنطقة يقبل أن يعطيك عملاً.

- قال ذلك!

- لديّ رسالته.

- لا أهمية لهذا! أريد أن أرى بلدي.

كان لابدّ من صرفه من الخدمة، وقد أرفقوا ذلك بشهادات مشرفة.

اتجه روندينو في الحال إلى منزل عمه المشرف، ولامه على تعسفه. وطلب منه بوقاحة كبيرة أن يعيد إليه ممتلكاته التي يحتفظ بها احتفاظاً مجحفاً، فرد المشرف عليه، وثارت ثائرته، وأخذ يجري حسابات مخادعة، فاحتدم الجدل إلى الدرجة التي ضرب فيها المشرف روندينو؛ فكال له هذا الأخير طعنةً من خنجره، فأرداه ميتاً في مكانه. وما إن ارتكب فعلة القتل، حتى غادر القرية، وطلب اللجوء من أحد أصدقائه، والذي كان يقطن في إكارة منعزلة، في وسط الجبال.

وفي الحال، انطلق ثلاثة رجال شرطة ليبحثوا عنه هناك؛ فانتظرهم روندينو في طريق ضيقة ومتعرّجة، وقتل واحداً منهم، وجرح آخر. أما الثالث، فقد لاذ بالهرب. إن رجال الشرطة غير محبوبين في البييمونت، منذ اضطهاد منظمة

الكاربوناري[1]، ويهلّل الناس دومًا لأولئك الذين يصرعونهم. وهكذا، فقد صار روندينو يعدُّ بطلاً بين فلاّحي الجوار، وكانت مواجهات أخرى له مع القوة المسلّحة قد تكلّلت بالنجاح، مثلما كانت المواجهة الأولى. وزادت من شهرته. ويزعم أنه قد قتل أو جرح خمسة عشر شرطيًا، في غضون عامين أو ثلاثة. لقد كان غالبًا مايغيّر ملجأه، ولكنه لم يكن يبتعد قط أكثر من سبعة إلى ثمانية فراسخ عن قريته؛ لم يكن يسرق قط، بل كان يطلب من أول عابر سبيل ربع ريال كي يشتري بارودًا ورصاصًا، عندما تنفذ منه ذخيرته تقريبًا. وكان ينام عادة في مزارع منعزلة. وكان معتادًا حينذاك على إغلاق كل الأبواب، وعلى أن يأخذ المفاتيح إلى الغرفة التي أعطيت له، وكانت أسلحته بقربه، ويترك خارج المنزل كلبًا هائلاً يتبعه دومًا ليقوم بالحراسة. وكان قد كشر عن أنيابه المخيفة أكثر من مرّة أمام أعداء صاحبه. وما إن يبزغ الفجر، حتى يعيد روندينو المفاتيح إلى مضيفيه، ويشكرهم. وكان مضيفوه، في أغلب الأحيان، يرجونه، عند رحيله، ليقبل بعض المؤن.

ورآه السيّد أ. . . وهو صاحب أملاك غنيّ من معارفي، منذ ثلاثة أعوام، وكان الناس يقومون بالحصاد، وصاحب الأملاك يراقب عماله، عندما رأى رجلاً ناضجًا حقًا، ومتين البنية، ذا سحنة رجولية، ولكنها ليست شرسة. وكان ذلك الرجل يحمل بندقية. ولكنه وضع بندقيته في أسفل إحدى الأشجار، على مسافة خمسين خطوة من الحاصدين. وأمر كلبه بحراستها. وقد تقدّم نحو السيد أ. . ورجاه أن يتفضل بتقديم بعض الصدقة إليه.

فقال له السيّد أ. . الذي ظنّ أنه متسوّل عادي:

لماذا لا تشتغل مع العمال؟

فابتسم المطارد وقال:

– أنا روندينو.

فعرض السيّد عليه حالاً بضعة بستولات[2].

---

١ – الكاربوناري: هي المنظمة العمالية المعروفة بـ«الفحّامين»، وهي منظمة سياسيةٌ سرية نشأت في القرن التاسع عشر، في إيطاليا، وكانت تحمل أفكارًا تحررية. (م: ز.ع).

٢ – عملة ذهبية إسبانية أو أوروبية. (م: ز.ع).

فقال روندينو :

ـ أنا لا آخذ قط سوى ربع ريال؛ فهذا يكفيني لملء وعاء البارود. إلاّ أنه إذا أردت أن تقدّم لي شيئًا فتكرَّم بإعطائي شيئًا آكله، فأنا جائع.

أخذ رغيفًا، وقطعة من شحم الخنزير، وكان يريد أن ينسحب في الحال، حاملاً عشاءه، ولكن السّيد أ. . . استبقاه أيضًا لبضع لحظات. وقد أخذه الفضول كي يلاحظ على مهل رجلاً كان يجري الحديث عنه كثيراً.

وقال للمطارد:

سوف يتحتم عليك عاجلاً أم آجلاً أن تغادر هذه البلاد. فاذهب إلى جنوه أو إلى فرنسا. ومن هناك، تعبر إلى اليونان. ولسوف تجد فيها عسكريين، وهم من مواطنينا. ولسوف يستقبلونك استقبالاً حسنًا. وسأعطيك بطيبة خاطر ما يمكنك من القيام بالرّحلة.

فأجاب روندينو، بعد أن فكّر قليلاً:

أشكرك، فأنا لا أستطيع أن أعيش في أيٍّ مكان آخر غير بلدي، ولسوف أحاول ألا أشنق إلا في أبعد وقت ممكن.

وذات يوم، أتى إليه بعض اللصوص المحترفين، وقالوا له:

ـ هذه الليلة، من المقرّر أن يمرّ مستشارٌ من تورين إلى مكان كذا، وهو يحمل أربعين ألف ليرة في عربته، فإذا أردت أن تقودنا، سنقوم بتوقيفه، وتحصل أنت على حصّة الزعيم.

رفع روندينو رأسه باعتداد، ونظر إليهم بازدراء، وقال:

من تظنّونني؟ أنا رجلٌ شريفٌ مطاردٌ، ولست لصًا. لا تقدموا لي عروضًا مماثلة، وإلاّ ندمتم عليها.

تركهم، ومضى لملاقاة المستشار، وما إن التقاه عند حلول الظّلام حتى أوقف العربة، وصعد إلى المقعد، وأمر الحوذيّ بأن يتابع طريقه. ومع ذلك، فقد

كان المستشار المرتجف يتوقع الاغتيال في كل لحظة. وظهر اللصوصُ بغتة، وسط معبر جبلي، فصاح روندينو في الحال:

هذه العربة تحت حمايتي، وأنتم تعرفونني؛ فإذا هاجمتموها، فلسوف أكون أنا من تواجهون.

كان قد رفع بندقيته. ولم يكن كلبه ينتظر إلاّ إشارة واحدة كي يثب على اللّصوص فأفسحوا المجال أمام العربة التي أصبحت بعد قليل في أمان، فقدّم المستشار هدية قيمةً لمحرره، ولكن روندينو رفضها، وقال:

لم أقمْ إلا بالواجب الذي يؤديه أي رجل شريف. فأنا اليوم لا أحتاج شيئًا. ومع ذلك، فإذا أردت أن تبرهن على عرفانك بالجميل. قل لمزارعيك فقط أن يعطوني ربع ريال، عندما لايعود لديّ بارود، وطعامًا عندما أجوع.

ألقي القبض على روندينو، منذ عامين على النّحو التالي: لقد أتى لينام ليلة في أحد الأديرة، فطلب كل المفاتيح؛ فكان الكاهن من المهارة بحيث احتفظ بأحدها، وتمكن بواسطته، بعد أن نام قاطع الطّريق، أن يرسل صبيًا شابًا كان يخدمه كي يُخطِر مفرزة الشرطة الأقرب إلى الدّير. وكان كلب روندينو يمتلك غريزة عجيبة تجعله يشتم اقتراب أعدائه عن بعد؛ فأيقظ نباحه صاحبه الذي حاول الخروج من القرية؛ غير أن الطّرق كافة كانت محروسة؛ فصعد إلى قبة الجرس وتمترس فيها. وما إن طلع النهار، حتى بدأ يطلق النار من النوافذ، فأجبر رجال الشرطة سريعًا على الالتجاء إلى المنازل المجاورة، وعلى أن يتخلّوا عن الهجوم، ودام تبادل إطلاق النار قسمًا كبيرًا من النّهار. ولم يكن روندينو جريحًا. وكان قد أخرج من المعركة ثلاثة رجال شرطة. غير أنه لم يبق لديه خبز ولاماء، وكانت الحرارة خانقة. فأدرك أن ساعته قد حانت. وفجأة شوهد وهو يظهر على إحدى النوافذ الخارجية، ويرفع منديلاً أبيض على رأس بندقيته، فتوقف إطلاق النار.

وقال:

لقد تعبت من الحياة التي أعيشها، وأود الاستسلام، ولكني لا أريدُ أن ينال رجال الشرطة شرفًا، لأنهم قد قبضوا علي. فأحضروا ضابطاً مقاتلاً، ولسوف أستسلمُ له.

وكانت فصيلةٌ عسكريةٌ تدخل في ذلك الوقت بالضبّط إلى القرية بقيادة ضابط، وجرت الموافقة على ما طلبه روندينو، وكان الجنود يتخذون وضعية القتال أمام قبة الجرس، فخرج روندينو في تلك اللّحظة، وتقدّم نحو الضابط، وقال له بصوت حازم:

يا سيّدي، اقبل كلبي هذا، وسوف تكون مسروراً معه. وعدني بأن تهتمّ به. وعده الضابط بذلك، وفي الحال، كسر روندينو أخمص بندقيته، واقتاده الجنود بلا مقاومة. وعاملوه بكثير من المراعاة، وانتظر محاكمته لمدة تقارب العامين واستمع إلى قرار الحكم بكثيرٍ من برودة الأعصاب، واحتمل عقابه من غير ضعفٍ أو تبجح.

- ٦ -
هـ . ب .(١)

ثمة مقطع في «الأوديسة» غالبًا ما أستذكره، وذلك عندما يظهر شبح إلبينور لأوليس ويسأله أن يقيم له المراسم الجنائزية.

«لاتتركني من غير أن يبكي عليَّ أحد، ومن غير أن أدفَن».

لا أحد يبقى من غير دفن في أيّامنا، بفضل تعليمات الشرطة، غير أنّنا، نحن الوثنيين كذلك، نضطلع بواجبات ينبغي أن نؤديها تجاه موتانا. وهي لا تتمثّل فقط في تنفيذ أوامر مصلحة رمي النفايات؛ فقد حضرت ثلاث عمليات دفن، وثنية: - وهي دفن سوتليه الذي انتحر بإطلاق النّار على رأسه. أما أستاذه، وهو فيلسوف كبير(٢)، وأصدقاؤه فقد خافوا من النّاس الشرفاء، ولم يجرؤوا على الكلام - ودفن السيّد جاكمون. وكان قد أوصى بمنع الخطابات - وأخيراً، دفن بيل الذي حضرناه، وكان عددنا ثلاث. وكنا مهيّئين لحضوره على نحو سيىء، بحيث كنّا نجهل رغباته الأخيرة. وفي كل مرة، شعرت بأننا قد أخللنا بشيء ما، إن لم يكن تجاه الميت، فعلى الأقل تجاه أنفسنا. فإذا مات أحد أصدقائنا أثناء السفر، فلسوف نأسف أسفًا شديداً على أننا لم نودّعه في لحظة سفره. إن السَّفر والموت يجب أن يحتفى بهما بطقس احتفاليّ معين، لأن فيهما شيئًا رسمياً، حتى وإن لم يكن شيئًا سوى مأدبة، وتجميعًا لأفكار مألوفة. لا بد من شيء ما، وهذا الشيء هو ما يطلبه إيلبينور، فهو لايطالب بقليل من التراب فحسب، بل بذكرى.

---

(١) هـ . ب: هما الحرفان الأولان لكلمتي: هنري بيل، وهما الاسم الأصلي للروائي الفرنسي المعروف باسم ستندال (١٧٨٣ - ١٨٤٢)، من رواياته: «الأحمر والأسود» و «دير بارما»، و «كتب نقدية» ومذكرات إلخ...

و هـ . ب: ليست قصة من قصص ميريميه، بل كلمة نَقدية وتأبينية ربما لذكرى الروائي الفرنسيّ ستندال. ويحاول فيها ميريميه أن يودع ويحيي ذكرى صديقه الذي لم يتح له المجال أن يتكلّم عنه عند مأتمه. (م: ز. ع).

(٢) هو: فيكتور كوزان.

إني أكتب الصّفحات التالية كي أعوّض عما فاتنا أن نفعله في مأتم بيل، وأريد أن أشرك بعضاً من أصدقائي. في انطباعاتي، وفي ذكرياتي.

إن بيل، الأصيل في كل آلأمور، وهذا فضلٌ حقيقي له في هذا العصر، عصر العملات الباهتة، كان يفخر بنزعته التحررية، وهو الذي كان في أعماق نفسه، ارستقراطيًا كاملاً.

لم يكن يطيق الحمقى، وكان يكنُّ للناس الذين يضجرونه كراهية متفجرة. ولم يكن طوال حياته يستطيع أن يفرق جيداً بين إنسان شرير وإنسان مزعج. وكان يعلن ازدراءه العميق للطبع الفرنسي، وكان بليغًا في إبراز كل العيوب التي تتهم بها أمتنًا العظيمةُ اتهامًا خاطئًا بلاريب، وهي: الخفّة والطّيش، والتّناقضُ في الأقوال. وفي حقيقة الأمر، فقد كان يتصف بهذه العيوب نفسها إلى أعلى الدّرجات. وإذا اقتصرنا على الحديث عن الطيش؛ فقد كتب ذات يوم، من سيفيتا ـ فيكشيا، إلى السّيد دوبر وغلي، وزير الشؤون الخارجية، كتب رسالة مرمَّزة. وأرسل إليه مفتاح الترميز في المغلف ذاته.

لقد كان خياله يسيطر عليه، طوال حياته، وهو لم يفعل شيئًا إلا بصورةٍ مفاجئة، أو عن حماسة. ومع ذلك، فقد كان يفخر بأنه لايتصرف قط إلا بموجب العقل: «يجب على المرء أن يسترشد بـ المنـ ـ طق، في كل شيء.». هكذا كان يقول، وهو يضع فاصلاً بين المقطع الأول، وبقية الكلمة. ولكنه كان يعاني معاناةً طافحةً بالضجر لأن «منطق» الآخرين لم يكن منطقه. زد على ذلك أنه لم يكن يجادل إلا نادراً. أما الذين كانوا لايعرفونه، فيعزون إلى غروره المفرط ما لم يكن يتعدّى ربما احترام قناعات الآخرين. وغالبًا ماكان يقول لإنهاء المناقشات: «أنت هرٌّ، وأنت فأرٌ».

وذات يوم، أردنا أن نكتب معًا مسرحية. كان بطلنا قد ارتكب جريمة، ويعذبه تبكيت الضمير، فقال بيل: «كي يتخلص من تبكيت الضمير، ماذا يجب أن يفعل؟» وفكر للحظة من الزّمن، ثم قال: «يجب أن يؤسِّس مدرسة للتعليم التعاوني»، وتوقفت المسرحية عند ذلك الحدّ.

لم يكن يحمل أية فكرة دينية، أو إذا ما كانت لديه فكرةٌ من هذا النوع، فقد كان يضمر شعوراً بالغضب والضغينة نحو العناية الإلهية، «وكان يقول: إن ما يغفر للربّ هو أنّه غير موجود» وذات مرّة، في منزل السّيدة باستا، قدّم لنا النظرية التالية في نشأة الكون: «كان الله مهندساً للآلات جدّ ماهر، وكان يعمل ليلاً ونهاراً في مشروعه، ويتكلّم قليلاً، ويخترع باستمرار شمساً تارة، ومذنّبًا حينًا آخر. وكانوا يقولون له: ولماذا إذن لا تسجّل اختراعاتك؛ فلا ينبغي أن تضيع - وكان يجيب: لا، فلم يصل شيءٌ بعد إلى النقطة التي أريدها. فدعوني أحسّن اختراعاتي، وحينذاك. . . »، وذات يوم، مات فجأة، فهرعوا ليأتوا بابنه الوحيد الذي كان يدرس عند اليسوعيين، وكان صبيًّا وديعًا ومجتهداً، ولم يكن يعرف كلمتين في علم الميكانيك، فاقتادوه إلى مشغل المرحوم والده، وقالوا له: «هيًّا إلى العمل! إن المطلوب هو إدارة العالم». وها هو يرتبك حقًّا ويسأل: وكيف كان يصنع والدي - كان يدير هذا الدولاب، ويعمل هذا، ويعمل ذاك» وها هو يدير الدولاب، فتسير الآلات بصورة منحرفة تمامًا».

قال لي بيل إنه قد كتب مسرحية عن حياة يسوع المسيح، وقد أظهره فيها ذا روح بسيطة، وساذجة ومفعمة تماماً بالحساسية والحنان، ولكنها غير قادرة على أن تحكم البشر. وكان يسوع المسيح، في تلك المسرحية يستثمر لمصلحته مذهب سقراط. وقد سألته: هل هناك حبٌّ في مسرحيّتك؟ - كثيراً.

وكان يؤكد أن الرجال العظماء كانت لديهم ميولٌ غريبة، وكان يورد أسماء الإسكندر، وقيصر. وكان يزعم أن نابوليون نفسه كان يميل إلى أحد مساعديه.

كان من الصعب أن نعلم رأيه بنابوليون؛ فقد كان على الدّوام تقريبًا ذا رأي مخالف للرأي الذي يدّعيه الناس؛ فحينًا كان يتكلّم عليه كما يتحدّث عن وصولي قد بهرته البهارج، ويخرق باستمرار قواعد «المنـ - طق» وفي أحيان أخرى يبدي به إعجابًا يصل إلى العبادة تقريبًا. وبالتناوب، كان عيابًا مثل كوربيه، وذا موقف عبودي مثل لاس كازيس. وكان يعامل رجال الامبراطورية بالاختلاف نفسه الذي كان يعامل به سيّدهم.

كان يوافق الرأي القائل بالسحر الذي يمارسه الامبراطور على كلٍّ من يقترب منه.

وكان يقول: «وأنا أيضاً كان لديَّ ذلك الاندفاع، وكنت قد أرسلت إلى برونشفيك لتحصيل ضريبة غير عادية، ومبلغها خمسة ملايين. ولقد قمت بجباية سبعة ملايين، وكنت على وشك أن أصرع على يد السوقة الذين تمردوا لأن حماستي المفرطة قد أثارت سخطهم. ولكن الامبراطور سأل عن مراقب الحسابات الذي قام بذلك، وقال: «هذا حسن»».

كنا نحب أن نسمعه يتحدّث عن الحملات التي قام بها مع الامبراطور، وكانت قصصه قلما تشبه الروايات الرسّمية، ولسوف نحكم على ذلك؛ ففي معركة حامية جداً، كان مورات يخطب في الجنود الذين كانوا على وشك التشتت، مستخدماً العبارات التالية:

إلى الأمام: س. ن. د. د. مؤخرّتي دائريةٌ مثل تفاحة، أيها الجنود! لي مؤخرّة دائرية مثل تفاحة!»-وكان بيل يقول: في لحظة الخطر، كان ذلك الخطاب يبدو عادياً، وأنا على قناعة من أن قيصر والإسكندر قد قالا في مناسبات مثل تلك المناسبة حماقات فظة كتلك الحماقات.».

عندما رحل بيل عن موسكو، وجد نفسه، في مساء اليوم الثالث من الانسحاب، مع ما يقرب من ألف وخمسمئة رجل، معزولاً عن معظم الجيش، بفيلق روسي كبير فأمضوا قسماً من الليل في الرثاء للنّفس والتشكيّ. ثم أن ذوي العزيمة خاطبوا الجبناء، وحثوهم بقوة بيانهم، على أن يشقوا لأنفسهم طريقاً، وهم يمتشقون سيوفهم، ما إن يتيح لهم ضوء النهار تمييز العدوّ. وقد استخدموا نوعاً آخر من الخطاب العسكريّ: «يا زمرة الأوغاد، سوف تكونون موتى جميعكم غداً؛ فأنتم أجبن من أن تمسكوا بندقية وتستخدموها إلخ...». ولقد أعطت تلك الكلمات السامية تأثيرها؛ فزحفنا، عند بداية طلوع الفجر على الروّس الذين كنا لانزال نرى نيران معسكرهم تلتمع. ووصلنا إلى هناك من غير أن يكتشفونا، فوجدنا كلباً وحيداً. وكان الروس قد مضوا أثناء الليل.

خلال الانسحاب، لم يكن قد عانى من الجوع معاناة مفرطة، إنما كان من المستحيل بالنسبة إليه أن يتذكر كيف تناول الطعام، وماذا أكل، اللهم إلاّ أن يكون ماأكله هو قطعة من الشحم قد دفع عشرين فرنكًا ثمنًا لها، ولايزال يتذكرها بتلذذ.

كان قد جلب من موسكو الكتاب الذي يحتوي فكاهات فولتير، وهو مجلد بجلد الماعز[1] الأحمر والذي كان قد أخذه من منزل يحترق. وكان رفاقه يجدون ذلك العمل لايخلو من الخفة؛ فهو يجعل تلك الطبعة الرائعة ناقصة! وكان هو نفسه يحس بنوع من الندم على ذلك.

وذات صباح، وفي المناطق المجاورة لبيريزينا، تقدم من السيد دارو، وقد حلق ذقنه، وارتدى ملابسه ببعض العناية، فقال له السيّد دارو:

- لقد حلقت ذقنك! إنك رجل شجاع.

أما السيّد برغونييه، وكان مندوبًا بمجلس الدولة، فقد قال لي إنه يدين لبيل بحياته. لأنه قد توقع أن تكون الجسور مزدحمةً، فأجبره على اجتياز بيريزينا في المساء الذي سبق الاندحار. وكان لابدّ من استخدام القوّة تقريبًا ليتوصل المرء إلى جعله يتقدم بضع مئات من الخطوات. وكان السّيد برغونييه يمتدح برودة أعصاب بيل، وحسن تفكيره الذي لم يكن يتركه في اللحظة التي يفقد فيها رشادَهم أكثر الرجال ثباتًا. وفي عام ١٨١٣، كان بيل شاهداً عن غير إرادة منه على هزيمة لواء كامل كان قد هاجمه خمسةُ قوقازيين بصورة مباغتة. ورأى بيل مايقارب ألفي رجل يركضون، من بينهم خمسة عمداء يمكن تعرفهم من خلال قبعاتهم المطرزة؛ فركض مثل الآخرين، وإنّما بصورة سيئة، لأنه لم يكن ينتعل إلاّ فردة حذاء واحدة، ويحمل فردة جزمة بيده. وفي ذلك الفيلق الفرنسي، لم يكن هناك سوى بطلين قد تصدّيا للقوقازيين: شرطيٌ اسمه مينوفال، ومجند قام بقتل حصان الشرطي عندما أراد إطلاق النار على القوقازيين. وقد كلف بيل برواية ذلك الذّعر الذي أصاب اللّواء إلى الامبراطور الذي كان يصغي إليه بغضب كامن، وهو يدير إحدى تلك

١- هو تجليدٌ فاخر، ويسميه البعض «السُّختيان». (م: ز.ع)

الآلات الحديدية التي تستخدم في تثبيت الستائر. وقد بحثوا عن الشّرطي لإعطائه وسام الصّليب، ولكنه كان مختبئًا، وأنكر في بادئ الأمر أن يكون قد حضر القتال، لقناعته بأنه ما من شيء أسوأ من أن يبرز المرء في هزيمة ما، وكان يظنّ أنهم يريدون إعدامه بالرّصاص.

أما الحبّ، فقد كان تعبير بيل عنه أبرع من تعبيره عن الحرب؛ فلم أره قطّ إلاّ مغرمًا، أو ظانًّا أنه مغرمٌ. غير أنه قد وقع مرتين في الحبِّ ـ الشّغف (وأنا أستخدم أحد تعابيره)، وهو الحبّ الذي لم يستطع أن يبرأ منه قطّ. وفي المرّة الأولى زمنيًا، كما أظن، كانت ملهمته هي السّيدة كوريال التي كانت حينذاك في أوج تألق جمالها. وكان منافسوها في ذلك الحبّ العديد من الرجال المقتدرين، ومن بينهم عميدٌ ذو حظوةٍ كبيرة[1] والذي أساء استخدام مركزه ذات يوم كي يجبر بيل على أن يتخلّى له عن مكانه لدى السّيدة. وفي المساء نفسه، وجد بيل وسيلة ليوصل إليه حكاية صغيرة من تأليفه، وفيها يعرض عليه مبارزة بصورة مجازية. ولا أدري إن كانت الحكاية قد فهمت. غير أن المغزى الأخلاقي فيها لم يجد قبولاً، وقد تلقى بيل توبيخًا شديدًا على يد السيد دارو، قريبه، وحاميه. ولكن بيل لم يوقف ملاحقاته للسيدة بسبب ذلك. وفي عام ١٨٣٦، كان بيل يروي لي تلك المغامرة، مساءً، وتحت أشجار منتزه لان الكبير، وأضاف أنه قد رأى للتو السيدة كوريال التي كانت حينذاك في السابعة والأربعين من عمرها، وأنه قد وجد نفسه مغرمًا بها مثلما كان في اليوم الأوّل للقائهما. إن كلاً منهما قد مرَّ بتجارب غرامية أخرى. أثناء هذا الفاصل الزّمني، وكانت تقول له: «كيف تستطيع أن تستمرّ في حبك لي، في مثل عمري؟» وقد كان يثبت لها ذلك بشكل جيد جداً، ولم أره قط يظهر تأثرًا يعادل تأثره ذاك؛ فقد كانت عيناه مغرورقتان بالدموع وهو يحدثني. أما حبُّه ـ الشغف الآخر فكان تجاه حسناء ميلانية تدعى السيدة غرويا. وبرغم صدق الإيطاليات الذي كان يعارض به غنج نسائنا؛ فإن السيدة غرويا كانت تخونه بفظاظة. وكانت تمتلك البراعة لإقناعه بأن زوجها وحش من وحوش الغيرة، مع أنه أكثر الرّجال تسامحًا معها. وكانت

---

١ - هوك كولانكور.

تجبر بيل على الاختباء في تورين، لأن وجوده في ميلانو كان يمكن، كما تقول، أن يفسد سمعتها. وكان بيل يأتي إلى ميلانو، مرّة كلّ عشرة أيام، في عزّ الشتاء، وبأقصى سريّة ممكنة كي يختبئ في نزل حقير، وكانت تدخله إلى منزل عشيقته مدبّرة منزل كان يجزل لها العطاء. واستمر هذا بعض الوقت، وباتخاذ احتياطات لاتنتهي. ومع ذلك؛ فقد شعرت مدبرة المنزل بالنّدم، واعترفت له بأنه يتعرَّض للخداع، وأن للسّيدة عشاقًا مختلفين بعدد الأيام التي يمضيها مبعداً عنها. ولم يرد في البداية أن يصدّق شيئًا من هذا، ومع ذلك، فقد وافق في النهاية على القيام بتجربة، فأدخلته المدبّرة حجرة صغيرة، ومنها، رأى حين وضع عينه في ثقب القفل، وعلى بعد ثلاثة أقدام منه، أكثر دلائل الإقناع قباحة. وقد قال لي بيل إن غرابة الأمر، والطّابع المضحك للموقف قد سبّبا له في البداية مرحًا جنونياً. وقد بذل كلّ جهد ممكن لكيلا يرعب الآثمين بأن ينفجر ضاحكًا. ولكنه لم يشعر بالتعاسة إلاّ بعد مضيّ بعض الوقت. وحاولت الخائنة التي كان كلُّ انتقامه منها هو أنه قد تهكم عليها قليلاً، حاولت أن تثير شفقته وسألته أن يعفو عنها وهي جاثية، ولحقت به على طول رواقٍ كبير، وهي في وضعية الجثو، ولكن الكبرياء منعه من أن يغفر لها. وكان يقرُّ بخطئه في ذلك بمرارة حين يتذكر الهيئة المشبوبة العاطفة للسيدة غرويا، فلم تكن قد بدت له قطُّ مشتهاة إلى ذلك الحدّ، ولم تكن أبداً تحمل له ذلك القدر من الحب من قبل. كان قد ضحى في سبيل كبريائه بأكبر متعة. كان يمكنه أن يتذوّقها معها ـ وقد لزمه ثمانية عشر شهراً كي يجد السّلوى. وكان يقول: لقد أفسد الأمر عقلي، فلم أعد أفكرُ، وكنت أنوء تحت ثقل لايحتمل من غير أن يكون بمقدوري إدراك ماأحسُّ به إدراكًا واضحًا. إنها أعظم البلايا؛ فهي تحرم المرء من كلِّ نشاط بعد ذلك. وعندما أبلَلْت قليلاً من ذلك السّقام المضني، أصبح عندي فضول غريب لمعرفة خياناتها كلّها؛ فطلبت أن تروى لي في تفاصيلها كافة. وقد سبّب لي ذلك ألماً فظيعًا، ولكني كنت أشعر بنوع من المتعة الحسيّة، وأنا أتصورّها في كل المواقف التي كانوا يصفونها لي فيها».

بدا لي بيل مقتنعاً على الدَّوام بتلك الفكرة الشديدة الانتشار في عهد الامبراطورية والتي مفادها أن المرأة يمكن دوماً أن تؤخذ عنوةً، وأن على كلِّ رجل أن يحاول. وكان يقول لي، عندما أكلّمه عن امرأة أصبحت مغرماً بها: «خذها، إن هذا أولاً هو ما تدين به لها». وذات مساء، في روما، روى لي أن الكونتيسة سيني قد قالت له أنت بدلاً من أنتم، وقد سألني إن كان يتعيَّنُ عليه أن يغتَصِبها، فحثثته على ذلك كثيراً. لم أعرف شخصاً أكثر منه تهذيباً في تقبُّل الانتقادات على كتبه؛ فقد كان أصدقاؤه يتكلّمون دوماً من غير أدنى مراعاة له. وقد أرسل إليّ، لعدّة مرات، المخطوطات التي كان قد أرسلها قبلاً لـ. ف. جاكمون. والتي كان يجري إرجاعها إليه وقد كتبت على هوامشها ملاحظاتٌ من مثل الملاحظات التالية: «مقيت ـ أسلوب بوّاب.» إلخ. وعندما أصدر كتابه: «في الحبّ»، كان النُّقاد يتسابقون على السُّخرية منه أكثر فأكثر (وهي سخرية متعسفةٌ في الواقع). إن تلك الانتقادات لم تسىء قط إلى علاقاته بأصدقائه.

كان يكتبُ كثيراً، ويشتغل في مؤلفاته طويلاً، ولكنه كان يعيد تنظيم مخططها بدلاً من أن يصحح أسلوب تنفيذها. ولئن كان يمحو أغلاط الصيّاغة الأولى، فذلك كي يرتكب غيرها. فأنا لا أعلم إن كان قد حاول يوماً أن يصحّح أسلوبه. ومهما كان هناك شطب في مخطوطاته، فبوسع المرء أن يقول إنّها قد كتبت دوماً للمرّة الأولى.

أما رسائله فقد كانت ممتعة، وكأنّها حديثه نفسه.

كان مرحاً جداً في المجتمع الراقي، وطائشاً أحياناً ـ ويفرط في عدم مراعاته للمجاملات ولحساسيات الناس، وغالباً ما يكون بعيداً عن الظرف والتأدُّب، ولكنّه مرهف العقل، أصيله. ومع أنّه لم يكن يراعي أحداً، فقد كانت تجرح مشاعره بسهولة كلماتٌ تفلت من قائلها من غير خبث. «وكان يقول لي: إني كلبٌ فتيٌّ يلعب، وهم يعضونني». وينسى أنه كان يعضّ أحياناً، وبما يكفي من الحصافة.

وذلك لأنه قلّما كان يستوعب إمكانية أن تكون للآخرين آراء أخرى حول الأشياء والنّاس غير آرائه: فمثلاً لم يستطع قط أن يؤمن بوجود أتقياء حقيقيين، فكان الكاهن والملكيّ في نظره منافقين دائماً.

أما آراؤه في الفنون وفي الأدب. فقد نظر إليها على أنها بدعٌ متهوّرةٌ، عندما عرضها، وتبدو اليوم بعض أحكامه وكأنها حقائق السّيد دو لا باليس. وعندما كان يضع موزار وسيما روزا وروسيني في مرتبة أعلى من مرتبة صانعي الأوبرات الهزلية لشبيبتنا، فقد كان يثير العواصف. وفي ذلك الوقت إنما كانوا يتّهمونه بأنه لا يحمل مشاعر فرنسية.

ومع ذلك، فقد كان فرنسياً جداً في آرائه حول التصوير، مع أنه يزعم بأنه يحكم عليها كإيطالي. إنه يقوّم أساتذةَ التّصوير بأفكارٍ فرنسية، أي من وجهة النظر الأدبيّة. وهو يعاين لوحات المدارس الإيطالية. وكأنها مسرحيات. وتلك أيضاً هي طريقة التقويم في فرنسا التي ليس فيها للناس إحساسٌ بالشكل، ولا تذوق فطريّ للّون؛ فلا بد من حساسية خاصة، ومن تمرين طويل كي يحبَّ المرء ويفهم الشكل واللون.

إن بيل ينسب إلى لوحة العذراء «لرافاييل» عواطف مؤثّرةً. ولقد كان يخطر ببالي دوماً أنه كان يحبُّ المصوّرين الكبار، ومصوّري المدرستين: اللومباردية والفلورنسيّة لأن أعمالهم كانت تجعله يفكر بأشياء كثيرة لم يكن هؤلاء الأساتذة يفكرون بها بالتأكيد. إن ميزة الفرنسيين هو أنهم يحكمون على كل شيء بالفكر. وإنه لأمرٌ صحيحٌ أن نضيف أنه ما من لغة يمكنها أن تعبّر عن دقائق الشّكل المرهفة، وعن تنوّع تأثيرات اللّون. فإذا أعجزنا التفكير عما نحس به، فإنّنا نصف إحساسات أخرى يمكن لكل الناس أن يفهموها.

لطالما بدا لي بيل غير مكترث إلى حدّ كاف بفنّ العمارة، وبما أنه لم يكن لديه عن هذا الفنّ سوى أفكار مقتبسة؛ فأظن أني قد علمته التمييز بين كنيسة روميّة

وكنيسة قوطية، وأن يتفحّص إحداهما والأخرى، إضافة إلى ذلك. وقد كان يأخذ على كنائسها أنها كئيبة.

كان إحساسه بنحت كانوڤا أفضل مَن إحساسه بأيّ نحتٍ آخر، وحتى أفضل من إحساسه بالتماثيل الإغريقية؛ فهل يعود هذا ربّما لأن كانوڤا قد اشتغل لصالح رجال الأدب. ولقد اهتمّ بالأفكار التي يثيرُها في عقل مثقّفٍ أكثر بكثير مما اهتمّ بالانطباع الذي يمكن أن يحدثه في عينٍ تحبُّ الشكلَ وتعرفه.

لقد كان الشعر في نظر بيل رسالةً مختومة، وغالبًا ما كان يحدثُ له أن يكسر أبياتًا شعريةً فرنسيّة، حين يوردها؛ فهو لم يكن يعرف أوزان أبيات الشّعر الإنكليزية والإيطالية، ونقاط التأكيد فيها. ومع ذلك، فقد كان يحسُّ فعلاً بعض الجماليات عند شكسبير ودانتي، وهي التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بشكل البيت الشعريّ. وقد قال كلمتَه الأخيرةَ في الشّعر، وذلك في كتابه «في الحبّ»: «إن الأبياتَ الشّعرية قد ابتكرت لكي تعين الذّاكرةَ، أما الاحتفاظُ بها، في الفنّ المسرحيّ، فيعدُّ تخلّفًا.» وكان راسين يضجره غاية الضّجر. واللوم الكبير الذي كنا نوجّهه إليه حوالي عام ١٨٢٠ هو أنه لم يراع إطلاقًا الطّبائع، أو ما كنّا ندعوه حينذاك بالطابع المحليّ، في رطانتنا الرومنسيّة. إن شكسبير الذي كنّا باستمرار نعارضُ به راسين قد ارتكب أخطاء أكثر فظاظة بمئة مرة منه.» غير أن شكسبير، كما كان بيل يقول: «قد عرف معرفةً أفضل القلبَ الإنسانيّ، وما من عاطفةٍ أو شعورٍ لم يصوّرْه بصدقٍ يثيرُ الإعجابَ. إن حياةَ وفرديّة شخصياته تضعهُ في مرتبةٍ أعلى من مرتبة المؤلفين المسرحيّين كافّة. وكانوا - يردّون على بيل قائلين: - وموليير؟ - إن موليير خبيثٌ، وهو لم يشأ أن يصوّرَ رجل البلاط، لأن لويس الرابع عشر لم يكن يستحسن ذلك».

كان لدى بيل في الحياة منظومة من المبادئ الأساسيّة العامة التي ينبغي، حسبما كان يقول، أن تُراعى بصورةٍ مؤكّدة، ومن غير مناقشة، ما إن يكون المرء قد وجدها في إحدى المرّات مريحة. ولم يكن يسمح إلاّ بصعوبةٍ أن يجري البحث في لحظة من اللحظات، فيما إذا كانت الحالة الخاصّةُ تدخل في نظريّاته العامّة.

وحتى بلوغه الثلاثين من العمر، كان ينتظر من الرّجلِ الذي يجدُ نفسه مع امرأةٍ وحيدة أن يحاول الدنُوّ منها. وكان يقول إن ذلك ينجح مرّةً واحدة من أصل عشر؛ فالحظّ الذي نسبته واحد إلى عشرة يستحقُّ فعلاً أن يحتمل المرء الصَّدّ لتسع مرات. لا تغفرْ كذبةً قطّ. لا تندمْ أبدًا. انتهزْ الفرصة السّانحة، فرصة الخصام، عند دخوله إلى المجتمع الراقي، تلك هي بعضُ مبادئه الأساسيّة.

كان يسخر مني حين يراني أدرس اليونانية، وأنا في الخامسة والعشرين من عمري. وكان يقولُ: «أنت في ساحة المعركة، ولم يعدْ هذا هو الوقت المناسب لكي تلمّع بندقيتك، بل ينبغي أن تطلقَ النّار».

كان قد عانى - شأن الكثيرين غيره، من الحياء الضار في مرحلة شبابه، وإنّه لأمرٌ صعبٌ بالنسبة لشاب أن يدخل إلى قاعة استقبال ويتصوّر أن الناس ينظرون إليه، ويخشى دومًا ألا يكون ذا مسلك سليم. وكان يقول لي: «أنصحك بأن تدخل أنت في الموقف الذي جعلتك الصّدفةُ تتخذّه في مدخل القاعة. ولا يهمُّ إن كان مناسبًا أم لا. ولكن، كن مثل تمثال الآمر، ولا تبدّل وقفتك إلاّ عندما يختفي الانفعالُ الذي رافق دخولك».

وكانت لديه تعليماتٌ أخرى من أجل المبارزات كالتّالي: «فيما يصوّبون عليك، انظر إلى شجرةٍ، وثابرْ على عدِّ أوراقها».

كان يحبُّ الطعامَ الفاخر. ومع ذلك، فقد كان يعدُّ الوقت الذي يمضيه المرءُ في الطعام ضائعًا، ويتمنّى أن يتخلّص الإنسان من الجوع لنهارٍ كامل، إذا ماازدرد كُرَيَّةً في الصّباح. أما اليوم، فالناسُ شرهون، وهم يفاخرون بذلك. أما في زمنِ بيل، فقد كان الرّجالُ ينشدون خصوصًا العزمَ والشّجاعةَ؛ فكيف يقومُ المرءُ بحملةٍ إذا كان محبًّا للطّعام.

كانت شرطةُ الامبراطورية تدخلُ إلى كلِّ مكان، كما يُزعم، وكان فوشيه يعرفُ كلّ مايقال في قاعات استقبال باريس. وكان بيل مقتنعًا بأن ذلك التجسُّسَ العملاق قد احتفظ بكامل قوّته الخفيّة؛ وهكذا، فما من ضربٍ من الاحتراس لم يحطْ نفسه به في أقلِّ أفعاله أهمية.

لم يكن قطّ يكتب رسالةً من غير أن يوقّعها باسمٍ مستعار من مثل: «سيزار بومبيه»، و«كوتونيه» إلخ. . . وكان يضع تاريخَ رسالته من: أبيي Abeille، بدلاً من سيفيتا ـ فيكشيا. وغالبًا ما يبدؤها بجملةٍ من مثل «تلقّيت حريركم الخام، ووضعته في المخازن بانتظار ترحيله». وكان يدعو كلَّ أصدقائه بأسمائهم الحربيّة، ولم يكن قطّ يسمّيهم بطريقة أخرى. ولم يعرفْ أحدٌ بالضبط أيَّ الناس كان يلتقي، وأية كتبٍ كان يكتبُ. وبأيةِ أسفارٍ يقومُ.

أتصوّرُ أن ناقداً من القرنِ العشرين سيكتشفُ كُتب بيل في ركامِ أدبِ القرنِ التاسع عشر، وأنّه سيمنحها حقّها الذي لم تلاقه لدى المعاصرين؛ فعلى هذا النحوّ، عظمت شهرةُ ديدرو في القرن التاسع عشر. وبهذه الصّورة اكتُشف شكسبير على يد غاريك، بعد أن نسيه عصرُ سانت ـ إيفرومون. ولسوف يكون أمراً مرغوباً فيه أن تنشر رسائل بيل ذات يوم، فلسوف تعرّفنا وتحبّبُ إلينا رجلاً لم يكن يحيا فكرهُ وصفاتُه الممتازة إلاّ في ذاكرةِ عددٍ قليل من الأصدقاء.

مــــلحــق

سيرة ميريميه

١٨٠٣، ٢٨ أيلول: ولد بروسبير ميريميه، في باريس من زواج بين ليونور ميريميه المولود عام ١٧٥٧، وآنا لويز مورو، المولودة في ١٧٧٥، وذلك بتاريخ ٧ ميسيدور، السنة العاشرة (٢٢ حزيران ١٨٠٢).

١٨٢٢، في الصيف: ميريميه يلتقي ستندال للمرة الأولى.

١٨٢٥، ٢٧ أيّار: ينشر: مسرح كلارا غازول.

١٨٢٦، ينشر: «دون كيشوت» من تأليف ڤيو دوسان-مارتان، مع عرضٍ موجز لميريميه.

١٨٢٧، نهاية تموز: نشر «لاغوزلا».

١٨٢٨، بداية كانون الثاني: ميريميه يُصاب بجرح على إثرِ مبارزةٍ مع زوج السّيدة لاكوست.

قبل السابع من حزيران: نشر «العاميّة» التي تتلوها: «أُسرة كارجاڤال».

١٨٢٩، ٥ آذار: نشر وقائع عهدِ ملكية شارل التاسع.

٣ أيار: لاروفو دو باري[1] تنشرُ: ماتيو فالكون.

١٤ حزيران: لاروفو دو باري: «عربةُ القربانِ المقدس»، كوميديا إسبانية.

٢٦ تموز: لاروفودو باري تنشرُ: رؤيا شارل الحادي عشر.

أيلول: لاروفو فرانسيز[2] تنشرُ: احتلال المعقل.

٤ تشرين الأول: لاروفو دو باري تنشر: تامانغو.

٢٥ تشرين الأول لاروفو دو باري تنشر: البندقية المسحورة.

١٥ تشرين الثاني لاروفو دو باري تنشر: فيديريغو.

٢٩ تشرين الثاني لاروفو دو باري تنشر: الفرصة، ملهاة.

٢٧ كانون الأول لاروفو دو باري تنشر: بان كرواتيا، والهايدوك المحتضر،

١- أي: مجلة باريس. (م: ز.ع).

٢- أي: المجلة الفرنسية. (م: ز.ع)

(وهي قصائد إسبانية تحاكي الطريقة الإليرية[1] ولؤلؤة طليطلة)وهي قصيدة تحاكي «الطريقة الإسبانية» .

١٨٣٠ - ١٤ شباط : لا روفو دو باري تنشر : المستاؤون، وهي ملهاة تفسر مثلاً.

١٣ حزيران : لا روفو دو باري تنشر : مباراة النرد .

٢٧ حزيران : ميريميه يغادر باريس ليقوم برحلة إلى إسبانيا (إشبيليا، غرناطة، قرطبة، مدريد، فالنسيا) حيث يرتبط بصداقة مع الكونتيسة دو موتيجو، ويرجعُ إلى باريس في بداية كانون الأول .

١٨٣١ - الثاني من كانون الثاني : لاروفو دو باري تنشر : «صراع الثيران» (رسالة إسبانيا الأولى) .

٥ شباط : ميريميه يعيّن رئيس مكتب أمانة السرّ العامة في وزارة الحربية، في المستعمرات .

١٣ آذار : يُلحق كرئيس مكتب بالكونت دارغو الذي أصبح وزيراً للتجارة، والأشغال العامة .

آذار : مجلة «الأرتيست» تنشر : متحف مدريد .

١٣ آذار : روفو دو باري تنشر : «تنفيذ الإعدام»، وهي رسالة إسبانيا الثانية .

أيّار : يسمّى ميريميه : فارس جوقة الشرف .

١٨٣٢ : نيسان : يسمّى مريميه مفوضاً خاصاً لتنفيذ الإجراءات الصحية ضدّ الكوليرا .

٢٦ آب : لاروفو دو باري تنشر : اللصوّص، وهي : رسالة إسبانيا الثالثة .

---

[1] الإلّيرية : هي البلقانية القديمة . (م .ز .ع .

تشرين الثاني: ميريميه يعيّن مقدماً للعرائض.

كانون الأول: يسافر ميريميه إلى إنكلترا، وعند عودته يلتقي للمرة الأولى بجيني داكان، في بولونيا سير - مير.

٣١ كانون الأول: يُلحَقُ بكونه رئيس مكتب بالكونت دارغو الذي أصبح وزيراً للداخلية والعبادات.

١٨٣٢ - ١٨٣٥: علاقة بين ميريميه وسيلين كيّو.

١٨٣٣ - ٢٦ أيّار: لاروفو دو باري تنشرُ: ڤيكتور جاكمون.

٤ حزيران: نشر: فسيفساء.

٢٥ آب: لاروفو دو باري تنشرُ بضعةَ فصول من «الغلطة المضاعفة» التي تصدرُ في المكتبات، بعد بضعة أيام.

٢٩ كانون الأول: لاروفو دو باري تنشر: «السّاحرات الإسبانيات»، وهي رسالة إسبانيا الرابعة.

١٨٣٤ - ٢٧ أيار: ميريميه يعيّن مفتّشاً للأوابد التاريخية.

١٥ آب: لاروفو دي دو موند[1] تنشر: «أرواح المطهر».

١٨٣٥، قبل ٢٤ تموز: «نشر ملاحظات عن رحلةٍ في جنوب فرنسا».

١٨٣٦: ميريميه يصبح عشيق السّيدة ديلسيّر التي ولدت عام ١٨٠٦، وتزوجت عام ١٨٢٤.

٢٧ أيلول: موت ليونور ميريميه.

قبل ٢٢ تشرين الأول، نشر: ملاحظات عن رحلةٍ في غرب فرنسا.

١٨٣٧ - ١٥ أيار: لاروفو دي دو موند تنشر: «ڤينوس ديل».

١٨٣٨ - قبل ٢٧ تشرين الأول، نشر ملاحظات عن رحلة في أوڤيرنيا.

---

(١) مجلة العالمين. (م: ز.ع).

١٨٣٩ - في الأول والخامس عشر من نيسان: لا روفودي دوموند تنشر: معرض ١٨٣٩، من غير توقيع.

١٥ آب - ١٥ تشرين الثاني: ميريميه يسافرُ إلى كورسيكا وإيطاليا، حيث يزور روما بين ٩ - ٢١ تشرين الأول) ونابولي (٢٢تشرين الأول - ١٠تشرين الثاني) برفقة ستندال.

١٨٤٠ - ٥نيسان: نشر ملاحظات عن رحلةٍ في كورسيكا.

الأول من تموز: لاروڤو دي دوموند تنشرُ: كولومبا.

١٨آب - ٢٠تشرين الأول: ميريميه يسافر إلى إسبانيا (مدريد، كارابوشيل، بورغوس، ڤيتوريا، تولوسّا).

١٨٤١ - قبل ١٨ أيار، توزيع: بحث في الحرب الاجتماعية.

٢٥آب: ميريميه يُبحِرُ إلى مرسيليا باتجاه المشرق (أثينا، إيفيزيا، القسطنطينية، مغنزيا التي في مياندر[1]).

٢١ - ١٦ كانون الأول: حجرٌ صحيٌّ في مالطا.

نهاية كانون الأول: ميريميه يرجعُ إلى باريس.

١٨٤٣ - ١٧تشرين الثاني: ميريميه يُنتَخبُ عضواً غير ملتزم في أكاديمية الكتابات وعلوم الأدب.

١٨٤٤ - ١٤آذار: ميريميه يُنتَخبُ عضواً في الأكاديمية الفرنسية.

١٥آذار: لاروفودي دو موند تنشرُ: «أرسين غيّو».

قبل ٢٣ آذار، نشر: دراسات في التاريخ الروماني (الحرب الاجتماعية، مؤامرة كاتيلينا).

---

(١) مياندر: مستعمرة تيسالية (في آسيا الصغرى قديمًا) كانت شهيرةً في العصر الهلنستي، وفيها اليوم آثار بقرب قرية تيك. (م: ز.ع).

١٨٤٥ - الأول من تشرين الثاني: لا روفودي دو موند تنشر: «كارمن».

قبل العشرين من كانون الأول، نشر: عرضٌ موجز حول الرّسوم في كنيسة سان - ساڤان.

١٨٤٦ - ٢٤ شباط: مجلة الكونستيتوسيونيل[1] تنشر: «رئيس الدير أوبان».

١٨٤٧، قبل ١٤ شباط: كارمن «تصدر في المكتبات، مع دراسة أدبية في نهايتها حول: «المرأة الشرسة المتمردة».

الأول من كانون الأول: لاروفو دي دو موند تبدأ بنشر: «دون بيدرو» الذي ستنهي نشره في الأول من شباط ١٨٤٨.

١٨٤٨ - ٢٣ - ٢٦ حزيران: ميريميه يشارك في أيام حزيران، بعدّه محافظًا وطنيًا.

١٨٤٩ - ١٥ تموز: لاروفو دي دو موند تنشر: «بنت البستوني» وهي قصةٌ مستوحاة من پوشكين.

١٨٥٠ - ٢٦أيار - ٢١حزيران: ميريميه يسافر إلى إنكلترا (لندن - سالسبُري).

في الأول من تموز: لاروفو دي دو موند تنشر: «الميراثان».

١٩تشرين الأول: فهرس فرنسا العام (بيبليوغرافيا فرنسا) يسّجل الكراسة: هـ. ب.[2]

١٨٥١ - ١٥تشرين الثاني: لا روڤودي دوموند تنشر: الأدب في روسيا: نقولا غوغول.

---

(١) الدستوري. (م: ز.ع).

(٢) الحرفان الأولان من: هنري بيل، وهو اسم الروائي الفرنسي المعروف بـ«ستندال».

١٨٥٢ - ٢١كانون الثاني : ميريميه يرقّع إلى رتبة ضابط في جوقة الشرف .

٣٠نيسان : موت والدة ميريميه .

٢٦أيّار : يُحكم على ميريميه بالسّجن خمسة عشر يومًا ، وبدفعِ غرامةٍ قدرُها ١٠٠٠ فرنكًا ، بسبب مقالته : «دعوى السيّد ليبري» التي نُشرت في روفو دي دو موند ، في ١٥نيسان .

أيار : نشر مجموعة : «قصص» .

٦ - ٢٠تموز : ميريميه يقضي مدّة سجنه في الكونسيير جوري .

نهاية كانون الأول : نشر : «واقعةٌ من تاريخ روسيا» : المزيّفون ديميتريوس .

١٨٥٣ - الأول من كانون الثاني : المونيتور أونيڤرسيل تنشر : «المورمونيّون»![1]

١٦أيّار - ٨تموز : المونيتور أونيڤرسيل تنشرُ : معرض ١٨٥٣ ، في ثلاث مقالات .

٢٣حزيران : ميريميه يُعيَّن عضواً في مجلس الشيوخ .

٥أيلول - ١٥ كانون الأول : ميريميه يسافرُ إلى إسبانيا ، والسيّدة ديلسيّر تقطعُ علاقتها به .

١٨٥٤ - ٢١ - ٢٣ حزيران : المونيتور أونيڤرسيل تنشر : قوزاق أوكرانيا وآخر «هتماناتهم»[2] .

١٦ - ٢٥ تموز : إقامة في لندن .

٢٥آب - ١٥ كانون الأول : ميريميه يسافرُ إلى سويسرا ، وإلى التيرول ، وباڤيير ، وبوهيما ، والنمّسا ، والسّاكس ، وبروسيا .

(١) طائفة أمريكية أباحت تعدُّدَ الزوّجات في البداية . (م: ز.ع) .

(٢) زعماء القوزاق . (م: ز.ع) .

١٨٥٥ كانون الثاني: نشر «كتابات تاريخية وأدبية مختلطة».

آذار: نشر «مراسلات ستندال غير المنشورة» مع مقدّمة لميريميه.

تموز: نشر: «مغامرات البارون فينيسّت» لأغريّبا دو بينييه، وهي طبعةٌ جديدة مع تعليقات لميريميه.

١٨٥٦ - ٢١ أذار: لومونيتور أونيفرسيل تنشرُ: «طلقة المسدس» المترجمة عن بوشكين.

١٦ تموز - ٣١ آب: ميريميه يسافر إلى إيقوسيا، ويقيم في لندن.

كانون الأول: ميريميه يقيمُ في كان، حيث يمضي كلّ فصول الشّتاء منذ ذلك التاريخ.

١٨٥٧ - ٩ حزيران - ٨ تموز: ميريميه يسافرُ إلى إنكلترا (مانشستر ولندن) ويكتب مقالات عن معرض مانشستر في المونيتور بتاريخ ٩ تموز، وحول قاعة المطالعة الجديدة، في مكتبة المتحف البريطاني، في المونيتور أيضاً، في ٢٥ آب، وحول الفنون الجميلة في إنكلترا وفي لاروفو دي دوموند في ١٥ تشرين الأول.

١٨٥٨ - ٢٠ نيسان - ١١ أيار: ميريميه يدرس في لندن تنظيم المتحف البريطاني.

أيار: ينشر تقريراً (مؤرخاً في ٢٥ أذار) حول التعديلات التي يجبُ إدخالُها في تنظيم المكتبة الإمبراطورية.

١٩ حزيران - ١٤ تشرين الأول: ميريميه يسافرُ إلى سويسرا، وألمانيا والنمسا، والبيمونت وإلى وسط إيطاليا.

أيلول: نشر المجلد الأول (والمجلد الثاني في كانون الأول، والثالث في كانون الأول ١٨٥٩) للمؤلفات الكاملة لبرانتوم، مع مقدمة وتعليقات لميريميه.

١٨٥٩ - ٣ تشرين الأول - ١٨ تشرين الثاني: ميريميه يسافرُ إلى إسبانيا.

١٨٦٠ - ١٨ تموز - ٣٠ آب: ميريميه يسافرُ إلى إنكلترا وإيقوسيا.

١١ آب: ميريميه يرّفع إلى رتبة آمر (كوماندور) في جوقة الشرف.

١٨٦١ - تموز: صحيفة العلماء تنشرُ: «تمرّد ستينكارازين».

١١ تموز - ١٨ آب: ميريميه يسافرُ إلى إنكلترا (لندن).

١٨٦٢ - ٥ أيّار - الأول من تموز: ميريميه يسافر إلى إنكلترا، وبما أنه عضوٌ في لجنة التحكيم العالمية في لندن، عن القسم الفرنسي، فهو يكتبُ تقريرين في: «تطبيقاتِ الفنّ على الصناعة وصناعة الأثاث والزخرفة».

١٨٦٣ - كانون الثاني - تموز: صحيفةُ العلماء تنشرُ: «بوغدام شميلنييسكي».

أيار: نشر: «الآباء والبنون» لايڤان تورغينيف، مع رسالة تقديم لميريميه.

١٨٦٤: ميريميه يُمضي مدةً في لندن.

من أيلول حتى شباط ١٨٦٥: صحيفة العلماء تنشرُ: دعوى ابن القيصر ألكسي، وعرض للمجلد السادس من تاريخ عهد ملكية بطرس الأكبر ل: ن. أوستريالوف.

تشرين الأول - تشرين الثاني: ميريميه يسافر إلى فرنسا.

١٨٥٦ - أيلول: صحيفةُ العلماء تنشرُ: «عرض المجلد الأول من تاريخ يوليوس قيصر». لنابليون الثالث.

١٨٦٦: السيّدة ديلسّير تُبادل ميريميه الحبّ.

١٥ حزيران: لاروفو دي دوموند تنشر: «تجليات إيڤان تورغينيف». التي تُرجمها ميريميه عن الروسية.

تموز: صحيفة العلماء: عرض المجلد الثاني من «تاريخ يوليوس قيصر» لنابليون الثالث.

١٤ آب: ميريميه يرقّع إلى رتبة ضابط كبير في جوقة الشرف.

١٨٦٧: حزيران - شباط ١٨٦٨: مجلة العلماءتنشر: «مرحلة شباب

بطرس الأكبر» وهي عرضٌ للمجلّد الثاني لتاريخ عهد ملكية بطرس الأكبر».
ل. ن. أوستريالوف.

تشرين الثاني: نشر المراسلات التي لم تنشر لڤكتور جاكمون، مع مقدّمة لميريميه.

١٨٦٨: ٢٠ - ٢٧كانون الثاني: المونيتور أونيڤرسيل تنشر: الكسندر بوشكين.

٢٢ أيّار: المونيتور أونيڤرسيل تنشرُ: «إيڤان تورغينيڤ».

حزيران: ميريميه يقيم في لندن.

١٨٦٩، كانون الثاني: المونيتور أونيڤرسيل تنشرُ تحليلاً ليوميات ساموِيل بيبيس.

أيار: نشر «قصص موسكوڤية». لايڤان تورغينيڤ التي ترجم منها ميريميه: «اليهودي بوتوشكوف» و«الكلب» و«تجليّات» وربما «العريف».

حزيران - تموز: صحيفة العلماء تنشر: تاريخ إليزابيت الثانية المزيّفة.

١٥ أيلول: لاروفو دي دو موند تنشر «لوكيس». تحت عنوان: مخطوطة الأستاذ ڤيتمباخ.

١٨٧٠ - الأولّ من آذار: لاروفو دي دو موند تنشر: قصّة غريبة لإيڤان تورغينيڤ، وقد ترجمها ميريميه.

١٨ - ٢٠آب: ميريميه يبذل لدى تيير جهداً ضائعاً كي يجعله يتحالفُ مع الامبراطورية.

٨ أيلول: ميريميه يغادر باريس إلى كان.

٢٣ أيلول: وفاة ميريميه في كان.

١٨٧١ : ٣ أيار: حريق في منزل ميريميه (٥٢ شارع ليل) الذي كان قد أقام فيه في ٢٤ آب ١٨٥٢، وقد قضى الحريقُ على كتبه وأوراقه كافة.

إن قصة «زقاق السيّدة لوكريزيا» التي نعرف عنها نسخةً مخطوطةً بقلم المؤلّف بتاريخ ٢٧ نيسان ١٨٤٦، و«الغرفة الزّرقاء» التي كتبها في بيارتيز في أيلول ١٨٦١ و«دجومانا» التي كتبها في فونتينبلو في آب١٨٨٦، تردُ في المجلد الصّادر بعد وفاة المؤلّف في مجموعة «القصص القصيرة» (١٨٧٣). أما الدّراسة التي تدورُ على حياة سيرڤانتس ومؤلّفاته التي كُتبت في تشرين الثاني ١٨٦٩ فقد نشرت عام١٨٧٧.

وهناك مجموعتان أخريان (نشرتا بعد وفاة المؤلّف هما). «صورٌ تاريخية وأدبية»، (١٨٧٤)، و«دراسات حول فنون العصر الوسيط» (١٨٧٥)، ولاتحتويان شيئًا هامًا لم يُنشر في حياة ميريميه، ولم يشر إليهما أعلاه.

أما رسائلُ ميريميه التي تعدُّ بالألاف، والمبعثرة في كتب وملازم مجلات لاتحصى، فنجدُها في المجلدات الستّة عشر لمجموعة «المراسلات العامة التي نشرها موريس بارتورييه، وذلك إضافة لمئات الرسائل التي لم تُنْشَر.

مـلاحـظات نقديّـة مـوجـزة

أرسـين غيـو

صدرت أرسين غيّو في «مجلة العالمين»، بدءاً من ١٥ أذار ١٨٤٤، وكان ميريميه في الرابع عشر منه قد انتُخِب عضواً في الأكاديمية الفرنسية، في الدورة السّابقة من الاقتراع، وبفارقٍ قليل هو ١٩ صوتاً من أصلِ ٣٦ مقترعاً. إن مؤرّخ «الحرب الاجتماعية» هو الذي كانت الأكاديميةُ تنوي استقبالَه فيها، وخصوصاً قصّاصُ «الوقائع» و«فسيفساء» و«الغلطة المضاعفة» و«كولومبا». . . - أما مؤلّف «أرسين غيّو»؟ فلا يمكنُ التأكيدُ على ذلك. وقد نؤكّد بالأحرى عكس ذلك، فلو أنها نُشِرَتْ عشيةَ الانتخاب، وليسَ في اليومِ التّالي، لكانت قد أكّدت نجاحَ ألفريد دوڤينيي أو كازيمير بونجور، منافسي ميريميه.

لقد سببتْ «أرسين» المسكينةُ في الواقع، «فضيحة كبيرة»، برغم إجازةِ الطبعِ التي منحها إياها «مجمعُ الحكماء» المؤلّف من نساءٍ عجائز، كان ميريميه قد قرأ أمامهن قصّته أولاً. وقد جهَرَ أكاديميّون متنفّذون، من مثل السّيدين سالڤاندي، وموليه بعدمِ استحسانهم لها. وثمة أكاديميٌ آخر هو السّيد دو سانت أولير، وهو ذو قلمٍ طابعهُ ازدرائي وجافّ. قد كتب إلى السيد دو بارانت يقول: «في هذه القصة بعضُ الموهبةِ التي أُسيءَ استخدامُها، وأقول لك فيما بيننا إني لاأتذكّر أني قرأتُ نتاجاً تافه القيمة، وعلى هذه الدرجةِ من الرّداءةَ في جوهره».
وقد أعلنَ «عمدةٌ» رابع، بفظاظة أكبر «أنّنا نحتاجُ إلى أديبٍ، وقد أعطونا فحلاً».
أما أستولف دو كوستين فيشّهر لدى السّيدة ريكاميه بأرسينَ غيّو. عاداً إياها، من خلال موقفٍ أخلاقيٍ متشدّد «نتاجاً فظيعاً من نتاجاتِ الفكرِ القولتيري»، واللاّمبالاة

الرآهنة»، وفي قاعات الاستقبال التي لم تكن السيّدة دو كاستيلان، عدوته حينذاك، في عداد آخر من يقول كلمته، كلمة الاستنكار، «وجدوا أن قصّتي كافرة ومنافية للأخلاق» هكذا كتب ميريميه إلى السيّدة دو مونتيجو في ٢٣ آذار. وقد أطلقت ثلاث أو أربع نساء زانيات شهيرات، صرخات الغضب الجنوني، والتي ردّدها عشّاقهن القدامى معهن. . .

لقد أغضبني في البداية كلّ ذلك الانفلات، انفلات التّظاهر بالتّقوى. أما الآن، فإن ذلك يضحكني، فلم يعد لديّ ما أخشاه (لنفهم من ذلك: لقد انتُخبت)، وإني أسخر منهم. . . »، يكتب إلى ريكيين، في ٢٢ آذار: «لقد أصبح الناس منافقين في باريس، بحيث يستحيل ألاّ يُعدُّ المرء ملحداً أو فاسقاً إلاّ إذا اهتدى أو أصبح يسوعيّاً أو كاهناً مبتدئاً. وأصرُّ على رأيي بأنه ليس هناك مايُستحقّ أن يُهاجَم في قصتي مع ذلك، فإن البُسَطاء يستنكرون ويفتحون عيونهم وأفواههم كالبوّابات». وإننا نجد في كافة رسائل ميريميه في نهاية آذار، وأوائل نيسان، نجد علامات على غضبه، وهو غضبٌ متصنّعٌ بعض الشيء، أو ساذجٌ في حينه. فهل كان يمكن له أن يصدّق حقّاً أن مجتمع النخبة «الباريسي لعام ١٨٤٤ سيجد تلك المقارنة بين سيدة كبيرة وفتاة - مقارنة لاقيمة لها، وهي مقارنة، فضلاً عن ذلك، تنتهي لصالح الثانية منهما».

إن أرسين غيّو تشغل مكاناً فريداً بين مجموعة العاهرات الشبّقات، بدءاً من مانون ليسكو إلى مرغريت غوتييه، وإلى الغانية إليزا؛ فهي التي تحرّك شعورنا أولاً وليس منافستها، تلك المرأة الكبيرة التي تدخل عندها المحبّة المسيحية في صراع مع الغيرة، وهي التي تسقط فضيلتها في الصفحة الأخيرة، من جهة ثانية.

لقد قيّض للمؤلف حقّاً أن يحدِّد حدث قصته في عام ١٨٢٧ و١٨٢٨، وكان لابدّ لجرأة أرسين غيّو من أن تصدم في عام ١٨٤٤ الكثير من الأحكام المسبقة، والنفاق، بحيث تدهشنا إلى حدّ ما دهشة ميريميه. ولاشكّ أنه كان يكتب إلى جيني داكان بدءاً من عام ١٨٣٢، في أشدّ مراحل حياته التي كان فيها تافهاً: «إن تلك النساء (ممثّلات الأوبرا الصامتات) غبيّات في معظمهن ولكني لاحظت كم

هنّ متفوقات في لياقة تصرّفاتهن الأخلاقية مع الرّجال الذين هم من طبقتهنّ. ولاتفرّقهنّ عن النساء الأخريات إلاّ نقيصةٌ واحدة هي الفقرُ. وهو يؤكّدُ، بعد بضعة أيام قائلاً: «إنك تلومينني على امتداحي لهؤلاء الفتيات المسكينات. وإني أكرّر: اجعليهنّ ثريات، فلا يتبقى لديهن إلاّ الصّفاتُ الحسنة». ولنضف أيضًا أن هذا الرأي المتمرّد يجري التعبير عنه في رسائل خاصّة. ولكن أرسين قد جلبت له من الأصداء أشدّها لومًا، وبعد مضيّ اثني عشر عامًا: حين تكون غنيًّا، يصبحُ من اليسير أن تكون شريفًا... وأنا، كان يمكن لي أن أكون شريفةً. لو توفّرت لي الوسائلُ لذلك».

إن أرسين غيّو، أكثرَ قصصِ ميريميه جُرأةً، هي أيضًا أكثرُها انفعالاً. «هي الدّمعة الفريدةُ في مؤلّفاته اللامعة والباردة». هكذا قال أوغسطين فيلون بظرافة. فهل يعودُ ذلك إلى أنّها الأكثرُ تعبيراً عن سيرته الذاتية؟ إن الكلمةَ تُعدُّ سباباً، ولابدَّ أن يأخُذَ المرءُ باهتمامه عمليات النّقل التي كانت رهافة الحسّ تفرضُها على المؤلّف. فلربّما يكونُ ميريميه قد وضَعَ لذلك شيئًا من ذاته، وبالقدر نفسه، في «الإناء الإترووريّ»، وفي «الغلطة المضاعفة»، غير أن حالةَ «أرسين غيّو» خاصّة. فأولاً، ما من شكّ في هويةِ أبطالها، وليس ذلك لأنّ أرسين تختلطُ حتمًا بسيلين كايّو. وليس لأن السّيدة دو بيين تختلطُ بالسيدة ديليسّير، وماكس دو ساليني بميريميه، بل لأن أرسين لها العديدُ من سماتِ سيلين. وقد نثَر ميريميه في قصته إشارات لعلاقته بڤالنتين ديليسّير. ثم أن أرسين غيّو قد كُتِبت من أجل ڤالنتين إنما يتوجّه ميريميه أكثر من عشر مرّات في صفحاتٍ قليلة قائلاً: «أنتم، ويا سيدتي». وأخيراً؛ فإذا لم يكن ميريميه قد قطع علاقتَه بسيلين كايّو بالضّبط من أجل السّيدة ديليسّير، فإن مرحلةَ خلوِّ العرشِ قد كانت قصيرةً. ويمكنُ القول إن السيدة الكبيرة، زوجةَ قائد الشرطة، قد حلت محل الممثلة الصّغيرة، ممثلةِ المنوّعات.

إن تلك المرأة سيلين، الجذّابةَ للتّصوير، والقريبةَ إلى القلب، قد تمكنّت من أن توحي لڤالنتين ديليسّير التي وُلِدت باسم لابورد بغيرةٍ استذكاريّة، لاتخلو

من الازدراء أيضاً. وهو ازدراء لايُعفي عشيقها تماماً، وذلك عندما رأتها تحيا في رسائل ميريميه. إنّ سيلين هذه تظهرُ على صورة «كابو» عند لاميل، وصورة «ريموند» عند لوسيان أُوين. أما عشيقها فقد كان من اللّباقة بحيث لم ينفِ ذلك عن نفسه. إن أرسين غيّو هي في قمةِ الحبّ السّعيد، تقريظُ لعشيقة الأمس. إنها أيضاً القصةُ التي نجرؤُ تقريباً على تسميتها بالقصّة - القضية التي توحي ذكريات ميريميه فيها - وتجربةُ غرامياته مع سيلين، ومع ڤالنتين بمشاعر كانت تُعَدُّ من الشجاعة بمكان آنذاك أن يُشرك بها «الجمهور المحترم». ولنذكر أيضاً الردَّ الماكر باليونانية؛ فالكلماتُ الأخيرةُ التي يقولها هيكتور المحتضر لأخيل، والتي يوردُها ميريميه في الخاتمة، تعني: «مهما تكن باسلاً، فإن باريس وفيبوس - أپولون سوف يجعلانك تقضي أمام أبواب سي. إن البسالةَ لا يمكن أن تكون غيرَ بسالة السّيدة دو بيين. أما الباقي، فإليكم تفسير لوي - إينو الجذاب (عام ١٨٥٣): «إنَ باريس هو ماكس دو ساليني، وفيبوس - أپولون هو الشّيطان، وباب سي هو المناسبة، والعشبُ الغضّ، وكلّ ما تشاؤون.» . فكيف اغتاظت السّيدة ديليسيّر مع درس التواضع هذا، ومن تلك القدرية الوثنية، أو من الخشوع. . . المسيحي، طالما يتوجَّه بكل وضوحٍ إلى السّيدة دو بيين.

كـــارمن

نُشرت «كارمن» في مجلّة العالمين - في الأول من تشرين الأول ١٨٤٥، ففي المجلّد ذي الغلاف الأصفر الفاتح الذي أصدرَه ميشيل ليڤي، في الأسابيع الأولى من عام ١٨٤٧، إنما نجد البحث النهائي الذي يدور على «الشيبّه كالّيه: Chipe - Calle» أو لغة الغجر. إن ميريميه لا يبدو أنه قد تعجَّل نشر قصته. وكانت قد كتبت في الخمسة عشر يومًا الأولى من شهر أيار». ولكنه يكتبُ إلى ريكيين، ولدى عودته من جولة تفتيشيةٍ دامت ستّة أسابيع في جنوب فرنسا، وذلك في السّابع عشر من أيلول تماماً:

«إن الفاقة التي هي العاقبةُ التي لا يمكنُ تفاديها لسفرة طويلة قد جعلتني أوافقُ على إعطاء «كارمن» لبيلوز»، وهذه الفاقةُ تظهرُ أقلّ إبهامًا في رسالةموجّهة إلى ڤيتيه، بعد بضعة أيام، في ٢١ أيلول: «سوف تقرؤون بعد بعض الوقتّ طُرفةً صغيرة لخادمكم. وكان من المفروض أن تبقى من غيرِ نشر، لو لم يكن مؤلّفها مضطرًا لابتياع بعض السّراويل».

لقد كشف ميريميه نفسه مصدرَ «كارمن» لنا؛ فها هو يكتب إلى السّيدة دو مونتيجو، في ١٦ أيار ١٨٤٥ قائلاً: «لقد مرّت عليّ حتى الآن سبعةُ أيام، وأنا منقطع ليس إلى كتابة أفعالِ ومآثر المرحوم د. بيدرو، بل إلى كتابة قصة كنت قد رويتها لي منذ خمسةَ عشر عامًا - وأخشى أن أكونَ قد شوّهتها. لقد كانت تدورُ على مدّعٍ للشجاعةِ من مالاغا كان قد قتَل عشيقتَه التي كانت تكرّس نفسها للجمهور حصراً. وبعد قصةّ «أرسين غيّو»، لم أجد شيئًا ذا طابع أخلاقي أكبر كي أقدّمه لسيداتنا الجميلات. وبما أني منصرف منذ بعض الوقت إلى البحث في

موضوع الغجر بكثيرٍ من الاهتمام، فقد جعلتُ بطلتي غجرية». وإن المرءَ ليحس بكلٍّ قيمة هذه الشّهادة التي لايمكنُ الطّعن عليها، والتي نشرت عام١٨٩٤ . وكان يمكنُ أن نشعر بذلك على نحوٍ أفضل أيضًا لو لم يزعم رافائيل ميتجانا في عام ١٩٠٧ بأن الكاتب الشهير استبانيس كالديرون «المتفرد» هو الذي روى لصديقه بروسبيرو «الحكايةَ المأساويةَ» التي ربّما تكون كارمن قد خرجت منها . . . ويبدو أنه من الأصّح أن نصدِّق ميريميه، وأن نتفّق مع ميتجانا فقط على أن الطابع المحلي في «كارمن» يَدينُ بالكثير لكالديرون الذي قّدم إليه ميريميه نسخةً من قصتّه مزينة بالإهداء التالي: «إلى معلمي في لغة الشّيبي - كاليّه (الغجرية)». ويقول ميتجانا أيضًا إن كارمن «هي، بالإضافة إلى جيل بلاس، المؤلّف الوحيد، في كل الأدب الفرنسيّ المتّصل بإسبانيا، الذي تفوح منه رائحةُ«الطّابع المحلّي»، وإن تلك النكهةَ المميّزة يعودُ الفضل فيها إلى التأثير الحسن لاستبانيس كالديرون. »
ولايسعُنا إلاّ أن نعتَرضَ على هذا الكلام بأن نقول إن كلّ إسبانيا ميريميه موجودةٌ من قبل في رسائله المؤرخة في عام ١٨٣٠ إلى مدير «مجلّة باريس». وإنه في تلك الرسالة، التي هي الرّابعة من رسائله والمخصصة للسّاحرات الإسبانيات، إنه يتكلم على غجريةٍ صغيرة من المناطق المجاورة لموروڤيدرو، واسمها «كارمنسيتا»، وهي فتاة حلوةٌ جداً، وليست شديدةَ السّمرة، ويمكن ألا تكون بعيدة عن تكوُّن قصة كارمن - وعلى كلّ حال، فيمكنُ الإشارةُ إلى أن ميغويل دو إينا مونو الذي قلّما كان وديًّا في موقفه من فرنسا بصورة عامة، يؤكّد من غير تحفظ رأي مواطنه ميتجانا، إذ يقول: «إنه ما من أحد قد تمكن على نحو أفضل من ميريميه أن يصلَ أحيانًا إلى أعماقِ النّفس الإسبانية، من بين كافة الكتّاب الفرنسيين الذي أتوا إلى إسبانيا ليبحثوا عما يلهمُهم».

QUE HAYA LLEGADO AL COGOLLO DEL ALMA ESPAÑOLA ALGUNA VEZ.

إن رسائله إلى السّيدة دو مونتيجو، وإلى إدوار غراسيّه، وإلى لاغرونيه، وفرانسيسك ميشيل، وغوبينو، وإلى آخرين أيضًا، تؤكد على ميلِ ميريميه إلى

«الخارجين على القانون»[1]، وعلى حبّه للاطّلاع على فقه اللّهجات المحلية الغجرية. أما أن يكون قد صنع من مدّعٍ للشجاعة، ومن تافه مالاغا رجلاً من إقليم الباسك - ومن عشيقته غجريةً؛ فتلك مهارة مضاعفة من ميريميه، فلقد كان يُداري الكبرياء الوطنية لدى أصدقاءه الإسبان - ويهيئ لنفسه المناسبة كي يبسطَ معرفتَه بطبائع الغجر ولغتهم والتي اكتسبها حديثًا من كتب المبشر الأنغليكاني جورج بورو، والألماني أوغست - فريدريك بوت. أما الصّفحة الاستهلالية التي تدور على معركة مواندا والمستمدّة من علم الآثار موثوق إلى درجةٍ كافية بحيث لايمكنُ لڤيكتور دو روي أن يكون قد استوحى رأيه منه، فلسوف نجد فيها حول الغجر، كما في الملحق (الذي هو نصفُ علميّ ونصفُ مدَّعٍ للعلم)، ويشكل الفصل الأخير، سوف نجد في تلك الصفحة ذلك التجرُّدَ المصطنَع لدى ميريميه تجاهَ القصصِ التي يرويها. ويبدو أنّه يقول: لا تعلّقوا أهميةً أكبر مما أعلّق على تلك الحادثة العادية، حادثةِ غراميات فتاة خبيثة مع رجل مسكين؛ فالمهم هو أن نعلمُ إن كانت ساحةُ معركة موندا القديمة تقعُ قريبًا من موندا الحديثة. «أو في ضواحي مونتيلا». وأنّ كلمةَ « Chourin » التي تعني بلغة السّيد أوجين سو العامية «السكّين»، مستمدة من لغة الرُّماني الصّرفة، وهي مشتقة من كلمة «Tchouri». إن هذا الكلامَ طريقةٌ لتضليل الناس. وقد قال ذلك سانت - بوف، وبعده فاغيه، وقد تكون على الأصحّ اختراعًا. . . فمن المخدوعُ إذن؟

ولكنها أخيراً بحثٌ في علمِ الآثار الروماني، ودراسةٌ «لسلالات لعينة» وفقه لغة غجرية - وصولاً إلى الجملة الافتتاحية المتصفة بالوقاحة، والمأخوذة من «المقتطفات البلاطية»، والتي ترجمها سان - جوليه على النّحو التالي:

كلّ امرأة مزعجة، تجلب الضّرر

وهي تبعثُ السرور في حالتين فقط

(١) بالإنكليزية في النص. (م. ز. ع).

إحداهما في ليلة عرسها

والثانية عندما تُدفَنُ.

لم يرق لميريميه، في أي مولَّفٍ آخر، بقدر ما راق له في «كارمن»، أن يجعلَ غرائبَهُ كلَّها تدور على موضوعٍ مؤلمٍ في قسوته، وهو هنا الحبُّ المشؤومَ الذي يحملُه صبيٌّ طيّبٌ «لامرأة شريرة فاتنة». فإذا كان ما نؤثُره عند ميريميه هو الكاتبُ، فمن الممكن أن تكونَ رائعتُه هي: «الغلطةُ المضاعفة»، وإذا كان مانحبُّه فيه هو ميريميه نفسهُ، فإن رائعتَه ستكون كارمن.

رئيس الدّير أوبان

في ٢٣ شباط لعام ١٨٤٦، نشرت الدستوري[1] الملاحظة التالية: «سننشرُ غداً قصّة رئيسِ الدير أوبان - في سلسلة من الرّسائل الأصلية التي لا علاقة للجامعة ولليسوعيين بها، ولسوف نتعرّفُ بالتأكيد فيها أحدَ أشهرِ قصاصينا، وأحدَ أكبرِ العقولِ المرهفة لدينا، من خلال دقة اللّوحة التي يقدّمها عن الطّباع، ومزايا أسلوبه»، فلا نتقدن الالتباس في هذه الرسائلِ الأصلية التي ترجعُ إلى أحد أكبر قصّاصينا المرهفين.

لقد بدأت قصّةُ «رئيس الدّير أوبان» تُنشر في اليوم التالي، أيّ في نهار ثلاثاء المرفع على شكلِ مسلسلٍ مغفُلٍ من الاسم. وقدّم ميريميه السَّبب في ذلك إلى السّيدة دو مونتيجو في ٢٨ شباط؛ فقد كتَب إليها يقول: «أرسلُ إليك قصةً صغيرةً قد ألّفتُها من غير أن أوقّعها، لأنه يكفي أن أتحدث عن كاهنٍ كي تتعالى احتجاجاتُ العجائز المتديّنات ضدّ الزّندقة. إن هذه المغامرةَ حقيقيةٌ، ويمكنني أن أسمي شخوصَها.». ولابّد لنا أن نصدّق ميريميه في ذلك، ولكن مفتاحَ اللُّغز لم يكشفْ. «والتّقريبان» الحاذقان اللذان قدّمهما السّيد بارتورييه لايتيحان على الإطلاق تحديدَ هويّة أبطالِ القصّة، بما أن السّيدة دوپ أخيراً لايمكنُها أن تكون جيني داكاّن، وأن رئيسَ الدّير بيرليز، وهو مؤلّف دراسةٍ شهيرة إيقونية هي: «أيقنة

(١) صحيفة ليبرالية تأسّست عام ١٨١٥، وكانت الناطقة الرئيسة للمعارضة في عهد إعادة الملكية، وقد صدرت حتى عام ١٩١٤. (م.ز.ع).

نوع الكاميليا» لايمكن أن يكون رئيس الدير أوبان. أما عن غُفْلِيّة اسم القاص، فقد كُشِفَتْ سريعًا، وأشارت دوريّة L'Artiste (الفنّان) إلى اسم ميريميه في ١٨ آذار.

لقد أطلق أوغسطين فيلور على «رئيس الدّير أوبان» تسميةً تنمّ عن ازدراءٍ مفرط، وهي دعابةٌ فكهة: فهو لم يكنْ يرى فيها سوى «فكاهةٍ بارعةٍ وماجنة»، وكان يلخّصها على النحو التالي: «يستخدم كاهنٌ ريفي صغيرٌ لمصلحة ترقيته وَهْمَ سيّدةٍ كبيرةٍ لا عَمَل لها؛ فهي تظنُّ أنّها قد أفقدته الرّشاد، فتبعده عنها بأن تجعلهُ يكلَّف بخورنيّة أكثر أهميّة. والقارئُ الذي ظنّ أنه قد قرأ بدايةَ روايةٍ تحتوي عواطفَ خارقة للقدسيّات، يقع في التّضليل، شأنه شأن السّيدة الكبيرة، على يدِ ذلك الفلاح والتلميذ الإكليريكي، والذي هو نصفُ مُدّعٍ للعلم، ونصف فظّ، وينتمي إلى أسرة سليمي الطويّة المزيّفين الذّين نجدهُم عند ڤولتير.». إن هذا لابأسَ به. ومع ذلك، فإن الطابع الملغزَ قليلاً لتلك الصفحات المعدودة التي تبرزُ فيها المناقبُ والعيوبُ، فميريميه يظهرُ فيها صادقًا جداً في ذاته، هذاالطّابع يجعلُ قصةَ «رئيس الدير أوبان» أكثر من دُعابةٍ فكهةٍ، وإن عُدَّت دعابةً بعيدةً عن التديُّن.

زقاق السيّدة لوكريزيا

قصةُ «الزّقاق»[1] (وغلطةُ ميريميه الإملائية في كتابة كلمة الزّقاق بالإيطالية) لم تُنْشَر إلا في عام ١٨٧٣، في «الرّسائل الأخيرة» بعد وفاة ميريميه، ولدينا مخطوطةٌ بخطّ الكاتب مؤرخة في ٢٧نيسان ١٨٤٦، والتي قدّمها المؤلّف إلى السّيّدة إدوار أوديبه، شقيقة ڤالنتين ديلسيّر. وكان ميريميه قد زيّنها بلوحتين مائيتّين مقبولتين تمثّلان منزلَ الزّقاق و«مقعد الجلد الأسود العريض». ألم يفكر ميريميه في أيام شيخوخته أن ينشرُ «الزقاق»؟ فبعض الرسائل الموجّهة إلى الدّوقة كولونا - كاستيلونه تدلُّ على رغبته في أن يجري عليها تدقيقاتٍ وتصحيحات. إن ميريميه يكتب من مدينة كان في ٣٠كانون الثاني لعام ١٨٦٩: «ثمة زقاقٌ صغير يؤدّي إلى ممرِّ العربات المزيّنة ويسمى «زقاق السّيّدة لوكريزيا» وأودّ أن أعرف إلى« أيّ شارع كبير يؤدي. وذلك لأني كتبتُ قصةً عن ذلك الشارع لافتةً بأفكارها مثلما هي لافتةٌ بطلاوة أسلوبها. وهذا التفصيلُ الهام ينقصني. فإذا لم تخنّي ذكرياتي، فإن الزّقاق المعني ليس بعيداً عن ريبريزا دبي باربيري. فتكرّمي بأن توضحي الأمر لي، وذلك بأن تعطيني مخارجه وملحقاته، ولسوف أهديك القصة بعد موتي، هذا مفهوم. . . »، ويكتب من كان أيضاً، في ١٣آذار: «شكراً على المعلومات التي تقدّمينها لي حول «زقاق السيدة لوكريزيا». إنها تؤدي الغرضَ الذي أرجوه منها. إنها دعابةٌ أخرى (غير لوكيس التي تحدّث عنها قبل قليل) سوف ترينها ربّما، إذا لم تمكثي وقتاً أطولَ من اللآزم في إيطاليا [فهو مريض جداً]. . . ». ويكتب من باريس، في ٢٦حزيران - لأنّه إما قد نسي ردَّ الدوقة،

(١) بالإيطالية «Vicolo» وقد كتبها ميريميه «Viccolo». (م.ز.ع).

وإما قد طرح أسئلةً جديدة لم تثمرْ عن ردّ: لم تتكرّمي قطّ بأن تردّي عليّ بوضوحٍ في موضوع «زقاق السّيدة لوكريزيا»؛ فإذا كنتِ لا تزالين في روما، فتفضلي بأن تذهبي، أو أن ترسلي بالأحرى أحدَ المولعين بكِ إلى ساحة سان - ماركو، بجانب قصرِ البندقية ليتأكد [كذا] أيَّ شارعٍ من الشّوارع الأخرى المشار إليها هنا (ويرسمُ هنا مخططًا) هو شارعُ السّيدة لوكريزيا، ولستُ بحاجةٍ لأن أقولَ لكِ إنّه من الأهمية بمكان بالنسبة لي أن أعرفَ جيّدًا موقعَ ذلك الزّقاق الذي تدورُ فيه قصة كاملة من اختراعي». ويكفي مخطّطُ الدليل الأزرق، ومقارنته بالمخطط الذي رسمه ميريميه كي يرى المرء أن قصَر البندقية الذي أعيدَ بناؤه في عام ١٩١١ قد أزالَ شارعين من الشوارع الأربعة، كما أزال مجموعتي البيوت التي رسمها ميريميه.

لقد ذكرنا، بصدد قصّة «ڤينوس ديل» نصائح المؤلف لمن يريدُ أن يروي شيئًا خارقًا للطبيعة»، وهكذا، فإن القصةَ «الزّقاق» التي رأينا ميريميه فيها للتّو شديد الاهتمام بالدقّة الطّبوغرافية[1] لا تفتقرُ مع ذلك إلى مشاهد التّخاطُرِ والأشباح، والتماثيلِ الشّيطانية التي يرويها بكلّ رصانة. فها هنا، لا أهميةَ تُذكَر للسَّهو، كأن يجعل الملازم الأول جوليوس يموتُ في لايبزغ بتاريخ ١٣ تشرين الأول ١٨١٤. في حين أن «معركة الأمم» قد شنّت في التاسع عشر منه، أو أن الأمر يتعلّق بعدمِ دقّة متعمّد ربّما، كأن لا يقولُ شيئًا عن السّيدة لوكريزيا التي أعطت اسمها للزُّقاق الّذي فيه تمثالٌ مبتورٌ لإيزيس القديمة، ولا نزالُ نراهُ اليوم في زاويةِ قصرِ سان مارك؛ فتلك حقيقةٌ لا نفعَ فيها، وهي حقيقةٌ ضارةٌ، إن تعرّض التأثيرَ المطلوبَ للخطر وذلك بأن تخلطَ بين أسرة تاركان وأسرة بورجيا». وإذا أردْنا أن نمرَّ على المسألة مرورًا عابرًا نقول: إنّ ميريميه لم يبحثْ بعيدًا كي يعثرَ على شخصية السّيد ڤانوزّي؛ فبورجيا الذي أصبح البابا الكسندر السادس قد اتخّذ له عشيقةً اسمُها روزا ڤانوزا، والدة لوكريس، أمّا عن التمثال الشّرير الذي يمثل حادثةً عرضيةً بسيطة في «الزّقاق»؛ فقد لعب فيها دورًا ماجنًا أكثر مما لعبه في قصةٍ

---

(١) أي بالتحديدات المكانية، كما هو معلوم. (م. ز. ع).

«ڤينوس ديل». فلابدّ أن يكون ميريميه قد قرأ عند لوسيان (لوسيان مؤلّف الغراميات، وليس رواية الأكاذيب)، وعند ڤالير - مكسيم، وعند بلين القديم، لابدّ أن يكون قد قرأ القصّة التي يشير إليها أيضًا شارل موراّ في كتابه: «أثينا القديمة»، وهي قصةُ ذلك الغريبِ المتبجح الذي أمضى ليلةً كاملة مع الإلهة الرّخامية وتزوّجها زواجًا تامًا، بعد أنَ تسلّل إلى معبد كنيد».

والحكايةُ إنّما تجري في روما التي زارها ميريميه مع صديقه ستندال عام ١٨٣٩ والتي عاش فيها فقط عشرة أيام (وهناك رسائلُ تُثبتُ ذلك بتاريخ ١٨٦٣ و١٨٦٩ ومع ذلك، فلن ينسى قطّ الانفعالات التي كان يُحسّ بها في تلك المدينة. فقد كاد والدهُ أن يلاقي الموت فيها، وقبل ما يقرب من نصف قرن، وذلك في التمرّد الشعبي الذي اغتيل فيه مبعوث الجمهورية الفرنسية هيغون دو باسڤيل، وقد روى ميريميه ذلك في رسالةٍ مؤرخة في ٣كانون الثاني ١٨٦٩ إذ قال: «إن المغامرةَ الحالمةَ الوحيدةَ التي أعرفها عن والدي (لاحظْ جيدًا - أظن أنه قد كانت له أكثر من مغامرة) كانت في روما حينما كاد يُقْتَلُ في الوقتِ نفسه الذي قُتِل فيه باسڤيل. وقد أنقذته سيدةٌ رومانيةٌ عثرت عليه. وقد شاخت إلى حدٍّ كبير واستقبلتني بكثير من الحنان». وفي عام ١٧٩٣ كان ليونور ميريميه في السّادسة والثلاثين من عمره، وكان من المفروض أن تكون المركيزة ألدوبراندي في السّبعين من عمرها على الأقل في عام ١٨٣٩ . . . إن الأعمارَ والتواريخَ قد تغيّرت بطبيعة الحال في القصة التي تُقدّمُ الحكايةُ الحقيقية إطارها ، وليس أكثر. ولكن ألا تتيحُ رسالة ميريميه أن يتذوق المرءُ النُّعومة الساحرة، نعومة الصّفحات الأولى في «الزّقاق».

إن هذه الحكايةَ الغرائبية مفعمةٌ بالظّرف، وهي ممتعةٌ، وتنتهي نهايةً جيّدة، (وهذا أمرٌ فريدٌ في مؤلّفات ميريميه) وبيتا الشعر الاسكندريان على نهج كوبيه[1] ولكنهما، بيتان ساحران، يوقّعان الطمأنينةَ السعيدةَ، طمأنينةَ الصفحة الأخيرة. إن قصّة «رئيس الدير أوبان» (من غير غرائبية) ممتعة أيضًا، وتنتهي نهايةً مقبولة، وقد كتبت في عام ١٨٤٦ أيضًا للحظةٍ قصيرةٍ. . .

---

(١) الوزن الاسكندري: هو أطول الأبيات الشعرية ويتألف من «١٢ مقطعًا» إيقاعيًا.
وكوبيه هو الشاعر الفرنسي فرانسوا كوبيه (١٨٤٢ - ١٩٠٨) • (م. ز. ع).

الغرفة الزّرقاء

صدرت «الغرفةُ الزّرقاء» للمرة الأولى في صحيفة الاستقلال البلجيكية بتاريخ ٦ و٧ أيلول ١٨٧١ ، فلماذا مَنَحت تلك الصحيفة البروكسلية المعاديةُ للنّابوليونية بعنف، والتي كانت قد فَتَحت أعمدتها على مصراعيها لمهاترات اللاجئين الفرنسيين، لماذا مَنَحت الضيافة لقصة أحد أعضاء مجلس شيوخ الامبراطورية، بعد وفاته؟ لأن «الغرفة الزرقاء» ترسّخُ لدى الجمهوريين ازدراءهم للبلاط الامبراطوري، و. . تشوّه سُمعةَ ميريميه.

غداة الرابع من أيلول، كان النظامُ الجديدُ قد أعدّ رُكامَ الأوراق التي عثَر عليها في التويلّري مليئة بالفائدة؛ فقد أتاحَ هذا الرّكامُ للنّظام نَشْر ما أسماه: «أوراق ومراسلات الأسرة الامبراطورية» (وكان ذلك في خضمِّ الحرب الأهليّة)، والحال، فقد عثُر على نسخة أنيقة من «الغرفة الزرقاء» مكتوبة باليد في شقق الامبراطورة أوجينيا. وكان المرءُ يقرأ على الصفحة الأخيرة المزيّنة بصورة مائية لميريميه، يقرأ مايلي بخطّ المؤلف: «تأليف وكتابة بروسبير ميريميه، المجنون بجلالتها الامبراطورة». أما خطابُ الإرسال المؤرّخ في ٣٠تشرين الأول ١٨٦٦ فقد كان يبدأ على النّحو التالي: «ياسيدتي، إني أضع تحت قدمي جلالتك قصةً شريرة قد تشرّفتُ، وأقدمتُ على قراءتها لجلالتك في بياريّتز» . . . وقد جرى التفكيرُ جديًّا بإدراج «الغرفة الزّرقاء» ضمن «أوراق ومراسلات العائلة الامبراطورية» وفي الدّقيقة الأخيرة، (بما أن تجاربَ تركيب الصفّحات لا تزالُ موجودةً) خطرت فكرةٌ مفادُها أنّه قد يكونُ أفضل للمطبعة الوطنّية أن تفعل شيئًا آخر غير أن تعمِّمَ تلك الصفحات التي لا قيمة لها، فعهَد فيليب بورتي حينئذٍ إلى

جول كلاي بمهمّة طبع القصة والتي كان يرفق بها ملاحظة طويلة غادرة: فعلُم الأمرُ، وجعلته تداخُلات عاجلةٌ يعدلُ عن مشروعه، فجرى إتلافُ نسخة الجمع، بعد أن سُحبت ثلاثُ نسخٍ منها، وفي تلك اللحظة بالذات إنّما نَشَرت «الاندياندس بيلج[1]» ما لم يجرؤ على نشره أحد فيما وراء كييفران[2]. أما صحيفةُ لا ليبرتيه (الحرية) الباريسية التي تأثرت بدرسِ الشّجاعة هذا، والتي كان يديرُها إميل دو جيراردان، فقد «استعادت» «الغرفة الزرقاء» من «الاندياندس»، وعلى ذلك، فقد غضبت «لاڤونير ليبيرال» (المستقبل الليبرالي) وهي صحيفةٌ بونابرتيّة، وأعلنت بتهوّر أن الغرفَة الزّرقاء قصةٌ مزوَّرةٌ بوضوح، فردّت عليها الاندياندس، وقدمّت الأدلَّة. . . أما الطّبعتان اللتان قام بإصدارهما في بروكسيل بوليه - مالاسيس عام ١٨٧٢، فكانتا لاتزالان سريّتين. وفي السَّنة التالية أخيراً، فقد جمعت دار نشر ميشيل - ليڤي «الغرفة الزّرقاء» ضمن مجلّد «القصص الأخيرة» التي اقتسمت مصيرها منذ ذلك الوقت.

ولكن أليس من المفارقة (أو أليس أمراً مرضيًا بالنسبة لمن يميلون إلى اللامعقول) أن تكون قصة ميريميه قد أثارت تلك البلبلة السياسية - الأدبية، أن تكون بلا جدال هي أكثر القصص التي كتبها ميريميه في حياته تدنيًا، وحتى القصة الوحيدة التّي ليست خاليةً تمامًا من الابتذال؟

ومع ذلك، فقد كان ميريميه متسامحًا جدًا تجاه «الغرفة الزرقاء» ولاشكّ أنه يُعنى بأن يخبر المجهولة بأنه قد كتب تلك الصفحات الخمس عشرة ذات ليلة، بعد أن تناول «قدحًا من الشاي القوي» وهو يصرّ في الرسالة نفسها (٥تشرين الثاني ١٨٦٦) على أنّها «ليست أسوأ ما كتبت، مع أنها قد كُتبت على عجلٍ شديد» (فما أكثر ما يجلبُ ميريميه المتعةَ والمفاجأة في دور أورونت!) وهويقول للمجهولة أيضًا: «إن الموضوع جدُّ أخلاقيّ في الحقيقة، غير أن هناك تفاصيل لايمكن ألاّ

(١) صحيفة: الاستقلال البلجيكية. (م.ز.ع).

(٢) قرية بلجيكية على الحدود الفرنسية البلجيكية، وهنا: وراء كييڤران: هو فرنسا (م.ز.ع).

يوافقَ عليها سيّدُنا دو بانلو». ويقول للمجهولة الأخرى، في ٢٧ تشرين الأول: «إن الدّوقة الكبيرة دو لو شتينبرغ قد جعلتني أقرأ قصةً فكاهيةً من ابتكاري، وهي في الحقيقةُ قصةٌ جريئةٌ بما يكفي، وقد استحوذَت عليها جيّداً».

وفي الثالث من كانون الأول - يعرضُ عليها أن يقرأها لها: «أنا لا أضمنُ أن تكون القصةّ ذات طابع أخلاقي من حيث شكلُها، شريطة أن تكون كذلك، من حيث المضمون، هذا هو المهمّ.» . إننا نشعر بأنه إجمالاً راضٍ عن نفسه، وهناك ما يغرينا بأن نضيف بفظاظةٍ أنه ليس هناك ما يدعوه ليكون كذلك.

لأننا لانرى ماذا فيها، وما الأمرُ الأخلاقي الذي يمكن أن يكوّن محتواها، فضلاً عن ذلك، أما الشكلُ، فإن طابعهُ المنافي للأخلاق يسترعي الانتباهَ أقلّ بكثير مما يسترعيه التعجُّلُ في الكتابة، والإهمالُ فيها، كالأمثلة التالية: «النّهوضُ عن المائدة منذ ما قبل منتصف الليل[1]» أو «طلب العشاء في اللحظة التي همّ بها بالوصول[1]»، «تحادثوا بالإنكليزية[1]» و«أضاف بضع كلمات أخفض من أن تسمع» إلخ...

إن ميريميه لا يتحسّسُ كما يبدو العيوبَ التي تصدمُنا في «الغرفة الزرقاء». ومع ذلك، فإن كان ميريميه لم ينشرْها، فإن علينا أن نعزو السّببَ في ذلك إلى ماورواه الكونت دو سونڤيل وهو التالي: «حين كان السّيد إميل أوجييه يثني على قصة صغيرة عنوانها «الغرفة الزرقاء» أجاب: مع ذلك، ثمة نقصٌ كبيرٌ فيها وهو يرجعُ إلى أنّي بّدلتُ الخاتمةَ، وكنتُ أنوي أولاً أن أعطي قصتّي خاتمةً مأسويةً، و«بالطبع» - كنتُ قد رويتُ القصةّ بنبرةٍ ممتعةٍ، فغيّرتُ رأيي، وأنهيتُها بخاتمةٍ مُسرةٍ، كان يتعيّن عليّ أن أبدأ من جديد، وأن أروي القصةَ بنبرةٍ مأساوية. ولكن ذلك ضايقني، فتركتُها على حالها».

(١) تطرح كل هذه الجمل مشكلاتٍ أسلوبية بالفرنسية. (م.ز.ع).

وبناءً على نصيحة السيّدة ديلسيّر، إنما عدّل ميريميه نهاية «كولومبا»، ويبدو أن الرّجل الإنكليزيّ في «الغرفة الزّرقاء» يدينُ للامبراطورة بأنه لم يجرِ اغتياله. أما عن طريقةِ ميريميه في إنجاحِ القصص المأساوية، فقد كنّا نعرفُها. وقد صاغها في موضعٍ آخر بعباراتٍ أخرى. إن آليةَ حركةِ «الغرفة الزّرقاء» هي آليةُ حركةِ «الزّقاق» أي إننا نخشى الأسوأ، وكلُّ شيء يتدبَّرُ على أحسنِ وجه. ولكن كم من الرّهافةِ، والابتكارِ، وبكلمةٍ واحدةٍ، كم من الفنّ، في «الزُّقاق»!.

لـــوكـــيس

نُشرت لوكيس في «مجلة العالمين» بتاريخ ١٥ أيلول ١٨٦٩، وكان عنوانُها: «مخطوطة الأستاذ فيتمباخ»، بالإضافة إلى لوكيس كعنوانٍ متعارفٍ عليه. وما من قصةٍ لميريميه تقدم مراسلاتُ ميريميه معلوماتٍ غزيرةً عنها بقدر هذه القصة؛ ففي أربعين رسالة من رسائله، نتبعَ التكوُّنَ والإعداد البطيء للوكيس، وهو العنوانُ الذي يتبنّاه ميريميه بناءً على نصيحة تورغينيف والذي معناه: الدّب، بلغه الجمود، بعد أن تردّد بين مُكتَشِف العسل، أو مخرج النّحل من مكامنه، أو ابن الدب بالمعمودية، غير أن «مخطوطة الأستاذ فيتمباخ» هي عنوانٌ من ابتكار بيلوز، أو القيِّم على طباعة المجلّة.

«إن الموضوع ماجنٌ للغاية»، وميريميه يوافق على هذه الفكرة في رسالته المؤرخة في ١٩ تشرين الثاني ١٨٦٨، والمرسلة إلى غوبينو. أمّا أقدم مصدر لها فقد نجده في الأخبار التاريخية (الدانمركية) لساكسو غراماتيكوس. ولكن لا شيء يُثبت أن ميريميه قد قرأ ساكسو غراماتيكوس. لقد تصفَّحه ذات يوم في عام ١٨٥٢، بحثًا عن معلومات من أجل صديقه فرانسيسك ميشيل. . . وبالمقابل، ففي العدد نفسه من صحيفة باريس، بتاريخ ١٤ تموز ١٨٣٣، والذي كان يتكلّم فيه على جاكمون، لابدّ أنه قد قرأ الإنسان - الدبّ - وهو اقتباس قدّمه السيّد هـ. س. دو سان - ميشيل لخُرافة عثُر عليها عند أحد مدّوني الوقائعِ الدانمركية. أما القصصُ المأساوية» التي اقتبسها فرانسوا دو بيل فوريست من مؤلفّات بانديلّو الإيطاليّة فتحتوي على قصةّ مماثلة من الممكن أن يكون ميريميه قد عرفها، غير أن عالمًا ألمانيًا قد أحصى على امتداد أوروبا (في عام ١٩١٠) أكثر من مئتي نصٍّ للحكايةِ الشّعبية الشّمالية، حكاية ابن الدب.

أما المكانُ الذي استمدّ منه ميريميه ثروته ، فليس بالأمر المهم، وثروته هي بالأحرى لوكيس والتي هي استخدامٌ شخصيٌّ عميق الموضوع يمكن أن نقول عنه، من غير تناقض، إنه فريدٌ ومبتذل في آن.

فبين ٢٢ تموز و١٤ آب ١٨٦٨، في فونتينبلو، إنّما كتب ميريميه لوكيس، وكان في ضيافة الملوك. وفي ٢ أيلول، يقدّم لجيني داكّان هذا الملخّص عنها: «إن مكانَ الحَدَث يجري في ليتوانيا. . . وفيها يتكلّمون السنسكريتية الصِّرفةَ. فيسوقُ الحظّ المنكود لسيّدة راقية من تلك البلاد، وهي تقومُ برحلة صيد، إلى أن يمسكَ بها ويختطفَها أحدُ الدِّبَبة المجرد من الإحساس، فتغدو مجنونةً على أثر ذلك. وهذا لايمنعُها من أن تلد صبياً، متينَ البُنية، يترعرعُ ويصبحُ فتىً ظريفًا، إلا أنه يمرُّ بأوقاتٍ يتعكر فيها مزاجه، وتصبحُ أطوارهُ غريبةً، مستغلقة على التفسير. فيزوّجونه، وفي الليلة الأولى لعرسه، يأكلُ عروسهَ نيئةً. فأنت، التي تعرفين خيوطَ القصّة، بما أني أكشفها لك، أنت تخمّنين حالاً سبَب ما حدث. وذلك لأن هذا السيّد هو الابنُ غير الشّرعي لذلك الدّب السيّئ التربية.». ويكتب ميريميه إلى تورغينيف، في ٩ تشرين الأول، وليس بوضوحٍ أقل، وبدقّة أكبر عن أصل إطار لوكيس: «سيدةٌ يصادفها دبٌّ، ويغتصبُها، فتنجبُ طفلاً، هو صبيٌّ جميلٌ جداً، كثيفُ الشّعر قليلاً، وقويٌّ البُنية جداً؛ فيربّونه تربية حسنة، ولكنه يصبح باستمرار غريبَ الأطوار بعض الشيء. وهذا السيّدُ يعيشُ بكورته؛ فيقرأ كتبًا في الميتافيزيقا، ويصبح مغرمًا بفتاةٍ صغيرةٍ مغناج، بيضاء البشرة ورديّتها. . . ولايعيرُ انتباهًا بصورةٍ جيدة للمشاعر التي توحي بها إليه: هل هي مشاعرُ جسديّة أم أفلاطونية؟ فيتزوّج، ويأكلُها. ولستُ بحاجة لأقول لك إنه لايعرفُ من هو والدهُ؛ فقد ظلَّ الحَبَلُ به مخفياً والقارئاتُ الوجلاتُ يمكن حتى أن يعتقدن أن تلك التصرّفات الدّبيّة الغريبة ترجعُ إلى «نظرة» ما، والأمرُ الأكثرُ طرافةً هو أنّه، أثناء اجتراري لتلك القصّة الجميلة، وقَع بين يديّ كتابٌ في القواعد الليتوانية؛ فأصبحتُ قوياً جداً بلغةَ الجمود الزّومائيتية. ووضعتُ مسرحَ القصّة في ليتوانيا؛ فاللونُ المحليُّ متوفرٌ فيها كثيراً!!!» وثمّةَ رسالة أخرى تظهرهُ في الواقع منشغلاً

بدءاً من شهر أيار ١٨٦٧ بدراسة اللّغة الليتوانية، ولكنّه، وهذا أكثر خطورةً، في ٢٥ حزيران ١٨٦٧، كان قدكتب إلى المجهولة الأخرى قائلاً: « إنك تحدّثينني عن الصّيد بكثير من الحماسة، بحيث تودّين، كما أظنّ، أن تجدي نفسك بمواجهة ذئب، أو حتى دبّ. إني أسمح لك بالنسبة لأول هذين الحيوانين القبيحين، ولكني أمنعك منعًا باتًا من الدّببة؛ فهي سيئة التربية إلى حدّ كبير بحيث لا تحترم الصّيادات. » ومن هنا يتّضح أنه كان يفكّر بلوكيس، منذ ما يقرب من عام قبل كتابته لها، وأن الكونتيسة برزيزدزيتشكا التي تقترن في ذهنه بصور مضطربة، قد أوحت له بشخصيّة يولكا.

لا يمكن أن نحلّل كلّ مقاطع المراسلات التي تنتصب على مسار إبداع لوكيس، غير إنّه ينبغي أن نحتفظ فيها بما يعبّر عن هموم ميريميه الذي، بعد أن ارتأى أن قصتّه ربما تكون «مكشوفة الصّدر» بإفراط، نوى ألاّ ينشرها، ثم رضخ لإغراء استشارة الأصدقاء والصّديقات، ثم موّه، بناءً على رجاء جيني داكّان، والسيّدة ديلسيّر موّه الإشارات الشّديدة الفجاجة في جلائها. ثم جرّب إجراء اختبار لقراءتها في سان كلو، ذات مساء من أماسي تموز ١٨٦٩، بحضور الإمبراطورة، فطمأنه ذلك الجمهور المستمع والنّخبوي جداً، والذي كان في عداده بضع آنسات لم يفهمن شيئًا». وأخيراً، فقد انساق خلف «تملّق» بيلوز، الذي ما كاد يسلّمه نصف المخطوط حتى عاد الخوف ليستولي عليه من فضيحة محتملة - ولكنّه لم يعد يستطيع أن يعدل عن كلامه؛ فصدرت لوكيس حينذاك. ويتبيّن ميريميه بارتياح «أن أحداً لم يرَ فيها شيئًا منافيًا للأخلاق. ». وحين طلبت الأميرة جوليا إيضاحات مع ذلك، أجابها المؤلّف مازحًا: « إنك تثيرين مسألةً شديدة الخطورة، ولم أجرؤ يومًا على مناقشتها؛ فقد مات الدبّ من غير أن يبوح بشيء. إن النّظرات، والمخاوف، والوحامات تفسّر كثيراً من الأشياء. وخصوصًا

السبّبَ في أن الإبناء لايُشبهون آباءَهم دائمًا . . . إن ذلك الفتى التّعس لم يكن يعرفُ حقّا طبيعةَ الشّعورِ الذي يدفعهُ نحو تلك الآنسة الشابّة ، ولم يكن يعلمُ ذلك إلاّ بعد أن أكلَها» .

إن السيد ريمون شميتليين الذي خصّص للوكيس دراسةً هامةً وشديدةَ الكمال ، قد ظنّ أنه يكشفُ لدى ميريميه - بدءاً من عام ١٨٦٢ آثارَ كبتٍ حقيقيّ . وعلى الأقلّ ، فلا يمكن أن ننكر أنّ «دجومانا» و«لوكيس» خصوصاً ، من بين قصصِ ميريميه الثلاث الأخيرة ، تدلاّن على وجودِ استحواذٍ جنسيّ معيّن لديه ، هذا إذا عددنا أن «الغرفة الزّرقاء» لاتتعدّى أن تكونَ قصةً فاجرةً على نحوٍ مسطّح .

بيد أن لوكيس تُعد ، برغم ما قيلَ عنها ، في عدادِ المؤلّفات الأكثر اتّصافًا بالمهارة عند ميريميه الذي استطاع أن يبلغ الأصالة الأدبيّة الكاملة ، من خلالِ اقتباسهِ للّونِ المحليّ عند ميكييڤيتش ، والجوّ الغرائبيّ عند هوفمان ، والتحليل عند إدغار پو .

فـيديـــريغـو

صدرت «فيديريغو» في مجلة باريس، بتاريخ ١٥ تشرين الثاني ١٨٢٩؛ فلقد أدْرَجها ميريميه في «فسيفساء» عام ١٨٣٣، وأبعدَها عنها، بدءاً من الطّبعة الثانية في عام ١٨٤٢، ولم تظهرْ للقراء ثانيةً إلاّ عام ١٨٧٣، في «القصص الأخيرة»، وفي غضون ذلك، كانت لوبيرات (القرصان)، بدءاً من ٢٢ تشرين الثاني ١٨٢٩، «والتقويم المهدى إلى النساء البلجيكيات» عام ١٨٣٠، و«الحوليّات الرّومانسية» عام ١٨٣٢ كانت قد وجدتها، والحقُّ يُقال، غنيمةً قانونية.

فلماذا جعلها ميريميه تختفي من «فسيفساء»، ولم يُعد طباعتَهَا بعد ذلك، في مجلّداته المركّبة، مجلّدات مكتبة شاربانتييه، أو في كتابه: «قصص لعام ١٨٥٢» فهل كان قليلَ الرّضى عنها، كَما افترضَ البعضُ؟ لابدّ أن تشدُّده كان مفرطاً في ذلك الحين: إن فيديريغو بالتأكيد، هي عملٌ ضحلٌ، ولكنه مفعمٌ بالمكرِ والظُّرف. إنّها حكايةٌ عجيبةٌ. ولم يكن لها مكانٌ في «القصص». أما عن العجيبِ، فقد ظنَّ ميريميه ربما أن الطّابع العجيب في «رؤيا شارل الحادي عشر» كافٍ في مجموعةِ «فسيفساء، ومع ذلك، فخلافاً «للرؤيا»)وكذلك خلافاً «لفخّ الفئرانِ لهاميلن»، وفي «الوقائع»)، فإن فيديريغو تنتمي إلى العجيب المرح.

إنها، إجمالاً، رواية أخرى لقصة «شجرةِ إجاص الرّجل الطّيب بؤس» لشامفلوري، وحكايةٌ من حكاياتِ السّهرات التي لم نجدْ مصدرَهَا، وهي مؤلفة بلاشكّ من عناصرَ ملفقّة تلفيقاً (وملاحظة ميريميه الاستهلالية تبعثُ على الارتياب)، وهي مرويّة بلهجة تنمُّ عن طيبة قلب، لهجةٍ رصينةٍ وساخرةٍ في آن بحيث أنه قد يكونُ من الحمقِ حقّاً ألا يبتسمَ المرءُ فيها، حين يرى أن يسوعَ المسيح يتعرّض لمخادعةِ فيديريغو الماكر.

دجـومـانـا

نُشرت «دجومانا» للمرّة الأولى في صحيفة المونيتور أونيڤرسيل[1]، في أيام ٩ و١٠ و١٢ كانون الثاني لعام ١٨٧٣، اعتماداً على المخطوطة المكتوبة بيد المؤلِّف والتي قدّمها ميريميه لبول دالوز الذي كان يُدير آنذاك تلك الصحيفة؛ فهل كانت مجرَّدَ هديّةٍ بين أصدقاء، أم كانت كي ينشرها دالوز؟ ولسوف نلاحظُ فقط أن إسهامَ ميريميه في «المونيتور» ينحصرُ في دراسات وتحليلات.

ولئن كانت مراسلات المؤلِّف تقدِّمُ لنا معلوماتٍ غزيرةً عن تأليف «الغرفة الزرقاء» و«لوكيس»؛ فهي لاتقولُ شيئًا عن «دجومانا»، ويمكننا، على أبعد تقدير أن نستدلّ من رسالةٍ مؤرخة في ٢ أيلول لعام ١٨٦٨، وموجّهة إلى المجهولة، أن «دجومانا» قد بُدئ بها، في الشهرِ السابق، في فونتينبلو، وأُنجزت في باريس.

لا فائدةَ فعلاً أن نستحضر بصدد هذه القصة مقاطع من الرسائل التي يتكلم فيها عن الجزائر، وعن الرّحلة التي كان يخطّطُ للشروع بها منذ زمنٍ طويل، عام ١٨٤٧، والتي لم تحدُثْ، فإذا كان لابدّ من مصادر بأيٍّ ثمنٍ، فلنذكرْ أنه قد بدا متعطّشًا في عام ١٨٥٩ لقراءة كُتُبِ الجنرال دوما (Daumas) التي كانت لزمنٍ طويلٍ تقليديةً، ومثيرةً دومًا للاهتمام. ولابدّ أنه قد صادفَ، أثناءَ قراءته للكتب: «منطقةَ القبائلِ الكبرى» و«خيول الصّحراء»، و«الصّحراء الكبرى»، لابدّ أنه قد صادف هذه السِّمةَ أو تلك من سمات دجومانا.

لقد عُرِفَت تلك القصّة غيرُ المتماسكة بأنها قلّما يسهلُ فهمُها، عندما عَرَضَ السّيد راوول روس عنها تفسيراً فرويديًا مفعمًا إلى حدٍّ كافٍ بالجاذبيّة في عام

(١) المرشد الشامل. (م: ز.ع).

١٨٢٨ ؛ ففي رأيه، أرادَ ميريميه أن يقدّم «عرضًا» لُحلْم راوده حقيقةً، فحرّفه تحريفًا بسيطًا، في مواضعَ مختلفةٍ من قصتّه. ومن جهةٍ أخرى، فقد كان أصلُ ذلك الحلم، الذي كان بلا علمٍ من ميريميه، أغلب الظّن، هو في تلك الرّغبة التي كان يشعرُ بها، بصورةٍ عرضيةٍ ولاشكّ، نحو فتاة يهودية. إن تعبيرَ، «بصورة عرضيّة»... يتعارض مع كلمة... حالم. غير أن التّحليل الحُلْمي المعمّق الذي يقدّمه السّيّد روش لاينبغي أن يُزدرى.

وفي وقت أقرب، في عام ١٩٤٩، رأى السّيد ريمون شميتلين في «دجومانا» تحديداً ماهراً لحدودِ موضوعٍ شعبيّ ذي أصلٍ شماليّ، هو ابن الدّب الذي سيكونُ نقطةَ انطلاق «لوكيس»، وهي القصةُ التي يمكنُ لميريميه أن يكون قد احتفَظَ بعددٍ من «زخارفها» من أجل «دجومانا»؛ فما فائدة الاعتراض بأن لوكيس قد كتُبت لاشكّ بعد «دجومانا»، إذا كانت هذه الفرضيّةُ المعقولةُ جداً ترتكزُ على الرّسالة نفسها التي يُعلن فيها ميريميه أنه قد حمَلَ القصّتين في ذهنه معًا؟ يمكنُنا حينذاك أن نسلّم بأنه قد وفّر، في الواقع، الإمكاناتِ التي كانت تقدّمها له الأسطورةُ الشّمالية، بحيث أنه قد استخدم في «دجومانا»، الصّراعَ مع الخصم، الذي لايمكن لأيّ شخصٍ أن يقهره، والسّقوطَ في الصّدعِ العميق، والمغارةَ التي في باطنِ الأرض، والفتاةَ السجينة، والمسخَ الأفعى»...

بعد أن صنّفَ ميريميه «دجومانا» في عداد «القصصِ الأخيرة»، أعاد نشرَها في شهرِ شباط ١٨٩٣، في الملحق الإضافي الموضّح للصّحيفة الصّغيرة (لوبّوتي جورنال).

رسائل من إسبانيا

سوف يعذُرنا القارئُ، أو بالأحرى، سيكون ممتنًا لنا، لأننا برغم التّسلسلِ التاريخيّ، قد قرّبنا من «كارمن» «الرسائلَ الثلاث» المرسلة من إسبانيا إلى مدير «مجلة باريس»، وهي الرسائلُ التي صنّفها ميريميه في مجموعة «فسيفساء» بدءاً من عام ١٨٣٣، كما صنّف تلك الرسالة التي لم تعْد إلى الصّدور إلاّ في عام ١٨٧٣، في مجموعة «القصص الجديدة» ومن غير أن يصلَ بنا الأمرُ بالتأكيد، إلى القول أن تلك الرّسائلَ تبشرُ مسبقًا بالعملِ الأدبي الرائعِ المؤرّخ في عام ١٨٤٥، فهي تتكشّفُ عن بعضِ النّقاطِ التي تشتركُ فيها مع ذلك العملِ الرائع، وهي نقاطٌ ليست عديمةَ الأهمية بالنسبة لدراسةِ الإبداعِ الأدبيّ.

لقد تحدّدت معالمُ إسبانيا ميريميه بدءاً من عام ١٨٣٠، والأسفار التي سيقومُ بها فيما بعد في شبهِ الجزيرة ستتُيحُ له فقط أن يُدخِل لمساتِه على الصّورةِ التي كان قد رواها عنها في البَداية، ولكي يُبقَيها صالحةً تقريبًا.

فهل أُرسلت رسائلُ «مجلة باريس» حقيقةً من مدريد، ومن ڤالنسيا إلى الدكتور ڤيرون؟ إن المرءَ لايجدُ تعليلاً جيّدًا للمراحلِ الزّمنية المنقضية بين تاريخِ رسالتين على الأقل من تلك الرسائل، وتاريخِ نشرها. ومن المحتمل إلى حدٍّ كبيرٍ جداً أن يكونَ ميريميه قد وَضَع ملاحظاتِه بشكلٍ متسلسلٍ، وصاغها على شكلٍ ترسُّليّ، عند عودته إلى باريس. إن ذلك «التحقيق» الصّحيح بالشكلِ الشّديد الحيوية الذي يُقدَّم فيه عبارةٌ عن خداع.

لقد صدرت «معاركُ مصارعة الثيران» (الرّسالة الأولى، والمؤرخة من مدريد في ٢٥ تشرين الأول ١٨٣٠ صدرت في صحيفة باريس بتاريخ ٢ كانون الثاني١٨٣١، وقد أضاف ميريميه إليها، في الطبعة الثانية لـ«فسيفساء» (١٨٤٢)

تذييلاً. وقبل دوما الذي سيسخر كثيراً من عدم كفاءته في فنّ مصارعة الثيران. وقبل غوتييه، كَشَف ميريميه للفرنسيين، وبألوانٍ فاقعةٍ جداً، جانباً شديد الخصوصية من الطّباع الإسبانية.

ونصادف في رسائله إلى السّيدة دو مونتيجو، تأكيداتٍ عديدة على صدق حماسته لاستعراضات الحلبة.

أمّا «تنفيذ الإعدام» (الرّسالة الثانية) والمؤرّخة في ڤالنسيا، في ١٥ تشرين الثاني لعام ١٨٣٠، فقد نُشرت في «مجلّة باريس» بتاريخ ٣١ آذار ١٨٣١، وقد كَتَب ميريميه إلى جيني داكان، في بداية شهر آب لعام ١٨٣٢: «في إسبانيا، كان لديّ أصدقاء بين البغّالين، ومصارعي الثّيران، وقد أكلت غير مرّةٍ من القصعة مع أناسٍ لا يمكن للانكليزي أن ينظر إليهم، مخافة أن يفقد الاحترام الذي يُبديه لعينه ذاتها. وحتى أنني شربت من القربة نفسها التي يَشرب منها سجينٌ في سجن الأشغال الشاقة. ولابدّ أن أقول كذلك إنه لم يكن هناك إلاّ تلك القربة، وإنه لابدّ للمرء أن يشرب حين يكون ظمآن.». وفي «تنفيذ الإعدام»، حين يلتقي ميريميه محكوماً بالشغل «يشرب وإياه» من الزجاجة نفسها، لأنه «لم يتوفّر قدحٌ في المناطق المجاورة، وعلى مسافة فرسخٍ من ذلك المكان.»، فلماذا، زجاجةٌ هنا، وقربةٌ هناك (والتي تعطي «اللون المحلي» هنا على نحوٍ أفضل)؟ وعلى كلّ حال، فالتفصيل الذي يوحي بشيء ما ليس تفصيلاً مبتكراً.

أما «اللصّوص»، (الرّسالة الثالثة)، المؤرخة في مدريد، في شهر تشرين الثاني لعام ١٨٣٠، والتي تغتني بحاشيةٍ كتبت عام ١٨٤٢، فقد صدرت في «مجلّة باريس» بتاريخ ٢٦ آب ١٨٣٢.

أما «السّاحرات الإسبانيات» المؤرخة في ڤالنسيا في ١٨٣٠، من غير تدقيقٍ آخر، ومع مساحةٍ بيضاء تبقى مُلغزةً قليلاً، فقد صدرت متأخّرة في «مجلّة باريس» بتاريخ ٢٩ كانون الأول ١٨٣٣، ولم يعد هناك وقتٌ لإدخالها في «فسيفساء» حيث كان من المفروض منطقيّاً أن تأخذ مكانها كرسالةٍ رابعة من إسبانيا. وهذا دليلٌ

إضافيٌّ على أنّها لم تكنْ قد صيغت بعدُ في حزيران. عندما صدرَت «فسيفساء» حيث كان من المفروض منطقياً أن تأخذَ مكانَها كرسالةٍ رابعةٍ من إسبانيا. ولكن، لماذا لم يضمّها ميريميه إلى الطّبعة الثّانية في عام ١٨٤٢، ولماذا لم نجدْها في المجلدِ الذي صدرَ بعد وفاةِ المؤلّف، والمتنافر جداً، مجلّد «القصص الأخيرة».

إن هؤلاء «الساحرات» لسن أقلّ إثارةً للاهتمام. ولم يُرحَّب بهنّ ترحيباً أقلّ حرارة مما رُحِّبَ برسائلِ إسبانيا الثّلاث الأولى. إن الغجريةَ الصغيرةَ، غجريةَ المناطق المجاورة لمورڤييدو، والمسمّاة كارمنسيتا التي هي «فتاةٌ على حظٍّ كبيرٍ من الجمال، وليست شديدةَ السُّمرة» لابدّ أنها قد لعبت دوراً في إبداعِ شخصيةِ كارمن، وشخصيّة جوان كول «التي أثارت ضجةً كبيرة قديماً في جوارِ تورتوز»، ألم تعطِ اسمها لجوان كول المسكين الذي تكسرُ ساقَه ڤينوس ديل؟

قد يكون هناك، عند الاقتضاء، رسالةٌ خامسة من إسبانيا، وهذه الرّسالة موجَهةٌ إلى مدير الصحيفة «الفنّان» L'Artiste الذي نَشَرَها في آذار ١٨٣١، إلاّ أن تلك الزّيارة إلى «متحف مدريد» السّريعة والسّطحية، قد أصبحت رسالةً لاقيمةَ لها تقريباً؛ فلم يهتمّ ميريميه، ولاناشرو «القصص الأخيرة، بأن يدافعوا عنها ضدّ النسيان.

وأخيراً، فقد تكون هناك «رسالةُ غرناطة» - ولكنها قد لا تكونُ في عدادِ ماألفناه، لأنها رسالةٌ خاصةٌ، والقارئ المحبُّ للاطلاع سيجدها في «المراسلات» - وهي مؤرخةٌ في الثامن من تشرين الأول ١٨٣٠، وموجهةٌ إلى صوفيا دو ڤوسيل. إننا لانؤكد أنها تقدم الفائدة أو القيمةَ الأدبية التي تقدمها رسائل إسبانيا الأخرى، ولكنها أكثر الرسائل إمتاعاً، من حيث عفويتها، وإيقاعها غيرُ المترابط.

- روندينو -

صدرت «روندينو» في صحيفة لو ناسيونال (الوطني) بتاريخ ١٩ شباط ١٨٣٠، مسبوقةً بالملاحظة التالية: «إنَ أحدَ المسافرين ينقلُ إلينا التفاصيلَ التاليةَ التي جمعها أثناءَ مروره بتورين، وذلك عن قاطعِ طريقٍ شهير، تمَّ إعدامه، منذ ثلاثة أشهر تقريباً».

إن هذه الصفحاتِ المغفلةِ من الاسم هي لميريميه، وليس لدينا أيُّ مبررٍ كي نشككَ بما خطه تيير بيده عن نسبتها إلى ميريميه، وذلك على هامش أحدِ نماذجِ صحيفة (لو ناسيونال). وفوق ذلك، فستندال يؤكدُ ذلك، في رسالةٍ مؤرخةٍ في ٧ آذار ١٨٣٠ إلى صوفيا دوفوسيل.

إن هذه الحكاية الصغيرةَ ليست عديمةَ النكهة، ونجدُ فيها قاطعَ الطريق، القريبَ إلى القلب، واللصُّ الطيبُ الذي رسم ميريميه له صوراً أكثرَ إتقاناً، ولاشكّ أن ما تحتويه هذه المسودةُ من نواقص هو الذي اقتضى ألاّ يضمَّها المؤلفُ إلى: «فسيفساء».

- هـ. ب -

«هـ. ب» ليست سيرةً سفيهةً، على طريقة «رحلة إلى مونبار» التي يتهكمُ فيها هيرو دو سيشيل على بوفون تهكُّمًا رائعًا. وليست زيادةً على ذلك، «مقابلة» يساءُ استخدامها، هذا إذا لم تكن خياليةً، من مثل «ثمانية أيام في منزل السيد رينان»، تلك الفراهة الحادة بعضَ الشيء للشاب موريس باريس. إن «هـ. ب» هي، بالأحرى عبارة عن تأبينٍ ساخر، طابعهُ المستهجنُ (أو بذاءاتهُ، وهذا هو الشيءُ نفسه) لا يمكن أن يكون قد فات ميريميه. إن «هـ. ب» هو هنري بيل المعروف بستندال، والذي كان، بالنسبة لميريميه الأصغر منه بعشرين عامًا، معلمًا في نزعة الشك، ومعلمًا أيضًا في فنِ العيش. وكان من المفروض أن تظهر هذه الدراسةُ المصغرة عن ستندال متناقضة، على نحوٍ مضاعف، لأنها من تأليف صديقٍ لستندال، ولأن هذا الصديق قد ارتأى فجأةً أن يكتبَ «مديحًا» غير مألوفٍ إلى درجةٍ كبيرةٍ، بعد وفاة بطله بثمانية أعوام... والحقيقةُ، أن الكراسةَ المغفلةً من الاسم، زيادةً على ذلك، والتي خرجت من مطابع ديدو في خريف عام ١٨٥٠، لم تكن تحمل كعنوانٍ لها إلاّ الحرفين الابتدائيين «هـ» و «ب» وكانت طبعتها محدودةً بـ ٢٥ نسخة. وكانت قد وضعت فراغاتٌ محلَّ كافة أسماء الأعلام، وكأن ذلك قد كان للتأكيد على أن تلك النسخَ مخصصةٌ للمطلعينَ على الأمور وحدهم. وقد أهدى ميريميه بحذرٍ كافٍ خمسَ عشرةَ نسخةً، فلجأ حائزان محظوظان على نسخٍ منها إلى رسائل تكافيءُ الدولُ المتمدنةُ عليها بسجنِ الأشغال الشاقة.

وإذ سئم ميريميه، بلا شك من مضايقات الحمقى، فقد قام بحرق الباقي من النسخ، وذلك لأن تلك «التسرُّبات» كانت قد أمنت انتشاراً مؤسفًا، مع أنه متوقعٌ لتلك الكراسة «المخصصة فقط لإحياء ذكرى بيل في ذهنِ بعضِ أصدقائه القدامى». هكذا يتكلم أحدهم. وقد كان أيضًا صديقًا لميريميه، وهو الذي، بعد أن سوغ ذلك التوزيعَ السري بالحكايات الماجنة إلى حدّ ليس قليلاً عن الله -

الأب، وعن يسوع المسيح إلخ. . . » يضيفُ: «إنها حكاياتٌ من طبيعتها أنها ترعبُ الضعفاء، (وهذا صحيحٌ، ولكنها ترفعُ ذلك الذي يكتبها إلى مرتبة فكرٍ متحرر، وينشرُ الجمهوري جداً أوجين بيلوتان في دورية «لابريس» (الصحافة)، بتاريخ ٢٩ كانون الأول ١٨٥٠ إداناته العلمانية، غير أن الأكثر ضراوةً هو المتشدقُ بالفضيلة مكسيم دوكان والذي يكتبُ في مقدمة أغاني(ـه) الحديثة (١٨٥٥) إن آخرين قد فعلوا أكثر من ذلك أيضاً. . . وكان لديهم أصدقاء، وعندما مات هؤلاء الأصدقاء، كتبوا، تحت ذريعة تمجيد ذكراهم، أحجياتٍ سافلةً لم يجرؤوا حتى على توقيعها، وكانوا قد التقطوها بلا شك من قصاصاتٍ مخطوطات المركيز دوساد. وهم، حين يتصرفون على هذا النحو، وحين يراكمون الفظاعات فوق الفظاعات، ويبصقون على كلّ شيء، ويفترون على كل شيء. . . ويغتابون كلَّ ماهو مقدسٌ في العالم، هم أولئك الرجالُ الرصينون الرجال الخالدون، يكونون قد ارتكبوا جريمةَ قدحٍ بالذات الملكية، جريمةً أدبيةً، ولا ينبغي قطّ أن ننساها». ولسوف نلاحظُ أنه إذا كان ميريميه لايجرؤ حتى على توقيع هجائه الشائن»، ودو كان، في هذا النقد اللاذع، لايسمي أيضاً ميريميه الذي لاينفلت ضده على هذا النحو ربما إلاّ لأن مؤلفَ «هـ. ب» كان قد سمحَ لنفسه بأن يسبقه، أي أن يسبق دوكان إلى عطف ڤالنتين ديلير. إن دو كان الذي كان كاتباً أخلاقياً هجومياً أيضاً عند نهاية حياته، وذلك في ذكريات(ـه) الأدبية (١٨٨٢) سوف يطعنُ على دراسة «هـ. ب». بعدّها «كراسةً فاجرةً بدرجة ليست قليلة».

أما ميريميه فقد كان نبيهاً أكثر، وحين كان يتعرضُ للهجوم والمضايقة والسؤال، كان ينكرُ تلك الصفحات الشائنةَ بدعابة، إذ يقول: «لم أكتب قطّ شيئاً عن بيل غير مقدمة مؤلفاته الكاملة. وهناك أناسٌ سيئو النوايا تجاهي، وينسبون تلك الكراسةَ إلي. . . إنها كراسةٌ منافيةٌ للأخلاق، وهذا ما يثبتُ لكم أنها ليست لي» (رسالة إلى ر. مونكتون ميلين، في ٢١ أيار ١٨٦٢). وثمة مسألةٌ فرعيةٌ صغيرةٌ هي التالية: هل قيض لميريميه أن يكون قد قرأ الرسالة التي يكتبُ فيها ڤولتير للطبيب الجُنيڤي ترونشان بصدد كانديد: «ربما إني أجدُ هذا المؤلف منافياً جداً لقرارات السوربون، وفتاوى البابا، وأؤكد إني لم أُسهم فيها بأيٍّ إسهام».

إن نجاحَ حبٍّ الاطلاع على «هـ. ب» والذي لم تضر به بالتأكيد الطبعاتُ المتعددةُ السريةُ (والتي ظلّ ميريميه، بطبيعة الحال، بعيدًا عنها) وخصوصًا تلك الطبعة التي زيّنها بوليه - مالاسيس، برسمٍ مواجهٍ للعنوان «مذهلٍ» (هكذا يتكلم العنوانُ، وهو لايكذبُ) وهو رسمٌ من تنفيذ فيلسيانَ روبس (في عام ١٨٦٤). إن هذا النجاحَ يستمرُّ طويلاً أيضًا، والناشرون الَذين يستترون تحت عناوينَ مزيفةٍ من مثل: إيلوتير وبوليس، وسان ريمو، وكالكوتا، وفي عام ١٩٠٨، أدرجَ بولو ليوتور هـ. ب بشجاعةٍ، بين أجملِ صفحات ستندال في المجموعة الشهيرة، ميركور دو فرانس، وثمةَ آخرون قدَ أعادوا طبعها (على نحوٍ دقيق تقريبًا) بعد ذلك، من غير أن تتأثر طمأنينةُ نفوسهم بذلك.

ولكن ينبغي ألا ننخدعَ، وهذا ماتحثنا عليه رسالةُ ميريميه إلى مونكتون ميلن، وألاّ نخلط بـ «هـ. ب» الحقيقية، «هـ. ب» مزيفةً يعتمدها ميريميه نفسه والتي ستتخلصُ عام ١٨٥٥ من عقابِ كتابيٍّ لمقدمة لمراسلات ستندال (وليس كما يكتبُ سهوًا، مقدمة للمؤلفات الكاملة)، وذلكً بأن يخفف حدة «هـ. ب» ويرققها، تحت عنوان «ملاحظات وذكريات» إن تلك الـ «هـ. ب» هي التي تمّ إدراجها في مجلد، «صور تاريخية وأدبيّة» والذي صدرَ بعد وفاة ميريميه، وإنما نصّ عام ١٨٥٠ الذي يجب أن نقرأه ونتأملَ فيه. كان راشيل علىَ خطأ حين قال، بعد أن قدّم له أحدُ المعجبين نصًّا لـ «هـ. ب»: «أهذا كلُّ شيء؟ لقد قرأتُ نصوصًا كثيرة مثله عند ڤولتير». وحين عرضَ عليه أن يستبدلَ بكراسته كيسًا من الكستناء المثلج. إن التفسيرات والتعليقات التي أوحت بها « هـ. ب» إلى شخصٍ مثل فرانسوا ميشيل: «أحرفُ اسمِ القنصلَ بيل الأولى ووزيران وقنصل»، والتي أوحت بها إلى كاتبٍ هو جان دوتور (الروح الحساسة، مع تفسيرٍ تخمينيّ جميلٍ جدًّا لكلمة مورات) هيَ مثالٌ جيدٌ لما يمكن لعقول أصيلة تحسنُ «القراءةَ» أن تجده من أمورٍ موحيةٍ في تلك الكراسة المشبعة بالحكاياتِ الصغيرة الشديدة الجفاف، والتي لاتكشفُ عن ميريميه الحقيقي أقلَّ مما تكشفُ عَن ستندال الحقيقي.

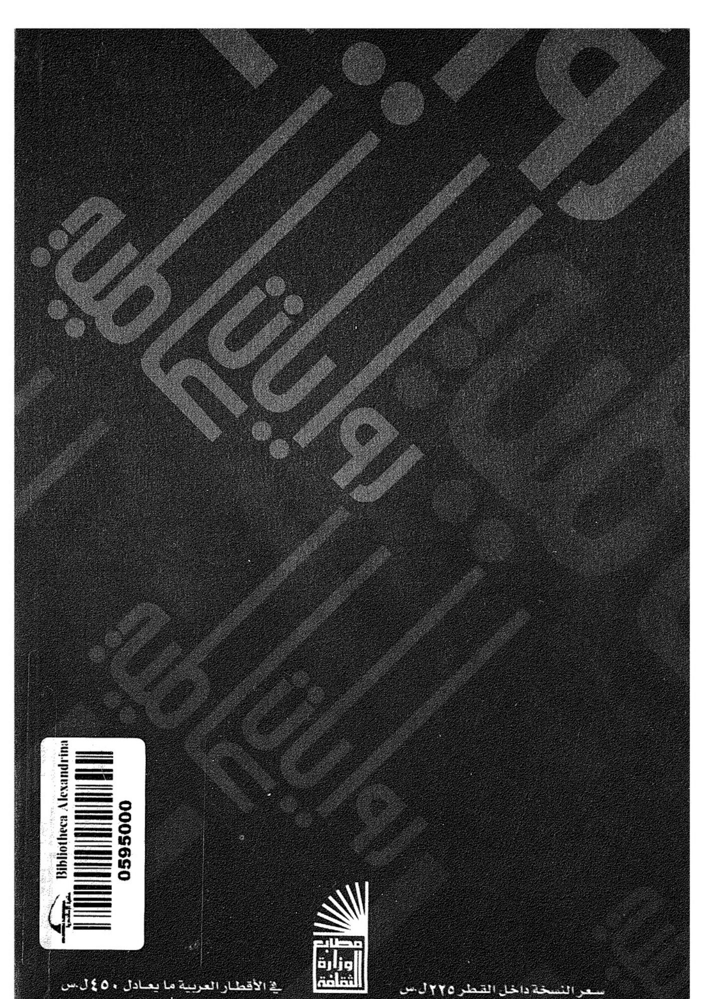
نهاية المجلد الثاني والأخير

الفهرس

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٢

عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة


Bibliotheca Alexandrina
0595000
مطابع
وزارة
الثقافة
سعر النسخة داخل القطر ٢٢٥ ل.س
في الأقطار العربية ما يعادل ٤٥٠ ل.س